مختصر
منهاج القاصدين
تأليف
الإمام أحمد بن محمد بن عبد الرحمن
ابن قدامة المقدسي
تحقيق
زهير الشاويش
المكتب الإسلامي

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

فهذه الطبعة التاسعة[1] من كتاب «**مختصر منهاج القاصدين**»، نقدمها للقارئ الكريم، راجين الله سبحانه أن ينفع بها كما نفع في طبعاتنا السابقة، آملين أن يدّخر الله لنا الأجر والثواب ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]، ولا ينفع الإنسان إلا ما قدّم من عمل صالح ونية خالصة ليقبله الله؛ فإنه سبحانه لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً صادقاً لا غش فيه ولا تدليس ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء].

---

(١) معلنين أسفنا لوجود الطبعات الكثيرة التي اعتمدت على طبعاتنا دون أي إشارة لما نقلته عنّا؛ مع أن في مخطوطات التراث الألوف مما يحتاجه الناس، لينصرف إلى تحقيقه وطبعه من يريد النفع للعباد.

وإن هٰذا الكتاب من مجموعة كتب تناولتها الأيدي في الوعظ والإرشاد، مستمدة من كتاب سبق للشيخ أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المَكِّيّ «**قوت القلوب**» الذي ٱعتمده العلامة الإمام الغزالي[1] أصلاً لكتابه «**إحياء علوم الدين**» ويعد من أكثر الكتب ٱنتشاراً وتأثيراً، وقَدِ ٱنصرف إلىٰ ٱختصاره عشرات من العلماء، وشرحه العلاّمة الزَّبيديُّ: في موسوعته الكبيرة «**شرح الإحياء**»، وخدمه بتخريج أحاديثه العلاّمة المحدِّث الحافظ العراقي، واستدرك الحافظ ابن حجر العسقلاني ما فات شيخه العراقي، ثم صنّف الشيخ قاسم بن قُطْلُوبُغا كتاباً سماه: «**تحفة الأحياء فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء**».

وما زالتِ المختصرات تَتْرَىٰ منذ الاَختصار الأول للشيخ أحمد بن محمد الغزالي أخي مؤلف «الإحياء» حتىٰ يومنا هٰذا، وعرفت منها:

مختصر محمد بن علي العجلوني، ومختصر محمد بن سعيد اليمني، ومختصر أحمد بن موسى المَوْصِليّ، ومختصر الإمام السيوطي، و«عين العلم» الذي شرحه مُلاّ علي القاري[2].

ومن آخر هٰذه المختصرات «**تهذيب الأخلاق**» للعلاّمة عبد الحيّ بن فخر الدين النَّدْويّ (١٢٨٦-١٣٤١هـ) والد شيخنا العلاّمة أبي الحسن؛ عليٍّ الحَسَنيِّ النَّدْويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٣٢-١٤٢٠هـ) الذي طبعته للمرة الأولى في المكتب الإسلامي.

وكذلك من أحسنها: ٱختصار شيخ مشايخنا علاّمة الشام جمال الدين القاسِميِّ[3].

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، انظر «الأعلام» ٧/ ٢٢ الطبعة السادسة.

(٢) «كشف الظنون» ١/ ٢٣ و٢/ ١١٨٢.

(٣) هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (١٢٨٣-١٣٣٢هـ).

وقد حققه أخي العالم الفاضل الأستاذ عاصم ـ حفظه الله ـ ابن أستاذنا الشيخ محمد بهجة بن بهاء الدين البَيْطار (١٣١١-١٣٩٦هـ).

وقد اختصره الإمام عبد الرحمن ابن الجَوْزي في كتاب سمَّاه «**منهاج القاصدين**»؛ والإمام ابن الجوزي عالم حنبلي مشارك في كثير من العلوم[١] التي كان يتقنها الغزالي، وزاد عليه: عِلْمَهُ بالحديث النبوي سنداً ومتناً، لذلك أبدل الكثير من أحاديثه الضعيفة والموضوعة بالأحاديث الصحيحة والحسنة، ثم جاء ابن قدامة فاختصر «منهاج القاصدين» اختصاراً قيِّماً مفيداً، وهو هذا الذي بين يديك.

وقد أضفتُ ـ إلى الأصول التي سبق ويسَّرها الله لي ـ أصلاً مخطوطاً عثرتُ عليه حديثاً، أفاد في إصلاح بعض ما كان أشكل علينا في طبعاتنا السابقة.

وقد أضفت عليه في هذه الطبعة تعليقات موجزة، زيادة على تعليقاتنا السابقة، لتُعين القارئ الكريم، وأحلْتُ بعض أحاديثه مجدداً إلى طبعات صدرت مؤخراً وإلى تخريجات أستاذي المحدّث الشيخ محمد ناصر الدين الألبانيّ رحمه الله (١٣٣٢-١٤٢٠هـ) في كتبه ـ ما أمكن ذلك ـ بتصرف يسير.

وإنك ـ يا أخي ـ ستجد في ذلك: أهمية المنهج العلمي الذي سار عليه أستاذنا الألباني رحمه الله، ويسَّر الله لنا إعانته عليه في المكتب الإسلامي؛ بتقديم السنة الشريفة ميسرة لكل مُطَّلِع، مقسمة إلى قسمين؛

الأول: الصحيح والحسن،

والثاني: الضعيف والموضوع[٢].

وبقي في الكتاب مع ذلك هَنات؛ لا يخلو منها كتاب، ومخالفات؛ سببها الغُلُوُّ في بعض الموضوعات.

وعلى كلٍّ؛ فالكتاب نافع إن شاء الله.

---

(١) ومنها كتابه العظيم «زاد المسير في علم التفسير»: طُبع في المكتب الإسلامي بتحقيقي ومشاركة الأستاذين الفاضلين عبد القادر، وشعيب الأرناؤوط.

(٢) كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، و «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، و«صحيح الجامع الصغير»، و«ضعيف الجامع الصغير»، و«صحيح الترغيب والترهيب»، و«صحيح الكلم الطيب»؛ وكلها طبع المكتب الإسلامي.

ومؤلف هذا المختصر هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر محمد ابن قدامة كما جاء في الأصول المخطوطة للكتاب.

والذي يغلب على الظن أن (بن محمد) مقحمة. فإن كان هذا الظن صحيحاً، فإنه معروف ومشهور، وله ترجمة في العديد من الكتب. وإليك ما قال ابن رجب الحنبلي عنه في «الذيل على طبقات الحنابلة» باختصار إذ قال:

٤٣٠ - أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، الصالحي، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، شمس الدين أبي محمد، ابن الشيخ أبي عمر، وقد سبق ذكر أبيه وجده.

ولد في شعبان سنة إحدى وخمسين وستمئة.

وسمع الحديث ولم يبلغ أوان الرواية، وتفقه على والده. وولي القضاء في حياة والده بإشارته.

قال البِرْزاليّ: كان خطيب الجبل، وقاضي القضاة، ومدرِّس أكثر المدارس وشيخ الحنابلة، وكان فقيهاً فاضلاً، سريع الحفظ، جيد الفهم، كثير المكارم شهماً شجاعاً، ولي القضاء ولم يبلغ ثلاثين سنة، فقام به أتم قيام.

وقال اليُونِيْنيّ: كانت له الخطابة بالجامع المُظَفَّريّ، والإمامة بحلقة الحنابلة بجامع دمشق، ونظر أوقاف الحنابلة. وكان مشكور السيرة في ولايته، وعنده معرفة بالأحكام، وفقه نفس، وفضيلة ومشاركة في كثير من العلوم من غير استقلال، وكان يركب الخيل، ويلبس السلاح، ويحضر الغزوات. وحج مراراً.

وقال غيره: ودرَّس بدار الحديث الأشرفية بالسفح، وشهد فتح طرابلس مع السلطان الملك المنصور. وكان شاباً مليحاً مهيباً، تام الشكل بديناً، ليس له من اللحية إلا شُعَيرات يسيرة، وكان مليح السيرة، ذكياً مليح الدروس، له قدرة على الحفظ، ومشاركة جيدة في العلوم، وله شعر جيد.

توفي يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمئة، بمنزله بقاسيون. وصلي عليه ضحوة يوم الأربعاء خارج جامع الجبل، وحضره

نائب السلطنة والأمراء والقضاة والأعيان، ودفن عند أبيه وجده، رحمهما الله تعالى، وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة. انتهى كلام ابن رجب.

قلنا: وهذا الذي استظهرناه هو اجتهاد، ولذلك **لم نغير اسم المؤلف لا على غلاف الكتاب ولا في المقدمة**.

أضف إلىٰ ذٰلك، أننا لم نجد في كل ما رجعنا إليه، من مَظانٍّ، مَنْ ذَكَرَ «مختصر منهاج القاصدين» هٰذا، له أو لغيره، وكذٰلك في مختصرات «الإحياء». فالتزمنا ما ذكر في المخطوطات، اتّباعاً منا للأصول العلمية.

وإنني أرجو الله سبحانه أن يجعلنا من الهداة المَهْدِيِّين، الحافظين لحدوده، المُقْتَفِين سنَّةَ رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

وآخر دعوانا ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس].

بيروت في ٤/ ٢/ ١٤٢١.

زهير الشاويش

مزعج بالضم كمحسن جمع مزعجات
ويقال أزعجه أقلقه من مكانه اهـ

الملاطفة الملاءمة اهـ

اللحاظ بالكسر ملاحظة العين اهـ

المغتاظ المغضب اهـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منبّه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الأيقاظ ومنزّه التائبين
من هفواتهم بملاطفات الوعاظ ومحدث العارفين في خلواتهم بأحلى
الكلمات والألفاظ محذر الزاهدين بأشرف شهواتهم تأذياً حتى فرقوا
عن الظاهرين اللحاظ قاموا الى محاربة النفوس قيام الليث الحرب
المغتاظ وحفظوا ما استحفظوا وإنما الحفظ للحفّاظ أحمده حمداً كثيراً فائت
العدّ دائم الألفاظ وأصلي وأسلم على نبيه محمد الذي أعجز الفصحاء بما جاء به
قسّاً قيس يوم عكاظ وعلى آله وأصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ
صلاة أتقي بها يوم البعث حر لظى والشواظ نارٍ وقودها الناس والحجارة
عليها ملائكة غلاظ قال مؤلفه عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي
رحمة الله تعالى عليه سميت كتابي هذا منهاج القاصدين ومفيد الصادقين
وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا به ومن قرأه أو سمعه أو نظر فيه وأن
يجعله خالصاً لوجهه وأن يختم لنا بخير ويوفقنا لما يرضيه من القول
والعمل والنية وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة
عين ولا إلى أحد من خلقه فإنه حسبنا ونعم الوكيل قال المصنف رحمه الله تعالى
بعد فراغه من الخطبة أما بعد فإني رأيتك أيها المريد الصادق والحازم
العازم قد وطنت نفسك على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة وعزمت
على الانقطاع الى الآخرة علماً منك أن مخالطة الخلق يوجب التخليط
وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط وإن لم تستدرك أدركك الفوت
وأن مراحل الأنفاس تسرع بالركب الى منزل الموت فنظرت أي أنيس
من

صورة من مخطوطة مكتبة زهير الشاويش الأولى (الأصل)

منهاج قاصدين : لابن الجوزي ووصـ

قال النبي عليه السلام سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل
وشاب نشأ في عبادة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه
حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل
ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال
فقال إني أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق فأخفاها حتى لا يعلم
شماله ما ينفق يمينه عماد
قال النبي عليه السلام إذا آذاكم البراغيث فخذوا قدحا من الماء واقرأ عليه سبع مرات
وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى
الله فليتوكل المتوكلون. إن كنتم آمنتم بالله فكفوا عنا شركم ثم رش الماء
حول على فراشك فإنك تبيت أيها البراغيث السود تلك الليل: آمنا من شر من البرغوث

إذا أراد أن لا يحتلم قال النبي عليه السلام من قرأ هذا الدعاء وقت النوم
لم يحتلم قطعاً اللهم إني أعوذ بك من الاحتلام وملاعبة الشيطان
في اليقظة والمنام
وفي الزندوسي إذا أراد أن يدفع الجراد من الزرع فليقرأ ثلث مرات أفرأيتم ما
تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ويشير كل مرة بإصبعه إلى الجراد
الأرض
إذا أراد شيئاً من الحاجات فاضم اسماً مناسباً من الأسماء الحسنى
لمراده إلى كلمة التوحيد وداوم عليه مع حضور القلب مثل أن يقول
لا إله إلا الله الرزاق في طلب الغنى لا إله إلا الله المنتقم في
طلب الانتقام وقس على هذا سائرها هذا مجرب صحيح لا شك فيها
مرزوق الجابر

صورة من مخطوطة مكتبة زهير الشاويش الأولى (الأصل)

دار الكرامة
بمنه وكرمه
امين
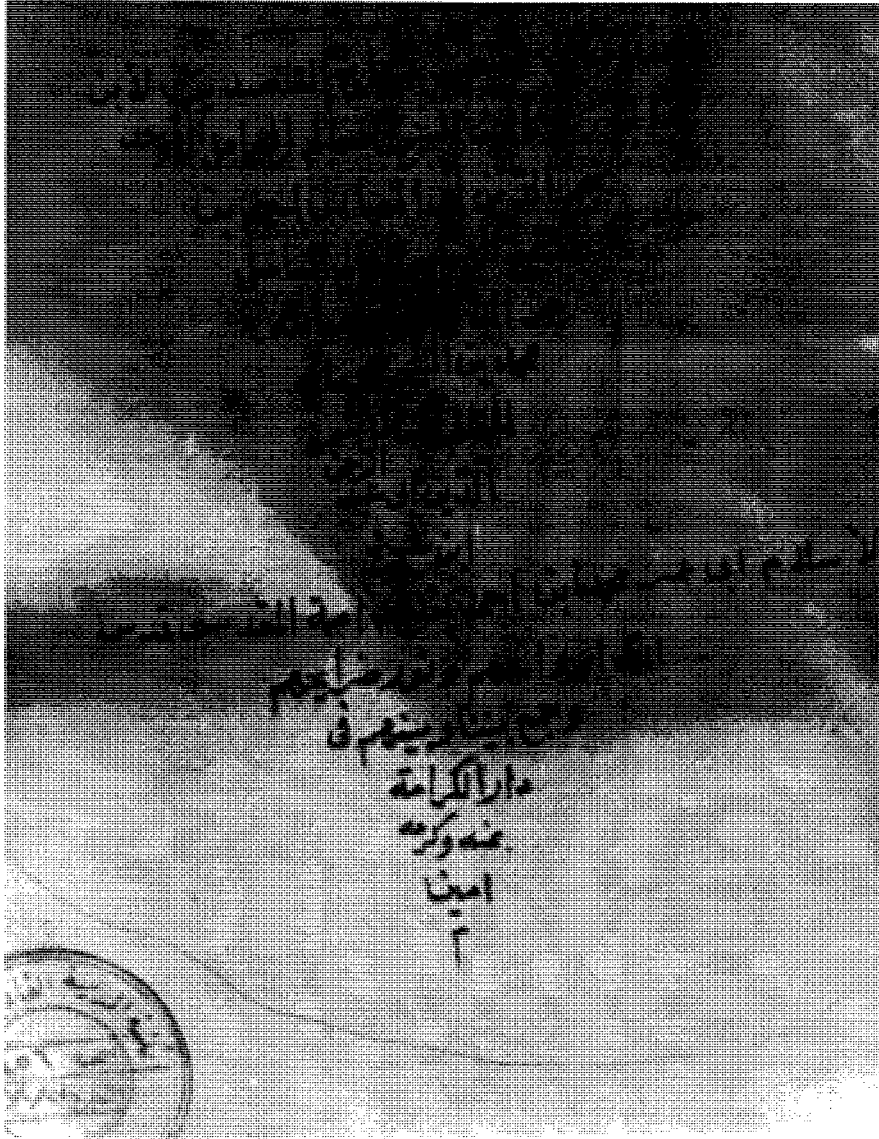
صورة من مخطوطة مكتبة المدرسة القادرية في بغداد
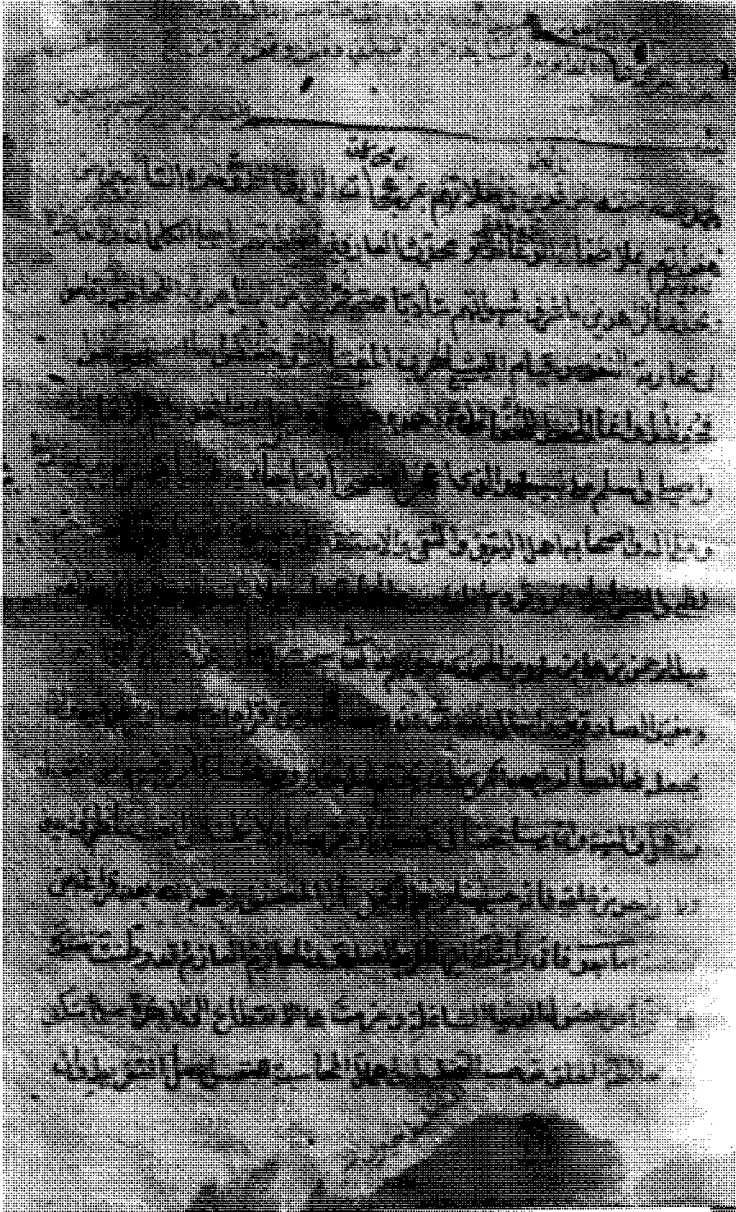
صورة من مخطوطة مكتبة زهير الشاويش الثانية (الملخص)
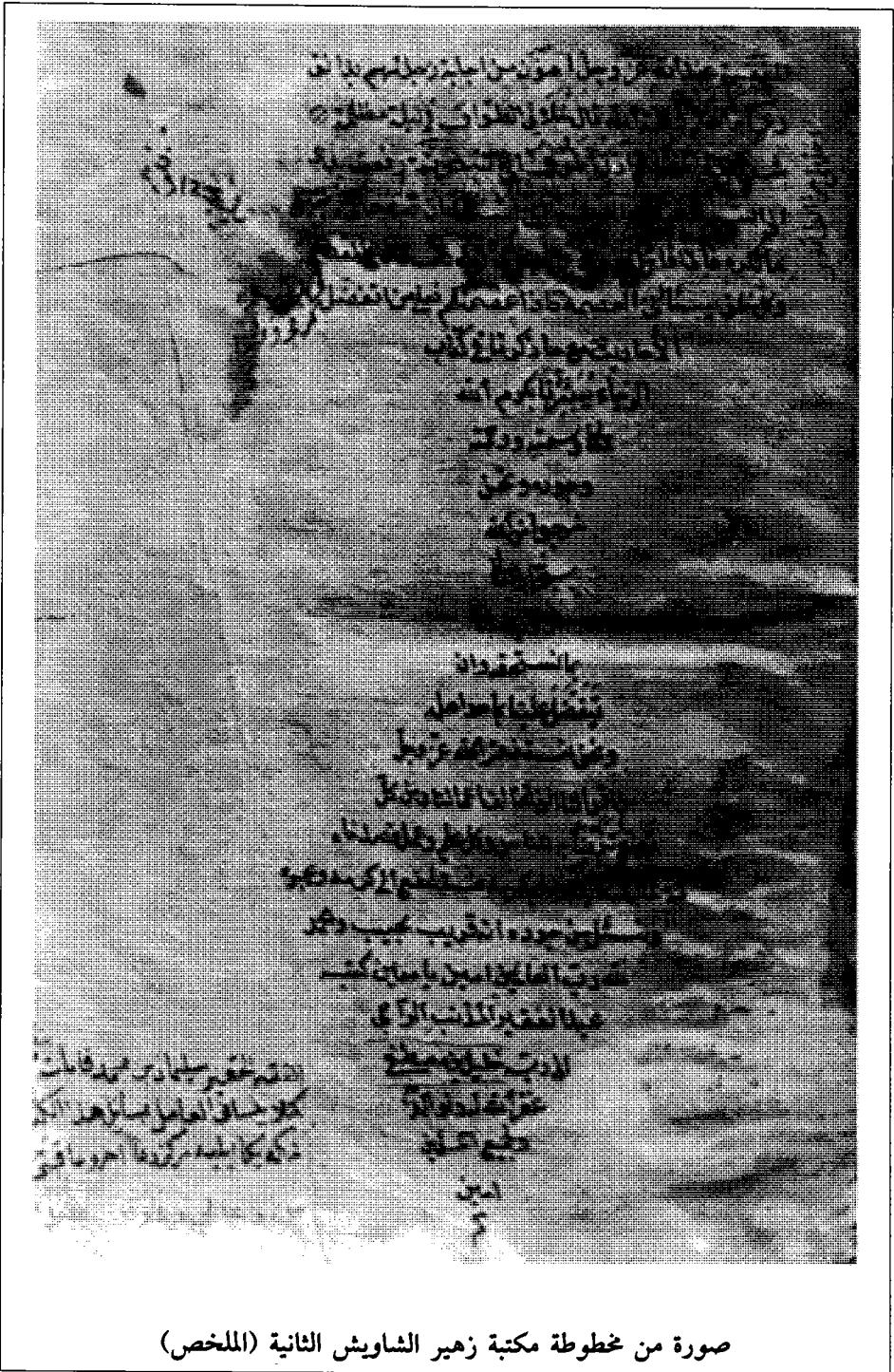
صورة من مخطوطة مكتبة زهير الشاويش الثانية (الملخص)

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الشيخ الإمام العالم العامل الأوحد، نجم الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلاّمة، عز الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلاّمة شيخ الإسلام مفتي الأنام، سيد العلماء والحكّام، شمس الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام العالم العامل العارف الزاهد الورع شيخ الإسلام، أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدامة، المقدسي الحنبلي رضي الله عنه[١].

الحمد لله الذي عمّ برحمته جميع العباد، وخصَّ أهل طاعته بالهداية إلىٰ سبيل الرشاد، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال؛ ففازوا ببلوغ المراد.

أحمده حَمْدَ مُعْتَرِفٍ بجزيل الإرفاد[٢]، وأعوذ به من وَبِيلِ الطردِ والإبعاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدّخرها ليوم المعاد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، موضح طريق الهدى والرشاد والسداد، قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد، صلىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الأكرمين الأجواد، صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد.

وَبَعْـد: فإني كنت وقفت مرة على كتاب: **«منهاج القاصدين ومفيد الصادقين»**

---

(١) جرت عادة العلماء أن يكتب مثل هذه المقدمة التلميذ المتلقي عنهم الكتاب أو الإجازة. ويكون ما بعدها هو كلام الشيخ.

(٢) الإرفاد: الإعطاء والإعانة.

للشيخ الإمام العالم الأوحد جمال الدين ابن الجوزيّ، رحمه الله تعالى، فرأيته من أَجَلِّ الكتب وأنفعها، وأجمعها وأكثرها فوائد، فحصل عندي بِمَوْقِعٍ، ورغبت في تحصيله ومطالعته. فلما تأملته ثانياً، وجدته فوق ما كان في نفسي، لٰكن رأيته كتاباً مبسوطاً، فأحببت أن أُعلِّق منه هٰذا المختصر الذي قَدِ ٱحتوىٰ علىٰ أكثر مقاصده، وأجلِّ مُهِمَّاتِه وفوائده، سوىٰ ما ذكر في أوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع، فإنها مشهورة في كتب الفقه المستفيضة بين الناس، إذْ كان المقصود من الكتاب غير ذٰلك.

ولم ألتزم فيه المحافظة علىٰ ترتيبه وذكر ألفاظه بعينها، بل ذكرت بعضها بالمعنىٰ قصداً للاَختصار، وربما ذكرت فيه حديثاً أو شيئاً يسيراً من غيره إنْ كان مناسباً له، والله تعالىٰ أعلم.

[قال المصنف]: [بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله منبه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الإيقاظ، ومنزه التائبين من هفواتهم بملاطفات الوعاظ، ومحدِّث العارفين في خلواتهم بأحلى الكلمات والألفاظ، ومحذر الزاهدين بأشرف شهواتهم تأدباً حتى فرقوا عن الظاهرين اللحاظ، وقاموا إلى محاربة النفوس قيام الليث لحرب المغتاظ، وحفظوا ما استحفظوا فحفظوا وإنما الحفظ للحفاظ.

أحمده حمداً كثيراً فائت العدد دائم الألفاظ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد الذي أعجز الفصحاء بما جاء به قساقيس يوم عكاظ، وعلى آله وأصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ، صلاة أتقي بها يوم البعث حر ﴿لَظَىٰ﴾ والـ﴿شُوَاظٌ﴾ ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ [التحريم: ٦].

قال مؤلفه عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سميت كتابي هذا: «**منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**».

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا به ومن قرأه، أو سمعه، أو نظر فيه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يختم لنا بخير، ويوفقنا لما يرضيه من القول

والعمل والنية، وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحد من خلقه، فإنه حسبنا ونعم الوكيل][١].

قال المصنف [ابن الجوزي] رحمة الله عليه ـ بعد فراغه من هذه الخطبة:

أما بعد: فإني رأيتك أيها المريد الصادق، والعازم الجازم، قد وطّنت نفسك على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة، وعزمتَ على الأنقطاع إلى الآخرة، علماً منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت. فنظرتُ أي أنيس من الكتب تستصحبه في خلوتك، وتستنطقه في حال صمتك، فإذا أنت تؤثر كتاب «إحياء علوم الدين» وتزعم أنفراده في جنسه، ونفاسته في نفسه.

فأعلم أن في كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء. وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة، وإنما نقلها كما أقتراها لا أنه أفتراها، ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع، والأغترار بلفظ مصنوع.

وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذي جمعه[٢] وندب إلى العمل به ما لا حاصل له من الكلام في الفناء، والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة في غير حاجة، والدخول في الفلاة بغير زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفتُ عن عَواره[٣] في كتابي المسمى بـ«تلبيس إبليس»[٤].

---

(١) هذه الخطبة ما بين الحاصرتين [ ] قد ابتدئ بها في بعض النسخ من المختصَر والأصل أيضاً، وظننا أنها مقدمة ابن الجوزي وقد أسقطها النساخ من المختصَر، وبعضهم قد اقتصر على خطبة ابن الجوزي دون خطبة المختصِر، ولذلك جمعناهما معاً.

(٢) أي صاحب «الإحياء».

(٣) العوار بالفتح: العيب وقد يضم.

(٤) تحقيق الأستاذ عصام فارس الحرستاني، وخرّج أحاديثه الشيخ محمد إبراهيم الزغلي. وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي.

وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفاسده، ولا يخلّ بفوائده، أعتمد فيه من النقول: الأصحَّ والأشهرَ، ومن المعنى: الأثبتَ والأجودَ، وأحذف ما يصلح حذفه، وأزيد ما يصلح أن يزاد.

ثم قال [ابن الجوزي] بعد ذلك: وإذْ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق الحق من النفس، والأخذ على يدها، فلْيكن وكيلك عليها العلم، وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تسلم، واحذر سبيل أحد رجلين:

عالم عرف الجدال في الفقه واقتنع برئاسته، أو نال القضاء فسعىٰ في حفظ منزلته، أو زَخْرَفَ الوعظ فضيّق أعين شبكته.

أو زاهد يتقلب برأيه الفاسد في جهالته، ويتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته، ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته.

فهٰذان عادلان عن منهاج الصواب، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب، خادعان للمبتدئين بلامع السراب، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذي هو جادّة الاستقامة وطريق السلامة.

وسأدرج لك في هذا الكتاب إن شاء الله من أخبارهم ما يدل على آثارهم.

وكتابنا هذا يحتاج إليه المنتهي، كما يفتقر إليه المبتدي، لأن فيه أسرار العبادات، والتحذير من آفات المعاملات.

وقد تبعت المصنف[(١)] في تقسيمه الكتاب إلى أربعة أرباع[(٢)]:

الأول: ربع العبادات.

والثاني: ربع العادات.

والثالث: ربع المهلكات.

والرابع: ربع المنجيات.

وكل واحد من هٰذه الأقسام الأربعة يشتمل علىٰ: كتب، وأبواب، وفصول.

فمن أقسام الربع الأول:

---

(١) يفهم أن هذا مطابق لمختصر ابن الجوزي. وهو كذلك موافق لأصل كتاب الغزالي رحمهما الله.

(٢) وفي بعض النسخ: وقد جعله المصنف أربعة أرباع.

رُبع العبادات

١ - كتاب العلم وفضله وما يتعلق به[(١)]

[فضيلة العلم والتعلم]

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. قال ابن عباس: [للعلماء] درجات فوق المؤمنين سبعمئة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة خمسمئة عام. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وفي «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين**»[(٢)].

وعن أبي أُمامة ﷺ قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم علىٰ العابد كَفَضْلي علىٰ أدناكم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته، وأهلَ السمٰوات والأرض ـ حتى النملة في جُحْرها، وحتىٰ الحوت ـ لَيُصَلّون على مُعَلِّمي الناسِ الخيرَ**»[(٣)] رواه التِّرمِذِيّ وقال: حديث حسن صحيح [غريب].

---

(١) من أحسن الكتب المؤلفة في فضل العلم «اقتضاء العلم العمل» للحافظ الخطيب البغدادي بتحقيق المحدث الألباني. وكتاب «تعليم المتعلم» للعلامة الزرنوجي، تحقيق الدكتور مروان القباني. وهما من مطبوعات المكتب الإسلامي.

(٢) هو عند البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧). وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٠/ ٢٢٠٢) عن أبي هريرة، طبع مكتب التربية، وتوزيع المكتب الإسلامي.
وتنظر «الصحيحة» (١١٩٤-١١٩٥)، و«صحيح الجامع» (٦١١١-٦١١٢).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢١٦١/ ٢٦٨٥)(*). وهو في «صحيح الترغيب» (٧٧).
وما بين الحاصرتين من «تحفة الأشراف» ٤/ ١٧٧.

(*) يلاحظ أننا استعملنا الترقيم الأول لطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج بإشرافي، كما استعملنا الترقيم الثاني لطبعة أستاذنا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

وفي حديث آخر: «**فَضْلُ العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بِحَظٍّ وافر**»(١) رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه.

وعن صفوان بن عَسّال رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الملائكة لَتَضَعُ أجنحتها لِطالب العلم رضاً بما يَطْلُبُ**»(٢) رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

قال الخَطَّابيّ: في معنى (وَضْعِها أَجْنِحَتَها) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بسط الأجنحة.

الثاني: أنه بمعنىٰ التواضع تعظيماً لطالب العلم.

الثالث: أنَّ المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلىٰ الجنة**»(٣) رواه مسلم.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «**من جاءه الموت وهو يطلب العلم لِيُحْيِيَ به الإسلام، كان بينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة**»(٤).

وفيه أخبار كثيرة.

---

(١) قطعة من حديث في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٩٦/ ٣٦٤١)، وكذا «صحيح الترمذي» (٢١٥٩/ ٣٦٨٢)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٢/ ٢٢٣) ـ وليس عندهما: «ليلة البدر» ـ عن أبي الدرداء.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٥٩)، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠١/ ٣٥٣٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٥/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٠٩٧/ ٣٦٤٣)].

(٤) رواه الدارمي ١/ ١٠٠ من مراسيل الحسن البصري، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٢٣: فيه محمد بن الجعد متروك.

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شِعْري، أيّ شيء أدرك مَنْ فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

[فضيلة التعليم]

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه في «الصحيحين» عن سهلِ بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: **«لأَنْ يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»**(١).

وقال ابن عباس: (إن الذي يعلِّم الناس الخير تستغفر له كل دابّة حتىٰ الحوت في البحر)(٢) وروي نحو ذٰلك في حديث مرفوع إلىٰ النبي ﷺ.

فإن قيل: ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟

فالجواب: أن نفع العلم يعمّ كلَّ شيء حتىٰ الحوت، فإن العلماء عَرفوا بالعلم ما يحل ويحرم، وأوصوا بالإحسان إلىٰ كل شيء حتىٰ إلىٰ المذبوح والحوت، فأَلْهَمَ الله تعالىٰ الكلَّ الاستغفار لهم جزاءً لِحُسْنِ صنيعهم.

وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ، إنما هي قِيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذٰلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذٰلك رأساً ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به»**(٣) أخرجاه في «الصحيحين».

فانظر رحمك الله إلىٰ هٰذا الحديث ما أوقعه علىٰ الخلق، فإن الفقهاء أولي الفهم، كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ، لأنهم علموا وفهموا،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأبو داود [«صحيحه» (٣١٠٩/ ٣٦٦١)].

(٢) أخرجه الدارمي ١/ ٩٩ موقوفاً. وصححه الألباني مرفوعاً ـ بمجموع طريقيه عن عائشة وأبي أمامة المتقدم ـ في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٨٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

وفرعوا وعلموا. وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، أنهم كمثل الأجادب التي حفظت الماء فانتفع بما عندهم. وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فَهُمُ العوامُّ الجَهَلَةُ.

وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومُدارَسَتُه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة.

وقال كعب رَحِمَهُ اللهُ: أوحىٰ الله تعالى إلىٰ موسىٰ عليه السلام؛ أنْ: تَعَلَّمْ يا موسىٰ الخير وعَلِّمْه للناس، فإني مُنَوِّرٌ لِمُعَلِّمِ الخيرِ ومُتَعَلِّمِه قبورَهم حتىٰ لا يستوحشوا بمكانهم.

فصل

[في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما]

قد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**»[1] رواه أحمد في «العلل».

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ: اختلف الناس في ذٰلك.

فقال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به يعرف الحلال والحرام.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يُتَوَصَّل إلىٰ العلوم كُلِّها.

وقالت الصوفية: هو علم الإخلاص وآفات النفوس.

وقال المتكلمون: هو علم الكلام.

إلىٰ غير ذٰلك من الأقوال التي ليس فيها قول مَرْضِيٌّ.

والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه.

والمعاملة التي كُلِّفَهَا علىٰ ثلاثة أقسام: اعتقاد، وفعل، وترك.

---

(١) صحيح بمجموع طرقه وشواهده، وينظر «المنتخب من العلل للخلال [عن أحمد]» (٦١-٦٢)، و«صحيح الجامع» (٣٩١٣-٣٩١٤).

فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل، لأن النبي ﷺ اكتفىٰ من أجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل، فذلك فرض الوقت، ثم يجب عليه النظر والاستدلال. فإذا جاء وقت الصلاة، وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلىٰ رمضان وجب عليه تعلم الصوم، فإن كان له مال وحَالَ عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه المناسك.

وأما التُّرُوك، فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذْ لا يجب علىٰ الأعمىٰ تعلم ما يحرم النظر إليه، ولا علىٰ الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، فإن كان في بلد يُتَعاطىٰ فيه شرب الخمر ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات، فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شَكٌّ في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة، وجب عليه تعلم ما يصل به إلىٰ إزالة الشك، وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق، كما لو كان تاجراً في بلد قد شاع فيه الربا وجب عليه تعلم الحذر منه.

وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار.

فَبَانَ بما ذكرنا أنّ المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه علىٰ الشخص.

[بيان العلم الذي هو فرض كفاية]

فأما فرض الكفاية، فهو كل علم لا يُسْتَغنىٰ عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب، إذْ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة. والحساب، فإنه ضروريٌّ في قسمة المواريث والوصايا وغيرها.

فهٰذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِج أهل البلد، وإذا قام بها واحد، كفىٰ وسقط الفرض عن الباقين.

ولا يتعجب من قولنا: (إن الطب والحساب من فروض الكفاية)، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية، كالفلاحة، والحياكة، بل الحجامة، فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليهم، فإن الذي أنزل الداء أنزل

الدواء وأرشد إلىٰ استعماله. وأما التعمق في دقائق الحساب، ودقائق الطب وغير ذٰلك، فهٰذا يُعَدُّ فَضْلَةً، لأنه يستغنىٰ عنه[١].

وقد يكون بعض العلوم مباحاً، كالعلم بالأشعار التي لا سُخْفَ فيها، وتواريخ الأخبار.

وقد يكون بعضها مذموماً، كعلم السحر، والطِّلَّسْمات، والتلبيسات.

فأما العلوم الشرعية، فكلها محمودة، وتنقسم إلىٰ: أصول، وفروع، ومقدمات، ومتممات.

فالأصول: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

والفروع: ما فُهم من هٰذه الأصول من معان تنبهت لها العقول حتىٰ فُهم من اللفظِ الملفوظُ وغيره، كما فهم من قوله: **«لا يقضي القاضي وهو غضبان»**[٢] أنه لا يقضي جائعاً.

والمقدمات: هي التي تجري مجرىٰ الآلات، كعلم النحو واللغة، فإنهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

والمتممات: كعلم القراءات، ومخارج الحروف، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم، فهٰذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة.

فصل

فأما علم المعاملة ـ وهو علم أحوال القلب: كالخوف، والرجاء، والرضا، والصدق، والإخلاص وغير ذٰلك ـ فهٰذا العلم به ارتفع العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم، كـ:سُفْيَانَ الثَّورِيِّ، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

---

(١) إن التَّعَمُّق في الطب وسائر العلوم الكونية من الفروض الكفائية التي يجب على المسلمين أنْ يتقنوها، ليستفيدوا من نتائجها الطيبة المثمرة التي تعود عليهم بالخير والنفع، ولا تَقْوَى شوكة المسلمين، ولا تقوم لهم قائمة إلا بالإسلام عقيدة وفقهاً وجهاداً، والعلوم من وسائل الحياة و(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) عن أبي بكرة.

وإنما انحطت رتبة المُسَمَّين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلىٰ حقائقه وتعمل بخفاياه. وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظِّهار، واللعان، والسبق، والرمي، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يُحتاج إلىٰ مسألة منها؛ ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يحذر من الرياء، وهٰذا عليه فرض عين، لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية، ولو أنه سئل عن عِلَّة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب. ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي، لقال: هٰذا فرض كفاية. ولقد صدق، ولٰكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضاً، فهلا تشاغل به! وإنما تبهرج عليه النفس، لأن مقصودها من الرياء والسمعة: يحصل بالمناظرة، لا بالحساب.

[بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم]

واعلم أنه قد بُدِّلَتْ ألفاظ وحُرِّفَتْ، ونقلت إلىٰ معان لم يُرِدْها السلف الصالح.

فمن ذٰلك: الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقاً علىٰ علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلىٰ نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف علىٰ القلب. ولذٰلك قال الحسن البصري: (إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم علىٰ عبادة ربه، الورع الكافُّ عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم)[١].

فكان إطلاقهم اسْمَ الفقهِ علىٰ علم الآخرة أكثر، لأنه لم يكن متناولاً للفتاوى، ولٰكن كان متناولاً لذٰلك بطريق العموم والشمول، فبان من هٰذا التخصيص تلبيسُ بعث الناس علىٰ التجرد لعلم الفتاوي الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

---

(١) أخرج بعضه ابن بطة في «إبطال الحيل» (ص ١٦ ـ بتحقيقي)، وفيه آثار أخرى تنظر (ص ١٢-٢٠).

اللفظ الثاني: العلم، فقد كان ذٰلك يطلق علىٰ العلم بالله تعالىٰ وبآياته، أيْ: نعمه وأفعاله في عباده؛ فخصوه وسَمَّوا به في الغالب: المناظرَ في مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد، وقد كان ذٰلك إشارة إلىٰ أن ترىٰ الأمور كلها من الله تعالىٰ رؤية تقطع الالتفات إلىٰ الأسباب والوسائط، فيثمر ذٰلك التوكل والرضا؛ وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام في الأصول، وذٰلك من المنكرات عند السلف.

اللفظ الرابع: التذكير والذكر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات]. وقال النبي ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فآرتعوا**». قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**مجالس الذكر**»[1]؛ فنقلوا ذٰلك إلىٰ القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاصّ من الشطح والطّامّات.

ومَنْ تَشاغَلَ في وعظه بذكر قصص الأوَّلين، فَلْيَعْلم أن أكثر ما يُحكى في ذٰلك لا يثبت، كما ينقلون أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حَلَّ تِكَّته، وأنه رأىٰ يعقوب عاضّاً علىٰ يده، وأن داود جهز أوريا حتىٰ قتل. فمثل هٰذا يضر سماعه.

وأما الشَّطْح والطامّات، فمن أشد ما يؤذي العوامَّ، لأنها تشتمل علىٰ ذكر المحبة والوصال وألم الفراق، وعامة الحاضرين أجلاف، بواطنهم محشوة بالشهوات وحُبِّ الصور، فلا يحرك ذٰلك من قلوبهم إلا ما هو مُسْتَكِنٌّ في نفوسهم، فيشتعل فيها نار الشهوات، فيصيحون، وكُلُّ ذلك فساد.

وربما احتوىٰ الشطح علىٰ الدعاوى العريضة في محبة الله تعالىٰ، وفي هٰذا ضرر عظيم. وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم، وأظهروا مثل هٰذه الدعاوى[2].

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٧/ ٣٥١٠) عن أنس.

(٢) ولا يشاهد من أصحاب هٰذه الطرق التي تدعو لذٰلك إلا ما لا يصح، وما لا ينفع، وهٰذا الإمام الغزاليّ ـ صاحب الأصل ـ ينعىٰ عليهم، وكذلك غيره، وحتى يومنا هٰذا لم يتبدل لهم خُلُق، ولم يصلح لهم حال.

اللفظ الخامس: الحكمة. والحكمة: العلم والعمل به. =

= قال ابن قتيبة: لا يكون الرجل حكيماً حتىٰ يجمع العلم والعمل، وقد صار هٰذا الاسم يطلق في هٰذا الزمان علىٰ الطبيب والمُنَجِّم.

فصل

[بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة]

واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلىٰ أقصىٰ غاياته، وكلما كان أكثر كان أفضل وأحسن، وهو العلم بالله تعالىٰ، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة علىٰ الدنيا، فإن هٰذا علم مطلوب لذاته، والتوصل به إلىٰ سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم المُحَوِّمون علىٰ سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم.

القسم الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً واقتصاداً واستقصاءً.

فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك. وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص والحسد والرياء والعجب قبل إصلاح ظاهرك، وسيأتي ذٰلك إن شاء الله تعالىٰ في (رُبع: المُهْلِكات). فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات، فإن في الخلق كثيراً يقومون بذٰلك، فإن مُهْلِكَ نفسِه في طلب إصلاح غيره سَفِيهٌ، ومَثَلُهُ مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يَذُبُّ الذباب عن غيره.

فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ـ وما أبعد ذٰلك ـ فاشتغل بفروض الكفايات وراعِ التدريج في ذٰلك.

فابتدِئ بكتاب الله ﷻ، ثم بسنة رسوله ﷺ، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ، ومُحْكَمٍ ومتشابه، إلىٰ غير ذٰلك.

وكذلك في السنة، ثم اشتغلْ بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا بقية العلوم علىٰ ما يَتَّسع له العمر ويساعد فيه الوقت.

ولا تستغرقْ عمرك في فَنٍّ واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير، والعمر قصير. وهٰذه العلوم آلات يراد بها غيرها، وكل شيء يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسىٰ فيه المطلوب.

فصل

[بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف]

واعلم أن المناظرة الموضوعة بقصد المغالبة والمباهاة مَنْبَعُ الأخلاق المذمومة، ولا يسلم صاحبها من كِبْرٍ، لاحتقار المُقَصِّرين عنه، وَعُجْبٍ بنفسه لارتفاعه علىٰ كثير من نظرائه. ولا يسلم من الرياء، لأن جمهور مقصود المناظر اليوم عِلْمُ الناس بغلبته، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه، فهو يُذْهِبُ عمره في العلوم التي تُعِينُ علىٰ المناظرة بما لا ينفع في الآخرة، كـ: حسن اللفظ، وحفظ النوادر.

وقد روي في الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: **«أَشَدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعه علمه»**[1].

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٠٧). قال الألباني في «ضعيف الجامع» (٨٦٨)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٦٣٤): ضعيف جداً.

باب في آداب المتعلم والمعلم وآفات العلم، وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

أما المتعلم، فينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات، إذِ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متىٰ توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يُؤْثرون العلم علىٰ كل شيء، فرُوي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ لم يتزوج إلا بعد الأربعين، وأُهْدِيَتْ إلى أبي بكر بن الأنباري جارية، فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة، فعَزَبتْ[1] عنه، فقال: أخرجوها إلىٰ النَّخَّاس[2]. فقالت: هل لي من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قَدَرَ مِثلكِ أن يمنعني علمي!

وعلىٰ المتعلم أن يُلْقِيَ زِمَامه إلىٰ المعلم إلقاءَ المريض زِمامه إلىٰ الطبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يأخذ برِكاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هٰكذا أُمِرْنا أن نفعل بالعلماء.

ومتىٰ تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم، فهو جاهل، لأن (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها). ولْيَدَعْ رأيه لرأي معلمه، فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه.

قال علي رضي الله عنه: إن من حق العالم عليك أن تُسَلِّم علىٰ القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمز بعينك، ولا تكثر

---

(١) أي: خَفِي عليه حَلُّ هٰذه المسألة.

(٢) هو: بائع الدوابّ والعبيد.

عليه السؤال، ولا تعينه في الجواب، ولا تلح عليه إذا كَسِلَ، ولا تراجعه إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا تطلبنَّ عثرته، وإن زلَّ قَبِلْتَ معذرته، ولا تقولنَّ له: (سمعت فلاناً يقول كذا، ولا: إن فلاناً يقول خلافك)، ولا تَصِفَنَّ عنده عالماً، ولا تعرضنَّ من طول صحبته، ولا ترفع نفسك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متىٰ يسقط عليك منها شيء.

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في مبتدإ الأمر من الإصغاء إلىٰ اختلاف الناس، فإن ذٰلك يحيِّر عقله ويفتِّر ذهنه. وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه، لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم. ثم يصرف من جمام وقته إلىٰ أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة، الذي به يكتسب اليقين الذي حصله أبو بكر الصديق ﷺ، حتىٰ شهد له رسول الله ﷺ فقال: **«ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره»**[(١)].

فهٰذه وظائف المتعلم.

[بيان وظائف المرشد المعلم]

وأما المعلِّم، فعليه وظائف أيضاً:

من ذلك: الشفقة علىٰ المتعلمين، وأن يُجْرِيهم مُجْرىٰ بنيه، ولا يطلب علىٰ إفاضته العلمَ أجراً، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً، بل يُعَلِّم لوجه الله تعالىٰ. ولا يرىٰ لنفسه مِنَّة علىٰ المتعلمين، بل يرىٰ الفضل لهم إذْ هَيَّؤوا قلوبهم للتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بزراعة العلم فيها. فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها، فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله سبحانه. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها: ألا يَدَّخر من نصح المتعلم شيئاً، وأن يزجره عن سوء الأخلاق

---

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» ١/ ٢٣: (أخرجه الترمذي الحكيم في «النوادر» [ص ٣٤٥ ـ المجردة من الإسناد] من قول بكر بن عبدالله المزني [(- ١٠٦هـ)] ولم أجده مرفوعاً). وتنظر «الضعيفة» (٩٦٢).

بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله. فلا يلقي إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**»[١].

وقال علي ﷺ: إنَّ هٰهنا علماً لو أصبت له حَمَلَتَهُ.

وقال الشافعي رحمه الله:

أأنثر دُرّاً بين سارحة النَّعَمْ أأنْظِم منثوراً لراعية الغنمْ

ومَنْ مَنَحَ الجُهَّال علماً أضاعَهُ ومَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبين فقد ظَلَمْ

ومنها: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، ولا يكذب قولُه فِعْلَه.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال علي ﷺ: قَصَمَ ظهري رجلان: عالم متهتِّك، وجاهل متنسِّك.

فصل في آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

علماء السوء[٢]: هم الذين قَصْدُهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلىٰ المنزلة عند أهلها. وقد روى أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَعَلَّم**

(١) أخرجه الحسن بن سفيان ـ وعنه الديلمي ـ بسند ضعيف جداً كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ونقله عنه السخاوي في «المقاصد» (١٨٠).
لكن روى البخاري (١٢٧) من قول علي: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!). وروى مسلم ١/ ١١ أن عبد الله بن مسعود قال: (ما أنت بمُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تَبْلُغُه عُقُولُهم إلا كان لبعضهم فتنة).

(٢) وانظر كتاب «تلبيس إبليس» للإمام ابن الجوزيّ فإنه فضح علماء السوء وتوسع بذلك، بتحقيق عصام الحرستاني وتخريج محمد الزغلي، طبع المكتب الإسلامي.

علماً مما يُبتغىٰ به وجه الله ﷻ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»(١) يعني: ريحها.

وفي حديث آخر أنه قال: «**من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار**»(٢) رواه الترمذي.

وفي ذٰلك أحاديث كثيرة.

وقال بعض السلف: أشد الناس ندامة عند الموت عالم مُفَرِّطٌ.

واعلمْ أن المأخوذ علىٰ العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع، لأنه ليس كل جسم يقبل التقلل، فإن الناس يتفاوتون.

وروي أن سفيان الثَّوْرِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان حسن المطعم، وكان يقول: إن الدابة إذا لم تحسن إليها في العلف لم تعمل.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصبر في خشونة العيش علىٰ أمر عظيم. والطباع تتفاوت.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة، وأنهما كالضَرَّتَين، فهم يُؤْثِرون الآخرة، ولا تخالف أفعالُهم أقوالَهم، ويكون مَيْلهم إلىٰ العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يَقِلُّ نفعها إيثاراً لما يَعْظُم نفعه، كما روي عن شَقيقٍ البَلْخِيِّ أنه قال لحاتِمٍ: قد صحبتني مدة، فماذا تعلمت؟ قال: ثمان مسائل:

أما الأولىٰ: فإني نظرت إلىٰ الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون معي في القبر.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤٣١)، وهو في «صحيح أبي داود» (٣١١٤/ ٣٦٦٤)، و«صحيح ابن ماجه» (٢٠٤/ ٢٥٢). وينظر «صحيح الجامع» (٦١٥٩).

(٢) أخرجه بحروفه: الطبراني في «الأوسط»، والبزاز (١٧٨) ـ كما في «المجمع» ١/ ١٨٣ ـ عن أنس. وقريب من لفظه في «صحيح ابن ماجه» (٢٠٩/ ٢٦٠) عن أبي هريرة، وكذا عنده (٢٠٥/ ٢٥٣) عن ابن عمر. وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٣٨/ ٢٦٥٤) عن كعب بن مالك.

وأما الثانية: فإني نظرت إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات]، فأجهدتها في دفع الهوىٰ حتىٰ استقرت علىٰ طاعة الله تعالىٰ.

وأما الثالثة: فإني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت قي قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فكلما وقع معي شيء له قيمة وجهته إليه ليبقىٰ لي عنده.

وأما الرابعة: فإني رأيت الناس يرجعون إلىٰ المال والحسب والشرف، وليست بشيء. فنظرت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فعملت في التقوىٰ لأكون عنده كريماً.

وأما الخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت في قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فتركت الحسد.

السادسة: رأيتهم يتعادَون، فنظرت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً.

السابعة: رأيتهم يُذِلّون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فاشتغلت بما له علي وتركت ما لي عنده.

الثامنة: رأيتهم متوكلين علىٰ تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت علىٰ الله تعالىٰ.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين من مخالطتهم.

قال حذيفة ﷺ: إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم علىٰ الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المُسَيَّب: إذا رأيتم العالم يغشىٰ الأمراء، فاحذروا منه، فإنه لِصٌّ.

وقال بعض السلف: إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

ومن صفات علماء الآخرة: ألا يتسرعوا إلى الفتوىٰ، وألا يفتوا إلا بما يَتَيَقَّنون صحته. وقد كان السلف يتدافعون الفتوىٰ حتىٰ ترجع إلىٰ الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: (أدركت في هٰذا المسجد مئة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا وَدَّ أن أخاه كفاه ذلك).

ثم قد آل الأمر إلىٰ إقدام أقوام يدَّعون العلم اليوم، يُقْدِمون علىٰ الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب ﷺ لجمع أهل بدر واستشارهم.

ومن صفاتهم: أن يكون أكثر بحثهم في علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوساوس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب في تصفيتها، وأصل الدين: التوقي من الشر، ولا يصح أن يتوقىٰ حتىٰ يعرف.

ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لِحِكَمها. فإنْ عَجَزَ عن الاطّلاع على العلّة كفاه التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين وتَوَقِّي كُلِّ مُحْدَث.

٢ - كِتَابُ الطّهَارة وَأسْرارِهَا وَالصَّلاة وَمَا يتعَلّق بِهَا

اَعلم أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأولىٰ : تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.

الثانية : تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

والثالثة : تطهير القلوب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عما سوىٰ الله تعالىٰ، وهٰذا هو الغاية القصوىٰ، فمن قَوِيَتْ بصيرته سَمَتْ إلىٰ هٰذا المطلوب، ومن عَمِيَتْ بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولىٰ، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب: ظَنّاً منه ـ بحكم الوسوسة وقِلَّة العلم ـ أن الطهارة المطلوبة هي هٰذه فقط، وجهلاً بِسِيَرِ المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في أمر الظاهر. كما روي عن عمر ﷺ أنه توضأ من جَرَّةِ نصرانية[1]. وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزَّهَم[2] ويصلّون علىٰ الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستجمار علىٰ الأحجار.

وقدِ انتهىٰ الأمر إلىٰ قوم يُسَمُّون الرُّعونة[3] نظافة، فترىٰ أكثر زمانهم يمضي في تزيين الظواهر، وبواطنهم خراب مَحْشُوَّةٌ بخبائث الكِبْر والعُجْبِ، والجهل، والرياء، والنفاق. ولو رأوا (مقتصراً علىٰ الاستجمار علىٰ الحجر، أو حافياً يمشي علىٰ الأرض، أو علىٰ من يصلي عليها من غير حائل، أو متوضئاً من آنية عجوز) لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولَقَّبوه بالقذِر، واستنكفوا

---

(١) صحيح. علق البخاري أصله [قبل (١٩٣)] ووصله البيهقي ١/ ٣٢.
(٢) هو الوسخ الدسم.
(٣) الرعونة: هي الحماقة.

من مؤاكلته. فانظر كيف جعلوا البذاذة[1] - التي هي من الإيمان - قذارة، والرعونة نظافة، وصيَّروا المنكر معروفاً، والمعروف منكراً. لٰكن من قصد بهٰذه الطهارةِ النظافةَ ولم يسرف في الماء، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصلُ الدين: فليس ذٰلك بمنكر، بل هو فِعْلٌ حسن. وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث إلىٰ كتب الفقه، فإن المقصود من هٰذا الكتاب الآدابُ.

[(إزالة الفضلات)]

وأما إزالة الفضلات، فهي نوعان:

أوساخ تزال، كالذي يجتمع في الرأس من الوسخ والدَّرَن، فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل[2] والتدهين لإزالة الشَّعث، وكذٰلك ما يجتمع في الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته.

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما علىٰ الأسنان واللسان من القَلَح[3]، وكذٰلك وسخ البراجم[4]، والدرن الذي يجتمع علىٰ جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذٰلك يزيله الغسل.

ولا بأس بدخول الحمام، فإنه أبلغ في الإزالة، وقد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، لٰكن علىٰ داخله صيانة عورته من نظر الغير إليها ولمسه إياها. وينبغي للداخل إليه أن يتذكر بحرارته حَرَّ النار، فإن فكر المؤمن لا يزال يجول في كل شيء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة، لأن الغالب علىٰ المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه. ألا ترىٰ أنه لو دخل إلىٰ دار معمورةٍ: بَزَّازٌ، ونَجَّارٌ، وبَنَّاءٌ، وحائِكٌ، رأيت البزَّاز ينظر إلى الفراش يتأمل قيمتها، والحائك ينظر إلىٰ نسج الثياب، والنَّجَّار ينظر إلىٰ سقف الدار، والبَنَّاء ينظر إلىٰ الحائط. فكذٰلك المؤمن إن رأىٰ ظُلْمَةً ذكر ظلمة القبر، وإن سمع

---

(١) البذاذة: رثاثة الهيئة، أراد التواضع في اللباس وترك التبجح والتفاخر. و«**البذاذة من الإيمان**» في «صحيح الجامع» (٢٨٧٩ - طبع المكتب الإسلامي).

(٢) ترجيل الشعر: تسريحه وتنظيفه وتحسينه.

(٣) القلح: وسخ الأسنان ويؤدي إلى مرضها.

(٤) البراجم: عقد أصابع اليدين.

صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأىٰ نعيماً ذكر نعيم الجنة، وإن رأىٰ عذاباً ذكر النار.

ويكره دخول الحمام قريباً من الغروب وبين العشاءين، فإنه وقت انتشار الشياطين.

النوع الثاني من إزالة الفضلات: أجزاء تحذف، مثل قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظافر. ويكره نتف الشيب، ويستحب خضابه.

وباقي مراتب الطهارة يأتي في (ربع: المُهْلِكات) و (المُنْجِيات) إن شاء الله تعالىٰ.

[كتاب: أسرار الصلاة ومهماتها]

فصل

وأما الصلاة فإنها عماد الدين وغُرَّة الطاعات. وقد ورد في فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة.

[فضيلة الخشوع]

ومن أحسن آدابها الخشوع.

وقد روي عن عثمان بن عفان ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت له كَفَّارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله**»[١]. وله في حديث أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

وكان ابن الزبير ﷺ إذا قام في الصلاة كأنه عُودٌ؛ من الخشوع، وكان يسجد

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨). ومعنى «ما لم يؤت كبيرة»، أي: ما لم يعملها. قال النووي: معناه أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر؛ فإنها تكفرها التوبة أو الرحمة. «وذلك الدهر كله»، أي: التكفير بسبب الصلاة مستمر في جميع الأزمان، لا يختص بزمان دون زمان، فانتصاب الدهر على الظرفية. ا هـ من حاشية «صحيح مسلم».

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦)، وأبو داود [«صحيحه» (٩٧/ ١٠٦)]، والنسائي [«صحيحه» (٨٢ و١١٢)].

فتنزل العصافير علىٰ ظهره لا تحسبه إلا جِذْع حائط، وصلّى يوماً في الحِجْر[١] فجاء حجرٌ قدّامه[٢] فذهب ببعض ثوبه فما انفتل.

وقال مَيْمون بن مِهْران ﷺ: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاةٍ قَطُّ، ولقدِ انْهدمت ناحية المسجد ففزع أهل السوق لِهَدْمها، وإنه لفي المسجد يصلي فما الْتفت.

وكان علي بن الحسين ﷺ إذا توضأ اصْفَرَّ لَوْنُه، فقيل له: ما هٰذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم؟

[في الشروط الباطنة من أعمال القلب]

واعلم أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل علىٰ أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يُعْرِبْ عما في الضمير كان بمنزلة الهَذَيان، وكذٰلك لا يُحَصّل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجودِ الذُّلُّ والتعظيم، ولم يكن القلب حاضراً، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متىٰ خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها. قال الله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه هو الوصف الذي استولىٰ علىٰ القلب حتىٰ حمل علىٰ امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة. ولكن يُسامح الشارع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه علىٰ باقيها.

والمعاني [الباطنة] التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

[بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة]

منها: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو مُلابِسٌ له، وسبب ذٰلك الهِمّة، فإنه متىٰ أهمَّك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلىٰ الصلاة.

---

(١) الحجر: حطيم الكعبة.

(٢) في النسخة الثانية: قذافه. وهي المنجنيق.

وانصراف الهمة يَقْوَىٰ ويَضْعُفُ بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتىٰ رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضَعْفُ الإيمان، فاجتهد في تقويته.

المعنىٰ الثاني: التَّفَهُّمُ لمعنىٰ الكلام، فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنىٰ، فينبغي صرف الذهن إلىٰ إدراك المعنىٰ بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادِّها، فإن الموادّ إذا لم تنقطع لم تنصرفِ الخواطر عنها.

والموادّ: إما ظاهرة وهي ما يشغل السمع والبصر. وإما باطنة، وهي أَشَدُّ، كمن تَشَعَّبَتْ به الهموم في أودية الدنيا، فإنه لا ينحصر فِكْرُهُ في فنٍّ واحد، ولم يُغْنِه غَضُّ البصر؛ لأن ما وقع في القلب كافٍ في الاشتغال به.

وعلاج ذٰلك:

إنْ كان من الموادّ الظاهرة، بقطع ما يَشْغَلُ السَّمْعَ والبَصَر، وهو القُرْبُ من القِبْلة، والنظر إلىٰ موضع سجوده، والاحتراز في الصلاة من المواضع المنقوشة، وألاّ يترك عنده ما يشغل حِسَّه، فإن النبي ﷺ لما صلّىٰ في أَنْبِجَانية[1] لها أعلامٌ نَزَعَها وقال: «**إنها أَلْهَتْني آنفاً عن صلاتي**»[2].

وإنْ كان من المواد الباطنة، فطريق علاجه أن يَرُدَّ النفس قهراً إلىٰ ما يقرأ في الصلاة ويَشْغَلَها به عن غيره، ويَسْتَعِدَّ لذٰلك قبل الدخول في الصلاة، بأن يقضي أشغاله، ويجتهد في تفريغ قلبه، ويُجَدِّدُ علىٰ نفسه ذكر الآخرة وخطر

---

(١) بكسر الباء، ويروى بفتحها: كساء منسوب إلى منبج بكسر الباء: مدينة في شرق حلب، وفُتِحَتْ في النَّسَب، وهو الأصح، فقد كانت تصل الثياب والفراء منها إلى الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية. وقيل: إلى موضع اسمه أنبجان وراء النهر.

(٢) هو في البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦)، و«صحيح أبي داود» (٣٤١٨/ ٤٠٥٢)، و«صحيح النسائي» (٧٤٣)، و«صحيح ابن ماجه» (٢٨٥٩/ ٣٥٥٠) عن عائشة.

القيام بين يَدَي الله ﷻ وهول المَطْلَع، فإن لم تَسْكُنِ الأفكارُ بذٰلك، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أَهَمَّه وٱشْتهاه، فلْيترك تلك الشهوات ولْيقطع تلك العلائق.

وٱعلم أن العلة متىٰ تمكَّنت لا يَنفعها إلا الدواء القويُّ، والعلّة إذا قويت جاذبتِ المُصَلِّيَ وجاذبها إلىٰ أن تنقضي الصلاة في المجاذبة، ومَثَلُ ذٰلك كمثل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوِّش عليه، وفي يده خشبة يُطَيِّرها بها، فما يستقر فكره حتىٰ تعود العصافير فيشتغل بها، فقيل له: هٰذا شيء لا ينقطع، فإن أردت الخلاص فٱقطعِ الشجرة. فكذٰلك شجرة الشهوة إذا عَلَتْ وتفرعت أغصانها، ٱنجذبت إليها الأفكار كٱنجذاب العصافير إلىٰ الأشجار والذباب إلىٰ الأقذار. فذهب العمر النفيس: في دفع ما لا يندفع، وسبب هٰذه الشهوةِ التي توجب هٰذه الأفكار: حُبُّ الدنيا.

قيل لعامر بن عبد قيس: هل تُحدِّثك نفسك في شيء من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لَأَنْ تختلف الأَسِنّة فيَّ أحب إليَّ من أنْ أجد هٰذا.

وٱعلم أن قطع حب الدنيا عن القلب أمر صعب، وزواله بالكلية عزيز، فلْيقعِ الاجتهاد في الممكن منه، والله الموفق المعين.

الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد في شيئين: معرفة جلال الله تعالىٰ وعَظَمَتِه، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة. فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

- **ومن ذلك**: الرجاء: فإنه زائد علىٰ الخوف، فكم من مُعَظِّمٍ مَلِكاً يهابه لخوفِ سَطْوَتِه كما يرجو بِرَّه.

[بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب ـ عند كل ركن وشرط ـ من أعمال الصلاة]

والمصلي ينبغي أن يكون راجياً بصلاته الثوابَ، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر، وإذا ستر عورته، فليعلم أن

المراد من ذٰلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سِرِّه التي لا يَطَّلع عليها إلا الخالق وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها: الندم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القبلة، فقد صرف وجهه عن الجهات إلىٰ جهة بيت الله، فَصَرْفُ قلبه إلىٰ الله تعالىٰ أولى من ذٰلك، فكما أنه لا يتوجه إلىٰ جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، كذٰلك القلب لا ينصرف إلىٰ الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه.

وإذا كبَّرت أيها المصلي، فلا يكذبنَّ قلبُك لسانَك، إلا إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالىٰ فقد كذبت. فاحذر أن يكون الهوىٰ عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته علىٰ طاعة الله تعالىٰ.

فإذا استعذت، فاعلم أن الاستعاذة هي لَجَأٌ إلىٰ الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً، وتفهَّم معنىٰ ما تتلو، وأَحضِرِ التفهم بقلبك عند قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ واستحضر لطفه عند قولك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وكذٰلك في جميع ما تتلو.

وقد روينا عن زُرارة بن أَوْفَىٰ أنه قرأ في صلاته: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر]، فَخَرَّ ميتاً[1]، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف.

واستشعر في ركوعك التواضعَ، وفي سُجُودك زيادةَ الذلّ، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود علىٰ التراب الذي خلقت منه، وتفهَّمْ معنىٰ الأذكار بالذوق.

واعلم أن أداء الصلاة بهٰذه الشروط الباطنة سبب لِجلاء القلب من الصدأ وحصول الأنوار فيه التي بها تلمَح عظمة المعبود، وتطّلع علىٰ أسراره ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت].

---

(١) حسن الإسناد، أخرجه الترمذي [«صحيح سننه» ـ (٣٦٦/ ٤٤٥)].

فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطّلع علىٰ شيء من ذٰلك بل ينكر وجوده.

فصل في آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة

وهي نحو من خمسة عشر:

أحدها: أن يستعد لها من يوم الخميس وفي ليلة الجمعة: بالتنظيف، وغسل الثياب، وإعداد ما يَصْلُح لها.

الثاني: الاغتسال في يومها، كما جاء في الأحاديث في «الصحيحين» وغيرها[1] والأفضل في الاغتسال أن يكون قبل الرواح إليها بزمن يسير.

الثالث: التزيّن بتنظيف البدن، وقص الأظفار، والسواك، وغير ذٰلك مما تقدم من إزالة الفضلات، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه.

الرابع: التبكير إليها ماشياً. وينبغي للساعي إلىٰ الجامع أن يمشي بسكون وخشوع، وينوي الاعتكاف في المسجد إلىٰ وقت خروجه.

الخامس: ألا يتخطىٰ رقاب الناس، ولا يفرق بين آثنين إلا أن يرىٰ فرجة فيتخطىٰ إليها.

السادس: ألا يمر بين يَدَيِ المصلي.

السابع: أن يطلب الصف الأول، إلا أن يرىٰ منكراً أو يسمعه فيكون له في التأخر عُذرٌ.

الثامن: أن يقطع التنفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام من صومعته، ويشتغل بإجابة المؤذن، ثم بآستماع الخطبة.

التاسع: أن يصلي السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين، وإن شاء أربعاً، وإن شاء ستاً.

العاشر: أن يقيم في المسجد حتىٰ يصلي العصر، وإن أقام إلىٰ المغرب فهو أفضل.

---

(١) فيه الكثير ومنها ما جاء في «صحيح الترغيب» (٧٠٣-٧٠٦).

الحادي عشر: أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر.

واْخْتُلِفَ في هٰذه الساعة: ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسىٰ: أنها ما بين أن يجلس الإمام إلىٰ أن تُقضىٰ الصلاة[١].

وفي حديث آخر: هي ما بين فراغ الإمام من الخُطبة إلىٰ أن تقضىٰ الصلاة[٢].

وفي حديث جابر: أنها آخر ساعة بعد العصر[٣].

وفي حديث أنس قال: «**اْلتمسوها ما بين صلاة العصر إلىٰ غروب الشمس**»[٤].

وقال أبو بكر الأثرم: لا تخلو هٰذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض. وإما أن تكون هٰذه الساعة تنتقل في الأوقات كَتَنَقُّل ليلة القدر في ليالي العَشْر.

الثاني عشر: أن يُكْثِرَ من الصلاة علىٰ النبي ﷺ في هٰذا اليوم، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلَّىٰ عليَّ في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة**»[٥]. وإن أحب زاد في الصلاة عليه الدعاء له، كقوله:

---

(١) هذا الحديث مع أنه في «صحيح مسلم» (٨٥٣) فقد قال الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢٢٩/ ١٠٤٩): (ضعيف ـ والمحفوظ موقوف). أي أن الراجح أنه من قول أبي موسى.

(٢) «ضعيف سنن ابن ماجه» (٢٣٥/ ١١٣٨)، و«ضعيف سنن الترمذي» (٧٥/ ٤٩٠) عن عمرو بن عوف، طبع المكتب الإسلامي.

(٣) هو في «صحيح أبي داود» (٩٢٦/ ١٠٤٨)، و«صحيح النسائي» (١٣١٦). ومعناه في «صحيح ابن ماجه» (٩٣٤/ ١١٣٩) عن ابن سلام مرفوعاً.

(٤) «صحيح الترمذي» (٤٠٦/ ٤٨٩). وتنظر «المشكاة» (١٣٦٠)، و«الصحيحة» (٢٥٨٣).

(٥) حكم عليه الألباني جملةً بالوضع في «الضعيفة» (٢١٥) وساقه من حديث أنس؛ الذي أخرجه عنه الخطيب في «تاريخ بغداد» ١٣/ ٤٨٩، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٩٦). وأخرجه من حديث أبي هريرة: ابن شاهين في «الأفراد» وغيرها، وابن بشكوال من طريقه، وأبو الشيخ وغيرهم وكذا الأزدي. وأخرجه ابن بشكوال عن سهل بن عبد الله. =

(اللهم آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، اللهم اجز نبينا عنّا ما هو أهله). ولْيُضِفْ إلىٰ الصلاةِ الاستغفارَ، فإنه مستحب في ذٰلك اليوم.

الثالث عشر: أن يقرأ سورة الكهف، فقد جاء في حديث من رواية عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أحدثكم بسورة مَلأَ عِظَمُها ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك. ومَنْ قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينها وبين الجمعة الأخرىٰ وزيادة ثلاثة أيام. ومن قرأ الخَمْسَ الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالىٰ أي الليل**[1] **شاء**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**سورة الكهف**»[2].

وروي في حديث آخر: أن من قرأها في يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي الفتنة[3].

ويستحب أن يُكْثِرَ من قراءة القرآن في يوم الجمعة، وأنْ يختم فيه، أو في ليلة الجمعة إن قدر.

الرابع عشر: أن يتصدق في يوم الجمعة بما أمكن، ولْتَكُنْ صدقته خارج المسجد. ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح في يوم الجمعة.

الخامس عشر: يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويَكُفَّ عن جميع أشغال الدنيا.

= أما جملة (اللهم آتِ محمداً الوسيلة...) فلم نجد أحداً من السلف فعله، وقد ثبت بعضه بعد الأذان.

(١) أي: أي جزء من الليل.

(٢) أخرجه ابن مردويه والديلمي، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١٦٠)، و«الضعيفة» (٢٤٨٢): ضعيف جداً.

(٣) أخرجه ابن مردويه والضياء في «المختارة» عن علي، وقال عبد الحق في «أحكامه»: سنده مجهول. كذا في «شرح الإحياء» ٣/ ٢٩٢.

فصل في ذكر النوافل

وٱعلم أن ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة أقسام: سنن، ومستحبات، وتطوعات.

ونعني بالسنة: ما نُقِلَ عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه، كالرواتب عُقيب الفرائض والوتر.

ونعني بالمستحب: ما ورد الخبر بفضله ولم تُنقَلِ المواظبة عليه، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه.

ونعني بالتطوعات: ما وراء ذٰلك مما لم يرد به خبر، لكن العبد يتطوع بفعله.

وتسمىٰ هٰذه الأقسام الثلاثة: نوافل، لأن النفل هو زيادة، وهٰذه زيادة علىٰ الفرائض.

وٱعلم أن أفضل تطوعات البدن: الصلاة.

وأقسام النوافل وفضائلها مشهورة مذكورة في كتب الفقه وغيرها، لٰكن نذكر منها صلاة التسبيح، لأنها قد تخفىٰ صفتها علىٰ بعض الناس. فروىٰ عكرمة عن ٱبن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «**يا عَمّاه، ألا أُعطِيكَ، ألا أُعَلِّمُكَ**» وذكر الحديث إلىٰ أن قال: «**تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعةٍ وأنت قائم قلتَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خَمسَ عَشْرَةَ مرة، ثم تركع وتقولها وأنت راكع عَشْراً، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تهوي ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم، فذٰلك خمس وسبعون، تفعل ذٰلك في أربع ركعات. إنِ ٱستطعتَ أن تُصَلِّيَها في كل يوم مرة فٱفعل، فإن لم تفعل، ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل، ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل، ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة**»[1].

---

(١) هو في «صحيح أبي داود» (١٢٩٧/١١٥٢)، و«صحيح ابن ماجه» (١١٣٩/١٣٨٧)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٢١٦).

فصل

[(أوقات النهي عن الصلاة)] ولا يتطوع في أوقات النهي بصلاة لا سبب لها، كصلاة التسبيح، لأن النهي مؤكد فيها عن الصلاة، وهٰذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه.

وأما ما له سبب، كتحية المسجد، وصلاة الكسوف، والاستسقاء ونحوها، فعلىٰ روايتين:

وٱعلم أن النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار:

أحدها: ترك التَّشَبُّه بعُبّاد الشمس.

الثاني: التحذير من السجود لقرن الشيطان، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ٱرتفعت فارقها، فإذا ٱستوت قارنها، فإذا زالت الشمس فارقها، فإذا تَضَيَّفَتْ للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها.

الثالث: أن سالكي طريق الآخرة مواظبون علىٰ العبادات، والمواظبة علىٰ نمط واحد يورث المَلَل، فإذا وقع المنع زاد النشاط، لأن النفس حريصة علىٰ ما مُنِعَتْ منه، فَمُنِعَ الإنسان من الصلاة في أوقات النهي، ولم يُمنع من نوع آخر من التعبد، كالقراءة، والتسبيح؛ لِيَنْتَقِلَ العابدُ من حالٍ إلىٰ حالٍ، كما جعلت الصلاة متنوعة بين: قيام، وقعود، وركوع، وسجود، والله أعلم.

٣ - كتاب الزّكاة وأسرارها وما يتعلق بها

الزكاة أحد مباني الإسلام، وقد قرنها الله ﷻ، بالصلاة، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠. النساء: ٧٧. النور: ٥٦. المزمل: ٢٠].

أما أنواع الزكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبها، فظاهر مشهور في مَظانِّه من كتب الفقه، وإنما نذكر هٰهنا بعض الشروط والآداب.

[في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة]

فمن الشروط أن يُخْرِجَ المنصوصَ عليه، ولا يخرج القيمةَ في الصحيح، فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تَلَمَّحَ سَدَّ الخَلَّة فقط، وسد الخلة ليس هو كل المقصود بل بعضه، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

قسم: تعبد محض، كرَمْي الجِمار، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل لِيُظْهِرَ عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنىٰ، لأن ما يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو إليه، فلا يَظْهَرُ خلوص العبودية به، بخلاف ما ذكرنا.

والقسم الثاني: عكس ذٰلك، وهو ما لا يقصد منه التعبد، بل المقصود منه حَظٌّ مَحضٌ، كقضاء دين الآدميين، ورَدِّ المغصوب ونحو ذٰلك. وكذٰلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل، بل كيفما وصل الحق إلىٰ مُسْتَحِقِّه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع. فهٰذان قسمان لا تركيب فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المركب، وهو أن يقصد منه الأمران جميعاً: امتحان المُكَلَّف، وحظ العِباد، فيجتمع فيه تَعَبُّدُ رمي الجمار، وحظ رَدِّ الحقوق، فلا ينبغي أن ينسىٰ أدق المَعْنَيَيْنِ وهو التعبد، ولعل الأَدَقَّ هو الأَهَمَّ. والزكاة من هٰذا القبيل، فحظ الفقير مقصود في سَدِّ الخَلَّة، وحق التعبد مقصود الشرع في اتباعِ التفاصيل، وبهٰذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج والله أعلم.

فصل في دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن علىٰ مريد الآخرة في زكاته وظائف:

الأولىٰ: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء: ابتلاء مدعي محبة الله تعالىٰ بإخراج محبوبه، والتنزه عن صفة البُخْلِ المُهْلِك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة. وفي الإظهار إذلال الفقير أيضاً، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطىٰ من لا يبالي من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطىٰ غيره سِرّاً.

الوظيفة الثالثة: ألا يفسدها ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وذٰلك أن الإنسان إذا رأىٰ نفسه محسناً إلىٰ الفقير، مُنْعِماً عليه بالإعطاء؛ ربما حصل منه ذٰلك. ولو حقق النظر لرأىٰ الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذي هو طُهْرة له. وإذا ٱستحضر مع ذٰلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال؛ فلا يبقىٰ بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغي أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه.

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المُسْتَعْظِمَ للفعل مُعْجَبٌ به. وقد قيل: لا يَتِمُّ المعروف إلا بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الوظيفة الخامسة: أن ينتقي من ماله أَحَلَّه وأجوده وأحبه إليه.

أما الحل، فـ «**إن الله**» ـ تعالى ـ «**طَيِّب لا يقبل إلا طَيِّباً**»[1].

وأما الأجود، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وينبغي أن يلاحظ في ذٰلك أمرين: **أحدهما**: حق الله ﷻ بالتعظيم له، فإنه أحقُّ من ٱختير له، ولو أن الإنسان قدم إلىٰ ضيفه طعاماً رديئاً لأَوْغَرَ صدره. **والثاني**: حقّ نفسه، فإن الذي يُقدِّمه هو الذي يلقاه غداً في القيامة، فينبغي أن يختار الأجود لنفسه.

وأما أحبَّه إليه، فلقوله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة.

عمران: ٩٢]. وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتدَّ حبه لشيء من ماله قرَّبه لله ﷻ. وروي: أنه نزل الجُحْفة وهو شاكٍ، فقال: إني لأشتهي حيتاناً، فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتاً، فأخذته امرأته فصنعته ثم قرَّبته إليه، فأتى مسكين، فقال ابن عمر ﷺ: خُذه. فقال له أهله: سبحان الله! قد عَنَّيْتَنا[1] ومعنا زاد نعطيه. فقال: إن عبد الله يحبه.

وروي أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خُثيم رحمه الله فقال: أطعموه سكَّراً. فقالوا: نطعمه خبزاً أنفع له. فقال: ويحكم أطعموه سكَّراً، فإن الربيع يحب السكر.

الوظيفة السادسة: أن يطلب لصدقته من تزكو به، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية، ولهم صفات:

الأولى؛ التقوى، فَلْيَخُصَّ بصدقته المتقين، فإنه يَرُدّ بها هممهم إلى الله تعالى.

وقد كان عامر بن عبدالله بن الزبير يتخير العُبَّاد وهم سجود، فيأتيهم بالصُّرَّة فيها دنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فقيل له: ما يمنعك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمعّر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لَقِيَني.

الصفة الثانية: العلم، فإن في إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين. وذلك تقوية للشريعة.

الثالثة: أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده، ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها. فأما الذي عادته المدح عند العطاء، فإنه سيذُمّ حين المنع.

الرابعة: أن يكون صائناً لفقره، ساتراً لحاجته، كاتماً للشكوى، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وهؤلاء لا يُحَصَّلون في شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته.

---

(١) أي: كَلَّفتنا ما يشق علينا حتى استطعنا جَلْبه لك.

الخامسة: أن يكون ذا عائلة، أو محبوساً لمرض أو دَين، فهٰذا من المُحْصَرين، والتصديق عليه إطلاق لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فإن الصدقة عليهم صدقة وصِلَةٌ، وكل من جمع من هٰذه الخلال خَلّتين أو أكثر، كان إعطاؤه أفضل علىٰ قدر ما جمع.

فصل في آداب القابض

لا بد أن يكون آخذ الزكاة من الأصناف الثمانية، وعليه في ذٰلك وظائف:

الأولىٰ: أن يفهم أن الله تعالىٰ أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه ما أَهمّه، ويجعل همومه همّاً واحداً في طلب رضا الله عز وجل.

الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، ولْيكن ذٰلك بمقدار شكر السبب، فإن «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[1] كما ورد في الحديث. ومن تمام الشكر ألا يحتقر العطاء وإن قلّ، ولا يذمه، ويُغَطّي ما فيه من عَيْب. وكما أن وظيفة المعطي الاستصغار، فوظيفة المعطَىٰ الاستعظام، وكل ذٰلك لا يناقض رؤية النعمة من الله ﷻ. فأما من لا يرىٰ الواسطة واسطة، فهو جاهل، وإنما المُنْكَر أن يرىٰ الواسطة أصلاً.

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيما يُعطاه، فإن لم يكن مِنْ حِلٍّ لم يأخذه أصلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة؛ وإن كان من شبهة، تورّع عنه، إلا أن يضيق عليه الأمر. فمن كان أكثر كسبه حراماً، فأخرج الزكاة ولم يُعرف لما أخرجه مالكٌ معيَّن، كانت الفتوىٰ فيه أن يتصدق به[2]، فيجوز لهٰذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافي.

---

(١) هو في «صحيح أبي داود» (٤٠٢٦/ ٤٨١١) وغيره من حديث أبي هريرة.

(٢) عبارة الإمام الغزالي رحمه الله ـ: إذا ضاق الأمر عليه، (أي الآخذ) وكان ما يُسلَّم إليه لا يَعرف له مالكاً معيناً فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإذا أخذ لم يكن أَخَذَ زكاةً، إذ لا يقع زكاةً عن مؤديه، وهو حرام.

الرابعة: أن يتوقىٰ مواقع الشُّبَه في قدر ما يأخذ، فيأخذ القدر المباح له، ولا يأخذ أكثر من حاجته، فإن كان غارماً لم يَزِدْ علىٰ مقدار الدَّين، أو غازياً لم يأخذ إلا بمقدار ما يحتاج إليه. وإن أخذ بالمَسْكَنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغني عنه، وكل ذٰلك مَوْكول إلىٰ اجتهاده، والورع ترك ما يريب.

واختلف العلماء في قدر الغنىٰ المانع من الزكاة، والصحيح فيه أن يكون له كفاية علىٰ الدوام، إما من تجارة، أو صناعة، أو أجر عقار، أو غير ذٰلك، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها، وإن لم يكن له ذٰلك أخذ ما يكفيه.

ولْيكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنة ولا يزيد على ذٰلك، وإنما اعتبر بالسَّنَةِ، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أخذ الأكثر منها ضَيَّق علىٰ الفقراء.

فصل في صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة:

منها: ما روىٰ البخاريُّ من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيّكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله! ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أَخَّر**»(١).

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**من تصدق بعَدْل(٢) تمرة من كَسْبٍ طَيب ـ ولا يصعد إلى الله إلا الطَّيب ـ فإن الله يتقبَّلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه(٣) حتى تكون مثل الجبل**»(٤).

---

(١) البخاري (٦٤٤٢)، و«صحيح النسائي» (٣٣٧٧). وتنظر «الصحيحة» (١٤٨٦)، و«صحيح الجامع» (٢٦٩٦).

(٢) بعدل: أي بمثل.

(٣) فلوه، أي: المهر الصغير، وما زال مستعملاً عند أهل الخيل وسكان البادية. وقيل: كل صغير من أولاد ذوات الحافر.

(٤) البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، والترمذي [«صحيحه» (٥٣٢/ ٦٦١)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٣٦٥)]، وينظر «صحيح الجامع» (٥٦٠٠)، و«الإرواء» (٨٨٦).

وفي حديث آخر: «**إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتقي ميتة السوء**»(١).

وفي حديث آخر: «**تصدقوا فإن الصدقة فِكَاكُكم من النار**»(٢).

وعن بُريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يُخرِج أحدٌ شيئاً من الصدقة حتىٰ يَفُكَّ عنه لَحيَ سبعين شيطاناً**»(٣).

وروي أن راهباً تعبد في صومعة ستين سنة، ثم نزل يوماً ومعه رغيف، فعرضت له آمرأة فتكشفت له، فوقع عليها، فأدركه الموت وهو علىٰ تلك الحال. وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة، فوضع في كفة وخطيئته في كفة، فرجحت بعمله، حتىٰ جيء بالرغيف فوضع مع عمله، فرجح بخطيئته.

وفي أفراد مسلم، من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما نقصت صدقة من مال**»(٤).

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» فقالت: ما بقي منها إلا كتفها. فقال: «**بقي كلها إلا كتفها**»(٥).

وأما آدابها، فنحو ما تقدم في الزكاة، وآختلفوا: أيما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة، أو من الصدقة؟ فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

---

(١) هو في «ضعيف الترمذي» للألباني (١٠٥/ ٦٦٤)، لكن صححه في «الإرواء» (٨٨٥)، و«الصحيحة» (١٩٠٨) بلفظ: «**صدقة السر تطفئ غضب الرب**».

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٤٠٣ عن أنس. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٤٣٩)، والضعيفة (١٦٢٨).

(٣) رواه أحمد (٢٢٩٥٥)، والحاكم ١/ ٤١٧، وابن خزيمة (٢٤٥٧)، والطبراني في «الأوسط»، وينظر «صحيح الجامع» (٥٨١٤)، و«الصحيحة» (١٢٦٨).

(٤) سيأتي صفحة (٢٣١) الحاشية (٢).

(٥) رواه الترمذي [«صحيحه» (٢٠٠٩/ ٢٤٧٠)]. وتنظر «الصحيحة» (٢٥٤٤).

وأما أفضل الصدقة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «**أن تصَّدّق وأنت صحيح شحيح، تخشىٰ الفقر، وتأمُل الغنىٰ، ولا تُمْهِل حتىٰ** ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة] **قلتَ: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»[1] أخرجاه في «الصحيحين».

(١) البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)، وأحمد (٩٣٥١)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٨٦٥/٢٤٩١)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٣٨٢ و٣٣٧٦)]. وينظر «الإرواء» (١٦٠٢).

٤ - كِتابُ الصَّوم
وَأسراره وَمهمَّاته وَمَا يتعلّق بہ

اَعلم أن في الصوم خصيصة ليست لغيره، وهي إضافته إلى الله ﷻ حيث يقول سبحانه: «**الصوم لي وأنا أجزي به**»[١] وكفىٰ بهٰذه الإضافة شرفاً كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سِرٌّ وعملٌ باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدوِّ الله، لأن وسيلةَ العدوِّ الشهواتُ، وإنما تَقوىٰ الشهواتُ بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مُخصِبةً. فالشياطين يترددون إلىٰ ذٰلك المَرعىٰ، وبِتَرْكِ الشهوات تَضِيقُ عليهم المسالك.

وفي الصوم أخبار كثيرة تدلّ علىٰ فضله، وهي مشهورة.

فصل في سنن الصوم

يُستحب السحور، وتأخيره، وتعجيل الفطر، وأن يفطر علىٰ التَّمْر.

ويُستحب الجُود في رمضان، وفِعْلُ المعروف، وكثرةُ الصدقة، اَقتداءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٢].

ويُستحب دراسة القرآن، والاعتكاف في رمضان لا سيما في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

---

(١) حديث قدسي رواه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١)، والنسائي [«صحيحه» (٢٠٨٨-٢٠٩٦)] عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨)، والنسائي [«صحيح سننه» (١٩٨١)]، وانظر «إرواء الغليل» (٨٨٨).

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا دخل العشر الأخير، شَدَّ مِئْزَره، وأحيا الليل، وأيقظ أهله[١].

وذكر العلماء في معنىٰ (شدّ المِئْزَر) وجهين:

أحدهما: أنه الإعراض عن النساء.

الثاني: أنه كناية عن الجِدِّ والتشمير في العمل.

قالوا: وكان سبب ٱجتهاده في العشر طلب ليلة القدر.

بيان أسرار الصوم وآدابه

وللصوم ثلاث مراتب: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأما صوم العموم: فهو كفُّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

فأما صوم الخصوص: فهو كَفّ النظر، واللسان، واليد، والرِّجْل، والسمع، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهِمَم الدنيئة، والأفكار المُبْعِدة عن الله تعالىٰ، وكَفُّه عما سوىٰ الله تعالىٰ بالكُلِّية. وهٰذا الصوم له شروح تأتي في غير هٰذا الموضع.

فمن آداب صوم الخصوص: غَضُّ البصر، وحفظ اللسان عما يؤذي؛ من كلام محرم أو مكروه، أو ما لا يفيد، وحِراسةُ باقي الجوارح.

وفي الحديث ـ من رواية البخاري ـ أن النبي ﷺ قال: **«من لم يَدَعْ قول**

---

(١) رواه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، وأبو داود [«صحيحه» (١٣٢٦/ ١٣٧٦)]، والنسائي [«صحيحه» (١٥٤٥)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١٤٣١/ ١٧٦٨)].

الزور والعمل به، فليس لله حاجة[١] في أن يَدَعَ طعامه وشرابه»[٢].

ومن آدابه: ألا يمتلئ من الطعام في الليل، بل يأكل بمقدار الكفاية، فإنه **«ما ملأ ٱبن آدم وعاءً شرّاً من بطنٍ»**[٣]. ومتىٰ شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه في باقيه، وكذٰلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلىٰ قريب من الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع، ويكونَ تاركاً للمُشتهىٰ.

[في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه]

فأما صوم التطوع، فٱعلم أن ٱستحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة.

وفواضل الأيام:

بعضها: يوجد في كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، والمحرم.

وبعضها: يتكرر في كل شهر، كأوله، وأوسطه، وآخره، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره، فقد أحسن، غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثةَ: أيامَ البيض.

وبعضها: يتكرر في كل أسبوع، وهو يوم الاثنين ويوم الخميس.

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطرُ يوماً، وذٰلك يجمع الثلاثة معان:

أحدها: أن النفس تعطىٰ يوم الفطر حظَّها، وتستوفي يوم الصوم تعبُّدها، وفي ذٰلك جمعٌ بين ما لها وما عليها، وهو العَدْل.

---

(١) المعنى: أن الله لا يبالي بعمله ولا ينظر إليه؛ لأنه أمسك عما أبيح له في غير وقت الصوم، ولم يمسك عما حرم عليه في سائر الأحايين.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٣)، وأحمد (٩٨٢٠)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٠٧٠/ ٢٣٦٢)]، والترمذي [«صحيحه» (٥٦٩/ ٧٠٧)] عن أبي هريرة. وينظر «صحيح الجامع» (٦٥٣٩).

(٣) صحيح؛ سيأتي صفحة ٩١ حاشية (٢).

الثاني: أن يوم الأكل يومُ شُكْرٍ، ويوم الصوم يوم صبر، والإيمان نصفان: شكر، وصبر.

والثالث: أنه أشق على النفس في المجاهدة، لأنها كلما أَنِسَتْ بِحالةٍ نُقِلَتْ عنها.

فأما صوم الدهر كله، ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة: أن عمر ﷺ سأل النبي ﷺ فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «**لا صام ولا أفطر**» - أو «**لم يصم ولم يفطر**» -[1]. وهذا محمول علىٰ من سرد الصوم في الأيام المنهيّ عن صيامها، فأما إذا أفطر يومي العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك، فقد روي عن هشام بن عروة أن أباه كان يسرد الصوم، وكانت عائشة رضي الله عنها تسرد.

وقال أنس بن مالك ﷺ: سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً.

واْعلم أن من رُزِقَ فِطْنة، علم المقصود من الصوم، فحمل نفسه قدر ما لا يُعْجِزه عما هو أفضل منه. فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة، وأنا أختار الصلاة عن الصوم.

وكان بعضهم إذا صام ضَعُفَ عن قراءة القرآن، فكان يُكْثِر الفطر حتىٰ يَقْدِر علىٰ التلاوة. وكل إنسان أعلم بحالِه وما يُصْلِحُه[2].

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢)، وأبو داود [«صحيحه» (٢١١٩/ ٢٤٢٥)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٢٤٧)] عن أبي قتادة.
وفي «صحيح النسائي» (٢٢٤٣) عن عمران، و(٢٢٤٤ و ٢٢٤٥) عن عبدالله ابن الشخير، و(٢٢٤٦) عن عمر.

(٢) قال اْبن عبد البر في كتابه «التمهيد»:
كتب العمري العابد إلى الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحُضُّه علىٰ الانفراد والعمل، ويرغبه عن الاجتماع إليه في العلم.
فكتب إليه مالك: إن الله تعالى قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رجلٍ=

٥ - كِتَابُ الحجّ
وَأسْرارِه وَفضَائله وَنحو ذٰلك

[في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر...]

ينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورَدِّ المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلىٰ وقت الرجوع، ويَرُدّ ما عنده من الودائع.

ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تَقْتير، على وجهٍ يمكنه معه التوسع في الزاد، والرفق بالفقراء.

ويستصحب ما يُصْلِحه، كالسواك، والمشط، والمرآة، والمُكْحُلة[1].

ويتصدق بشيء قبل خروجه. وإذا اكترىٰ فلْيُظْهر للجَمّال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير. وقد قال رجل لابن المبارك: احمل لي هٰذه الرقعة إلىٰ فلان، فقال: حتىٰ أستأذن الجمّال.

وينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير مُعِيناً عليه: إن نسي ذَكَّره، وإن ذكر أعانه، وإن ضاق صدره صبَّره.

ولْيؤمِّرِ الرفقاءُ عليهم: أحسنَهم خُلُقاً، وأرفقهم بالأصحاب. وإنما ٱحتِيج إلىٰ التأمير لأن الآراء تختلف، فلا ينتظم التدبير. وعلىٰ الأمير: الرِّفْقُ بالقوم، والنظر في مصالحهم، وأن يجعل نفسه وِقاية لهم.

وينبغي للمسافر: تطييب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار محاسن الأخلاق؛

= فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة.

ونَشْرُ العلم وتعليمه من أشرف أعمال البِرِّ، وقد رضيتُ بما فتح الله ﷻ فيه من ذٰلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلانا علىٰ خيرٍ وبِرٍّ، ويجب علىٰ كُلٍّ منا أن يرضىٰ بما قسم له، والسلام.

(١) يصطحب معه ما ينفعه، وهٰذا يختلف من زمن إلىٰ زمن، ومن بلد إلىٰ بلد.

فإن السفر يُخْرِج خبايا البَاطن، ومن كان في السفر ـ الذي هو مَظِنَّة الضَّجَر ـ حَسَنَ الخُلُقِ: كان في الحضر أحسن خلقاً.

وقد قيل: إذا أثنىٰ علىٰ الرجل مُعامِلوه في الحضر ورُفَقاؤه في السفر، فلا تشكُّوا في صلاحه.

وينبغي له أن يودع رُفَقاءه وإخوانه المقيمين، ويلتمس أَدْعِيَتَهم، ويجعل خروجه بُكْرَةَ يوم الخميس، ولْيُصَلِّ في منزله ركعتين قبل الخروج منه، ويستودع الله أَهْلَه وماله، ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله، وفي ركوبه ونزوله، وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج. وكذٰلك جميع المناسك ـ من الإحرام، والطواف، والسَّعْي، والوقوف بعَرَفة، وغير ذٰلك من أعمال الحج ـ يأتي فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب، وكل ذٰلك مستوفى في كتب الفقه وغيرها، فَلْيُطْلَب هناك[١].

فصل في الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج

ٱعلم أنه لا وصول إلىٰ الله ﷻ إلا بالتجرد والانفراد لخدمته، وقد كان الرُّهبان ينفردون في الجبال طلباً للأنس بالله، فجعل الحج رهبانية لهٰذه الأمة.

فمن الآداب المذكورة، أن يكون خالياً في حَجِّه من تجارة تشغل قلبه وتفرق هَمَّه، ليجتمع علىٰ طاعة الله تعالىٰ، وأن يكون أشعث أغبر، رَثَّ الهيئة، غير مستكْثِرٍ من الزينة.

وينبغي أن يجتنب ركوب المحمل إلا من عذر، كمن لا يستمسك علىٰ الزامِلة[٢] فإن النبي ﷺ حج علىٰ راحلة وتحته رَحْلٌ رَثٌّ[٣].

---

(١) ومن أحسن ما ينفعك للأدعية كتاب «صحيح الكلم الطيب»، وللمناسك كتاب «حجة النبي ﷺ» للمحدث محمد ناصر الدين الألباني، وهما طبع المكتب الإسلامي.

(٢) بعير يركب ويحمل عليه المتاع، والمزاملة: المبادلة علىٰ البعير الواحد.

(٣) رواه ابن ماجه [«صحيحه» (٢٣٣٧/ ٢٨٩٠)] عن أنس، وتنظر «الصحيحة» (٢٦١٧).

وفي حديث جابر، عن النبي ﷺ: «**إن الله ﷻ يباهي بالحاجّ الملائكة فيقول: أُنظروا إلىٰ عبادي، أَتَوني شُعثاً غُبْراً ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ [الحج]، أُشْهِدُكم أني قد غفرت لهم**»[1].

وقد شَرَّف الله تعالى بَيْتَه وعَظَّمَه، ونَصَبَه مَقْصِداً لِعِبادِهِ، وجعل ما حوله حَرَماً له تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه، وجعل عَرَفَة كالميدان علىٰ فِنائه.

وٱعْلَمْ أن في كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر:

فمن ذٰلك: أن يتذكر بتحصيل الزادِ زادَ الآخرة من الأعمال، ولْيحذرْ أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعُه، كالطعام الرَّطبْ الذي يَفْسُد في أول منازل السفر فيبقىٰ صاحبه وقت الحاجة متحيّراً. فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات، فليتذكر بذٰلك خروجه من الدنيا بالموت إلىٰ ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال.

ومن ذٰلك: أن يتذكر وقت إحرامه وتجرُّده من ثيابه، إذا لبس المحرم الإحرام لبس كفنه، وأنه سيلقىٰ ربه علىٰ زِيٍّ مخالف لِزِيِّ أهل الدنيا، وإذا لَبَّىٰ فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالىٰ إذْ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، ولْيَرْجُ القَبول، ولْيَخْشَ عدم الإجابة. وكذٰلك إذا وصل إلىٰ الحرم ينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشىٰ ألا يكون من أهل القُرْب. غير أنه ينبغي أن يكون الرجاء غالباً، لأن الكرم عميم. وحق الزائر مَرْعِيٌّ، وذمام المستجير لا يضيع.

ومن ذٰلك: إذا رأىٰ البيت الحرام ٱستحضر عظمته في قلبه، وشكر الله تعالىٰ على تبليغه رتبة الوافدين إليه، ولْيستشعر عظمة الطواف به، فإنه صلاة، ويعتقد عند ٱستلام الحجر أنه مبايعٌ لله علىٰ طاعته. ويضم إلىٰ ذٰلك عزيمته علىٰ الوفاء بالبيعة. وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لَجَأَ المُذْنِبِ إلىٰ سيده، وقُرْبَ المُحِبّ.

---

(١) رواه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، وغيره من حديث جابر. وقد صح من حديث أبي هريرة وابن عَمْرو وعائشة. وينظر «صحيح الجامع» (١٨٦٧ و ١٨٦٨).

وأنشد بعضهم في ذٰلك:

سُتُورُ بيتك نَيْلُ الأمن منك وقد ... علقتُها مستجيراً أيها الباري

وما أظنك لما أنْ عُلِقتُ بها ... خوفاً من النار تُدنيني من النار

وها أنا جارُ بيتٍ أنت قلت لنا: ... حجُّوا إليه وقد أوصيتَ بالجار

ومن ذٰلك: إذا سعىٰ بين الصفا والمروة، ينبغي أن يمثلها: بِكِفَّتَي الميزان، وتردّده بينهما في عَرَصات القيامة، أو تردد العبد إلىٰ باب دار الملك، إظهاراً لخلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعاً في قضاء حاجته.

وأما الوقوف بعرفة، فاْذكر بما ترىٰ فيه من اْزدحام الخلق، واْرتفاع أصواتهم واْختلاف لغاتهم: موقفَ القيامة، واْجتماع الأمم في ذٰلك الموطن، واستشفاعهم.

فإذا رميت الجمار، فاْقصِد بذٰلك اْلانقياد للأمر، وإظهارَ الرِّقّ والعبودية، ومجردَ اْلامتثال من غير حظ النفس.

وأما المدينة: فإذا لاحت لك فتذكرْ أنها البلدة التي اْختارها الله تعالىٰ لنبيه ﷺ وشرع إليها هجرته، وجعل فيها تُرْبته.

ثم مَثِّلْ في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردده فيها، وتصور خشوعه وسكينته، فإذا قصدت زيارته(١)، فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبةِ له، ومَثِّلْ صورته الكريمة في خيالك، واْستحضر عظيم مرتبته في قلبك، ثم سَلِّمْ عليه؛

واْعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك، كما ورد في الحديث(٢).

---

(١) ويستحضر المسافر من بلده زيارة مسجده ﷺ، وفي المدينة يستحضر زيارة قبره المكرم. وبذٰلك يخرج من مخالفة نهيه ﷺ عن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة: «**المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وابن عمرو. «صحيح الجامع الصغير» (٧٣٣٢).

(٢) هو في «صحيح أبي داود» (١٧٩٥/ ٢٠٤١) عن أبي هريرة بلفظ: «**ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتىٰ أرد عليه السلام**».

٦ - كتاب آداب
تلاوة القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن أنه كلام الله ﷻ، وقد مدحه الله تعالىٰ في آيات كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢، ١٥٥]. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ﷻ أهلين من الناس**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»[٢]، رواه النسائي.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «**لا يعذب الله قلباً وعىٰ القرآن**»[٣].

وعن ابن عَمْرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْتَقِ ورَتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»[٤] صححه الترمذي.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٢٦/٢٩٠٧)]، وأبو داود [«صحيحه» (١٢٨٩/ ١٤٥٢)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١٧٤/ ٢١١)]. وتنظر «الصحيحة» (١١٧٣).

(٢) إنما رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٣١). ورواه أيضاً أحمد (١٢٢٦٤). وهو في «صحيح ابن ماجه» (١٧٨/ ٢١٥). وينظر «صحيح الجامع» (٢١٦٥)، و«الضعيفة» (١٥٨٢).

(٣) رواه الديلمي (٧٧٩٨) عن عقبة بن عامر. وفيه (ابن لهيعة: ضعيف)، و(الوليد بن مسلم: يدلس تدليس التسوية).

(٤) رواه أحمد (٦٧٩٦)، وهو في «صحيح الترمذي» (٢٣٢٩/ ٢٩١٤)، و«صحيح أبي داود» (١٣٠٠/ ١٤٦٤). وتنظر «المشكاة» (٢١٣٤).

وعن بُريدة عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن القرآن يلقىٰ صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن: الذي أظمَأْتُك في الهَواجِر[1]، وأسهرْتُ ليلك، وإن كُلَّ تاجِر من وراء تجارته، وإني لك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطىٰ المُلْك[2] بيمينه، والخُلْد[3] بشماله، ويُوضَعُ علىٰ رأسه تاجُ الوَقار، ويُكسىٰ والداه حُلَّتين لا تُقَوَّمُ لهما الدنيا، فيقولان: بم كُسِينا هٰذا؟ فيقال: بِأخْذِ وَلَدِكُما القرآنَ، ثم يقال: اقرأ واصعدْ في دَرَج الجنة وغُرَفِها، فهو في صعودٍ ما كان يقرأ؛ هَذّاً[4] كان أو ترتيلاً»**[5].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إذِ الناسُ نائمون، وبنهاره إذِ الناس مُفْطِرون، وبِحُزْنِه إذ الناس يفرحون، وببُكائه إذ الناس يضحكون، وبصَمْتِه إذِ الناس يخوضون، وبخشوعه إذِ الناس يختالون.

ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صَخّاباً[6] ولا حديداً[7].

وقال الفُضَيْلُ: حامِلُ القرآنِ: حامِلُ رايةِ الإسلام، لا ينبغي أن يَلْغُوَ مع مَنْ يَلْغُو، ولا يَسْهُوَ مع من يسهو، ولا يَلْهُوَ مع من يلهو، تعظيماً لله تعالىٰ.

ولا ينبغي أن يكون له إلىٰ أحد حاجة، بل ينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: رأيت رَبَّ العِزَّةِ في المنام، فقلت: يا رب، ما

---

(١) نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٢) يريد: القدرة والتصرف.

(٣) الدوام والخلود.

(٤) أي: القراءة بسرعة.

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٤)، والدارمي (٢/ ٤٥٠-٤٥١). وأخرجه مختصراً ابن ماجه [«صحيحه» (٣٠٤٨/ ٣٧٨١)].

(٦) الصخب: شدة الصوت.

(٧) الحديد: شديد الغضب.

أقْرَبُ ما يَتَقَرَّبُ به إليك المُتَقَرِّبونَ؟ فقال: بكلامي يا أحمد. فقلت: يا رب، بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم.

فصل في آداب التلاوة

ينبغي لقارئ القرآن أن يكون علىٰ وضوء، مُسْتَعْمِلاً للأدب، مُطْرِقاً، غيرَ مُتَرَبِّع ولا مُتَّكِئٍ ولا جالسٍ علىٰ هيئة المُتَكَبِّرِ.

وأفضل الأحوال: أن يقرأ في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد.

فأما مقدار القراءة؛ فقدِ ٱختلفت فيها عادات السلف: فمنهم من كان يختم كلَّ يومٍ وليلةٍ خَتْمةً، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر من ذٰلك، ومنهم من كان يختم في ثلاثٍ، ومنهم من كان يختم في أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالاً بالتدبر، أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوع من التعبد غيرِ القراءة، أو بغيره من ٱكتساب الدنيا.

وأولىٰ الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

قال ابن عباس ﷺ: لَأَنْ أَقْرَأَ البقرة وآل عمران، وأُرَتِّلَهُما وأَتَدَبَّرَهما، أَحَبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله هَذْرَمةً[١].

ومن وجد خُلْسة في وقتٍ، فَلْيغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب، فقد كان عثمان ﷺ يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها، وكان الشافعي يختم في رمضان ستين ختمة.

وأما الدوام: فليكن علىٰ قدر الإمكان، كما أشرنا إليه، وٱسْتَحبَّ بعضهم إذا ختم بالنهار أن يختم في ركعتي الفجر أو بعدهما، وإذا ختم بالليل أن يختم في ركعتي المغرب أو بعدهما؛ يستقبل بالختمة أول الليل وأول النهار.

وقال ابن مسعود ﷺ: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة.

وكان أنس ﷺ إذا ختم القرآن جَمَعَ أهله ودعا.

(١) الهذرمة: السرعة في القراءة والكلام.

فصل: ويستحب تحسين القراءة، وإذا لم يكن حَسَنَ الصوتِ حَسَّنه ما ٱستطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويُستحب الإسرار بالقراءة، وقد جاء في حديث: «**فضل قراءة السر علىٰ قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية**»[(١)]، إلا أنه ينبغي أن يُسْمِعَ نَفْسَه.

ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصودٍ صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو لِيُوقِظَ الوَسْنانَ[(٢)].

فأما حكم القراءة في الصلاة، ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار، فذٰلك معروف مشهور في كتب الفقه.

ومن كان عنده مصحف: ينبغي له أن يقرأ فيه كلّ يومٍ آياتٍ يسيرةً لئلا يكون مهجوراً.

[في أعمال الباطن في التلاوة]

وينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لَطَفَ الله تعالىٰ بخلقه في إيصال معاني كلامه إلىٰ أفهامهم؟ وأنْ يعلم أنَّ ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأنْ يستحضر عَظَمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يَحصُلِ التَّدَبُّرَ إلا بتَرْداد الآيةِ فَلْيُرَدِّدْها، فقد روىٰ أبو ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قام ليلةً بآيةٍ يُرَدِّدُها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[(٣)]،

---

(١) هٰذا اللفظ نقله الغزالي ـ في «الإحياء» الذي هو أصل «منهاج القاصدين» ـ عن «قوت القلوب»، ولم يرد الحديث بهٰذا اللفظ وإنما ورد بلفظ:
«**الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرِّ بالصدقة**» وهو بهٰذا اللفظ الأخير في «صحيح الترمذي» (٢٣٣١/٢٩١٩)، وأخرج أبو داود نحوه [«صحيحه» (١١٨٤/١٣٣٣)] عن عقبة بن عامر. وتنظر «المشكاة» (٢٢٠٢)، و«صحيح الجامع» (٣١٠٥).

(٢) الوسنان: كثير النعاس.

(٣) وتمامها: ﴿... وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]. وهو في «صحيح ابن ماجه» (١١١٠/١٣٥٠)، و«صحيح النسائي» (٩٦٦).

وقام تميمٌ الداريُّ بآية وهي قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[1]، وكذٰلك قام بها الربيع بن خُثَيم ليلة.

وينبغي للتالي أن يَسْتَوْضِحَ من كلِّ آيةٍ ما يليق بها، ويَتَفَهَّمَ ذٰلك، فإذا تلا قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١، ...]، فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يراه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة]، فليتفكر في نطفةٍ متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لَحم وعَظْم، وعَرْق وعَصَب، وأشكالٍ مختلفة من رأس ويد ورِجْل؟ ثم إلىٰ ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع والبصر والعقل، وغير ذٰلك، فليتأمل هٰذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المكذبين فَلْيَشْعُرِ الخوف من السطوة إنْ غَفَلَ عَنِ ٱمتثال الأمر.

ولْيَتَخَلَّ التالي من موانع الفهم، مثل أن يُخَيِّلَ الشيطانُ إليه أنه ما حَقَّقَ تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همَّته عن فهم المعنىٰ.

ومن ذٰلك أن يكون التالي مُصِرّاً علىٰ ذنب، أو مُتَّصِفاً بِكِبْرٍ، أو مُبْتَلىً بهوىً مُطاع، فإن ذٰلك سبب ظُلْمة القلب وصدئه، فهو كالجَرَب علىٰ المرآة، يمنع من تَجَلّيْ الحقِّ، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدإ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب ـ بإماطة الشهوات ـ مثلُ الجِلاء للمرآة.

وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصودٌ بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يُرِدْ بها السَّمَر[2] بل العِبَر، فَلْيَتَنَبَّهْ لذٰلك، فحينئذٍ يتلو تلاوة عَبْدٍ كاتَبَهُ سَيِّده بمقصودٍ، وَلْيتأملِ الكتابَ ويعمل بمقتضاه، فإن مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكَرَّره، كمثل من كَرَّر كتابَ المَلِكِ وأَعْرَضَ عن عِمارة مملكته وما أمر

(١) وتمامها: ﴿... سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].
(٢) أي: الحديث والخبر.

به في الكتاب، فهو مقتصر علىٰ دراسته، مخالف أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء وٱستحقاق المَقْتِ.

وينبغي أنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْله وقُوَّته، وألا يلتفت إلىٰ نفسه بعين الرضا والتزكية، فإنَّ من رأىٰ نفسه بصورة التقصير، كان ذٰلك سَبَبَ قُرْبه.

٧ - كِتَابُ الأذكَار وَالدّعَوات وَغيرهَا

اَعلم أنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدىٰ باللسان أفضل من ذكر الله ﷻ، ورَفْع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالىٰ، ويدلّ علىٰ فضل الذكر قوله تعالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١][(١)]، وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ﷻ يقول: (أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركتْ بي شَفَتَاه)**»[(٢)].

[فضيلة مجالس الذكر]

وفي أفراد مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتهم الملائكة وغَشِيَتْهُم الرحمة ونزلت عليهم السَّكِينة وذكرهم الله في من عنده**»[(٣)].

وفي ذٰلك أحاديث كثيرة مذكورة في فضائل الأعمال.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا على غير ذكر الله ﷻ. إلا تفرقوا عن مثل جِيفة الحمار، وكان ذٰلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة**»[(٤)].

---

(١) اَنظر «زاد المسير» ١/ ٥٢٧ ـ طبع المكتب الإسلامي ـ للإمام اَبن الجَوْزِيّ ـ مؤلفِ أصلِ هٰذا الكتاب ـ ففيه بيان ضلال أدعياء الذكر، الراقصين في حلقات ما يُسَمَّىٰ بـ(الذكر)!

(٢) رواه أحمد (١٠٩٥٠)، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٥٩/ ٣٧٩٢)، وعلقه البخاري قبل الحديث (٧٥٢٤).

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٠)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٦٨٩/ ٣٣٧٨)] عن أبي هريرة وأبي سعيد. وينظر «صحيح الجامع» (٧٧٥٧).

(٤) هو في «صحيح أبي داود» (٤٠٦٤/ ٤٨٥٥) نحوه. وتراجع «الأحاديث الصحيحة» (٧٧).

وفي حديث آخر: «**لا يجلس قوم مجلساً لا يذكرون الله ﷻ ولا يصلون علىٰ النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة**»(١).

وأما فضيلة الدعاء: فقد روىٰ أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس شيء أكرم علىٰ الله ﷻ من الدعاء**»(٢).

و«**أشرف العبادة الدعاء**»(٣).

و«**من لا يسأل الله يغضب عليه**»(٤).

وفي حديث آخر: «**سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل**»(٥).

[آداب الدعاء]

وللدعاء آداب: من ذٰلك أن يتحرىٰ الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسَّحَر من الليل. ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة، وعُقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووَجَلِه.

وعلىٰ الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلىٰ شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل.

ومن آداب الدعاء أن يدعُوَ مستقبل القبلة، ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء. ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله ﷻ، ثم يصلي علىٰ النبي ﷺ، ولا يتكلف السجع في الدعاء. ومن آدابه ـ وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة ـ التوبة، ورد المظالم.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٩٤٧)، ورواه ابن حبان والحاكم والخطيب. ينظر «صحيح الجامع» (٧٦٢٤).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٧/ ٣٨٢٩)، و«صحيح الترمذي» (٢٦٨٤/ ٣٣٧٠).

(٣) ضعيف: «الأدب المفرد» (٧١٣).

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٨١) وغيره كابن ماجه [«صحيحه» (٣٠٨٥/ ٣٨٢٧)]، والترمذي [«صحيحه» (٢٦٨٦/ ٣٣٧٣)]. وتنظر «الصحيحة» (٢٦٥٤).

(٥) ضعيف جداً؛ رواه الترمذي [«ضعيف سننه» (٧٢٠/ ٣٥٧١)] عن ابن مسعود. وتنظر «الضعيفة» (٤٩٢)، و«ضعيف الجامع» (٣٢٧٨).

[كتاب: ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل]

فصل في الأوراد وفضلها
وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات

اعلم أنه إذا حصلتِ المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده، والعلم بِقِصَرِ العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فنٍّ واحد حصل لها مَلَلٌ، فمن التلطُّف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان]. فهٰذا ونحوه مما ذكر من الآيات في ذٰلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان] أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر.

بيان عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها

أوراد النهار سبعة، وأوراد الليل ستة، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به.

الوِرد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير] فينبغي للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله ﷻ فيقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**»[١]. روي ذٰلك عن النبي ﷺ من أفراد البخاري.

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله لا شريك له،** ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن] **رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هٰذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في**

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢) عن حذيفة. و(٦٣٢٥) عن أبي ذر. ومسلم (٢٧١١) عن البراء.

النار وعذاب في القبر»[١]. وإذا أصبح قال ذٰلك أيضاً: «**أصبحنا وأصبح الملك لله...**» إلى آخره.

ويقول: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**»[٢] ثلاث مرات.

«**رضيت بالله رَبّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً**»[٣].

فإذا صلّىٰ الفجر قال وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو علىٰ كل شيء قدير**»[٤] عشر مرات.

ويذكر سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما ٱستطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك**[٥] **بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[٦].

ويقول: «**أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم** ﴿حَنِيفًا[٧] مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]»[٨].

---

(١) هو عند مسلم (٢٧٢٣)، وأبي داود [«صحيح سننه» (٥٠٧١/٤٢٣٨)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٦٩٩/ ٣٣٩٠)].

(٢) «صحيح أبي داود» (٥٠٨٨/٤٢٤٤)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٩٨/ ٣٣٨٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٢٠/ ٣٨٦٩) من حديث عثمان.

(٣) رواه ابن ماجه [«ضعيفه» (٨٤٥/ ٣٨٧٠)]. وتنظر «الصحيحة» (٢٦٨٦).

(٤) رواه الترمذي [«صحيح سننه» (٢٧٦٠/ ٣٤٧٠)]. وصححه الألباني في «تمام المنة» ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٥) أي: أعترف لك.

(٦) رواه البخاري (٦٣٠٦) وغيره من حديث شداد بن أوس.

(٧) أي: مائلاً من جميع الأديان إلىٰ الإسلام.

(٨) رواه أحمد ٣/ ٤٠٦ (١٥٣٣٨) والدارمي من حديث عبد الرحمن بن أبزىٰ، وهو في «الصحيحة» (٢٩٨٩).

ويدعو: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»[١].

ويدعو بدعاء أبي الدرداء: «اللهم أنت ربي، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] عليك توكلت، وأنت ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة]، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلمُ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابّة أنت ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]»[٢].

فهٰذه الأدعية لا يستغني المريد عن حفظها.

وينبغي له قبل خروجه إلىٰ صلاة الفجر أن يصلي السُّنَّة في منزله، ثم يخرج متوجهاً إلىٰ المسجد ويقول: «اللهم إني أسألك بحق السائلين[٣] عليك، وبحق مَمْشاي هٰذا، فإنني لم أخرج أَشراً، ولا بَطَراً، ولا رياء ولا سمعة، خرجت ٱتقاءَ سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٤].

فإذا دخل المسجد، فليقل ما روى مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم علىٰ النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم ٱفتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك**»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) قال العراقي ١/٣١٦: أخرجه الطبراني في «الدعاء» من حديث أبي الدرداء؛ ضعيف.

(٣) حق السائلين، ما كتبه الله علىٰ نفسه من إجابتهم، وإلا؛ فليس لأحد حق علىٰ الله، وفي هٰذا الحديث مقال علىٰ كل حال.

(٤) هو في «ضعيف ابن ماجه» (١٦٨/٧٧٨)، ورواه أحمد (١١١٤٠).

(٥) هو عند مسلم (٧١٣)، وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٤٠/ ٤٦٥)، و«صحيح سنن النسائي» (٧٠٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٦٢٦/ ٧٧٢).

ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية.

فإذا صلىٰ الفجر، ٱسْتُحِبَّ أن يمكث في مكانه إلىٰ طلوع الشمس.

فقد روىٰ أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلىٰ الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالىٰ حتىٰ تطلع الشمس، ثم صلىٰ ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامَّة تامَّة تامَّة**»[1].

ولتكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر.

ولْيَأْتِ بما أمكنه، وليتفكر في قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدي وظائف يومه. وليتفكر في نعم الله تعالىٰ ليتوفر شكره.

الوِرْد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلىٰ الضحىٰ، وذٰلك بِمُضِيِّ ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار ٱثنتي عشرة ساعة، وهو الربع، وهٰذا وقت شريف وفيه وظيفتان:

إحداهما: صلاة الضحىٰ.

والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أو تشييع جِنَازة، أو حضور مجلس علم، أو قضاء حاجة مسلم. وإن لم يفعل شيئاً من ذٰلك تشاغل بالقراءة والذكر.

الوِرْد الثالث: من وقت الضحىٰ إلىٰ الزوال، والوظيفة في هٰذا الوقت، الأقسام الأربعة، وزيادة أمرين:

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، وحضور السوق، فإن كان تاجراً فَلْيَتَّجِرْ بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة، فليصنع بنصيحة وشفقة، ولا يَنْسَ ذكر الله تعالىٰ في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل.

والثاني: القيلولة، فإنها مما تُعِينُ علىٰ قيام الليل، كما يُعِينُ السحور علىٰ

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٤٨٠/٥٨٦). وينظر «صحيح الجامع» (٦٣٤٦).

صيام النهار. فإن نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت.

وٱعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فالاعتدال أن ينام من ذٰلك الثُلث، وهو ثمان ساعات، فمن نام أقل من ذٰلك لم يأمنِ ٱضطراب بدنه، ومن نام أكثر من ذٰلك كَثُرَ كَسَلُه، فإذا نام أكثر من ذٰلك في الليل، فلا وجه لنومه في النهار، بل من نقص منه ٱستوفى ما نقص في النهار.

الوِرْد الرابع: ما بين الزوال إلىٰ الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها. فينبغي له في هٰذا الوقت إذا أذَّن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات، ويستحب أن يطيلهن، فإن أبواب السماء تفتح حينئذ[1]، ثم يصلي الظهر وسنتها، ثم يتطوع بعدها بأربع.

الوِرْد الخامس: ما بعد ذٰلك إلىٰ العصر، يستحب له في هٰذا الوقت الاشتغال بالذِّكر، والصلاة، وفنون الخير، ومن أفضل الأعمال ٱنتظار الصلاة بعد الصلاة.

الوِرْد السادس: إذا دخل وقت العصر إلىٰ أن تَصْفَرَّ الشمس، وليس في هٰذا الوقت صلاة سوىٰ أربع ركعات بين الأذانين، ثم فرض العصر، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التي سبق ذكرها في الوِرْد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم.

الوِرْد السابع: مِن ٱصفرار الشمس إلىٰ أن تغرب، وهو وقت شريف.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانوا أشدَّ تعظيماً للعَشِيِّ من أول النهار.

فيستحب في هٰذا الوقت التسبيح، والاستغفار خاصة.

وبالمغرب تنتهي أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فَقَد ٱنقضتْ من طريقه مرحلة. وليعلم أن العمر أيام تنقضي جملتها بٱنقضاء آحادها.

---

(١) من حديث أبي أيوب وعبدالله بن السائب، وهو في «صحيح الترغيب» (٥٨٢ و٥٨٣). وكذا البزار من حديث ثوبان.

قال الحسن: يا ٱبن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضىٰ يومك مضىٰ بعضك.

وليتفكر هل ساوىٰ يومُه أَمْسَه؟ فإن رأىٰ أنه قد توفر علىٰ الخير في نهاره، فليشكرِ الله ﷻ علىٰ التوفيق، فإن تكنِ الأخرىٰ، فَلْيَتُبْ وليعزم علىٰ تلافي ما سبق من التفريط في الليل، فـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وليشكر الله تعالىٰ علىٰ صحة جسمه، وبقاء بقيةٍ من عمره يمكن فيها ٱستدراك التقصير. وقد كان جماعة من السلف يستحبون ألا ينقضي يوم إلا عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير.

ذكر أوراد الليل

الوِرْد الأول: إذا غربت الشمس إلىٰ وقت العشاء، فإذا غربت صلىٰ المغرب وٱشتغل بإحياء ما بين العشاءين:

فقد روي عن أنس ﷺ في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة] أن هٰذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلىٰ بعد المغرب ست ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوء، عُدِلْنَ له بعبادة ٱثنتي عشرة سنة**»[٢]. رواه الترمذي.

الوِرْد الثاني: من غيبوبة الشفق الأحمر إلىٰ وقت النوم، يُستحب أن يصلي بين الأذانين ما أمكنه، وليكن في قراءته: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [السجدة] و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [تبارك: ١].

فقد كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأهما[٣].

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٤/ ٣١٩٤).

(٢) ضعيف جداً؛ «ضعيف ابن ماجه» (٢٨٩/ ١٣٧٤)، و«ضعيف الترمذي» (٦٦/ ٤٣٥). وتنظر «الضعيفة» (٤٦٩)، و«ضعيف الجامع» (٥٦٦١).

(٣) رواه الترمذي وغيره عن جابر، وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥٨٥)، و«صحيح الجامع» (٤٨٧٣).

وفي حديث آخر عن ابن مسعود ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقةٌ**»[١].

الوِرْد الثالث: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره في حقه أفضل، قالت عائشة رضي الله عنها: (مِنْ كُلِّ الليل قد أوتر رسول الله ﷺ: من أول الليل، وأوسطه، وآخره فانتهىٰ وتره إلىٰ السحر)[٢] متفق عليه.

ثم ليقل بعد الوتر: «**سبحان الملك القدوس**»[٣] ثلاث مرات.

الوِرْد الرابع: النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا رُوْعِيَتْ آدابه وحسن المقصود به اُحْتُسِبَ عبادة.

وقد قال معاذ ﷺ: إني لَأَحْتَسِبُ في نَوْمَتِي كما أَحتسب في قَوْمَتِي.

فمن آداب النوم: أن ينام علىٰ طهارة:

لما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام [وهوجُنُبٌ] توضأ وضوءه للصلاة[٤].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن الأرواح يعرج بها في منامها إلىٰ السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهراً سجد عند العرش، وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً عن العرش.

ومن آدابه أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات في نومه.

ومنها: أن يزيل كل غِشٍّ في قلبه لمسلم، ولا ينوي ظلمه، ولا يعزم علىٰ خطيئة إذا اَستيقظ.

---

(١) رواه البيهقي عن ابن مسعود، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٧٣)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٢٨٩)، و«الفوائد المجموعة» (٩٧٣). وكلها طبع المكتب الإسلامي.

(٢) رواه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥) وغيرهما.

(٣) «صحيح سنن النسائي» (١٦٠٤ و ١٦٣٢) عن أُبيّ.

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٥)، وما بين الحاصرتين منه.

ومنها: ألا يبيت من له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأن في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما حق امرئٍ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»**[١].

وينبغي له أيضاً ألا يبالغ في تمهيد الفراش مُتَنَعِّماً بذٰلك، فإنه يزيد في النوم، فإن النبي ﷺ ثُني له فراشه، فقال: **«منعتني وَطْأَته صلاتي الليلة»**[٢].

وينبغي ألا ينام حتىٰ يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا غَلَبَةً.

ومن آدابه أن يستقبل القِبْلة، وأن يدعو بما ورد من الأحاديث في ذٰلك، وأن ينام علىٰ جنبه الأيمن، فمما جاء في ذٰلك ما روىٰ أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا أوىٰ أحدكم إلىٰ فراشه فَلْيَنفُضْه بداخِلةِ إزاره، فإنه لا يدري ما حدث بعده»**[٣]. فإذا وضع جنبه فليقل: **«بٱسمك ربي وَضَعْتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فٱرْحَمْها، وإن أَرْسَلْتَها فٱحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»** أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيحين» أيضاً، من حديث عائشة، أن النبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم يمسح بهما ما ٱستطاع من جسده، يبدأ بهما علىٰ رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذٰلك ثلاث مرات[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، وهو في «صحيح أبي داود» (٢٤٨٨/ ٢٨٦٢)، و«صحيح الترمذي» (٧٧٩/ ٩٧٤)، و«صحيح النسائي» (٣٣٧٩ و٣٣٨٠ و٣٣٨٢)، و«صحيح ابن ماجه» (٢١٨٥/ ٢٦٩٩ و٢١٨٦/ ٢٧٠٢). وينظر «الإرواء» (١٦٥٢)، و«صحيح الجامع» (٥٦١٥).

(٢) جزء من حديث رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» ـ ص ١٣٧ من طبعة الجميلي ـ بإسنادٍ واهٍ.

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)، وهو في «صحيح أبي داود» (٤٢٢٣/ ٥٠٥٠)، و«صحيح الترمذي» (٣٤٠١/٣٣٩٨). وينظر «صحيح الجامع» (٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤٨)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٢٨/ ٥٠٥٦)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٠٨/ ٣٤٠٢).

وفيهما من حديث البراء بن عازب ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أتيتَ مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: (اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفَوَّضتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رَغبة ورَهبة إليك، لا ملجأ ولا مَنجَا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت وبنبيِّك الذي أرسلت). فإنك إنْ متَّ في ليلتك مت علىٰ الفطرة، وإن أصبحت أصبْتَ خيراً»**(١).

وعن علي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة: **«إذا أخذتما مضاجعكما، أو أوَيتُما إلىٰ فراشكما، فَسَبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحْمَداه ثلاثاً وثلاثين، وكبِّراه أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»**(٢) متفق عليه.

وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطاناً قال له: (إذا أوَيْتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يَقْرَبك شيطان). فأخبر رسولَ الله ﷺ، فقال: **«أمَا إنه قد صَدَقك وهو كذوب»**(٣).

وفي أفراد مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: **«الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤْوي»**(٤).

فإذا استيقظ للتهجد، فَلْيَدْعُ بدعاء رسول الله ﷺ: **«اللهم ربنا لك الحمد، أنت قَيِّمُ السمٰوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السمٰوات**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧، ٦٣١١) وله أطراف في أحاديث أخرىٰ، وهو في مسلم (٢٧١٠)، و«صحيح أبي داود» (٥٠٤٦/ ٤٢١٩)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٨/ ٣٧٠٣).

(٢) رواه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧)، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧١٣/ ٣٤٠٨).

(٣) علقه البخاري (٥٠١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧١٥)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٢٥/ ٣٠٥٣)، و«صحيح الترمذي» (٢٧٠٤/ ٣٣٩٦) عن أنس. وينظر «صحيح الجامع» (٤٦٨٩).

والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت مَلِك السمٰوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللّٰهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أَنَبْتُ، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاْغفر لي ما قدمت وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ وما أعلنت». وفي رواية: «**وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إلٰه إلا أنت**»[١] متفق عليه.

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالىٰ، وأول ما يجري علىٰ لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالىٰ، فهاتان علامتان علىٰ الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يَدْخُل بِمُضِيِّ النصف الأول إلىٰ أن يبقىٰ من الليل سُدسه، وذٰلك وقت شريف.

قال أبو ذر ﷺ: سألت رسول الله ﷺ: أي صلاة الليل أفضل؟ فقال: «**نصف الليل أو جَوْف الليل، وقليلٌ فاعِلُه**»[٢].

وروي أن داود ﷺ قال: يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في شطر الليل حتىٰ تخلو بي وأخلو بك، واْرفعْ إليَّ حوائجك.

فإذا قام إلىٰ التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة (آل عمران)، كما روي في «الصحيحين» أن النبي ﷺ فعل ذلك[٣]. ولْيَدْعُ بما سبق من دعائه ﷺ عند قيامه من الليل، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روىٰ أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا قام أحدكم يصلي بالليل، فليبدأ بركعتين خفيفتين**»[٤] رواه مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان». وينظر «ضعيف الجامع» (١٠٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٩٩٢)، ومسلم (٧٦٣)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٥٢/ ٥٨)، و«صحيح النسائي» (١٦٠٨) عن ابن عباس.

(٤) أخرجه (٧٦٨)، لكن صحح الألباني أنه من قول أبي هريرة في «ضعيف سنن أبي داود» (٢٨٧/ ١٣٢٣)، بإشرافي، طبع المكتب الإسلامي.

ثم يصلي مثنى مثنى، وأكثر ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، وأقلهن سبع[١].

الورد السادس من الليل: السُّدس الأخير، وهو وقت السَّحرِ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات].

وفي الحديث: «**إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة**»[٢].

وجاء طاوس إلىٰ رجل وقت السَّحرِ، فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنت أرىٰ أن أحداً ينام وقت السَّحَر.

فإذا فرغ المريد من صلاة السحر، فليستغفرِ الله عز وجل.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يفعل ذٰلك.

فصل في اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلماً، أو والياً، أو محترفاً، أو مستغرقاً بمحبة الله ﷻ مشغولاً به عن غيره.

الأول: العابد، وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلىٰ التعبد، فهٰذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب علىٰ حاله التلاوة، حتىٰ يختم في يوم ختمة، أو ختمتين، أو ثلاثاً، وكان فيهم من يكثر التسبيح، ومنهم من يكثر الصلاة، ومنهم من يكثر الطواف بالبيت.

فإن قيل: فما الأَولىٰ أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هٰذه الأوراد؟ فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عَسُرتِ

---

(١) رواه البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٧٣٨) عن عائشة.

(٢) رواه ابن عدي ٦/ ٢٠٩٣ في ترجمة كلثوم، وقال: يحدث عن عطاء بمراسيل، وعن غيره بما لا يتابع عليه.

المواظبة علىٰ ذٰلك. والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص. ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره، فلينظر المريد ما يراه أشدَّ تأثيراً فيه فيواظبْ عليه، فإذا أحس بمللٍ ٱنتقل عنه إلى غيره.

قال أبو سليمان الدارانيُّ: فإذا وجدتَ قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع.

الثاني: العالم الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوىً، أو تدريس، أو تصنيف، أو تذكير، فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد، فإنه يحتاج إلىٰ المطالعة في الكتب، والتصنيف، والإفادة، فإنِ ٱستغرق الأوقات في ذٰلك، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات. وإنما نعني بالعِلْم المُقَدَّم علىٰ العبادة: العِلْمَ الذي يُرَغِّبُ في الآخرة، ويعين علىٰ سلوك طريقها. والأولىٰ بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته، لأن ٱستغراق الأوقات في العلم لا تصبر عليه النفس. فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلىٰ طلوع الشمس بالأذكار والأوراد علىٰ ما ذكرنا. ثم ما بعد طلوع الشمس إلىٰ الضحىٰ في الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم، صرف ذٰلك الزمان إلىٰ التفكر في العلوم، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا: يعين علىٰ التفطن للمشكلات. ثم من ضَحْوة النهار إلىٰ العصر للتصنيف والمطالعة، لا يترك ذٰلك إلا في وقت أَكْلٍ، أو طهارة، أو مكتوبة، أو قَيْلولة. ومن العصر إلىٰ ٱصفرار الشمس بسماع ما يُقْرأ عليه من تفسير، أو حديث، أو علم نافع. ومِنَ الاصفرار إلىٰ الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح، فيكون وِرْدُه الأوّل من عمل اللسان، والثاني في عمل القلب بالتفكر، والثالث في عمل العين واليد بالمطالعة والنَّسْخ، والرابع بعد العصر في عمل السمع لتتروح العين واليد، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أَضَرَّا بالعين.

وأما الليل: فأحسنُ قِسْمةٍ فيه قسمة الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء: الثلث الأول لكتابة العلم، والثاني للصلاة، والثالث للنوم، فأما الصَّيْفُ، فربما لا يحتمل ذٰلك، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: حال المتعلم، فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد، لٰكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوامِّ كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل مِنِ ٱشتغاله بالأوراد المتطوَّع بها.

الرابع: الوالي مثل الإمام، والقاضي، أوِ المتولي للنظر في أمر من أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم علىٰ وَفْقِ الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدَّىٰ نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار علىٰ المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذٰلك، ويَقْنَع بأوراد الليل.

الخامس: المحترف، وهو محتاج إلىٰ الكسب له ولعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاوَدَ الأوراد.

السادس: المستغرق بمحبة الله سبحانه، فهٰذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالىٰ، وهو يحركه إلىٰ ما يريد مِنْ وِرْدِه.

وينبغي أن يداوم العمل علىٰ الأوراد، لقول النبي ﷺ: **«أحب العمل إلىٰ الله تعالىٰ أدومه وإن قلَّ»**[1].

وكان النبي ﷺ عَمَلُه دِيْمَةً[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤-٦٤٦٥)، ومسلم (٢١٨) و (٧٨٢) و (٢١٦) كلها بنحوه عن عائشة، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (١٢١٩/١٣٦٨)، و«صحيح النسائي» (٧٣٤). وينظر «صحيح الجامع» (١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٢٢١/ ١٣٧٠)] عن عائشة.

(الديمة): العمل الدائم في سكون. قال أهل اللغة: (الديمة): المطر الدائم في سكون، شَبَّه به عمله في دوامه مع الاقتصاد.

باب في قيام الليل وفضله والأسباب المُيَسِّرَةِ لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال النبي ﷺ: **«عليكم بقيام الليل، فإنه دَأْبُ الصالحين قبلكم، وهو قُرْبة إلىٰ ربكم، ومغفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»**(١).

وفي فضله أحاديث كثيرة.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم أجد من العبادة شيئاً أشدَّ من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المُتَهَجِّدِينَ أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خَلَوْا بالرحمٰن فألْبَسَهم من نوره.

فصل في الأسباب المُيَسِّرة لقيام الليل

اعلم أن قيام الليل صَعْبٌ إلا علىٰ من وُفِّق للقيام بشروطه الميسرة له، فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فألا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: يا معشر المُريدين، لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

ومنها: ألا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقَّة.

ومنها: ألا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

ومنها: أن يجتنب الأَوْزار. قال الثَّوْرِيُّ: حُرِمْتُ قيامَ الليل خمسة أشهرٍ بِذَنْبٍ أذنبْتُه.

وأما المُيَسِّرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا.

---

(١) «صحيح الترمذي» (٢٨١٤/٣٥٤٩). وينظر «صحيح الجامع» (٤٠٧٩)، و«الإرواء» (٤٥٢)، و«المشكاة» (١٢٢٧).

ومنها: خوفٌ غالبٌ يلزم القلب مع قِصَرِ الأمل.

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

ومن أشرف البواعث علىٰ ذٰلك: الحبُّ لله تعالىٰ، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجىٰ ربّه، وأنه حاضِرُه ومُشاهِدُه، فتحمله المناجاة علىٰ طول القيام.

قال أبو سليمان رَحِمَهُ اللهُ: أهل الليل في ليلهم أَلَذُّ من أهل اللهو في لَهْوِهم، ولولا الليل ما أحببْتُ البقاء في الدنيا.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً من أمرِ الدنيا والآخرة إلا أتاه إياه، وذٰلك كل ليلة»**(١).

وإحياء الليل مراتب:

[بيان طرق القسمة لأجزاء الليل]

أحدها: أن يحيي الليل كله، روي ذٰلك عن جماعة من السلف.

الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروي أيضاً عن جماعة من السلف، وأحسن الطريق في هٰذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام.

ففي «الصحيحين»: **«أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»**(٢).

ونوم آخر الليل أحسن، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صُفْرته.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٧)، وأحمد في «مسنده» طبعة المكتب الإسلامي المرقمة (١٤٣٣٨ و١٤٥٢٨) عن جابر.

(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩)، وأحمد (٦٩١٨)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٣٨-٢٤٤٨)، و«صحيح سنن النسائي» (١٥٣٦ و٢٢٠٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٩٠/ ١٧١٢)، والدارمي ٢/ ٢٠ عن ابن عمرو. وينظر «رياض الصالحين» (١١٨٥) و«الإرواء» (٩٤٥)، طبع المكتب الإسلامي.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خُمسَهُ، والأفضل من ذٰلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: ألا يراعي التقدير، فإن مراعاة ذٰلك صعب.

ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلىٰ أن يغلبه النوم فينام، فإذا ٱنتبه قام، فإذا غلبه النوم نام، وهٰذا من أشد المُكابدة، وهو طريق جماعة من السلف.

وفي «الصحيحين» من حديث أنس ﷺ: ما كنا نشاء أن نرىٰ رسول الله ﷺ مُصَلِّياً من الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه[1].

وكان عمر ﷺ يصلي من الليل ما شاء الله، حتىٰ إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة.

وقال الضَّحَّاك: أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هٰذا الليل من طول الضجعة.

الطريق الثاني: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حَظَّه من النوم، وٱنتبه، قام الباقي.

قال سُفْيان الثَّوْرِيُّ: إنما هي أول نومة، فإذا ٱنتبهت لم أقلها - يعني: لم ينم -.

المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: **«صلوا من الليل، صلوا أربعاً، صلوا ركعتين. .»** الحديث[2].

وفي «سنن أبي داود» قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنِ ٱستيقظ من الليل**

---

(١) رواه البخاري (١١٤١)، واللفظ للنسائي [«صحيح سننه» (١٥٣٥)].

(٢) رواه البيهقي في «الشعب»، وهو أيضاً في «ضعيف الجامع الصغير» عن الحسن مرسلاً برقم (٣٤٨٨)، طبع المكتب الإسلامي.

ولفظه: **«صلوا من الليل ولو أربعاً، صلوا ولو ركعتين، ما من أهل بيت تُعرف لهم صلاة من الليل إلا ناداهم منادٍ: يا أهل البيت قوموا لصلاتكم»**.

وأيقظ امرأته فَصَلَّيا جميعاً ركعتين، كُتِبا لَيلَتَئِذٍ من ﴿ٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]»(١).

وكان طَلْحة بن مُصَرِّف يأمر أهله بقيام الليل، ويقول: صلوا ركعتين، فإن الصلاة في جَوْفِ الليل تَحُطُّ الأَوْزار.

فهٰذه طُرُق قسمة الليل، فليتخيَّرِ المريد لنفسه ما يَسْهُل عليه.

فإن صَعُبَ القيام عليه في وسط الليل، فلا ينبغي أن يُخِلَّ بإحياء ما بين العِشاءين ووِرْدِ السَّحَر، ليكون قائماً في الطَّرَفين، وهٰذه **مرتبة سابعة**.

فصل

فأما من صَعُبت عليه الطهارة في الليل، وثَقُلت عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القِبلة، وليذكرِ الله تعالىٰ، ولْيَدْعُ مهما قدر. فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع. ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليأتِ به بعد صلاة الضحىٰ. فقد ورد ذٰلك في الحديث(٢).

وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها، ففي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لعبدالله بن عَمْرو: **«لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»**(٣).

فصل في بيان الليالي والأيام الفاضلة

أما الليالي المخصوصات بمزيد الفضل التي يُستحب إحياؤها، فخمس

---

(١) «صحيح أبي داود» (١٢٨٨/ ١٤٥١)، وأخرج نحوه (١١٥٧/ ١٣٠٩)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٨/ ١٣٣٥) عن أبي سعيد وأبي هريرة، وهو في «صحيح الجامع» (٦٠٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٧) عن عمر مرفوعاً بلفظ: «. . . فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر. . .».

(٣) رواه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩)، والنسائي [«صحيحه» (١٦٦٣ و ١٦٦٤)] عن ابن عَمْرو نفسه.

عَشْرَةَ ليلة، ولا ينبغي للمريد أن يغفل عنهن، لأنه إذا غفل التاجر عن موسم الرِّبحْ فمتىٰ يربح؟ فمن هٰذه الليالي سبع في رمضان: الليلة السابعة عشرة، وهي التي كانت صبيحتها وقعة بدر، والست الباقية هن أوتار العَشْر، إذ فيهن تُطلب ليلة القدر. وأما الثمان الأُخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه فإنها ليلة المعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيدين. وقد ورد صلوات لبعض هٰذه الليالي وليس فيها ما يثبت[1].

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يوماً: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبع وعشرين من رجب، وهو أول يوم هبط فيه جبريل علىٰ النبي ﷺ، ويوم سبع عشرة من رمضان كان فيه وقعة بدر، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، والأيام المعلومات وهي عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

ومن فواضل الأيام في أسبوع: يوم الاثنين، والخميس، وأيام البيض[2]. وفيها فضل كبير مذكور في: (فضائل الصوم).

آخر (كتاب: الأوراد)،
وهو آخر (ربع: العبادات)،
وبالله التوفيق.

---

(١) وهٰذا صحيح. وليس المقصود بالإحياء قيام كل الليل، بل لا بد من نوم بعضه، ولا فرق في هٰذا بين ليلة القدر وباقي العشر الأخير من رمضان، وبين غيرها من الليالي.

(٢) وهي ثلاث أواسط الشهر، حيث يكون القمر بدراً. ومن يظنها أوائل شوال فهو واهم.

رُبعُ العَادَات

٨ - بابٌ في آدابِ الأكل والاجتماع عليه والضيافة ونحو ذلك

وآداب الأكل، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمن القسم الأول: غسل اليدين قبل الأكل، كما ورد في الحديث[١]، لأنها لا تخلو من درن.

ومن ذٰلك أن يُوْضَعَ الطعام على السُّفْرةِ الموضوعةِ علىٰ الأرض، فإنه أقرب إلىٰ فعل رسول الله ﷺ مِنْ رَفْعِه على المائدة، وهو أدنىٰ إلىٰ التواضع.

ومن ذٰلك أن يجلس الجلسة علىٰ السفرة، فينصب رجله اليمنىٰ، ويعتمد علىٰ اليسرىٰ، وينوي بأكله أن يتقوىٰ على طاعة الله تعالىٰ ليكون مطيعاً بالأكل، ولا يقصد به التنعم فقط، وعلامة صحة هٰذه النيةِ أَخْذُ البُلْغَة دون الشِّبَع. قال النبي ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حَسْبُ ابنِ آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كان لا مَحَالَة، فَثُلُثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[٢]. ومن ضرورة هذه النية ألّا يمد يده إلىٰ الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع، ومَنْ فَعَلَ ذٰلك لم يَكَدْ يحتاج إلىٰ طبيب.

ومن ذلك أن يرضىٰ بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده.

---

(١) منها: «**بركة الطعام الوضوء قبله وبعده**» «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٦٨)، وكلها ضعيفة. قاله العراقي ٢/ ٣.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٥٥)، وهو في «صحيح الترمذي» (١٩٣٩/ ٢٣٨٠)، و«صحيح ابن ماجه» (٢٧٠٤/ ٣٣٤٩)، والحاكم عن المقدام بن مَعْدِ يكَرِب. وينظر «صحيح الجامع» (٥٦٧٤)، و«الإرواء» (١٩٨٣)، و«الصحيحة» (٢٢٦٥).

القسم الثاني: في الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ بٱسم الله في أوله، ويحمد الله تعالىٰ في آخره.

ومن ذلك أن يأكل باليمنى ويُصَغِّر اللُّقمة ويجوِّد مَضْغَها، وألّا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يَذُمَّ مأكولاً.

ومن ذٰلك أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها.

ومن ذٰلك ألا ينفخ في الطعام الحارّ، (ولا يَجْمَعَ بين التمر والنوىٰ في طبقٍ واحد)[1]، ولا يجمعه في كَفِّه، بل يضعه مِنْ فِيْه على ظهرِ كفه ثم يلقيه، وكذا كل ما له عَجَم وثُفْلٍ، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أَجْوَدُ في باب الطب.

ومن آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مَصّاً لا عبّاً، فقد روي عن علي ﷺ: (مَصُّوا الماء مَصّاً ولا تَعُبُّوه عَبّاً، فإن الكُبَادَ من العَبِّ). ولا يشرب قائماً، ويتنفس في شربه ثلاثاً:

ففي «الصحيحين» أن النبي ﷺ كان يتنفس في شربه ثلاثاً[2]. والمعنىٰ يتنفس في شربه من الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النَّفَس في الإناء.

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام. وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت[3] القصعة، وليحمد الله. ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لَيَرْضىٰ عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»[4]. ويغسل يده من الغَمَر[5].

---

(١) لفعله ﷺ كما رواه مسلم (٢٠٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢٨)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٥٣٦/ ١٨٨٤)] عن أنس. ومعناه في «صحيح الجامع» (٤٩٥٦)، و«الصحيحة» (١٢٧٥).

(٣) أي: يتتبع ما بقي فيها من الطعام ويمسحها.

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٤٨٣/ ١٨١٦) عن أنس. تنظر «الصحيحة» (١٦٥١).

(٥) الغمر ـ بفتحتين ـ الدسم والزهومة، من اللحم والسمن.

فصل فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

من ذلك ألا يبتدئ في الأكل إذا كان معه من يستحق التقدم لِكِبَرِ سِنٍّ أو زيادةِ فضلٍ، إلا أن يكون هو المتبوع.

ومنها ألا يسكتوا علىٰ الطعام، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

ومن ذٰلك أن يقصد كلٌّ منهم الإيثار لرفيقه، ولا يحوج رفيقه إلىٰ أن يقول له: كُلْ، بل ينبسط ولا يتصنع بالانقباض.

ومن ذٰلك ألا ينظر إلىٰ أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا.

ومن ذٰلك ألا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمي به، صرف وجهه عن الطعام، وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخَلِّ، ولا الخل في الدسمة، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقة.

فصل

[في آداب تقديم الطعام إلىٰ الإخوان الزائرين]

ويستحب تقديم الطعام إلىٰ الإخوان، رُوي ذٰلك عن علي ﷺ أنه قال: لَأَنْ أَجمع إخواني علىٰ صاعٍ من الطعام أحب إليَّ من أن أعتق رقبة.

وكان خيثمة رحمه الله يصنع الخبيص والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول: كُلُوا، فما صنعته إلا لكم.

ويقدم ما حضر من غير تكلف، ولا يستأذنهم في التقديم، بل يقدم من غير ٱستئذان، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده.

ومن آداب الزائر ألا يقترح طعاماً بعينه، وإن خُيِّر بين طعامين ٱختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مضيفه يُسَرُّ بٱقتراحه ولا يقصر عن تحصيل ذٰلك، فقد نزل الشافعي رحمه الله علىٰ الزَّعْفَرانيِّ، وكان الزعفرانيّ يكتب كل يوم رقعة

بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلىٰ الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر، فلما علم الزعفراني ٱشتد فرحه.

فصل

[(الدخول على الآكلين)]

ولا ينبغي لأحد إذا علم أن قوماً يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصد، فسألوه الأكل، نظر، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل. ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالماً أنه إذا أكل من طعامه سر بذٰلك، جاز له أن يأكل.

فصل

[في آداب الضيافة]

ومن آداب الضيافة، أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفُسّاق، وقال بعض السلف: لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

وينبغي أن يقصد الفقراء دون الأغنياء، وينبغي ألا يهمل أقاربه في ضيافتهم، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش وقطيعة الرحم. وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بَلِ ٱستعمال السّنّة في إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور علىٰ قلوب المؤمنين، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذىٰ بالحاضرين بسبب من الأسباب.

وأما آداب الإجابة، فإن كانت دعوة عرس، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم في اليوم الأول، وإن كانت لغيره، فهي جائزة، ثم ينبغي ألا يخص الغني بالإجابة[1] دون الفقير، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان تطوعاً وعلم أن فطره يَسُرُّ أخاه المسلم فليفطر، فأما إن كان الطعام حراماً فليمتنع من الإجابة، وكذلك إذا كان ثمّة منكراً؛ من: فرش محرمة، أو إناء محرم، أو مزمار، أو صورة، وكذٰلك إذا كان الداعي ظالماً أو فاسقاً أو

(١) كذا في الأصول، ولعلها: (الدعوة) فإنها ألزم بالسياق والسباق.

مبتدعاً أو مفاخراً بدعوته. وينبغي ألا يقصد بالإجابة إلىٰ الدعوة نفس الأكل، بل ينوي به الاقتداء بالسُّنَّة، وإكرام أخيه المؤمن، وينوي صيانة نفسه عمن يسيء به الظن، فربما قيل عنه إذا آمتنع: هذا متكبر.

وينبغي أن يتواضع في مجلسه إذا حضر، ولا يتصدر، وإن عين له صاحب الدار مكاناً لم يَتَعَدَّهُ، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل علىٰ الشَّرَهِ.

فصل: وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف.

الثاني: تقديم الفاكهة أولاً قبل غيرها، وذٰلك أصلح في باب الطب، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة](١).

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهةِ اللحمُ، خصوصاً المشويّ، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريدُ، ثم الحلوىٰ، وتتم هٰذه الطيبات بشرب الماء البارد، وتكملة الأمر صب الماء الفاتر علىٰ اليدين عند الغسل.

الثالث: أن يقدم جميع الألوان الحاضرة.

الرابع: ألا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتىٰ يرفعوا أيديهم.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص في المروءة.

وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام، فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغي أن يخرج معه إلىٰ باب الدار، فإنه سنة، وذٰلك من إكرام الضيف. ومن تمام الإكرامِ طلاقةُ الوجه، وطِيبُ الحديثِ عند الدخول والخروج وعلىٰ المائدة.

وأما الضيف فينبغي أن يخرج طَيِّبَ النفس وإن جرىٰ في حقه تقصير، فذٰلك من حسن الخُلُقِ والتواضع، ولا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة.

---

(١) ليس لهٰذا علاقة بالطب، ولا في تقدمه بالآية دليل علىٰ ذٰلك.

٩ - كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به

[(فوائد النكاح)]

لا يختلف العلماء في أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد:

منها: الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه فوائد محبة الله تعالىٰ بالسعي لذلك، ليبقىٰ جنس الإنسان. وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير مَنْ به مباهاته. وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح، والشفاعة بموت الولد الصغير.

ومن فوائد النكاح: التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة، وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة.

ومنها: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني، وتهيئة أسباب العيش، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهٰذه الطريقة، إذِ ٱختلاف هٰذه الأسباب شواغل للقلب.

ومن فوائده أيضاً: مجاهدة النفس، ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذىٰ منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلىٰ طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هٰذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها، من يخاف من القصور عن القيام بحقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل.

وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار**

أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته علىٰ أهلك. أفضلهم الدينار الذي أنفقته علىٰ أهلك»(١).

فصل: وفي النكاح آفات:

[(آفات النكاح)]

أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإن ذٰلك يصعب، فربما ٱمتدت يد المتزوج إلى ما ليس له.

الثانية: القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر علىٰ أخلاقهن وأذاهن، وفي ذٰلك خطر، لأن الرجل راع وهو مسؤول عن رعيته.

الثالثة: أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله ﷻ، فينقضي ليله ونهاره بالتمتع بذٰلك، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة والعمل لها.

فهٰذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً: مصروفٌ علىٰ الإحاطة بمجامع هٰذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يَعرِض نفسه على هٰذه الأحوال، فإن ٱنتفت عنه الآفات وٱجتمعت له الفوائد، بأنْ كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذٰلك: شابٌ يحتاج إلىٰ تسكين الشهوة، ومنفردٌ يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح أفضل، وإنِ ٱنتفت هٰذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات، فتَرْكُه أفضل، وهٰذا في حق مَنْ لم يَحْتَجْ إلىٰ النكاح، فإنِ ٱحتاج إليه فإنه يلزمه.

فصل

ويعتبر في المرأة لطيب العِشْرة أمور:

[(الخصال المطيبة للعيش)]

أحدها: الدين، وهو الأصل، لقول النبي ﷺ: **«عليك بذات الدين»**(٢)، فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها، وأزرت به. وإن سلكت سبيل الغَيْرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش.

---

(١) هو في مسلم (٩٩٥) عن أبي هريرة، وبلفظ: (أعظمها أجراً) بدلاً من (أفضلهم الدينار).

(٢) رواه مسلم (بعد ١٤٦٦) عن جابر. ورویٰ نحوه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) عن أبي هريرة.

الثاني: حُسْن الخُلُق، فإنَّ سيئة الخُلُقِ ضررُها أكثر منْ نفعها.

الثالث: حُسْن الخَلق، وهو مطلوب، إذْ به يحصل التَّحصُّن، ولهٰذا أمر بالنظر إلىٰ المخطوبة. وقد كان أقوام لا ينظرون في الحسن، ولا يقصدون التمتع، كما روي أن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٱختار ٱمرأة عوراء علىٰ أختها، إلا أن هٰذا يندر، والطباع على ضده.

الرابع: خفة المهر، وقد زَوَّج سعيد بن المسيَّب ٱبنته بدرهمين.

وقال عمر رضي الله عنه: لا تغالوا في مهور النساء.

وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل.

قال الثوري: إذا تزوج الرجل وقال: أيّ شيء للمرأة؟ فٱعلم أنه لِصٌّ.

الخامس: البكارة، لأن الشارع ندب إلىٰ ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثَّيِّب، فيوجب ذُلك الودَّ، فإن الطباع مجبولة على الأُنس بأول مألوف، وهو أيضاً أكمل لمودته لها، لأن الطبع ينفر من التي مَسَّها غيره.

السادس: أن تكون وَلوداً.

السابع: النسب، وهو أن تكون من بيت دِيْنٍ وصلاح.

الثامن: أن تكون أجنبية.

وكما ينبغي للرجل أن ينظر في المرأة، ينبغي للوَليّ أن ينظر في دِين الرجل وأخلاقه وأحواله، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة، ومتىٰ زَوَّجها من فاسق أو مبتدع، فقد جنىٰ عليها وعلىٰ نفسه.

قال رجل للحسن: ممن أُزَوِّج ٱبنتي؟ قال: ممن يتقي الله، فإنه إنْ أحبها أكرمها، وإنْ أبغضها لن يظلمها.

فصل في آداب المعاشرة
والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في ٱثني عشر أمراً:

الأول: الوليمة، فإنها مستحبة.

الثاني: حُسْن الخُلُق مع الزوجات. وٱحتمال الأذىٰ منهن لقصور عقلهن. وفي الحديث الصحيح: **«ٱستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضِلَع، وإنّ أعوج ما في الضلع أعلاه، فإنْ ذهبت تقيمه كسرته، وإنْ تَرَكْته لم يَزَلْ أعوج، فٱستوصوا بالنساء خيراً»**(١). وٱعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كفّ الأذىٰ عنها، بَلِ ٱحتمال الأذىٰ منها، والحِلْم على طيشها وغضبها، ٱقتداء برسول الله ﷺ، ففي «الصحيحين» من حديث عمر رضي الله عنه أن أزواج النبي ﷺ كن يراجِعْنَه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل(٢)، والحديث مشهور.

الثالث: أن يداعبها ويمازحها، وقد سابق عليه السلام عائشة رضي الله عنها(٣)، وكان يداعب نساءه ﷺ، وقال لجابر:

«هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»(٤).

الرابع: أن يكون ذٰلك بقدر، ولا ينبسط في الدُّعابة إلى أن تسقط هيبته بالكلية عند المرأة، بل ينبغي أن يقصد طريق الاقتصاد.

وقد روينا عن عمر رضي الله عنه أنه عتب على بعض عُمَّاله، فكلمته ٱمرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت:

يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه؟ قال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين.

الخامس: الاعتدال في الغَيْرة، وهو ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي

---

(١) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة. وينظر «صحيح الجامع الصغير» (٩٦٠).

(٢) هو في البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٣) «صحيح أبي داود» (٢٢٤٨/٢٥٧٨)، و«صحيح ابن ماجه» (١٦١٠/١٩٧٩) عنها. ويراجع «الإرواء» (١٥٠٢)، و«الصحيحة» (١٣١)، و«آداب الزفاف» ص ٢٠٤، طبعة المكتب الإسلامي المنقحة والمهذبة.

(٤) رواه البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (١٤٦٦)، والنسائي [«صحيح سننه» (٣٠١٨)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (١٥٠٧/ ١٨٦٠)] عنه. وينظر «صحيح الجامع الصغير» (٤٢٣٣).

يخشىٰ غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن، وقد نهىٰ النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً[١].

السادس: الاعتدال في النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فإن ذٰلك ممّا يُوْغِرُ الصدر.

السابع: أنْ يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدري به كيف معاشرة الحائض، ويُلَقِّنها الاعتقاد الصحيح، ويزيل عن قلبها كلّ بدعة إنْ كانت، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة، فيعرفها أنها إذا ٱنقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر، وإذا ٱنقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهٰذا لا يكاد النساء يُراعِيْنَه.

الثامن: إذا كانت له نسوة ينبغي أن يَعْدِل بينهن، والعدل في المَبِيْتِ والعطاء، لا في الحب والوطء، فإن ذٰلك لا يملكه، فإن سافر وأراد ٱستصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها.

التاسع: النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها علىٰ الطاعة قهراً، ولٰكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها: بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع، هَجَرها في المضجع، فولاها ظهره أو ٱنفرد عنها بالفراش، وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيام. فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح، وهو ألا يدمي لها جسماً، ولا يضرب لها وجهاً.

العاشر: في آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية، والانحراف عن القِبْلة. وأن يتغطىٰ هو وأهله بثوب، وألا يكونا متجردين، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل. ومن العلماء مَنِ ٱستحب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضىٰ وطره فيتمهل لتقضي وطرها، فإن إنزالها ربما تأخر.

ومن الآداب: أن تأتزر الحائض بإزار من حَقْوَيْها إلىٰ ما بين الركبة إذا أراد

---

(١) رواه البخاري (١٨٠١)، ومسلم (٧١٥)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٢٤١٣/ ٢٧٧٦)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢١٨٢/ ٢٧١٢)] عن جابر.

الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها في الحيض، ولا في الدبر، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ.

ومن الآداب: ألا يحلق شعره، ولا يقلم أظافره، ولا يخرج دماً وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة.

الحادي عشر: في آداب الولادة، وهي ستة:

الأول: ألا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثىٰ، فإنه لا يدري في أيهما الخير.

الثاني: أن يؤذن في أذن المولود حين يولد.

الثالث: أن يسمِّيه اسماً حسناً.

وفي أفراد مسلم: «**إن أحب أسمائكم إلىٰ الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمٰن**»[١] ومن كان له اسم مكروه، استحب له تبديله، فقد غيَّر النبي ﷺ أسماء جماعة، وقد كره من الأسماء: أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة[٢]، لأنه يقال: أهو ثمة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة عن الذكر شاتان، وعن الأنثىٰ شاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة.

السادس: الختان.

الثاني عشر: مما يتعلق بالزواج: الطلاق، وهو أبغض المباحات إلى الله ﷻ، فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلىٰ طلاقها، فإذا أراد الطلاق فَلْيُرَاعِ فيه أربعة أشياء:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يصبها فيه، لئلا تطول عليها العدة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٢)، وأبو داود [«صحيحه» (٤١٣٩/ ٤٩٤٩)]، والترمذي [«صحيحه» (٢٢٧٠/ ٢٨٣٣)]. وينظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (١١٧٦)، و«صحيح الكلم الطيب» (٧٧/ ١٧٢-٢١٧) طبع المكتب الإسلامي.

(٢) رواه مسلم (٢١٣٨) عن سمرة.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم.

الثالث: أن يتلطف في الأمر في الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع، فقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه طلق امرأة وبعث إليها بعَشَرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق.

الرابع: ألا يفشي سِرَّها، وفي الحديث الصحيح في أفراد مسلم: «**إن من أَشَرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلىٰ المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سِرَّها**»[1]، ورُوي عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك سِرَّ امرأته، فلما طلقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري.

فهذا كله من بيان ما علىٰ الزوج.

القسم الثاني من آداب المعاشرة: ما على الزوجة لزوجها.

عن أبي أُمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأَمَرْتُ المرأة أَن تسجد لزوجها**»[2] لعظم حقه عليها.

وفي هٰذا القسم أحاديث كثيرة تدل علىٰ تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، وأهمها أمران:

أحدهما: الستر والصيانة.

الثاني: القناعة.

وعلىٰ هٰذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر علىٰ الجوع ولا نصبر علىٰ النار.

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٧)، وأحمد (١١٦٤٢) عن أبي سعيد الخدري، وحكم بضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٣٨/ ٤٨٧٠)، و«ضعيف الجامع» (١٩٨٨)، و«آداب الزفاف» ص ٧٠.

(٢) هو في «صحيح سنن الترمذي» (٩٢٦/ ١١٥٩) عن أبي هريرة. و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٧٣/ ٢١٤٠) عن قيس بن سعد. و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٠٢/ ١٨٥٢). ينظر «الإرواء» (١٩٩٨)، و«صحيح الجامع» (٥٢٩٤).

ومن الواجبات عليها: ألا تفرط في ماله، فإنْ أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في عُقْر بيتها، لازمة لِمغْزَلِها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانْقباض في حال غيبة زوجها، تحفظه غائباً وحاضراً، وتطلب مسرته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، ولا توطئ فراشه من يكره، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، قائمة بخدمة الدار في كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة لحق زوجها علىٰ حق نفسها وحق جميع أقربائها[١].

آخر كتاب النكاح

(١) انظر كتاب «آداب الزفاف» للمحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، فإنه على صغره قد جمع فيه ما يحتاجه المسلم في هذا الأمر من الأحاديث الصحيحة وأحكامها.

وكتاب «الزواج الإسلامي» تأليف الأستاذ محمد علي الضناوي.

وكتاب «تحفة العروس» للأستاذ المربي محمود مهدي الإستانبولي. وكلها طبع المكتب الإسلامي.

١٠ - كتاب آداب الكسب والمعاش، وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم أن الله ﷻ بلطيف حكمته جعل الدنيا دار تسبب واكتساب، تارة للمعاش، وتارة للمعاد، ونحن نورد آداب التجارات، والصناعات، وضروب الاكتساب وأسبابها ونشرحها.

فصل في فضل الكسب والحث عليه

قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ] فذكره في معرض الامتنان، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف] فجعلها نعمة، وطلب الشكر عليها، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**طلب الحلال جهاد**»[(١)].

و«**إن الله ليحب العبد المحترف**»[(٢)].

وفي أفراد البخاري أن النبي ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**»[(٣)].

وفي حديثٍ آخر: «**أن زكريا عليه السلام كان نجاراً**»[(٤)].

---

(١) رواه القضاعي عن ابن عباس، وأبو نعيم عن ابن عمر. وهو في «ضعيف الجامع» (٣٦١٩)، و«الضعيفة» (١٣٠١).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر. وهو في «ضعيف الجامع» (١٧٠٤)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٣٠١).

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٢) عن المقدام بن مَعْدِ يكَرِب.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٧٩)، وابن ماجه [«صحيحه» (١٧٤٦/ ٢١٥٠)] عن أبي هريرة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زرّاعَين، وصالح تاجراً، وداود زراداً، وموسىٰ وشعيب ومحمد ابن عبدالله صلوات الله تعالىٰ عليهم وسلم رعاة.

وأما الآثار فروي أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني ٱستعن بالكسب الحلال، فإنه ما ٱفتقر أحد قَطُّ إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هٰذا رجل جَهِلَ العلم، أَمَا سمع قول النبي ﷺ: «**إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي**»[1]، وقولَه ﷺ حين ذكر الطير: «**تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[2].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يَتَّجِرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أنْ تَصُفَّ قدميك وغَيْرُك يتعب لك، ولكنِ ٱبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبّد.

فإن قيل: فقد قال أبو الدرداء: زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فٱخترت العبادة؟ فالجواب: أنّا لا نقول: إن التجارة لا تراد لذاتها، بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأما إن كان المقصود نَفْسَ المال وجَمْعَه، والتفاخر به ونحو ذٰلك، فهو مذموم.

وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأمور أربعة: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة علىٰ الدين.

---

(١) أخرجه أحمد (٥١١٦ و ٥٦٦١)، وعلقه البخاري قبل (٢٩١٤)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥ و٣٧٠)، والترمذي [«صحيحه» (١٩١١/ ٢٣٤٤)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٥٩/ ٤١٦٤)] عن عمر. وهو في «الصحيحة» (٣١٠). وسيأتي لفظه بأتم مما هنا في الصفحة (٤١٢) حاشية (٥).

[(مكونات عقد الاكتساب)]

الأمر الأول: في الصحة، فإن كان العقد بيعاً، فله ثلاثة أركان: العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: أما العاقد، فينبغي للتاجر ألا يعامل المجنون، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له، وكذلك الصبي لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصيّ، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشافعي، لا تصح عقود الصبي، ومعاملة الأعمىٰ عندنا صحيحة، يصح بيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا تصح.

وأما الظَّلَمَةُ ومَنْ أكثر مالِهِ حرامٌ، فلا ينبغي أن يُعامَل إلا في شيء يُعْرَفُ أنَّ عينه حلال.

الركن الثاني: المعقود عليه، وهو المال المقصود نقله، ولا يجوز بيع الكلب، لأنه نجس العين، فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان، ولا بيع الحشرات، ولا بيع العود والمزمار، والصور المصنوعة من الطين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حِسّاً ولا شرعاً، أما الحس فكالطير في الهواء، والعبد الآبق ونحوهما، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهٰذا ممنوع تسليمه شرعاً.

الركن الثالث: اللفظ، وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدم القبولُ الإيجابَ لم يصح في إحدى الروايتين، ويصح في الأخرىٰ، سواء كان بلفظ الماضي أو بلفظ الطلب، فإن تبايعا بالمعاطاة، فظاهر كلام أحمد صحة البيع.

وقال القاضي أبو يعلىٰ: لا يصح ذٰلك إلا في الأشياء اليسيرة. وهٰذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة في الأشياء المُحَقَّرة دون النفيسة، لجريان العادات بذٰلك. وينبغي من طريق الورع ألا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف. وقد شدد الله تعالىٰ في أمر الربا، فينبغي أن يحذر من الوقوع فيه، وهو قسمان: ربا الفضل، وربا النسيئة، فينبغي أن يعرف ذٰلك وما يجري فيه الربا. ويحتاج أيضاً أن يعرف شروط السلم، والإجارة، والشركة، فإن المكاسب لا تنفك عن هٰذه العقود المذكورة.

فصل: في الأمر الثاني: وهو العدل، وٱجتناب الظلم في المعاملة، ونعني بالظلم ما يتضرر به الغير، وهو ينقسم إلىٰ ما يعم ضرره وما يخص.

الأول: الاحتكار، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات علىٰ الناس. وصفته: أن يستكثر مِنِ ٱبتياع الغلات في الغلاء؛ ويتربص بها زيادة الأسعار، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها، فليس محتكراً، وكذٰلك إذا كان الشراء في حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق علىٰ الناس، وفي الجملة تكره التجارة في القوت، لأنه قوام الآدمي.

القسم الثاني: ما يخص ضرره، نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذٰلك المشتري. وقد قال النبي ﷺ: «**من غشنا ليس منا**»[(١)].

وٱعلم أن الغش حرام في البيوع، وفي الصناعات، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتىٰ لا يبين، فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه.

وينبغي للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص في هٰذا حتىٰ يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، ومتىٰ خلط العَلاَّف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف، وكذٰلك القَصَّاب إذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله.

وقد نهي عن النَّجْشِ، وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ليغر المشتري، ونهي عن التصرية.

فصل: الأمر الثالث: في الإحسان بالمعاملة، وقد أمر الله تعالىٰ ﴿بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] فمن الإحسان المسامحة في البيع، وألا يغبنه في الربح بما لا يتغابن في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولٰكن يراعىٰ فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة علىٰ الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغي أن يمتنع البائع من قبول ذٰلك، فإن ذٰلك من الإحسان.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١)، والترمذي [«صحيحه» (١٠٦٠/ ١٣١٥)] عن أبي هريرة. ورواه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود. وهو في «صحيح الجامع» (٦٤٠٨)، و«الإرواء» (١٣١٩)، و«الصحيحة» (١٠٥٨).

ومن ذٰلك أنه إذا أراد ٱستيفاء الثمن أو الدَّين، فيحسن تارة بالمسامحة، وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة في وجود النقد.

ومن الإحسان: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متضرر بالبيع، والأحاديث تشهد بفضل هٰذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب.

فصل: الأمر الرابع: شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته. لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يراعي دينه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة أشياء:

الأول: حسن النية في التجارة، فَلْيَنْوِ بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال، ليكون بذلك من جملة المجاهدين، ولينو النصح للمسلمين.

الثاني: أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما يستغنىٰ عنه لكونه متعلقاً بالزينة أو طلب التنعم، فَلْيَشتغل بصناعة مهمة، ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً، وليجتنب صناعة الصياغة، والنقش، وتشييد البنيان بالجص، وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي: خياطةُ الخياطِ القَبَاءَ الديباج للرجل، ويكره أن يكون جزاراً، لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجاماً، أو كناساً لما فيه من مباشرة النجاسة، وفي معناه الدباغ(١).

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات(٢).

---

(١) ليس علىٰ هٰذا دليل من نقل أو عقل، والمسلمون بحاجة إلى كل الأعمال والصنائع.

(٢) وهٰذا مما يكتمه علماء السوء، ولا يكاد يعرف، بل المعروف عكسه من شدة تزاحمهم علىٰ هٰذه الوظائف. وينظر «إقامة الدليل والبرهان على تحريم أخذ الأجرة على تلاوة القرآن» لشيخي ابن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ طبع المكتب الإسلامي.

الثالث: ألا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوقُ الآخرةِ المساجدُ، فينبغي أن يجعل أول النهار إلىٰ وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب علىٰ الأوراد، وقد كان صالحو السلفِ من التجار يجعلون أوّل النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع آذان الظهر والعصر، فينبغي أن يترك المعاشَ ٱشتغالاً بأداء الفرض.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالىٰ في السوق، ويشتغل بالتسبيح والتهليل.

الخامس: ألا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، فلا يكون أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها.

السادس: ألا يقتصر على ٱجتناب الحرام، بل يَتَوَقَّىٰ مواقع الشُّبَه ومواضع الريب، ولا يقف مع الفتاوىٰ، بل يستفتي قلبه فيجتنب ما يَحُزُّ في القلب.

بيان الحلال والحرام

اعلم أن طلب الحلال فرض علىٰ كل مسلم، وقَدِ ادّعىٰ كثير من الجهال عدم الحلال، وقالوا: لم يبق منه إلا الماء الفرات، والحشيش النبات، وما عدا ذٰلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هٰذا، وعلموا أنه لا بد لهم من الأقوات، توسعوا في الشبهة والحرام، وهٰذا من الجهل، وقلة العلم، فإن في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«الحلال بَيِّنٌ، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات»**[1].

ولما كانت هٰذه الدعوىٰ من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها، واستطار في الدين شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلىٰ مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

ونحن نوضح ذٰلك في أقسام:

الأول:

في فضيلة طلب الحلال، وذم الحرام، ودرجات الحلال والحرام:

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] والطيبات: الحلال، فأمر بذٰلك قبل العمل، وقال في ذم الحرام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨][2] إلى غير ذٰلك من الآيات.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس إن الله طيب لا**

---

(١) هو في البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، و«صحيح أبي داود» (٢٨٤٨/ ٣٣٢٩)، و«صحيح ابن ماجه» (٣٢١٩/ ٣٩٨٤)، و«صحيح النسائي» (٤١٤٨ و ٥٢٦٨). وينظر «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» (٢٠).

(٢) ومن ذلك سرقة الحقوق في المطبوعات، وما بذلوا فيه من جهد التأليف، أو أجور التصحيح، وتكاليف الصف. . . إلخ.

يقبل إلا طيباً. . .» وذكر الحديث إلى قوله: (**ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلىٰ السماء، يا رب يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّىٰ يستجاب لذٰلك»**[1] رواه مسلم. وروي في ذٰلك غير حديث.

وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أنْ تستجاب دعوته، فقال له: «**أَطِبْ طُعْمَتَك تُسْتَجَبْ دَعْوَتُك**»[2].

وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويدققون فيه، فأكل أبو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من شبهة ثم قاءه[3].

فصل في درجات الحلال والحرام: ٱعلم أن الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هٰذا حارٌّ في الدرجة الأولىٰ، وهٰذا في الدرجة الثانية، وهٰذا في الثالثة، وهٰذا في الرابعة. مثال ذٰلك في الحرامِ: المأخوذُ بعقد فاسد حرام ولكنه ليس في درجة المغصوب علىٰ سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع في الاكتساب، وليس في العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط، وكذٰلك المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قويّ أو غنيّ أو فاسق.

[(درجات الورع)]

فصل: والورع له درجات أربع:

الدرجة الأولىٰ: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوىٰ تحريمه، وهٰذا لا يحتاج إلىٰ أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب ٱجتنابها، ولٰكن يستحب، كما

---

(١) هو في مسلم (١٠١٥)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٩٠/٢٩٨٩). وينظر «غاية المرام» (١٧).

(٢) قال العراقي: أخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه.

(٣) إنما فعل أبو بكر ذلك، لأنه كان من طعام الكَهَانة، وهو سُحْتٌ خبيث.

يأتي في قسم الشبهات، ومن هٰذا قوله ﷺ: **«دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك»**[1].

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالىٰ، وهو ورع الصِّدِّيقين، مثال ذٰلك ما روي عن يحيى بن يحيى النيسابوريِّ رحمة الله عليه أنه شرب دواء، فقالت له امرأته: لو مشيت في الدار قليلاً حتىٰ يعمل الدواء، فقال: هٰذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فهٰذا رجل لم تحضره نية في هٰذه المشية تتعلق في الدين، فلم يقدم عليها، فهٰذا من دقائق الورع.

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً، كان أسرع جوازاً علىٰ الصراط، وأخف ظهراً، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هٰذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حق الظَّلَمة بحسب درجات الحرام، فإنْ شئت فَزِدْ في الاحتياط، وإنْ شئت فَتَرَخَّصْ، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

القسم الثاني:

في مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام:

وحديثُ النعمانِ بن بشير[2] نَصٌّ في هٰذه الأقسام الثلاثة، وهي الحلال والحرام وما بينهما، والمشكل فيها هو المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة.

ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: الحلال المطلق: الذي لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليه تحريماً أو كراهية.

مثال ذٰلك: الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع علىٰ مِلْكِ أحدٍ، والحرام المحض: ما فيه صفة محرمة، كالشدة في الخمر، والنجاسة في

---

(١) «صحيح النسائي» (٢٥٦٩)، و«صحيح الترمذي» (٢٠٤٥/٢٥١٨). وهو مخرج في «الإرواء» (١٢ و ٢٠٧٤)، و«غاية المرام» (١٧٩).

(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (١١٠)، الحاشية (١).

البول، أو حصل بسبب منهي عنه، كالمتحصل بالظلم والربا، فهٰذان الطرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقق أمره، ولٰكن يحتمل تغيره، ولم يكن لذٰلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه، فإنَّ صيد البر والبحر حلال، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت، وهٰذا الاحتمال لا يتطرق إلىٰ ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذٰلك الاحتمال في الصيد ورع الموسوسين، لأنه وَهَمٌ مجرد لا دلالة عليه، فلو دل عليه دليل، مثل أن يجد في الظبية جرحاً لا يقدر عليه، إلا بعد الضبط، كالكَيِّ، ويحتمل أن يكون غيره، فهٰذا موضع الورع.

وحد الشبهة ما تعارض فيه ٱعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين، ومثالات الشبهة كثيرة، والمهم منها مثالان:

- **الأول**: الشك في السبب المحلل أو المحرم، وينقسم إلىٰ أربعة أنواع:

الأول: أن يكون الحل معلوماً من قبل، ثم يقع الشك في المحلل، فهٰذه شبهة يجب ٱجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرىٰ صيداً فيجرحه فيقع في الماء، فيصادفه ميتاً، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهٰذا حرام، لأن الأصل التحريم.

النوع الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فيكون الأصل الحل، والحكم له، كما لو طار طائر، فقال رجل: إنْ كان هٰذا غراباً فٱمرأته طالق، وقال آخر: وإن لم يكن غراباً، فٱمرأته طالق، ثم التبس الأمر، فإنا لا نقضي بالتحريم في واحدة منهما، ولكن الورع ٱجتنابهما وتطليقهما.

النوع الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمي إلىٰ صيد فيغيب عنه، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوىٰ سهمه، فهٰذا ظاهر فيه الحل، لأن الاحتمال إذا لم يستند إلىٰ دليل ٱلتحق بالوسوسة، فأما إن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرىٰ ٱلتحق بالنوع الأول.

النوع الرابع: أن يكون الحل معلوماً، ولٰكن يغلب علىٰ الظن طرآن المحرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، مثاله أن يؤدي ٱجتهاده إلىٰ نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد علىٰ علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

- **المثال الثاني**: أن يختلط الحرام بالحلال، ويشتبه الأمر فيه. وذٰلك علىٰ أضرب:

أحدها: إذا اختلطت ميتة بمُذَكَّاة، أو بعشرة من المذكيات، ونحو ذٰلك من العدد المحصور، ومثله أن تشتبه أخته بأجنبيات، فهٰذه شبهة يجب ٱجتنابها.

الثاني: أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو ٱشتبهت أُخته أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهٰذا ٱجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن، لأن في تحريمهن حرجاً كبيراً، وكذٰلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً، لم يلزمه ترك الشراء والأكل، لأن في ذٰلك حرجاً، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه أن في الناس من يرابي[1]، وما تركوا الدراهم بالكلية، وأن مِجَنّاً سرق في زمانه[2]، وما تركوا شراء مجن، فٱجتناب هٰذا من ورع الوسوسة.

الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هٰذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل علىٰ أنه من الحرام، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم، فإن لم يكن له علامة، فتركه ورع، ولا يحرم ذٰلك، لأنه قد علم في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أن أثمان الخمور ودراهم الربا وغلول الغنيمة ٱختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظَّلَمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق، ولولا صحة ذٰلك لانْسَدَّ باب جميع التصرفات، فإن الفسق يغلب علىٰ الناس، لكن الأصل في الأموال الحل، وإذا تعارض أصل وغالب،

---

(١) هذا معروف، ويدل على ذلك ما أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر مرفوعاً: **«أول رباً أضع . . . ربا العباس»**.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٩٨)، ومسلم (١٦٨٦) عن ابن عمر.

ولا أَمَارة علىٰ الغالب، حُكِم بالأصل، كما قلنا في طين الشوارع وأواني المشركين، فقد توضأ عمر ﷺ من جرة نصرانية[1]، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة، وكان الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة.

ومن تأمل أحوال الدباغين والصباغين، علم غلبة النجاسة عليهم، فيدل ذٰلك علىٰ أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة، أو يكون عليها علامة، فأما الظن الذي يستفاد من رد الوَهَم إلىٰ مجاري الأحوال، فلم يعتبروه، فإن قيل: قد كانوا يتوسعون في أمور الطهارة، ويحترزون من شبهات الحرام، فما الفرق؟ قلنا: إن أردتَ أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل، وإن أردت أنهمُ ٱحترزوا من كل نجاسة يجب ٱجتنابها فصحيح، وأما تورعهم عن الشبه، فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأسٌ مخافةَ ما به بأس، والنفس تميل إلىٰ الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، والله أعلم.

القسم الثالث:

في البحث، والسؤال، والهجوم، والإهمال ومظانّها:

ٱعلم أنه لو قُدِّم لك الطعام، أو أهديت لك هدية، أو أردت أن تشتري شيئاً من شخص فليس لك أن تقول: هٰذا مما لا أتحقق حله، فأريد أن أفتش عنه، وليس لك أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة.

والقول الشافي فيه: أن مَظِنّةَ السؤالِ الرِّيبةُ، وهي تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال.

أما ما يتعلق بصاحب المال، فنحو أن يكون مجهولاً، وهو الذي ليس عليه قرينة تدل على ظلمه، كَزِيِّ الأجناد، ولا علىٰ صلاحه، كثياب أهل العلم والزهد، فهٰهنا لا يجب السؤال ولا يجوز، لأن فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا

---

(١) صحيح، سلف في الصفحة ٣٥ حاشية (١).

يقال لهٰذا: إنه مشكوك فيه، لأن المشكوك فيه هو الذي تحصل فيه الريبة بدلالة، مثل أن يكون على خِلْقة الأَتراك، وأهل البوادي المعروفين بالظلم، وقطع الطريق، فهٰذا يجوز معاملته، لأن اليد تدل علىٰ الملك، وهٰذه الدلالات ضعاف، إلا أن التَّرك من الورع.

وأما ما يتعلق بالمال، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في السوق أحمال من طعام مغصوب فٱشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب علىٰ من يشتري في تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذٰلك يجب السؤال، فإن لم يكنِ الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب، وكذٰلك نقول في رجل له مال حلال خالطه الحرام، مثل أن يكون تاجراً يعامل معاملات صحيحة ويرابي، فهٰذا إن كان الأكثر من ماله حراماً، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجهه حلال جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل، فالمأخوذ شبهة، والورع تركه[1].

وٱعلم أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المُفضِية له، بألا يكون المسؤول متهماً، فإن كان متهماً وعلمت أن له غرضاً في حضورك أو قبول هديته، فلا ثقة بقوله، وينبغي أن يسأل غيره.

القسم الرابع:

كيفية خروج التائب عن المظالم المالية.

ٱعلم أن من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإن كان معلوم العين، فأمره سهل، وإن كان ملتبساً مختلطاً فإن كان من ذوات الأمثال، كالحبوب والنقود والأدهان، وكان معلوم القدر، ميز ذٰلك القدر، فإن أشكل فله طريقان:

أحدهما: الأخذ بغالب الظن.

والثاني: الأخذ باليقين، وهو الورع.

---

(١) يلاحظ أن المؤلف سلك سبيل الوسط في الأمور من غير تَشَدُّد أو تَفَلُّتٍ.

فإذا أخرج المال الحرام، فإن كان له مالك معين، وجب صرفه إليه أو إلىٰ وارثه، وإن كان لذٰلك المال زيادة ومنفعة، جمع ذٰلك كله وصرفه إليه، وإن يئس من معرفة المالك ولم يدر أمات عن وارث أم لا؟ فليتصدّق به، وإن كان ذٰلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، صرف ذٰلك إلىٰ القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين.

مسألة: إذا كان في يده مال حلال وشبهة، فليخصّ نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسْجَار التنور، وأصل هٰذا قوله ﷺ في كسب الحجام: **«أعْلِفه ناضحك»**(١).

ومن كان في يد أبويه حرام، فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شبهة داراهما، فإن لم يقبلا تناول اليسير.

وقد روي أن أم بشر الحافيْ ناولته تمرة فأكلها، ثم صعد الغرفة فقاءها.

القسم الخامس:

في إذرار السلاطين وصِلاتهم، وما يحل من مخالطة السلاطين الظَّلَمة، ونحو ذٰلك.

اَعلم أن من أخذ مالاً من السلطان، فلا بد أن ينظر في مدخل ذٰلك إلىٰ السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟

وقد تورع جماعة عن ذٰلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به.

وأما في هٰذا الزمان، فالاحتراز عنه أولىٰ، لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت علىٰ الإنكار.

وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، وهٰذا ليس بشيء، لأنه يأخذ حقه ويبقىٰ أولئك في مقام مظلوم، وليس المال مشتركاً.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٧٣ و١٥٠٦١) عن جابر، و(٢٣٦٨٤ و٢٣٦٨٧ و٢٣٦٩٢) وكذا ابن ماجه [«صحيحه» (١٧٥٩/٢١٦٦)]، والترمذي [«صحيحه» (١٠٢٧/١٢٧٧)] عن محيصة بن مسعود. وهو مخرج في «الصحيحة» (١٤٠٠).

[فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم...]

فصل: اَعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظَّلَمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولىٰ: أن تدخل عليهم، وهي شَرُّها، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أتىٰ أبواب السلاطينِ اَفْتَتَنَ**»[1] «**وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا اَزداد من الله بُعْداً**»[2].

وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن. فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم علىٰ الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إنْ أَدْنَيْتَني فَتَنْتَني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يدك ما أريده، ولا في يدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك، وقد اَستغنيت عنك بمن أغناك عني.

فهٰذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين، وأيضاً فإن الداخل علىٰ السلطان معرض لأن يعصي الله ﷻ، إما بفعله أو قوله أو سكوته.

أما الفعل: فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلىٰ أماكن مغصوبة، ولو فرض أنه في موضع غير مغصوب، ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام، والانتفاع بذٰلك حرام، ولو فرض ذٰلك حلالاً، فربما يقع في غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أو يتمثل له قائماً، ويخدمه، ويتواضع له بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه. والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنىٰ آخر يقتضي التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟ وتقبيل اليد له معصية، إلا أن يكون عند خوف، أو لإمام عادل، أو عالم يستحق ذٰلك، فأما غير من ذكرنا، فلا يباح في حقهم إلا مجرد السلام.

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٨٦/ ٢٨٥٩) من حديث ابن عباس. وكذا هو قطعة من الحديث الضعيف التالي. لكن بلفظ: «**من لزم السلطان افتتن**».

(٢) «ضعيف سنن أبي داود» (٦١٢/ ٢٨٦٠) من حديث أبي هريرة.

وأما القول، فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو بٱستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاّشتياق إلىٰ لقائه، والحرص علىٰ طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر علىٰ السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هٰذه الأقسام.

وقد جاء في الأثر: (من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يعصى الله).

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله، أو نحو ذٰلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذٰلك، فيسكت. وكل من رأىٰ شيئاً من ذٰلك وسكت، فهو شريك فيه. وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، فإن السكوت عن ذٰلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف علىٰ نفسه، فهو معذور في السكوت. قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لاّرتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي؛ وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر علىٰ إزالته، لم يجز له أن يحضر.

فصل: فإن سلم مما ذكرنا كله، وهيهات، لم يسلم من فساد يتطرق إلىٰ قلبه، لما يرىٰ من توسعهم في التنعم، فيزدري نعمة الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون مُكْثِراً لسواد الظَّلَمة.

وروي أن سعيد بن المسيب دعي إلىٰ البيعة للوليد وسليمان ٱبنَيْ عبد الملك، فقال: لا أبايع ٱثنين ما ٱختلف الليل والنهار. فقالوا: ٱدخلْ من هٰذا الباب وٱخرجْ من الآخر. قال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مئة وأُلبِسَ المُسُوح.

فعلىٰ ما بَيَّنّا لا يجوز الدخول علىٰ الأمراء الظَّلَمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذىٰ.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط ألا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً، فهٰذا حكم الدخول.

الحال الثاني: أن يدخل عليه السلطان زائراً، فجواب السلام لا بد منه، وأما القيام والإكرام، فلا يحرم مقابلة له علىٰ إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد، كما أنه بالظلم مستحق للذم. فإن دخل عليه وحده، وقد رأىٰ أن يقوم إعزازاً للدين فهو أولىٰ، وإن كان دخوله عليه في جمع، فمراعاة حِشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا أولىٰ وأمثل، ولا بأس بالقيام علىٰ هٰذه النية، وإن علم أن ذٰلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذىً من غضبه، فترك الإكرام بالقيام أولىٰ. ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدري أنه محرمٌ، فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر، فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصي مهما ظن أن التخويف يُؤَثِّر في قلبه، وعليه أن يرشده إلىٰ المصالح، ومتىٰ عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه.

الحال الثالث: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يَرَوْنَه، والسلامة في ذٰلك، ثم ينبغي أن يعتقد بُغضهم علىٰ ظلمهم، فلا يحب لقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يقترب إلىٰ المُتّصلين بهم، ولا يتأسف علىٰ ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، إما يوم مضىٰ فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم في غد علىٰ وَجَل، وإنما هو اليوم، فما عسىٰ أن يكون هٰذا اليوم؟!

مسألة: إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه علىٰ الفقراء، وكان له مالك معين، لم يَحِلَّ أَخْذُه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به كما سبق بيانه، ويتولىٰ تفرقته علىٰ الفقراء.

ومن العلماء مَنِ امتنع مِن أخذه.

وإذا كان أكثر أموالهم الحرام، حرمت معاملتهم.

وما بَنَتْهُ الظَّلَمة من القناطر والمساجد والسقايات، ينبغي أن ينظر فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بنيت بها لمالك معين، لم يَجُزِ العبور عليها إلا للضرورة، وإن لم يعرف مالكها جاز العبور عليها، والورع: الامتناع، والله أعلم.

١١ - كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق ونحو ذلك

[فضيلة الألفة والأخوة]

اعلم أنَّ الأُلفة ثمرة حُسْنِ الخُلُق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر، ولا يخفىٰ ما في حسن الخلق من الفضل، والأحاديث دالّة علىٰ ذٰلك.

فقد روي من حديث أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»**[(١)] رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث آخر: **«إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً. وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً»**[(٢)].

وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: **«تقوى الله وحسن الخلق»**[(٣)].

[بيان معنى الأخوة في الله]

وأما المحبة في الله تعالىٰ، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«سبعة يُظِلُّهم الله في ظِلّه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه»** فذكر منهم: **«ورجلان تَحابّا في الله اجتمعا علىٰ ذٰلك وتفرقا عليه»**[(٤)].

---

(١) «صحيح أبي داود» (٤٠١٤/ ٤٧٩٩)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٦٢٩/ ٢٠٠٢).

(٢) رواه أحمد (١٧٧١٠)، والترمذي [«صحيحه» (١٦٤٢/ ٢٠١٨)] عن أبي ثعلبة الخشني. وهو في «صحيح الجامع» (١٥٣٥)، و«المشكاة» (٤٧٩٧)، و«الصحيحة» (٧٩١).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١٦٣٠/ ٢٠٠٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٤/ ٤٢٤٦) عن أبي هريرة.

(٤) هو في البخاري (٦٦٠ و١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١)، و«صحيح الترمذي» (١٩٤٩/ ٢٣٩١)، و«صحيح النسائي» (٤٩٧٣). وينظر «الإرواء» (٨٨٧).

وفي حديث آخر: يقول الله ﷻ: «**حقت مَحَبَّتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ**»[١].

وفي حديث آخر: «**أوثق عرىٰ الإيمان، أن تحب في الله وتبغض في الله**»[٢]. والأحاديث في ذٰلك كثيرة.

[بيان البغض في الله]

وٱعلم أن من يحب في الله يبغض في الله، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله، فإذا عصىٰ الله أبغضته في الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضِدِّه. ومَنِ ٱجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة، فإنك تحبه مِنْ وجهٍ وتبغضه من وجه. فينبغي أنْ تحب المسلم لإسلامه، وتبغضه لمعصيته. فتكون معه على حالة متوسطة بين الأنقباض والأسترسال. فأما ما يجري منه مجرىٰ الهفوة التي يُعلم أنه نادم عليها، فالأولىٰ حينئذ الإغماض والستر، فإذا أصرّ علىٰ المعصية، فلا بد من إظهار أثر البغض بالإعراض عنه والتباعد، وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخِفَّتها.

[بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم]

وٱعلم أنَّ المخالف لأمرِ الله تعالىٰ على أقسام:

أحدها: أن يكون كافراً. فإن كان حَرْبيّاً، فهو مستحق للقتل والإرقاق، وليس بعد هٰذين إهانة. وإن كان ذِمِّيّاً، فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه، والتحقير له بالاضطرار له إلى أضيق المكان، وترك البداءة بالسلام. فإن سلم قيل له: وعليك. والأولىٰ الكَفُّ عن مخالطته ومؤاكلته. ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يفعل بالأصدقاء.

القسم الثاني: المبتدع. فإن كان ممن يدعو إلىٰ بدعة، وكانت البدعة بحيث يكفر بها، فأمره أَشَدُّ من الذِّمِّيّ، لأنه لا يُقَرُّ بِجزْية ولا يُسامح بعقد ذمة. وإن كان ممن لا يكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالىٰ أخف من أمر الكافر لا

---

(١) أخرجه مالك ٢/ ٩٥٣، وأحمد (٢٢٠٢٥) عن معاذ بن جبل. ورواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم عن عبادة بن الصامت. وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٢١).

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس. وهو في «صحيح الجامع» (٢٥٣٩)، و«الصحيحة» (١٧٢٨).

محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشدّ منه على الكافر، لأن شرّ الكافر غير مُتَعَدٍّ، لأنه لا يلتفت إلىٰ قوله، بخلاف المبتدع الذي يدعو إلىٰ بدعته، لأنه يزعم أنَّ ما يدعو إليه حق، فيكون سبباً لِغَوَاية الخلق، فَشَرُّه مَتَعَدٍّ، فإظهار بُغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أَشَدُّ.

فأما المبتدع العامِّيّ الذي لا يَقْدِر أن يدعو ولا يُخاف الاقتداء به، فأمره أَهْون، والأَولىٰ أنْ يُتَلَطَّف به في النصح، فإن قلوب العوامّ سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيحٌ لبدعته في عَيْنِه، تأكَّد ٱستحباب الإعراض عنه. وإن عُلِم أن ذٰلك لا يؤَثِّر؛ لجمود طبعه ورسوخ ٱعتقاده في قلبه، فالإعراض عنه أَولىٰ، لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعَمَّ فسادها.

القسم الثالث: العاصي بفعله لا بٱعتقاده، فإن كانت بحيث يتأذىٰ بها غيره، كالظلم والغَصْب وشهادة الزور والغِيبة والنميمة ونحو ذٰلك، فالأولىٰ الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته، وكذٰلك الحكم في من يدعو إلىٰ الفساد، كالذي يجمع بين الرجال والنساء ويُهيِّئُ أسباب الشرب لأهل الفساد، فهٰذا ينبغي إهانته ومقاطعته والإعراض عنه. فأما الذي يفسق في نفسه بشرب خمرٍ أو زنىً أو سرقة أو تركِ واجبٍ، فالأمر فيه أخفّ، ولكنه في وقت مباشرته إنْ صُودِفَ، وجب منعه بما يَمْتَنِعُ به، فإن كان النُصح يَرُدُّه ـ وكانت أنفع له ـ نُصِح وإلا أُغلِظ له.

فصل في بيان الصفات المشروطة في من تختار صحبته

روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[1].

(١) رواه أبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٤٦/ ٤٨٣٣)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٩٣٧/ ٢٣٧٨)] من حديث أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٣٥٤٥)، و«الأحاديث الصحيحة» (٩٢٧)، و«مشكاة المصابيح» (٥٠١٩).

وٱعلم أنه لا يصلح للصحبة كل أحد، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفاتٍ وخصالٍ يُرْغَب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بِحَسَبِ الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهي إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، وليس ذٰلك غرضنا، وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يُكَدِّر القلب ويَصُدّ عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المُهِمَّات، فتكون عُدَّة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها ٱنتظار الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة. فهٰذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها.

وفي الجملة، فينبغي أن يكون في من تُؤْثِرُ صحبته خمس خصال:

أن يكون عاقلاً، حسن الخُلُق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص علىٰ الدنيا.

أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفعك فيضرّك، ونعني بالعاقل: الذي يفهم الأمور علىٰ ما هي عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أُفْهِم فَهِمَ.

وأما حُسْنُ الخُلُق، فلا بد منه، إذْ رُبَّ عاقلٍ يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه، فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالىٰ لا تُؤْمَن غائلَتُه ولا يُوثَقُ به.

وأما المبتدع، فيُخاف من صحبته بِسِراية بدعته.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: عليك بإخوان الصدق تَعِش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعُدّة في البلاء، وَضَعْ أمر أخيك على أَحْسَنِهِ حتىٰ يجيئك ما يَقْلِيك منه، وٱعتزلْ عَدُوّك، وٱحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشىٰ الله، ولا تصحبِ الفاجر فتتعلّم من فجوره، ولا تُطْلِعْه علىٰ سِرِّك، وٱستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالىٰ.

قال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وأن تعيش معه بالمداراة، أو تحتاج أن تعتذر إليه.

ودخل جماعة علىٰ الحسن وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت، فقال: رحمك الله، هٰذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر لأصحابه: أَيُدْخِلُ أحدكم يده في كُمِّ أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فَلَسْتُمْ بإخوانٍ كما تزعمون.

ويُروىٰ أن فتحاً المَوْصِليَّ جاء إلىٰ صديق له يقال له عيسىٰ التَّمَّار، فلم يجده في المنزل. فقال للخادمة: أَخرجي لي كِيْسَ أخي. فأخرجتْه، فأخذ منه درهمين. وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك. فقال: إن كنتِ صادقة، فأنت حُرّة. فنظر فإذا هي قد صدقت، فَعَتَقَتْ[١].

فصل في بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق

الحق الأول: قضاء الحاجات والقيام بها، وذٰلك درجات:

أدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لٰكن مع البشاشة والاستبشار.

وأوسطها: القيام بالحوائج من غير سؤال.

وأعلاها: تقديم حوائجه على حوائج النفس.

وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم.

الحق الثاني: على اللسان؛ بالسكوت تارة، وبالنطق أخرىٰ.

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حضوره وغَيْبته، وعن الرَدِّ عليه ومُماراته ومناقشته، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله. ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لا يريد إعلامه بذٰلك، وأن يكتم سِرَّه ولو بعد القطيعة، ولا يقدح في أحبابه وأهله، ولا يُبْلِغُه قَدْحَ غيره فيه.

---

(١) بفتح العين، والضم من الأخطاء الشائعة.

وينبغي أن يسكت عن كل ما يكرهه، إلا إذا وجب عليه النطق في أمرٍ بمعروف أو نهي عن منكر، ولم يَجِدْ رخصةً في السكوت، فإن مواجهته بذٰلك إحسان إليه في المعنىٰ.

وٱعلم أنك إن طلبت مُنَزَّهاً عن كلِّ عيبٍ لم تَجِدْ، ومن غلبت محاسنه علىٰ مساويه فهو الغاية.

وقال ابن المُبَارَكِ: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزَّلات.

وقال الفُضَيل: الفُتُوَّة: الصفح عن زلات الإخوان.

وينبغي أن تترك إساءة الظن بأخيك، وأن تحمل فِعْلَه على الحَسَنِ مهما أمكن.

وقد قال النبي ﷺ: **«إياكم والظنّ فإن الظن أكذب الحديث»**[1].

وٱعلم أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المَنْهِيِّ عنه، وأن ستر العيوب والتغافل عنه سمة أهل الدين.

وٱعلم أنه لا يكمل إيمان المرء حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساويك، فلو ظهر لك منه ضِدُّ ذٰلك ٱشْتَدَّ عليك، فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟

ومتىٰ ٱلتمست مِنَ الإنصاف ما لا تسمح به دخلتَ في قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين] ومنشأ التقصير في ستر العورة والمُغْري بكشفها الحِقْدُ والحسد.

وٱعلم أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميّز بزيادة الفضل والعقل وٱحتقار المردود عليه، ومن مارىٰ أخاه، فقد نسبه إلىٰ الجهل والحُمق، أو إلىٰ الغفلة والسهو عن فهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣)، وأبو داود [«صحيحه» (٤١٠٩/٤٩١٧)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦١٩/١٩٨٨)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٢٦٧٩)، و«غاية المرام» (٤١٧).

الشيء علىٰ ما هو عليه، وكلُّ ذلك ٱستحقارٌ، وهو يُوْغِرُ الصَّدْرَ ويُوْجِبُ المعاداة، وهو ضدُّ الأُخُوّة.

الحق الرابع(١): علىٰ اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه، تقتضي النطق بالمحبوب، بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صَحِبَ أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليُستفاد منهم لا لِيُتَخَلَّص منهم، لأن السكوت معناه كَفُّ الأذىٰ، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقَّده في أحواله، ويسأل عما عرض له، ويُظهِر شغل قلبه بسببه، ويُبدي السرور بما يُسَرُّ به.

وفي الصحيح من رواية الترمذي(٢): «**إذا أحب أحدكم أخاه فَلْيُعْلِمْه**»(٣).

ومن ذٰلك أن يَدْعُوَه بأحب أسمائه إليه.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ثلاث يُصْفين لك وِدَّ أخيك: تُسَلِّم عليه إذ لَقِيْتَه، وتُوَسِّع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليك.

ومن ذٰلك أن يُثني عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يُؤْثِر الثناء عنده، وكذٰلك الثناء علىٰ أولاده وأهله وأفعاله، حتىٰ في خلقه وعقله وهيئته وخَطِّه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب.

وكذٰلك ينبغي أن تُبلغه ثناء من أثنىٰ عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذٰلك مَحْضُ الحسد.

ومن ذٰلك أن تشكره على صنيعه في حقك، وأن تذبّ عنه في غَيْبته إذا قُصِد بسوء، فحقُّ الأُخوّةِ التشميرُ في الحماية والنصرة.

وفي الحديث الصحيح: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**»(٤).

---

(١) ليس في الأصول الحق الثالث، ولعله حق المال كما في «الإحياء».

(٢) يريد أن الترمذي أخرجه بسند صحيح. وانظر «صحيحه» (١٩٥٠/ ٢٣٩٥).

(٣) أبو داود [«صحيح سننه» (٤٢٧٣/ ٥١٢٤)] من حديث المقدام بن مَعْدِ يْكَرِب. وهو في «صحيح الجامع» (٢٧٩-٢٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) و(٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠)، وأبو داود [«صحيحه» (٤٠٩١/ ٤٨٩٣)]، والترمذي [«صحيحه» (١١٥٢/ ١٤٢٦)] عن ابن عمر.

ومتىٰ أهمل الذَّبَّ عن عرْضه يكون قد أسلمه.

ولك في ذلك معياران:

أحدهما: أن تُقَدِّر أنَّ الذي قيل فيه، قد قيل فيك وهو حاضر، فتقول ما تُحب أن يقوله.

الثاني: أن تُقَدِّر أنه حاضر وراء جدار يَتَسَمَّع عليك، فما تحرك في قلبك من نصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غَيْبته. ومن لم يكن مخلصاً في إخائه، فهو منافق.

ومن ذٰلك التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلىٰ العلم بأقلّ من حاجته إلىٰ المال، وإذا كنت غنيّاً بالعلم فَوَاسِهِ وأَرْشِدْهُ. وينبغي أن يكون نُصْحُك إيّاه سِرّاً. والفرقُ بين التوبيخ والنصيحة: الإعلانُ والإسرار، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث علىٰ الإغضاء، فإنْ أَغْضيت لسلامة دِينك ولما ترىٰ فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء؛ فأنت مُدَارٍ، وإن أغضيت لِحَظِّ نفسك واْجتلاب شهواتك وسلامة جاهك؛ فأنت مُداهِنٌ.

ومن ذٰلك العَفْوُ عن الزَّلات، فإن كانت زَلَّته في دِينه، فَتَلَطَّفْ في نُصحه مَهْما أمكن، ولا تترك زَجْرَه ووَعْظَه، فإن أبىٰ فالمصارمة.

الحق الخامس: الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قال: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**»[١].

وكان أبو الدرداء ؓ يدعو لخلق كثير من إخوانه يسميهم بأسمائهم.

وكان أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعو في السَّحَر لستة نفر.

وأما الدعاء بعد الموت، فقال عمرو بن حُرَيْثٍ: إذا دعا العبد لأخيه

---

(١) هو في «صحيح مسلم» (٢٧٣٢)، و«صحيح سنن أبي داود» (١٣٥٨/ ١٥٣٤).

الميت، أتىٰ بها مَلَكٌ قَبْرَه، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هٰذه هدية من أخ عليك شفيق.

الحق السادس: الوفاء والإخلاص، ومعنىٰ الوفاء: الثبات علىٰ الحب إلىٰ الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النبي ﷺ عجوزاً وقال: «**إنها كانت تغشانا في أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»[(١)].

ومن الوفاء ألا يتغير علىٰ أخيه في التواضع وإنِ ٱرتفع شأنه وٱتسعت ولايته وعَظُم جاهه.

وٱعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدين، فقد كان الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخىٰ محمد بن عبد الحكم، وكان يُقرِّبُه ويُقْبِلُ عليه، فلما ٱحْتُضِر قيل له: إلىٰ من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فَٱستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه لِيُومِئ إليه فقال: إلىٰ أبي يعقوب البُوَيْطِيِّ، فَٱنكسر لها محمد، ومع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه، لكن البويطي كان أقرب إلىٰ الزهد والورع، فنصح الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسلمين وترك المداهنة، فٱنقلب ابن عبد الحكم عن مذهبه، وصار من أصحاب مالك.

ومن الوفاء ألا يسمع بلاغات الناس علىٰ صديقه، ولا يصادق عدو صديقه.

الحق السابع: التخفيف وترك [التكلف و][(٢)] التكليف، وذٰلك ألا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل يُرَوِّحُ سِرَّه من مهماته وحاجاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له، بل يكون قصدُه بمحبة الله وحده، والتبرك بدعائه، والاستئناس بلقائه، والاستعانة علىٰ دينه، والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بالقيام بحقوقه. وتمامُ التخفيف طَيُّ بساط الاحتشام حتىٰ لا يستحيي منه فيما لا يستحيي فيه من نفسه.

وقال جعفر بن محمد: أثقل إخواني عليَّ من يتكلف لي وأتحفّظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

---

(١) أخرجه الحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي والقضاعي.

(٢) زيادة من «الإحياء».

وقال بعض الحكماء: من سقطت كُلْفته دامت أُلْفته، ومن تمام هٰذا الأمر أَنْ ترىٰ الفضل لإخوانك عليك، لا لنفسك عليهم، فتُنزل نفسك معهم منزلة الخادم.

فصل

ولنذكر في آخر هٰذا الباب جملة من آداب المعاشرة للخلق:

[جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق...]

فمن حسن المعاشرة أن تتوقر من غير كِبْر، وتتواضع في غير ذلّة، وأن تلقىٰ الصديق والعدو بوجه الرضا من غير ذُلٍّ لهم ولا خوف منهم، وتتحفظ في مجالسك من تشبيك أصابعك، وإدخال أصبَعك في أنفك، وكثرة بصاقك، والتثاؤب.

وأصغ إلىٰ محدّثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تُحدِّثْ بإعجابك، بولدك وجاريتك، ولا تتصنعْ تصنُّع المرأة في التزيّن، ولا تتبذل تبذل العبد، وخَوِّفْ أهلك في غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف، ولا تُهازِل أَمَتَك وعَبْدَك، فيسقطَ وقَارُك، ولا تكثر الالتفات إلىٰ ورائك.

ولا تجالِسِ السلطان، فإن فعلت فاْحذرِ الذنوب والغِيبة، وصُنْ سره، واْحذر المداعبة عنده، وتحفّظ من الجُشاء بحضرته والتخلّل، وإن قرّبك فكن منه علىٰ حذر، وإنِ اْسترسل إليك فلا تأمنِ اْنقلابه عليك، واْرفق به رِفْقَك بالصبيِّ، وكَلِّمْه بما يشتهيه، ولا تدخل بينه وبين أهله وحَشَمه.

وإيّاك وصديق العافية، ولا تجعل مالك أكرم من عِرْضك، وإذا دخلت مجلساً فاْجلِسْ فيما هو أقرب للتواضع، ولا تجلس علىٰ الطريق، فإن جلست فَغُضَّ البصر، واْنصُرِ المظلوم، وأرشدِ الضالَّ، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرىٰ، واْحذر مجالسة العوامِّ، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء أخلاقهم وترك الخوض في حديثهم، واْحذر كثرة المِزاح فإن اللبيب يحقد عليك في المِزاح، والسفيه يجترئ عليك.

باب في حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ونحو ذلك

فمن حقوق المسلم: أن تُسلِّم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبرّ قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، وجميع هٰذا منقول في الآثار(١).

ومنها: ألا تؤذي أحداً من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: ألا تزيد في الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحديث المشهور في ذٰلك(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لمؤمن أن**

---

(١) أخرجها البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**». وفي رواية لمسلم: «**حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته تسلم عليه...**» وزاد: «**إذا استنصحك فانصح له**».

وللترمذي [«ضعيف سننه» (٥١٩/ ٢٧٣٦)] وابن ماجه [«ضعيف سننه» (٣٠١/ ١٤٣٣)] من حديث علي: «**للمسلم على المسلم ست:...**» فذكر منها: «**ويحب له ما يحب لنفسه**» وقال: «**وينصح له إذا غاب أو شهد**». وهو في «ضعيف الجامع» (٤٧٥١).

ولأحمد (٢٢١٢٨) من حديث معاذ بن أنس: «... **وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك...**». وهو في «ضعيف الجامع» (١٠٠١).

وفي البخاري (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٦) من حديث البراء: (أمرنا رسول الله ﷺ بسبع...) فذكر منها: (وإبرار القسم ونصر المظلوم).

(٢) خرجه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٢٠٢٩) عن ثمانية من الصحابة بعضها متفق عليه.

يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مرت به ثلاثة أيام فلقيه فَلْيسلِّم عليه، فإن رد عليه السلام، فقدِ ٱشتركا في الأجر، وإن لم يردّ عليه فقد برئ المسلِم من الهجرة»[١].

وٱعلم أن هٰذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدِّين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلىٰ الحق.

ومنها: أن يحسن إلىٰ كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما ٱستطاع، وألا يدخل علىٰ أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن ٱنصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذٰلك أن يعامل كلاً منهم بحسب[٢] طريقته، فإنه متىٰ لقي الجاهل بالعلم، واللاهي[٣] بالفقه، والغبيّ بالبيان، أذىٰ وتأذىٰ.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافّة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفي لهم بالوعد، ويُنصف الناس من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يحب أن يؤتىٰ إليه.

قال الحسن: أوحىٰ الله إلىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أربع كلمات: وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك، واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق.

فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً.

وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه.

وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعليَّ الإجابة.

---

(١) «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٥١/٤٩١٢)، و«غاية المرام» (٤٠٥). ويغني عن أصله ما قبله.

(٢) في المطبوع والأصل: «كلا من على حسب»، وفي النسخة الثانية: «كلا على حسب» وما أثبتناه من «الإحياء».

(٣) في الإحياء: «الامي» ونبه الشارح على أنه في نسخة «اللاهي».

وأما التي بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به.

ومنها: زيادة توقير ذوي الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين.

وٱعلم أنه من تأمل ستْر الله تعالىٰ علىٰ العصاة في الدنيا ٱقتدىٰ بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنىٰ أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذٰلك كالمِيْل في المُكْحُلة، وهٰذا لا يتفق. ومَنْ هٰذا أثرُ كرمه في الدنيا يُرجىٰ منه ذٰلك في الآخرة.

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألسنتهم عن غيبته.

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلىٰ من له عنده منزلة، ويسعىٰ في قضاء حوائجهم.

ومنها: أن يبدأ بالسلام على كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة، فقد روي عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مسلمَين التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان حقاً علىٰ الله ﷻ أن يحضر دعاءهما، وألا يفرق بين أيديهما حتىٰ يغفر لهما**»[1].

وفي حديث آخر: «**إذا صافح المؤمنُ المؤمنَ نزلت عليهما مئة رحمة، تسعة وتسعون لأَبَشِّهما خُلُقاَ**»[2].

ولا بأس بتقبيل يد المُعظَّم في الدِّين تبركاً به، ولا بأس بالمعانقة، وأما الأخذ بالرِّكَاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذٰلك ابن عباس بِزَيْدِ بن ثابت رضي الله عنهما، والقيام علىٰ سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الٱنحناء فمنهيٌّ عنه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٣٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢١٩٧/ ٢٧٢٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٢٩٨٨/ ٣٧٠٣)]. وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٧٧)، و«الصحيحة» (٥٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» وفيه الحسن بن كثير مجهول، كذا قال العراقي والهيثمي.

ومنها: أن يصون عِرْض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره.

ومنها: أنه إذا ٱبْتُلي بذي شَرٍّ، فينبغي أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة رضي الله عنها[١].

وقال محمد ابن الحَنَفِيّة: ليس بحكيم من لم يُعاشِر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدّاً، حتىٰ يجعل الله ﷻ له فرجاً.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلىٰ الأيتام.

ومنها: عيادة مرضاهم.

ومن آداب العائد: أن يضع يده علىٰ المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرِّقة، ويدعو له بالعافية، ويغض البصر عن عورات المكان.

ويستحب للمريض أنْ يفعل ما أخرجه مسلم في أفراده، من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ أنه شكا إلىٰ رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: **«ضع يدك علىٰ الذي تألم من جسدك وقل: (بسم الله) ثلاثاً، وقل سبع مرات: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)»**[٢].

وجملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوىٰ والتضجر، والفزع إلىٰ الدعاء، والتوكل علىٰ الله سبحانه.

ومنها: أن يشيِّع جنائزهم، ويزور قبورهم.

والمقصود من التَّشييع: قضاء حق المسلمين، والاعتبار.

قال الأعمش: كنا نحضر الجنائز، فلا ندري من نعزي لحزن القوم كلهم.

والمقصود من زيارة القبور الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

ومن آداب تشييع الجنائز: المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكر في الموت، والاستعداد له.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٢) مسلم (٢٢٠٢). وهو في «صحيح الجامع» (٣٨٩٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٧٠)، و«الصحيحة» (١٤١٥).

[حقوق الجوار]

وأما حقوق الجار: فاْعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة، وجاء في الحديث: «**إن الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق:**

فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

وأما الذي له حقان: فالجار المسلم، له حق الإسلام، وحق الجوار.

وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك»[1].

واْعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذىٰ فقط، بلِ اْحتمال الأذىٰ والرِّفق، واْبتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زَلاته، ولا يطَّلع إلىٰ داره، ولا يضايقه في وضع الخشب علىٰ جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فنائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلىٰ داره، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طَرْفه عن حرمه، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

فصل: في حقوق الأقارب والرحم: وأما حقوق الأقارب والرحم، ففي الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبي ﷺ قال: «**الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله**»[2].

وفي حديث آخر من أفراد البخاريّ: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»[3].

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان، والبزار في «مسنديهما» وأبو الشيخ في كتاب «الثواب» وأبو نعيم في «الحلية» من حديث جابر. وابن عدي من حديث عبدالله بن عمر. وكلاهما ضعيف. قاله العراقي في «تخريج الإحياء».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٥)، وروى نحوه البخاري (٥٩٨٩). وهو في «صحيح الجامع» (٣٥٢٣)، و«الصحيحة» (٩٢٥).

(٣) هو في البخاري (٥٩٩١)، و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٨/١٦٩٧)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٨٨/١٩٠٨) من حديث ابن عَمْرو.

وفي حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيؤون إليّ، وأحلم ويجهلون عليّ. قال: «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علىٰ ذٰلك**»[١]. والمعنىٰ أنك منصور عليهم، وقدِ ٱنقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، كما ينقطع كلام من سَفَّ المَلَّ، وهو الرماد الحارّ.

والأحاديث في ذٰلك كثيرة ومشهورة في صلة الرحم، وفي حقوق الوالدين، وفي تأكد حق الأم.

[حقوق... الولد] وأما حقوق الولد، فٱعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلىٰ الولد لم يحتج إلىٰ تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوىٰ الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]. قال المفسرون: معناه: عَلِّموهم وأَدِّبوهم.

وينبغي للوالد أن يحسن ٱسمَ ٱبنه، ويَعُقَّ عنه[٢]، فإذا بلغ سبع سنين أَمَرَهُ بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زَوَّجه.

[حقوق المملوك] **وأما حقوق المملوك**: فَأَنْ يُطْعمه، ويكسوه، ولا يكلفه ما لا يطيق، ولا ينظر إليه بعينِ الٱزدراء، وأن يعفو عن زلله، وليتذكر الله عند زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالىٰ عنه.

باب العُزلة

[كتاب: آداب العزلة] ٱختلف الناس في العزلة والمُخالَطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد ٱختاروا العزلة.

وممن ذهب إلىٰ ٱختيار العزلة: سفيان الثَّوْرِيُّ، وإبراهيم بن أَدْهَم، وداود الطائيّ، والفُضَيل، وبِشْر الحافيْ في آخرين.

---

(١) هو في مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٠٥٦).

(٢) عق عن ولده: إذا ذبح عنه يوم سابعه عقيقة. وأصل العقيقة: الشعر الذي يكون على رأس الصبي حين يولد. وهي: شاتان للذكر، وشاة للأنثى.

وممن ذهب إلىٰ استحباب المخالطة: سعيد بن المسيب، وشُرَيح، والشَّعْبِيُّ، وابن المبارك في آخرين.

ولكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج، ونحن نشير إلىٰ ذلك.

أما حجة الأولين، فقد روي في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: **«رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شِعْبٍ من الشِّعاب يعبد ربه ويَدَعُ الناس من شره»**(١).

وفي حديث عقبة بن عامر ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: **«اَمْلِكْ عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ بيتك، وابْكِ علىٰ خطِيئتك»**(٢).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: خذوا بِحَظِّكم من العزلة.

وقال سعد بن أبي وَقَّاص ﷺ: لوددت أَن بيني وبين الناس باباً من حديد، لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتىٰ ألقىٰ الله سبحانه.

وقال ابن مسعود ﷺ: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحلاس(٣) البيوت، جُدُدَ القلوب(٤)، خُلْقان(٥) الثياب، تُعْرَفون في أهل السماء، وتَخْفَون علىٰ أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء ﷺ: نعم صومعة المرء المسلم بيته يكف لسانه وفرجه وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهي وتلغي.

وقال داود الطائيّ: فر من الناس كما تفر من الأسد.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٨٨٨) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٣١)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٩٦١/٢٤٠٦)]. وهو في «صحيح الجامع» (١٣٩٢)، و«الصحيحة» (٨٩٠ و٨٩١ و٢٨٦١).

(٣) الأحلاس: جمع حلس، وهو فراش مبتذل، يقال: فلان حلس بيته: إذا كان يقيم فيه ولا يبرحه.

(٤) جدد القلوب: كناية عن عدم الفترة في العبادة.

(٥) خلقان: جمع خلق، يقال: ثوب خلق: إذا كان بالياً.

قال أبو مهلهل: أخذ بيدي سفيان الثّوريّ وأخرجني إلىٰ الجبانة، فٱعتزلنا ناحية، فبكىٰ ثم قال: يا أبا مهلهل، إنِ ٱستطعت ألا تخالط في زمانك أحداً فٱفعل، وليكن همك مَرَمَّةَ[1] جهازك.

[حجج المائلين إلىٰ المخالطة...]

وأما حجة مَنِ ٱختار المخالطة، فمن ذٰلك قول النبي ﷺ: **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر علىٰ أذاهم»**[2]، وٱحتجوا بأشياء غير ذٰلك ضعيفة لا تقوم بها حجة علىٰ ذٰلك، منها قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥] وهٰذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصل الشريعة، وٱحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: **«لا هجرة فوق ثلاث»**[3] قالوا: والعزلة هجر بالكلية، وهٰذا ضعيف، لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

فصل في ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

ٱعلم أن اختلاف الناس في هٰذا أيضاً هو كٱختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذٰلك يختلف بٱختلاف الأحوال والأشخاص، فكذٰلك نقول فيما نحن فيه، فلنذكر أولاً فوائد العزلة وهي سِتٌّ:

الأولىٰ: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذٰلك يستدعي فراغاً، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلىٰ ذٰلك خصوصاً في البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلىٰ أي شيء أفضىٰ بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلىٰ الأنس بالله.

---

(١) الرمّ: إصلاح ما فسد، وجمع ما تفرق.

(٢) أخرجه ابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٥٧/ ٤٠٣٢)]، وأحمد (٥٠٢٣) عن ابن عمر. وهو في «صحيح الجامع» (٦٦٥١)، و«الصحيحة» (٩٣٩)، و«المشكاة» (٥٠٨٧).

(٣) صحيح، سلف تخريجه صفحة (١٣١) حاشية (٢).

وقال أُويس القَرَنيُّ ﷺ: ما كنت أرىٰ أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره.

وٱعلم أن من تيسر له بدوام الذكر الأُنْسُ بالله، أو بدوام الفِكْر تحقيقُ معرفة الله، فالتجرد لذٰلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة، وهي أربعة:

أحدها: الغِيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتَفَكّهُ بها، فإن خالطتهم ووافقتهم أَثِمْتَ وتعرضت لسخط الله تعالىٰ، وإن سَكَتَّ كنت شريكاً، فإنَّ المستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وٱغتابوك فٱزدادوا غِيبة إلىٰ غِيبة، وربما خرجوا إلىٰ الشتم.

الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات، فإنْ سكت عصىٰ الله، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر، وفي العزلة سلامة من هٰذا.

الثالثة: الرياء، وهو[1] الداء العضال الذي يعسر الٱحتراز منه، وأول ما في مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم، ولا يخلو ذٰلك عن الكذب، إما في الأصل، وإما في الزيادة، وقد كان السلف يحترزون في جواب قول القائل: كيف أصبحت، وكيف أمسيت؟ كما قال بعضهم وقد قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا.

وٱعلم أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه: كيف أصبحت؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة، كان تَكَلُّفاً ورياء، وربما سأله وفي القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله، وفي العزلة الخلاص عن هٰذا، لأنه من لقي الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم، مَقَتُوه وٱستثقلوه وٱغتابوه، ويذهب دينهم فيه، ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم.

---

(١) في النسخة الثانية: «وهي».

الرابعة: مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذٰلك أنه قل أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه مُنكِراً عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلىٰ ما قبل مجالسته لوجد فرقاً في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هَيِّناً علىٰ الطبع، ويسقط وقعه وٱستعظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، ٱحتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد، ٱحتقر نفسه، وٱستصغر عبادته، فيكون ذٰلك داعية إلىٰ الٱجتهاد، وبهٰذه الدقيقة يُعرَف سر قول القائل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومما يدل علىٰ سقوط وقع الشيء بسبب تكرره ومشاهدته، أن أكثر الناس إذا رأوْا مسلماً قد أفطر في رمضان، ٱستعظموا ذٰلك، حتىٰ يكاد يفضي إلىٰ اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تُخْرِجُ إلىٰ الكفر، ولا سبب لذٰلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذٰلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير، أو خاتماً من ذهب، لٱشتد إنكار الناس لذٰلك، وقد يشاهدونه يغتاب فلا يستعظمون ذٰلك. والغِيبة أشد من لبس الحرير، ولٰكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المغتابين، سقط عن القلوب وقعها. فٱفطن لهٰذه الدقائق وٱحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترىٰ منهم إلا ما يزيد في حرصك علىٰ الدنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطاعات، فإن وجدت مجلساً يُذكَر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العَصَبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم.

وقد روىٰ ابن عَمْرو ﷺ أن النبي ﷺ ذكر الفتن، ووصفها وقال: «**إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم**[1]**، وخَفَّتْ أماناتهم، فكانوا هٰكذا**» وشبك بين

---

(١) يقال: مرجت عهودهم: إذا اختلطت، ومرج العهود: اضطرابها، وعدم الوفاء بها.

أصابعه، فقلت: ما تأمرني؟ فقال: «**ٱلزم بيتك، وٱملِك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامَّة**»(١).

وقد روي غير ذٰلك من الأحاديث في معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك؛ مرة بالغِيبة، ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومَنْ خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدوّ، وغير ذٰلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذٰلك، كما قال بعضهم:

عَدُوُّك من صديقك مستفادٌ ... فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ

فإن الداءَ أكثرَ ما تراه ... يكون من الطعام أو الشرابِ

وقال عمر ﷺ: في العزلة راحة من خلطاء السوء.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلىٰ من لا تعرف، وأنكر من تعرف.

وقال رجل لأخيه: أصحبك إلىٰ الحج؟ فقال: دَعْنا نَعِشْ في ستر الله، فإنا نخاف أن يرىٰ بعضنا من بعضٍ ما نَتَماقَتُ عليه. وهٰذه فائدة أخرىٰ في العزلة، وهي بقاء الستر علىٰ الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.

أما طمعهم، فإن رضاهم غايةٌ لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطعٌ لطمعهم في حضور وَلاَئِمِهم وإملاكاتهم(٢). وغير ذٰلك.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.

وأما ٱنقطاع طمعك، فإن مَنْ نظر إلىٰ زهرة الدنيا تحرك حرصه، وٱنبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرىٰ إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذىٰ.

---

(١) رواه أحمد (٦٩٨٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٦٤٩/ ٤٣٤٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣١٩٦/ ٣٩٥٧)]. وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٠)، و«الصحيحة» (٢٠٥).

(٢) الملاك والإملاك: التزويج وعقد النكاح.

وفي الحديث: **«ٱنظروا إلىٰ مَنْ دُونَكم، ولا تنظروا إلىٰ مَنْ فوقكم، فإنه أجدر ألّا تزدروا نعمة الله عليكم»**[١].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١].

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقىٰ، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذىٰ الإنسان بالثقلاء لم يلبث أن يغتابهم، فإن آذَوْه بالقدح فيه كافأهم، فٱنجرَّ الأمر إلىٰ فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذٰلك.

فصل في آفات العزلة

ٱعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير، ولا يحصل ذٰلك إلا بالمخالطة.

ومن فوائد المخالطة: التعلم والتعليم، والنفع والٱنتفاع، والتأديب والتأدب، والٱستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، وٱعتياد التواضع، وٱستفادة التَّجَارِب من مشاهدة هٰذه الأحوال، والٱعتبار بها، فهٰذه فوائد الخلطة، ولنفصلها:

الفائدة الأولىٰ: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم، فأما من تعلَّم الفرض ورأىٰ أنه لا يتأتىٰ منه الخوض في العلوم، ورأىٰ الٱشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر علىٰ التبرز في علوم الشرع فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران.

ولهٰذا قال الربيع بن خُثَيم: تَفَقَّهْ ثم ٱعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوامّ.

سئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خَبال ووَبال، فقيل

---

(١) متفق عليه، سيأتي تخريجه الصفحة (٢٥٣) الحاشية (١).

له: فالعالم؟ فقال: **«ما لك ولها؟ دعها معها حذاؤها وسقاؤها، تَرِد الماء، وتأكل الشجر حتىٰ يلقاها ربها»**[١].

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتىٰ كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الدين، وقد سبق ذٰلك في (كتاب: العلم)، والغالب في هٰذا الزمان سوء القصد من المتعلمين، فيقتضي الدينُ الاعتزال عنهم، فإنْ صُودِفَ طالب لله ومتقرِّب بالتعلم إليه، لم يجز الاعتزال عنه، ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغترَّ بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبىٰ أن يكون إلا لله، فإنه أشار بهٰذه إلىٰ علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذٰلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف، فإنه لا يرد الراغب في الدنيا إلىٰ الله تعالىٰ، بل لا يزال صاحبه متمادياً في حرصه إلىٰ آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلىٰ ذٰلك مضطر إلىٰ ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصدق بكسبه، فذٰلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالىٰ والأنس به، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر علىٰ ذلك مع القيام بحدود الشرع، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل

---

(١) شبه عزلة العالم بالإبل التي معها حذاؤها وسقاؤها، يريد أنها تَقوىٰ علىٰ المشي وقطع الأرض وقصد المياه ووردها ورَعْيِ الشجر والامتناع عن السباع المفترسة، شبهت بمن كان معه في السفر حذاء وسقاء، وهٰكذا العزلة إذا كانت من العالم، فإنه يكون أميناً على نفسه من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وفي نسخة: غذاؤها وسقاؤها. وهو مقتبس من حديث رواه البخاري (٢٣٧٢) وغيره في السؤال عن لقطة الإبل.

في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن ٱنفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذاك الذي لا يعدل به ٱلْبَتَّةَ.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدّب، ونعني به الأرتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمُّل أذاهم، وكسر النفس، وقهر الشهوة، وذٰلك أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه.

وينبغي أن يفهم أن الرياضة لا تُرادُ لنفسها، كما لا يراد ذٰلك من رياضةِ الدابّة، بل المراد منها أن تُتَّخذ مركباً تُقْطَعُ عليه المراحل، والبدن مَطِيَّة يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها في الطريق، فَمَنِ ٱشتغل طول عمره بالرياضة، كان كمن ٱشتغل طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها، ولا يستفيد إلا الخلاص من عَضِّها ورَفسِها، وهي لعمري فائدة، ولكن ليست معظم المقصود. قيل لراهب: يا راهب، فقال: لست براهب، إنما أنا كلب عقور، حبست نفسي حتىٰ لا أعقر الناس. وهٰذا حسن بالإضافة إلىٰ من يعقر، لٰكن لا ينبغي أن يقتصر عليه.

وأما التأديب: فهو أن يؤدب غيره، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلىٰ نشر العلم علىٰ ما ذكر.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحباً كالاستئناس بأهل التقوىٰ وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته.

أما الأول: فبحضور الجنائز، وعيادة المرضىٰ، وحضور الإملاكات، والدعوات، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور علىٰ المؤمن.

وأما الثاني: فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه، فإنهم ينالون بذٰلك ثواباً، وكذٰلك إن كان من العلماء، فأذن لهم في زيارته.

ولٰكن ينبغي أن يَزِنَ ثواب هٰذه المخالطات بآفاتها، فيرجح العزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يُؤْثرون العزلة عليها.

الفائدة السادسة: التواضع، ولا يقدر علىٰ ذٰلك في الوحدة، فقد يكون الكِبْرُ سبباً في ٱختياره العزلةَ، ويمنعه في المحافل التقصير في إكرامه وتقديمه، وربما ترفع عن مخالطتهم لٱرتفاع محله عند نفسه، أو نحو ذٰلك.

وعلامةُ مَنْ هٰذه صفته أن يحب أن يُزار ولا يحب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوامّ إليه وٱجتماعهم علىٰ بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهٰذا السبب جَهْلٌ، لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير.

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققتَ أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلىٰ الشخص وحاله، وإلىٰ الخليط وحاله، وإلىٰ الباعث علىٰ مخالطته، وإلىٰ الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذٰلك يتبين الحق ويتَّضح الأفضل.

فقد قال الشافعي رحمه الله: الٱنقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والٱنبساط إليهم مجلبة للسوء، فَكُنْ بين القبض والبسط. ومن ذكر سوىٰ هٰذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها علىٰ غيره المخالف له في الحال.

[(آداب العزلة)]

فإن قيل: فما آداب العزلة؟ =

= قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كَفَّ شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالىٰ أبداً، فهٰذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلواته مواظباً علىٰ العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفوَ وقته، وليكفَّ عن السؤال عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلىٰ أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذٰلك ينغرس في القلب حتىٰ ينبعث في أثناء الصلاة، فوقوع

الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلىٰ مخالطة الناس.

وليكن صبوراً علىٰ ما يلقاه من أذىٰ الناس، ولا يصغي إلىٰ الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذٰلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عند كد المواظبة، ففي ذٰلك عون علىٰ بقية الساعات.

ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقِصَرِ أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسىٰ لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متىٰ ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يُطِقْ وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزلِ الموت أُنْسَه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالىٰ في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه، فهو شهيد، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[(١)].

---

(١) يروى على أنه حديث نبوي. ولكن لا يصح مطلقاً، وما أظن أنه يروى عن صحابي. والأشد من ذلك أن الكثير من الناس يورده لصرف المؤمنين عن جهاد العدو وعلى الأخص في مثل أيام دخول الأعداء إلى بلاد المسلمين. كما هو حاصل هذه الأيام. نسأل الله السلامة.

١٢ - كِتَابُ آدابِ السَّفَر

السفر وسيلة إلىٰ الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلىٰ مرغوب إليه.

والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بِسَيْرِ القلب عن أسفل سافلين إلىٰ ملكوت السماوات، وهٰذا أشرف السفرين، فإن الواقف علىٰ الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد علىٰ ما تلقفه بالتقليد من الآباء، لازمٌ درجة القصور، قانع برتبة النقص، ومستبدل بمتسَّعٍ عرضه السماوات والأرض ظلمةَ السجن وضيق الحبس.

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كَنَقْصِ القادرين على التمامِ[١]

إلا أن هٰذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير، اْندرست مسالكه.

فأما سفر البدن: فهو أقسام، وله فوائد وآفات عظيمة، فإنه يضاهي النظر في العزلة والمخالطة، وقد ذكرنا منهاج ذٰلك.

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب. فالهرب:

إما من أمر له نكاية في الأمور الدنيوية، كالطاعون إذا ظهر ببلد، أو كخوف فتنة أو خصومة، أو غلاء سعر.

وإما أمر له نكاية في الدين، كمنِ اْبتُلي في بلده بجاه أو مال أو اْتساع أسباب، فَصَدَّهُ عن التجرد لله تعالىٰ، فيؤثر الغربة والخمول، ويجتنب السَّعة والجاه، وكمن يُدعىٰ إلىٰ بدعة أو إلىٰ ولاية عمل لا تحِلُّ مباشرته، فيطلب الفرار منه.

---

(١) البيت للمتنبي، من قصيدته التي مطلعها: ملومكما يجل عن الملام... انظر «العرف الطيب» لليازجي: ٢/ ٣٦١.

وأما المطلوب، فهو إما دنيوي كالمال والجاه، أو ديني كالعلم بأمور دينه، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه، وقَلَّ مذكورٌ بالعلم مُحَصِّلٌ من زمان الصحابة ﷺ إلىٰ زماننا إلا وحَصَّلَ العلمَ بالسفر وسافر لأجله.

وأما علمه بنفسه وأخلاقه، فذٰلك أيضاً مهم. فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا بتحسين الخلق وتهذيبه، وإنما سمي السفر سفراً، لأنه يُسْفِرُ عن الأخلاق.

وفي الجملة فالنفس في الوطن لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وٱمتُحنت بمشاقّ الغربة، ٱنكشفت غوائلها، ووقع الوقوف علىٰ عيوبها.

وأما آيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمُستبصِر:

ففيها ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤]، وفيها الجبال والبراري والقِفار والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء إلا هو شاهد لله بالوحدانية، ومُسَبِّحٌ بلسان ذَلِقٍ لا يدركه إلا من ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق].

وإنما نعني بالسمع: سمْعَ الباطنِ، فَبِه يدرك نُطْقَ لسان الحال، وما من ذرة في السماوات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية.

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، ولا يُتَصَوَّرُ فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولٰكن يتصور تخفيفها وتقليلها، وقد نجا المُخِفُّون وهلك المُثْقلون، والمخف الذي ليست الدنيا أكبر همه.

فصل

ومن أقسام السفر أن يكون مباحاً، كسفر التفرج والتنزه، فأما السياحة في الأرض لا المقصود، ولا إلىٰ مكان معروف، فإنه منهي عنه.

فقد روينا من حديث طاوس أن النبي ﷺ قال: «**لا رهبانية، ولا تبتُّل، ولا سياحة في الإسلام**»[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

ولأن السفر يشتت القلب، فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب العلم أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته.

وللسفر آداب معروفة مذكورة في مناسك الحج وغيرها.

من ذٰلك أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ورَدُّ الودائع.

ومنها: أن يختار رفيقاً صالحاً. ويُودِّع الأهل والأصدقاء.

ومنها: أن يصلي صلاة الاستخارة، وأن يكون سفره يوم الخميس بُكرة.

ومنها: ألا يمشي منفرداً، وأن يكون أكثر سيره بالليل، ولا يهمل الأذكار والأدعية، إذا وصل منزلاً أو علا نَشْزاً أو هبط وادياً.

ومنها: أن يستصحب معه ما فيه مصلحته، كالسِّواك، والمشط، والمرآة، والمُكْحُلة، ونحو ذٰلك[٢].

---

(١) لم أره بهذا اللفظ. لكن أخرج الدارمي ٢/ ١٣٣ عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله ﷺ فقال: «**يا عثمان! إني لم أؤمر بالرهبانية . .**».

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة ﷺ: «**إن لكل أمة سياحة، وإن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله، وإن لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو**» وضعفه جداً الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٢٤)، و«الضعيفة» (٢٤٤٢).

(٢) وهذا يتغير بتغير الأزمان والأسفار، فإن لكل سفر حاجة.

فصل في ما لا بد للمسافر منه

ينبغي له أن يتزود للدنيا والآخرة، أما زاد الدنيا، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه.

ولا ينبغي أن يقول: أخرج متوكلاً فلا أحمل زاداً، فهذا جَهْلٌ، فإنَّ حَمْلَ الزادِ لا يناقض التوكل.

وأما زاد الآخرة، فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، وتعلم رخص السفر، كالقصر والجمع والفطر، ومدة مسح السفر على الخفين والتيمم، والتنفل للماشي. وكل ذٰلك مذكور في كتب الفقه بشروط.

ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر، وهو علم القبلة والأوقات، فإن ذٰلك في السفر آكد من الحضر.

ويستدل على القِبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرَّة، علىٰ ما هو مبين في موضعه، ويعتبر الجبال بأن وجوهها جميعها مستقبلة البيت[1].

وأما المجرَّة، فتكون أول الليل ممتدة علىٰ كتف المصلي اليسرىٰ إلىٰ القبلة، ثم يلتوي رأسها حتىٰ تسير في آخر الليل علىٰ كتفه اليمنىٰ، وتسمىٰ المجرة: سُرُجَ السماء[2].

وأما معرفة أوقات الصلوات، فلا بد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فَلْيَنْصِبِ المسافر عوداً مستقيماً، وليعلِّم علامات علىٰ رأس الظل،

---

(١) هذا مما يخالفه الواقع المشاهد. وهذه جبال بلاد الشام، سلسلة لبنان الشرقية، وسلسلة لبنان الغربية تتجه جميع جبالها وقممها إلى الغرب أو الشرق. ولا ينطبق قوله إلا على جبل قاسيون بدمشق مع انحراف فيه. وقوله: (النجوم، والمياه) فليس على إطلاقه.

(٢) هٰذا كله بالنسبة لمن كان في بلاد الشام وما والاها، وأما من كان في بلاد اليمن ومصر والمشرق فإن المجرة تكون علىٰ خلاف ما ذكر.

ولينظر، فإن رآه في النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ في الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثله.

ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلىٰ أن يصير ظل كل شيء مثليه.

وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفرّ الشمس، ثم يذهب وقت الاَختيار، ويبقىٰ وقت الجواز إلىٰ غروب الشمس، وباقي الأوقات معروفة[١].

(١) وقد ترك العشاء والناس في بلاد الشام يؤخرونه عن وقته كثيراً، كذٰلك الفجر فإنه يبدأ عند الناس قبل وقته بأكثر من نصف ساعة أكثر أيام السنة.

١٣ - كِتَابُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ٱعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه، لٱضمَحَلَّتِ الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

[وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران] وفي هٰذه الآية بيان أنه فرضٌ علىٰ الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وٱختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مثل القائم علىٰ حدود الله والواقع فيها والمُداهِنِ فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا ٱستَقَوُا الماء مَرّوا علىٰ مَنْ فوقهم فآذَوْهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فٱستقينا منه ولم نُؤْذِ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا علىٰ أيديهم نَجَوْا جميعاً»**[1].

فصل في مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه

فقد جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبي ﷺ قال: **«من رأىٰ**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣)، وأحمد (١٨٣٣١-١٨٣٣٣ و ١٨٣٣٩)، والترمذي [«صحيحه» (١٧٦٥/ ٢١٧٣)]. وهو في «الصحيحة» (٦٩)، و«صحيح الجامع» (٥٨٣٢).

منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذٰلك أضعف الإيمان»(١).

وفي حديث آخر: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»(٢).

وفي حديث آخر: «**إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: (أنت ظالم) فقد تُودِّع منهم**»(٣).

وقام أبو بكر ﷺ، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تـقـرؤون هٰـذه الآيـة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأَوُا المنكر، فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب**»(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «**لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف وَلَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيُسَلِّطَنَّ الله شراركم علىٰ خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٤٩)، وأحمد (١١٤٤٦)، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٠٠٩/ ١١٤٠ و٣٦٤٧/ ٤٣٤٠)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٧٦٤/ ٢١٧٢)]، والنسائي [«صحيح سننه» (٤٦٣٦)] عن أبي سعيد الخدري. وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١١١٢٧)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٦٥٠/ ٤٣٤٤)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٤٠١١/ ٣٢٤٠ و٤٠١٢/ ٣٢٤١)]. وهو في «صحيح الجامع» (١١٠٠)، و«الصحيحة» (٤٩١). وفي رواية: «كلمة عدلٍ».

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٨١)، والطبراني والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عَمْرو. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث جابر. وهو في «ضعيف الجامع» (٥٠١)، و«الضعيفة» (١٢٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (١ و١٦ و٥٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٦٤٤/ ٤٣٣٨)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٤٤٨/ ٣٠٥٧)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٣٦/ ٤٠٠٥)]. وهو في «الصحيحة» (١٥٦٤)، و«المشكاة» (٥١٤٢).

(٥) أخرجه البزار والطبراني والخطيب عن أبي هريرة. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٤٦٥٠).

فصل في أركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك

ٱعلم أن أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة :

أحدها : أن يكون المنكِر مكلفاً مسلماً قادراً : وهٰذا شرط لوجوب الإنكار ، فإن الصبي المميز ، له إنكار المنكر ، ويثاب علىٰ ذٰلك ، لٰكن لا يجب عليه .

وأما عدالة المنكِر ، فٱعتبرها قوم وقالوا : ليس للفاسق أن يحتسب .

وإنما ٱستدلوا بقوله تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة : ٤٤] وليس لهم في ذٰلك حجة .

وٱشترط قوم كونَ المنكِر مأذوناً فيه من جهة الإمام أو الوالي ، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحِسْبة ، وهٰذا فاسد ، لأن الآيات والأخبار عامة تدل علىٰ أن كل من رأىٰ منكراً فسكت عنه عصىٰ ، فالتخصيص بإذن الإمام تَحَكُّمٌ .

ومن العجب أن الروافض زادوا علىٰ هٰذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم ، وهؤلاء أَخَسُّ رتبة من أن يتكلموا ، لٰكن جوابهم أن يقال لهم : إذا جاؤوا إلىٰ القاضي طالبين حقوقهم : نُصْرَتُكم أمرٌ بالمعروف ، وٱستخراجُ حقوقكم من يد مَنْ ظَلَمَكم نهيٌ عن المنكر ، ولم يَجِئْ زمان ذٰلك الإمام ، لأنه لم يخرج بعد .

فإن قيل : في الأمر بالمعروف إثباتُ سَلْطَنةٍ وولاية علىٰ المحكوم عليه ، ولذٰلك لم يثبت للكافر علىٰ المسلم ، مع كونه حقاً ، فينبغي ألا يثبت لآحاد الرعية إلاّ بتفويض من السلطان . =

= قلنا : أما الكافر فممنوع من ذٰلك لما فيه من السلطة والعز ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هٰذا العز بالدين والمعرفة .

[(مراتب الحِسْبة)]

وٱعلم أن الحِسْبة لها خمس مراتب :

التعريف .

والوعظ بالكلام اللطيف .

الثالثة : السَّبُّ والتعنيف ، ولسنا نعني بالسبِّ الفاحشة ، بل نقول له : يا جاهل يا أحمق ، ألا تخاف من الله تعالىٰ! ونحو ذٰلك .

والرابعة: المنع بالقهر. كَكَسْرِ الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أو مباشرة الضرب له حتىٰ يمتنع عما هو عليه، فهٰذه المرتبة تحتاج إلىٰ الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلىٰ فتنة.

وٱستمرارُ عاداتِ السلف علىٰ الحِسْبة علىٰ الولاة قاطعٌ بإجماعهم علىٰ الاستغناء عن التفويض.

فإن قيل: فهل تثبتِ الحِسْبة للولد علىٰ الوالد، والعبد علىٰ السيد، والزوجة علىٰ الزوج، والرعية علىٰ الوالي؟ =

= قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتَّبنا للحِسْبة خمس مراتب:

فللولد من ذٰلك: الحِسْبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العُود، ويريق الخمر، ونحو ذٰلك، وهٰذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكِر قادراً علىٰ الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه الإنكار إلا بقلبه. ولا يقف سقوط الوجوب علىٰ العجز الحسي، بل يلتحق به خوفُ مكروهٍ يناله، فذٰلك في معنىٰ العجز.

[(شروط الحِسْبة)]

وكذٰلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلىٰ أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إنْ تكلم ضُرِب، فيرتفع الوجوب عنه.

الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لٰكنه لا يخاف مكروهاً، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لٰكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولٰكن يبطل المنكَر بفعله، مثل أن يكسر العُود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يُضرب عقيب ذٰلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقىٰ مستحبّاً لقوله في الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»(١).

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم علىٰ صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يُقتل، لٰكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمىٰ يطرح نفسه علىٰ الصَّفِّ، حرم ذٰلك. وكذٰلك لو رأىٰ فاسقاً وحده وعنده قَدَحُ خمرٍ وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام علىٰ ذٰلك، لأن هٰذا لا يؤثر في الدين أثراً يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر علىٰ إبطال المنكَر، وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحِسْبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلىٰ منكر آخر، وليس ذٰلك من القدرة في شيء. ولسنا نعني بالعلم في هٰذه المواضع إلا غَلَبة الظن، فمن غلب علىٰ ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب علىٰ ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضربَ أوِ القتل، وكذٰلك نَهْب المالِ، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السبّ والشتم، فليس بعذر في السكوت، لأن الآمر بالمعروف يلقىٰ ذٰلك في الغالب.

الركن الثاني: أن يكون ما فيه الحسبة مُنْكَراً موجوداً في الحال ظاهراً: فمعنىٰ كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع في الشرع، والمنكَر أعم من المعصية، إذْ مَنْ رأىٰ صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذٰلك لو رأىٰ مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه.

---

(١) صحيح، سلف تخريجه الصفحة (١٥٣) الحاشية (٢).

وقولنا: (موجوداً في الحال) احترازٌ ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذٰلك، فإن ذٰلك ليس إلىٰ الآحاد، وفيه أيضاً ٱحتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يُعلم بقرينةِ حالِهِ أنه عازمٌ علىٰ الشرب الليلة، فلا حِسْبة عليه إلا بالوعظ.

وقولنا: (ظاهراً) ٱحترازٌ ممن تستر بالمعصية في داره وأغلق بابه، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير والعيدان، فلمن سمع ذٰلك أن يدخل ويكسر الملاهي، فإن فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير ٱجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حِسْبة فيه، فليس للحنفي أن ينكر علىٰ الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر علىٰ الحنفيّ شربه يَسِيْرِ النبيذِ الذي ليس بمسكر.

الركن الثالث: في المنكَرِ عليه: ويكفي في صفته أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بيّنّا قبله من أنه ينكر علىٰ الصبي والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب: وله درجات وآداب:

الدرجة الأولىٰ: أن يعرف المنكر، فلا ينبغي له أن يَسْتَرِقَ السَّمْعَ علىٰ دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشَّمِّ ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يَمَسَّ ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري، بل لو أخبره عدلان ٱبتداءً أن فلاناً يشرب الخمر، فله إذْ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يُقْدِمُ علىٰ الشيء لا يظنه منكراً، فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه باللطف، فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتىٰ علَّمَنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم. فهٰكذا يُتَلَطَّفُ به ليحصل التعريف من غير إيذاء. ومن ٱجتنب محذور السكوت عن المنكر، وٱستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف، ويكون ذٰلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وهٰهنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها، وهو أن العالم يرىٰ عند التعريف عِزَّ نفسه بالعلم، وذُلَّ غيره، بالجهل.

ومثال ذٰلك: مثال من يُخلِّص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومَذَلَّة عظيمة، وغرور من الشيطان، ولذٰلك مِحَكٌّ ومعيار، فينبغي أن يمتحن به المحتسبُ نفسَه، وهو أن يكون ٱمتناع ذٰلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره عليه، أحبَّ إليه من ٱمتناعه [عنه] بٱحتسابه، فإن كانت الحِسْبة شاقَّةً عليه، ثقيلة علىٰ نفسه، وهو يَوَدُّ أن يُكفىٰ بغيره، فليحتسب، فإنَّ باعثه هو الدين، وإن كان الأمر بالعكس، فهو متَّبعُ هوىٰ نفسه، متوسلٌ إلىٰ إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتق الله وليحتسب أولاً علىٰ نفسه.

وقيل لداود الطائيِّ: أرأيت رجلاً دخل علىٰ هٰؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟

قال: أخاف عليه السَّوْطَ.

قيل: هو يقوىٰ علىٰ ذٰلك.

قال: أخاف عليه السيف.

قيل: هو يقوىٰ علىٰ ذٰلك.

قال: أخاف عليه الداء الدفين: العُجْبَ.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلىٰ هٰذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحشَ والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله! قال الله تعالىٰ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هٰذه الدرجة أَدَبانِ:

أحدهما: ألا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذٰلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغي أن يجره ولا يدفعه.

الثاني: أن يكسر الملاهي كسراً يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد علىٰ ذٰلك، ويتوقىٰ في إراقة الخمور كَسْر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، وإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بحجر أو نحوه، فله ذٰلك، وتسقط قيمة الظروف، ولو ستر الخمر ببدنه، فإنه يقصد بدنه بالضرب ليتوصل إلىٰ إرقة الخمر، ولو كانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث إنه إذا ٱشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفُسَّاق فمنعوه، فله كسرها، لأن هٰذا عذر، وكذٰلك إن كان يضيع الزمان في صبها، وتتعطل أشغاله، فله كسرها ولو لم يحذر من الفُسَّاق.

فإن قيل: فهلاّ يجوز الكسر زجراً، وكذٰلك الجر بالرِّجْل في الإخراج من الدار المغصوبة زجراً؟

قلنا: إنما يجوز مثل ذٰلك للولاة، ولا يجوز لآحاد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هٰذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هٰذا علىٰ تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هٰذه الرتبة ألا يُهَدِّد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لَأَنْهَبَنَّ دارك، ولَأَسْبِيَنَّ زوجتك، لأنه إن قال ذٰلك عن عزم، فهو حرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرِّجْل وغير ذٰلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذٰلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والٱقتصار علىٰ قدر الحاجة، فإذا ٱندفع المنكر فينبغي أن يكف.

الدرجة الثامنة: ألا يقدر علىٰ الإنكار بنفسه ويحتاج إلىٰ أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدي إلىٰ القتال، فالصحيح أن ذٰلك يحتاج إلىٰ إذن الإمام، لأنه يؤدي إلىٰ الفتن وهَيَجَانِ الفساد.

وقيل: لا يشترط في ذٰلك إذن الإمام.

[آداب المحتسب]

فصل: وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة، وجملتها ثلاث صفات في المحتسب:

الأوّل: العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقتصر على حد الشرع.

والثاني: الورع، فإنه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالث: حسن الخلق، وهو أصل ليتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهىٰ عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهىٰ عنه، فقيهٌ فيما يأمر به، فقيه فيما ينهىٰ عنه.

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة، فقد حكي عن بعض السلف أنه كان له سِنَّور، وكان يأخذ لسنوره في كل يوم من قَصَّاب في جِواره شيئاً من الغُدد، فرأىٰ علىٰ القصاب منكراً، فدخل الدار فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر علىٰ القصاب، فقال: لا أعطيك بعد هٰذا شيئاً لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك. وهٰذا صحيح، فإن من لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر علىٰ الإنكار عليهم:

أحدهما: مِنْ لُطْفٍ ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمُتَعَيِّنٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وروي أن أبا الدرداء ﷺ مرَّ علىٰ رجل أصاب ذنباً والناس يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟

قالوا: بلىٰ، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي.

ومر فتىً يجر ثوبه، فَهَمَّ أصحاب صِلَةَ بن أَشْيَم أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً، فقال صلة: دعوني أَكفِكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة.

قال: ما هي؟

قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمىٰ عين[1]، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هٰذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسين إلىٰ عرس، فجيء بِجَام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه علىٰ رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هٰذَا نهي في سكوت[2].

باب في المنكرات المألوفة في العادات وفي الإنكار على الأمراء والسلاطين، وأمرهم بالمعروف

ولنذكر في ذلك فصلين:

الفصل الأول: اعلم أن المنكرات المألوفة في العادات لا يمكن حصرها، لٰكنا نشير إلىٰ جمل يستدل بها علىٰ أمثالها، فمن ذٰلك:

منكرات المساجد[3]

مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذٰلك كل ما يقدح في صحة الصلاة، من نجاسة علىٰ ثوب المصلي لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب عمىً أو ظلام.

---

(١) أي قرة عين، يعني: أقر عينك بطاعتك واتباع أمرك.

(٢) انظر كتاب «الأمر بالمعروف» تأليف الفاضل الشيخ عبد المعز عبد الستار، طبع المكتب الإسلامي.

(٣) انظر كتاب «إصلاح المساجد» للعلامة جمال الدين القاسميّ، وكتاب «الأجوبة النافعة» للمحدث الألبانيّ، وكتاب «تحذير الساجد» للألبانيّ، وكتاب «الموعظة الحسنة» لِصدِّيق حسن خان، ففيها الكثير النافع في هٰذا الموضوع، وكلها طبع المكتب الإسلامي.

ومن ذٰلك: اللحن في القراءة.

وٱشتغال المعتكف بإنكار هٰذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها.

ومن ذٰلك: تراسيل[1] المؤذنين في الأذان وتطويلهم مد كلماته.

ومن ذٰلك: أن يكون علىٰ الخطيب ثوب حرير، أو بيده سيف مذهب.

ومن ذٰلك: ما يجري من القُصّاص في المساجد من الكذب، والأشياء المنهيّ عنها، كالخوض في الكلام الموجب للفتن، ونحو ذٰلك.

ومن ذٰلك: أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذٰلك عليهم.

ومنها: الحِلَقُ يوم الجمعة لبيع الأدوية، والأطعمة، والتعويذات، وقيام السُؤّال، وإنشادهم الأشعار، ونحو هٰذا. فهٰذه منها ما هو حرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات الأسواق

ومن ذٰلك: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: ٱشتريت هٰذه السلعة بعشرة، ورابحٌ فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق.

ويجب علىٰ من عرف ذٰلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة للبائع، كان شريكاً له في الخيانة. وكذٰلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشتري، وكذٰلك التفاوت في الميزان والذراع، يجب علىٰ كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أو برفعه إلىٰ الوالي حتىٰ يغيره.

ومنها: الشروط الفاسدة، وٱستعمال الربا، وبيع الملاهي، والصور المجسمة، ونحو ذٰلك.

منكرات الشوارع

ومن ذٰلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس

---

(١) أي: إطالة ومطّ.

الأشجار إذا كان ذٰلك يؤدي إلىٰ تضييق الطريق والإضرار بالمارّة. فأما وضع الحَطَب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل إلىٰ البيوت فجائز، فإن ذٰلك يشترك الكافّة في الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدوابّ علىٰ الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس، فيجب المنع عن ذٰلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذٰلك: تحميل الدوابّ من الأحمال ما لا تطيق، وكذٰلك طرح الكُناسة علىٰ جوادِّ الطريق، وتبديد قشور البِطِّيخ، أو رش الماء بحيث يخشىٰ منه الزلق، والماء الذي يجتمع من ميزاب معين. فأما إن كان من المطر، فذٰلك علىٰ الولاة، وليس للآحاد في ذٰلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات

من ذٰلك: صور الحيوانات علىٰ باب الحمام أو داخله، ويكفي في زوال ذٰلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها. ومن لم يقدر علىٰ الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلىٰ حمام آخر.

ومن ذٰلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلِّك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحية الوسخ أو مس العورة.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، فإن فعل ذٰلك مالِكِيٌّ، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له: يمكنك ألا تؤذيني بتفويت الطهارة عليَّ.

منكرات الضيافة

من ذٰلك: فرش الحرير للرجال، والبَخُور في مِجْمَرة فضة أو ذهب، والشرب فيهما، وٱستعمال ماء الورد منهما، وكذٰلك تعليق السُّتُور وفيها الصور، وسماع القَيْنَات والأوتار، وٱطلاع النساء علىٰ الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذٰلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصور علىٰ النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذٰلك الفرش الحرير، والذهب للنساء، فإنه جائز، ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق

حلق الذهب، فإن ذٰلك جرح مؤلم لا يجوز، وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذٰلك، والاَستئجار علىٰ ذٰلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذٰلك أن يكون في الضيافة مبتدِع يتكلم في بدعته، فلا يجوز الحضور معه، إلا لمن يقدر علىٰ الردِّ عليه، وإن لم يتكلم المبتدع[1] جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار، فإن كان ذٰلك مزحاً لا كذب فيه ولا فحش، أبيح ما يَقِلُّ من ذٰلك[2]، فأما اَتخاذه صناعةً وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة

من تيقن أن في السوق منكراً يجري علىٰ الدوام، أو في وقت معين وهو قادر علىٰ تغييره، لم يجز له أن يُسْقِطَ ذٰلك عنه بالقعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر علىٰ تغيير البعض لزمه.

وحق علىٰ كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة علىٰ الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذٰلك أهله وأقاربه، ثم يتعدىٰ إلىٰ جيرانه وأهل محلته، ثم إلىٰ أهل بلده، ثم إلىٰ السواد كذٰلك إلىٰ أقصىٰ العالم، فإن قام بذٰلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

الفصل الثاني: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف. والجائزُ من ذٰلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما: التعريف والوعظ، فأما تَخْشِينُ القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذٰلك يحرك فتنة يتعدىٰ شرها إلىٰ الغير، لم يجز، وإن لم يَخَفْ إلا علىٰ نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذي أراه

(١) كلمة «المبتدع» لم ترد في النسخة الثانية والمطبوع.

(٢) في المطبوع: (ما لم يقل من ذلك) ولا يستقيم بها المعنى.

المنع عن ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذي قصد إزالته، وذلك أن قرب السلاطين التعظيمُ، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رَأَوْا غاية الذل، لم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: لا تتعرضنَّ بالسلطان، فإن سيفه مسلول. فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب.

وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والأمراء في كتاب «المصباح المضيء» وأنا أنتخب منه هٰهنا حكايات:

[(منتخب من مواعظ السلف للخلفاء والأمراء)]

★ قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه: اخش الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، ولا يخالف قولَك فعلُك، فإن خير القول ما صدَّقه الفعل، وأحِبَّ لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وخُضِ الغَمَرات إلى الحق حيث علمته، ولا تَخَفْ في الله لومة لائم.

قال: ومن يستطيع ذلك يا أبا سعيد[1]؟

قال: من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

★ وقال قتادة: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة بَرْزَة[2] على ظهر الطريق، فسلم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها، فقالت: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تُسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفَوْتَ، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال الجارود: هيه، لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته.

---

(١) كذا الأصول مع إنه في أول الخبر سمي سعيداً، ولم أهتد إلى الترجيح.
(٢) هي المرأة المسنة الكبيرة، ويسمح لها بما لا يجوز للشابة.

فقال عمر: دعها، أما تعرف هٰذه؟ هي خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمر والله أحرىٰ أن يسمع كلامها.

★ ودخل شيخ من الأزد علىٰ معاوية ﷺ، فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أن كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بُعداً، ومن الآخرة إلا قرباً، وعلىٰ إثرك طالب لا تفوته، وقد نُصِب لك عَلَم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت: زائلٌ، والذي نحن صائرون إليه: باقٍ، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فَشَرٌّ.

★ ودخل سليمان بن عبد الملك المدينةَ، فأقام بها ثلاثاً، فقال: أما هٰهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا؟

فقيل له: هٰهنا رجل يقال له: أبو حازم، فبعث إليه، فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هٰذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأيُّ جفاء رأيت مني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟! فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلىٰ الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم علىٰ الله تعالىٰ؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم علىٰ أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالآبق يقدم علىٰ مولاه خائفاً محزوناً.

فبكىٰ سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك علىٰ كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله.

قال: يا أبا حازم، وأنّىٰ أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟

قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار].

قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟

قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس.

قال: فمن أحمق الناس؟ قال: من حط نفسه في هوىٰ رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاءِ؟ قال: دعاء المُخْبِتين.

قال: فما أزكىٰ الصدقة؟ قال: جهد المُقِلِّ.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من هذا.

قال سليمان: نصيحة تلقيها. قال أبو حازم: إن ناساً أخذوا هٰذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء علىٰ طلب الدنيا، ثم ٱرتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟

فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ، فقال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء لِيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: يا أبا حازم، ٱصحبنا تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذٰلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥].

قال: فَأَشِرْ عليّ. قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ٱدع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمانُ وَلِيَّكَ فَيَسِّرْهُ للخير، وان كان غير ذلك، فخذ إلىٰ الخير بناصيته.

فقال: يا غلام، هات مئة دينار، ثم قال: خذْ هٰذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هٰذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا؛ . . . ، وإلا؛ فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي.

فكأن سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزُّهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتِمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار علىٰ الجار حقاً؟

قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا علىٰ الصواب كانت الأمراء تحتاج إلىٰ العلماء، وكانت العلماء تَفِرُّ بدينها منهم، فلما رأىٰ ذلك قوم من أَذِلَّة

الناس تعلموا ذٰلك العلم، وَأَتَوْا به الأمراء، واْجتمع القوم علىٰ المعصية، فسقطوا واْنتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزلِ الأمراء تهابهم.

قال الزهري: كأنك إياي تريد وبي تعرّض؟ قال: هو ما تسمع.

★ وحكي أن أعرابياً دخل علىٰ سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام، فاْحتمله، وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته.

قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين، إنه قدِ اْكتنفك رجالٌ اْبتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سِلْمٌ للدنيا، فلا تأمنهم علىٰ ما اْئتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً، وأنت مسؤول عما اْجترحوا، وليسوا بمسؤلين عما اْجترحت، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غَبْناً بائع آخرته بدنيا غيره.

فقال سليمان: أما أنت فقد سللت لسانك، وهو أقطع من سيفك.

فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ قال: أما خاصّة دون عامة فلا. ثم قام فخرج.

فقال سليمان: لله دَرُّهُ ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هٰكذا فليكن الشرف والعقل.

★ وقيل: قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأبي حازم: عظني.

فقال: اضطجع ثم اْجعل الموت عند رأسك، ثم اْنظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فَدَعْهُ الآن.

★ وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم

غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتىٰ أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدَّة، ولا لما كرهوا منها جُنَّة، وٱقْتَسَمَ ما جمعوا من لم يَحْمَدْهم، وصاروا إلىٰ من لا يعذرهم، فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلىٰ تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلىٰ الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فٱتق الله، وٱفتحِ الأبواب، وسهل الحجاب، وٱنصر المظلوم، ورد المظالم. ثلاث من كن فيه ٱستكمل الإيمان بالله ﷻ: إذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

★ ودخل عطاء بن أبي رباح علىٰ هشام، فرحب به وقال: ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكَّره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وأعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام ٱكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم قال: يا أبا محمد هل من حاجة غيرها؟ فقال: نعم، فذكَّره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذٰلك، حتىٰ ذكره بأهل الذِّمة ألا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلىٰ ذٰلك، ثم قال له في آخر ذٰلك: هل من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ٱتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك، ممن ترىٰ أحد.

قال: فأكب هشام يبكي، وقام عطاء. فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري ما فيه، أدراهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهٰذا. فقال: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠. هود: ٥١. الشورى ٢٣] ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها.

★ وعن محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس المنصور، وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأتىٰ الغِفاريون، فَشَكَوْا إلىٰ أبي جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذئب، قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل الحطم في

أعراض الناس، فقال أبو جعفر: سمعتم؟ فقال الغِفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول فيَّ؟ قال: أَوَ يُعْفيني أمير المؤمنين؟ فقال: والله لَتُخْبِرَنِّي. فقال: أشهد أنك أخذت هٰذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذئب، وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأَخَذتْ أبناءُ فارس والروم والديلم والترك بهٰذا المكان منك. فقال ابن أبي ذئب: قد ولي أبو بكر وعمر، فأخذا بالحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم. فخلاه أبو جعفر، وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلْتُك. فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أنصح لك من ٱبنك المهديّ.

★ وعن الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: بعث إليَّ المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه، ٱستجلسني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعيُّ؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاْقتباس منكم.

قلت: فٱنظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوىٰ بيده إلىٰ السيف، فٱنتهره المنصور وقال: هٰذا مجلس مَثُوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وٱنبسطْتُ في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بُسْر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة»**[1]، يا أمير المؤمنين، كنتَ في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مواعظ الخلفاء» وأبو نعيم في «الحلية» ٦/١٣٦ وفيه أحمد بن عبيد بن ناصح. قال ابن عدي: يحدث بمناكير، وهو عندي من أهل الصدق. وروى معناه من حديث معقل بن يسار كلٌّ من: البخاري (٧١٥٠ و ٧١٥١)، ومسلم (١٤٢)، وهو في «صحيح الجامع» (٢٧١٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٥٧).

وأسودهم، ومسلمهم، وكافرهم، وَكُلٌّ له عليك نصيبٌ من العدل، فكيف بك إذا آنبعث منهم فِئَامٌ وراء فئام[١]، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظُلامة سقتها إليه، يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد بن جارية، عن حبيب بن مَسْلَمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلىٰ القِصاص من نفسه ـ في خَدْشٍ خَدَشَه ـ أعرابياً لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله تعالىٰ لم يبعثك جباراً ولا متكبراً، فدعا عليه الصلاة والسلام الأعرابيَّ، فقال: «اَقْتَصَّ مني»[٢]. فقال الأعرابي: قد أحْلَلْتُكَ، بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذٰلك أبداً، ولو أتيت علىٰ نفسي، فدعا له بخير. يا أمير المؤمنين، رضِّ نفسك لنفسك، وخذ لها الأمانَ من ربك.

يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يَصِلْ إليك، وكذٰلك لا يبقىٰ لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هٰذه الآية عن جدك[٣]: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. قال: الصغيرة: التبسم. والكبيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدي، وحصدته الألسن.

يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لو ماتت سَخْلة علىٰ شاطئ الفرات ضَيْعة، لخشيت أن أُسأل عنها، فكيف بمن حُرِم عدلك وهو علىٰ بساطك؟

يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هٰذه الآية عن جدك[٤]: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]. قال: إذا قعد الخصمان بين يديك، وكان لك أحدهما هوىً، فلا تَتَمَنَّيَنَّ في

---

(١) الفئام: الجماعة الكثيرة من الناس.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «مواعظ الخلفاء» وفيه ما في الذي قبله. لكن في «ضعيف سنن أبي داود» (٩٨٠/ ٤٥٣٧)، و«ضعيف سنن النسائي» (٣٣٠)، وأحمد (١/ ٤١) (٢٨٦) عن عمر أن رسول الله ﷺ اقتص من نفسه.

(٣) و(٤) يقصد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

نفسك أن يكون الحق له فَيَفْلُحَ علىٰ صاحبه، فأمحوك من نبوّتي، ثم لا تكون خليفتي، يا داود: إنما جعلت رسلي إلىٰ عبادي رعاءً كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسر، ويدلّوا الهزيل علىٰ الكلإ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بُليت بأمر لو عُرض علىٰ السمٰوات والأرض والجبال لأبين أن يحمِلْنه وأشفقْنَ منه.

يا أمير المؤمنين: حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرة الأنصاريّ: أن عمر بن الخطاب ﷺ ٱستعمل رجلاً من الأنصار علىٰ الصدقة، فرآه بعد أيام مقيماً، فقال له: ما منعك من الخروج إلىٰ عملك؟ أما علمت أن لك أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من والٍ يلي شيئاً من أمور الناس، إلا أتىٰ يوم القيامة مغلولة يداه إلىٰ عنقه، يُوقَفُ علىٰ جسر جهنم، ينتفض به ذٰلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسناً نجا بإحسانه، وإن كان مسيئاً ٱنخرق به ذٰلك الجسر فهوىٰ به في النار سبعين خريفاً»**[1]. فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبي ذر وسلمان رضي الله عنهما، فأرسل إليهما عمر فسألهما. فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ. فقال عمر: وَاعُمَرَاه من يتولاها[2] بما فيها؟ فقال أبو ذر ﷺ: من سَلَتَ[3] الله أنفه، وألصق خده بالأرض. فأخذ المنديل ـ يعني المنصور ـ فوضعه علىٰ وجهه ثم بكىٰ وٱنتحب حتىٰ أبكاني، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول الله ﷺ إمارة علىٰ مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبي صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) فيه ما في الذي قبله. لكن معنى الحديث في «مجمع الزوائد» ٥/ ٢٠٥. وينظر «صحيح الجامع» (٥٦٩٥-٥٦٩٧ و٥٧١٨).
(٢) أي الإمارة والولاية بسبب ما فيها من الخطر.
(٣) سلت أنفه: أجدعه.

«**يا عم، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها**»[(١)] نصيحةً منه لعمه وشفقة منه عليه، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذْ أُوحي إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]. فقال:

«**يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة، إني لست أُغني عنكم من الله شيئاً، لي عملي ولكم عملكم**»[(٢)]. وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقيم أمر الناس إلا حَصِيفُ العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهي نصيحة، والسلام عليك. ثم نهض، فقال: إلىٰ أين؟ فقال: إلىٰ الوطن بإذن أمير المؤمنين. فقال: أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقَبِلتها بقبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تُخْلِني من مطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة.

قلت: أفعل إن شاء الله. فأمر له بمال يستعين به علىٰ خروجه، فلم يقبله، وقال: أنا في غنىً عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بِعَرَضِ الدنيا كلها. وعرف المنصور مذهبه فلم يَجِدْ عليه في رَدِّه.

★ ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: ٱطلبوه لي، فأَتَوْهُ به، فقال: يا شيبان، عِظْني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل أَلْكَنُ، لا أفصح بالعربية، فجئني بمن يفهم كلامي حتىٰ أكلمه. فأتي برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يخوِّفك قبل أن تبلغ المأمن، أنصحُ لك من الذي يُؤَمِّنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أيّ شيء تفسير هٰذا؟

---

(١) فيه ما في الذي قبله وأخرجه هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البيهقي من مرسل ابن المنكدر.

(٢) أخرجه هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٥٤٦/ ٣١٨٥)]، والنسائي [«صحيحه» (٣٤٠٧ و ٣٤٠٨)] من حديث أبي هريرة متصلاً دون قوله: «**لي عملي ولكم عملكم**». وهو في «صحيح الجامع» (٧٩٨٢ و٧٩٨٣).

قال: قل له: الذي يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هٰذه الأمة، ٱسترعاك الله عليها، وقَلَّدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فٱعْدِل في الرَّعِيّة، وٱقسم بالسوية، وٱنفُذْ في السرية، وٱتق الله في نفسك، هٰذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمن أَمِنْتَ، هٰذا أَنْصَحُ لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم[1]، وأنتم قرابة نبيّكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمّنك حتىٰ إذا بلغْتَ الخوف عَطِبْتَ، قال: فبكىٰ هارون حتىٰ رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبك.

★ وعن عَلْقَمة بن مَرْثَدٍ، قال: لما قدم عمر بن هُبَيْرة العراق، أرسل إلىٰ الحسن وإلىٰ الشَّعْبيِّ، فأمر لهما ببيت، فكانا فيه نحواً من شهر، ثم دخل عليهما وجلس مُعَظِّماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ كتباً، أعرف أن في إنفاذها الهَلَكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تَرَيان في متابعتي إياه فَرَجاً؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير، فتكلم الشعبي، فٱنْحَطَّ في أمر ابن هبيرة، كأنه عَذَرَهُ، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكة الله تعالىٰ فَظّ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سَعَةِ قصرك إلىٰ ضيق قبرك. يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالىٰ، يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك علىٰ أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركتُ ناساً من صدر هٰذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم، يا عمر بن هبيرة، إني أخوِّفك مقاماً خَوَّفَكَهُ الله تعالىٰ فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم]. يا عمر بن هبيرة، إنْ تَكُ

---

(١) هذا الفهم لقرابة رسول الله ﷺ لا يوافق الكتاب ولا السنة المطهرة. والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ والرسول ﷺ يقول: «لا أغني عنكم من الله شيئاً».

مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك علىٰ معاصي الله وكَلَكَ الله إليه، فبكىٰ عمر بن هبيرة وقام بِعَبْرَتِه.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما ـ، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلىٰ المسجد، فقال: أيها الناس، من استطاع منكم أن يُؤْثر الله تعالىٰ علىٰ خلقه، فليفعل، فوالذي نفسي بيده، ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته، ولٰكني أردت وَجْهَ ابن هبيرة، فأقصاني الله منه.

★ ودخل محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ بلال بن أبي بردة في يوم حارٍّ وبلال في خَيْشة[1]، وعنده الثلج، فقال له: يا أبا عبدالله، كيف ترىٰ بيتنا هٰذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذِكْرُ النار يُلهي عنه.

قال: ما تقول في القَدَر؟

قال: جيرانك أهل القبور، ففكِّر فيهم، فإن فيهم شُغلاً عن القدر. قال: ٱدْعُ الله لي. قال: وما تصنع بدعائي؟ وعلىٰ بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتَهم، يُرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلِم، فلا تحتاج لدعائي.

□

- فهٰذا مختصر من أخبار من وعظ الأمراء، فمن أراد الزيادة، فلينظر في «المصباح المضيء».

وهٰذه كانت سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالىٰ علىٰ تقاتهم[2]، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله، فيصبرون علىٰ مضض مواعظ هٰؤلاء.

والذي أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأَولىٰ، فإن قُدِّرَ لقاءٌ، ٱقتنع بلطف الموعظة فحسب.

---

(١) في النسخة الثانية والمطبوع: «جيشه» ولعلها نوع من الخيام أو الدور.

(٢) أي يؤثرون حق الله تعالى بالنصح مع خوف البطش على ما يمكنهم من التقية والسلامة.

ولذٰلك سببان:

أحدهما: يتعلق بالواعظ، وهو سوء قصده وميله إلىٰ الدنيا والرياء، فلا يخلص له وعظه.

والثاني: يتعلق بالموعوظ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس المؤمن أن يذل نفسه.

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر المُصَنِّفُ قبل ذٰلك كتاباً في السَّمَاعِ والوَجْدِ، فلنذكر شيئاً منه هٰهنا مختصراً.

[كتاب: آداب السماع والوجد]

فصل في حكم السماع

اعلم أن السماع ـ الذي نعني به الغناءَ ـ من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب، وغرَّ به خلقاً لا يُحْصَوْنَ من العلماء والزهاد، فضلاً عن العوامّ، حتىٰ ادَّعَوْا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المطربة، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طَرَبِ القلوب وانزعاجها، وَجْدٌ يتعلق بالآخرة.

وإذا أردت أن تعرف الحق، فانظر في القرن الأول، هل فعل رسول الله ﷺ شيئاً من ذٰلك أو أصحابه، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيهم، وفقهاء الأمة، كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد رحمهم الله، فكل القوم ذموا الغناء، حتىٰ قال مالك: إذا اشترىٰ جارية، فوجدها مغنية، كان له ردها، وسئل عن الغناء، قال: إنما يفعله الفُسَّاق[1].

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية، فاحتاج الصبي إلىٰ بيعها، فقال: تباع علىٰ أنها ساذجة لا مغنية، فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفاً إذا كانت مغنية، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين ديناراً. فقال: لا تباع إلا علىٰ أنها ساذجة.

---

(١) بل أشد فسقاً المبتدعة من أدعياء الدين الذين زعموا أنهم من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي ـ وهو بريء منهم ـ فتقام لهم الاحتفالات بكل مناسبة دينية وغير دينية، ويضرب فيها الدفوف والأوتار ومختلف الأدوات الموسيقية. وإنني أدعو الله لهم بالتوبة والرجوع إلى دين الله.

وقد أطبق الفقهاء علىٰ الزجر عن الغناء. ومن المتأخرين أبو الطَّيِّبِ الطَبَرِيُّ من كبار أصحاب الشافعيّ، وصنف كتاباً، وبالغ في النهي عنه.

وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازه قوم من السلف، وقد سمع أحمد بن حنبل قول قوَّال، فقال: لا بأس بهٰذا.

فينبغي أن يتأمل الذي أفتىٰ بجوازه ما هو، وليس إلا الأشعار الزُهْدية وما يشبهها، من غير ضَرْبٍ بقضيبٍ، أو آلة تُطْرِبُ، ولا ضم إلىٰ ذٰلك تصفيق ولا رقص.

وعلىٰ هٰذا يحمل حديث عائشة[١] في الجاريتين المغنيتين لما غَنَّتا بما تقاوَلته الأنصار يوم بُعاث فإن ذلك لا يطرب.

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصَّنْج والشبّابة والشِّعر الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوىٰ الكامنة في النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج مُعَلَّقاً بالآخرة، وهيهات.

وليتهم قالوا: إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونه قربة ويسمون الطرب المخرِج عن حد العقل وَجْداً، وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بمَعْزِلٍ عن طريق السلف، وغير خافٍ أنه ضلال عن الجادّة، فلا ينبغي للإنسان أن يغالط نفسه، وإنما الوَجْدُ الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد، وشوق من الوعد، وندم علىٰ التفريط، وجميع هٰذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجَمْزَ والتصفيق، ولم يَضِقْ علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد، حتىٰ نحتاج في إحضار القلوب إلىٰ باب الله تعالى أن نذكر سلمىٰ وسُعْدىٰ. ولا ننكر أنه قد يتفق في بعض تلك الأشعار ما يصح أن يوجد إشارة، إلا أن الأغلب منها إمالة القلوب إلىٰ الهوىٰ الدنيوي.

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة، كمثل من قال: أنا أنظر إلىٰ الأمر

---

(١) رواه البخاري (٩٨٧-٩٨٨)، ومسلم (٨٩٢). وسيأتي قسم آخر من الحديث في الصفحة (٢١١) حاشية (٥).

المستحسن لأتعجب من صنعة القادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تَسْتَلِبُه الشهوة والطبع عند النظر يُكَدِّر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذٰلك نمنعه ونقول: انظر إلىٰ ما لا مكدر فيه قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: ٦] ومن قال: إنه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من ٱنجذاب الطبع إلىٰ الهوىٰ، كان مدّعياً ما يخالف الجِبِلّة، فلا يُلْتَفَتُ إلىٰ دعواه، وقد بالغتُ في الكشف عن هٰذا كله في كتابي المُسَمَّىٰ: بـ «تلبيس إبليس» فلم أر التطويل هٰهنا، والله أعلم.

باب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

ٱعلم أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رَشْحُ المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق علىٰ الظواهر فتزينها وتُحَلِّيها.

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلٰهية، لم يَفِضْ علىٰ ظاهره جمال الآداب النبوية.

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغني عن إعادتها هٰهنا، لٰكن نقتصر في هٰذا الباب علىٰ شيء من آداب رسول الله ﷺ وأخلاقه لنجمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم مرتبة وأَجَلُّهم قدراً، فكيف بمجموعها؟

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضىٰ لرضاه[1]، ولما كمل الله تعالىٰ خُلُقه أثنىٰ عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] فسبحان من أعطىٰ ثم أثنىٰ.

وهٰذه جملة من محاسن أخلاقه ﷺ، وصفته[2]:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٥٩٢)، وكذا مسلم (٧٤٦). وهو في «صحيح الجامع» (٤٨١١).

(٢) تنظر شمائله ﷺ في «مختصر شمائل الترمذي» للألباني.

كان رسول الله ﷺ أحلم الناس، وأسخىٰ الناس، وأعطف الناس.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.

وكان أشد حياء من العذراء في خِدْرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضىٰ، ويمشي وحده، ويُرْدِف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدَّقَل(١) ما يملأ بطنه، ولم يشبع من خبزِ بُرٍّ ثلاثة أيام تباعاً.

وكان يَعْصِب علىٰ بطنه الحجر من الجوع(٢).

وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعاماً قط.

وكان لا يأكل متكئاً، ويأكل مما يليه.

وكان أحب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدُّبَّاء، ومن الصِّبْغ الخَلّ، ومن التمر العجوة.

وكان يلبس ما وجد، مرة بُرْدَ حِبَرَة، ومرة جبة صوف.

ويركب تارة بعيراً، وتارة بغلة، وتارة حماراً، ويمشي مرة راجلاً حافياً.

وكان يحب الطِّيْبَ، ويكره الريح الخبيثة.

ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف، لا يجفو علىٰ أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك من غير قهقهة، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالىٰ، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه.

وما لعن ٱمرأة ولا خادماً قط، وما ضرب أحداً بيده قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله.

وما خُيِّر بين شيئين إلا ٱختار أيسرهما، إلا أن يكون مَأْثماً أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه.

---

(١) الدقل: أردأ التمر.

(٢) صحيح، سيأتي تخريجه صفحة (٢٤١) الحاشية (٢).

وقال أنس ﷺ: خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟

ومن صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بِفَظّ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يَجْزي بالسيئة السيئة، ولٰكن يعفو ويصفح.

وكان من خُلُقه أنه يبدأ بالسلام مَنْ لقيه، ومن فارقه بحاجة صابَرَهُ حتىٰ يكون هو المنصرف، وما أَخَذَ أَحَدٌ يده فأرسل يده حتىٰ يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتىٰ يسأل عنه.

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يَسْرُدْ كلامه، بل يتثبت به ويكرره لِيُفْهِم.

وكان يعفو مع القدرة، ولا يواجه أحداً بما يكره.

وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذِمّة، وألينهم عَرِيكة، وأكرمهم عِشْرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيتضاحكون ويبتسم.

وكان أشجع الناس. قال بعض الصحابة: كنّا إذا ٱحْمَرَّتِ الحَدَقُ، وٱشْتَدَّ البأسُ ٱتَّقَيْنا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، كان رَبْعة من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدَم.

وكان رَجِلَ الشَّعر، ليس بالسَّبْط ولا الجَعْد القَطِطِ، وكان شعره إلىٰ شحمة أذنه.

وكان واسع الجبهة، أزَجَّ الحواجب، أَدْعَج العينين، أهدب الأشفار، أقْنىٰ العِرْنين، سهل الخدين، كَثّ اللحية، كأن عُنُقَه جِيدُ دُمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزَّنْدين، كفه ألين من الحرير ﷺ.

وأما معجزاته ﷺ: فإن من شاهد أحواله، وسمع أخباره المشتملة علىٰ أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده رَيْبٌ في أن ذٰلك لم يكن مُكْتَسَباً بِحِيلة[1]، وأنه لا يُتصور ذٰلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلٰهية، وأن ذٰلك لا يَصِحّ لملبِّس ولا كذاب، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه.

ومن أعظم معجزاته[2]، وأوضح دلالته القرآن العزيز الذي عَجَزَ الخلائق عن الإتيان بمثله، ومُعْجِزُ كل نبيٍّ انقضى بذهابه، وهٰذا المعجز باق أبداً.

ومن معجزاته انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورَمْيُه بِحَصَيات يسيرة فوصلت إلىٰ أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما تحنّ العِشار، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، وردُّ عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين علي ﷺ وهو أرمد فصَحَّ من وقته.

إلىٰ غير ذٰلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلىٰ كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام. الصافات: ١٨٢].

---

(١) في النسخة الثانية والمطبوع «بجبلّة» ولها وجه.

(٢) انظر كتاب «المعجزات المحمدية» تأليف وليد الأعظمي ـ طبع المكتب الإسلامي.

رُبع المُهلِكات

١٤ - كِتَابُ شَرح عَجَائِب القُلوب

ٱعلم أن أشرف ما في الإنسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المقرّب المكاشف بما عنده، وإنما الجوارح أتباع وخُدَّام له يستخدمها ٱستخدام الملوك للعبيد.

ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، و﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

فصل

[بيان تسلط الشيطان علىٰ القلب بالوساوس]

ٱعلم أن القلب بأصل فِطْرته قابل للهدىٰ، وبما وضع فيه من الشهوة والهوىٰ، مائل عن ذٰلك، والتطارد فيه بين جُنْدَيِ الملائكة والشياطين دائمٌ، إلىٰ أن ينفتح القلب لأحدهما، فَيَتَمَكَّن، ويستوطن، ويكون ٱجتياز[1] الثاني ٱختلاساً، كما قال تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس] وهو الذي إذا ذُكِرَ الله خَنَسَ، وإذا وقعت الغَفْلة ٱنبسطَ، ولا يَطْرُدُ جُنْدُ الشياطين من القلب إلا ذكرُ الله تعالىٰ، فإنه لا قَرار له مع الذِّكر.

[بيان تفصيل مداخل الشيطان إلىٰ القلب]

وٱعلم أن مثل القلب كمثل حِصْنٍ، والشيطان عَدُوٌّ يريد أن يدخل الحصن، ويملكه، ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بِحِرَاسَةِ أبوابه، ولا يقدر علىٰ حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يُتَوَصَّلُ إلىٰ دفع الشيطان إلا بمعرفة مَدَاخِلِه، ومداخل الشيطان وأبوابه: صفاتُ العبد، وهي كثيرة، إلا أنَّا نشير إلىٰ الأبواب العظيمة الجارية مَجْرىٰ الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

---

(١) في النسخة الثانية والمطبوع: «اختيار» ولها وجه.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتىٰ كان العبد حريصاً علىٰ شيء، أَعْماه حِرْصُه وأَصَمَّه، وغَطَّىٰ نور بصيرته التي يَعرف بها مداخلَ الشيطان.

وكذٰلك إذا كان حسوداً، فيجد الشيطانُ حينئذٍ الفرصة، فَيُحَسِّنُ عند الحريص كُلَّ ما يُوْصِله إلىٰ شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً.

ومن أبوابه العظيمة: الغَضَب، والشهوة، والحِدّة، فإن الغضب غَوْلُ العقل، وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العقل هجم حينئذ الشيطانُ فلعب بالإنسان.

وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً قلّبناه كما يقلِّب الصبيان الكُرةَ.

ومن أبوابه: حُبُّ التزيينِ في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلىٰ عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزيّن بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذٰلك.

ومن أبوابه: الشِّبَعُ، فإن يُقَوّي الشهوة، ويشغل عن الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن مَنْ طَمِعَ في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهَنَهُ، ولم يأمره بالمعروف، ولم يَنْهَهُ عن المنكر.

ومن أبوابه: العَجَلة، وترك التَّثَبُّتِ.

وقد قال النبي ﷺ: **«العَجَلة من الشيطان، والتَّأنّي من الله تعالىٰ»**[١].

ومن أبوابه: حب المال، ومتىٰ تمكن من القلب أفسده، وحمله علىٰ طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلىٰ البخل، وخَوَّفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوَامّ علىٰ التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبيهقي بسند حسن عن أنس، كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٩٥).

ومن أبوابه أيضاً: حمل العوامّ على التفكّر في ذات الله تعالىٰ، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتىٰ يشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حَكَم علىٰ مسلم بسوء ظنه، ٱحتقره وأطلق فيه لسانه، ورأىٰ نفسه خيراً منه، وإنما يترشح سوء الظن بِخُبْثِ الظَّانِّ، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه.

وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التُّهَمِ، لئلا يساء به الظن.

فهٰذا طرف من ذكر مداخل الشيطان.

وعلاج هٰذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي الكلام علىٰ هٰذه الصفات إن شاء الله تعالىٰ مُفَصَّلاً.

وإذا قُلِعتْ من القلب أصولُ هٰذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب **خَطَرات** وٱجتيازات من غير ٱستقرار، فيمنعه من ذٰلك ذكر الله تعالىٰ، وعمارة القلب بالتقوىٰ.

ومثل الشيطان كمثل كلبٍ جائعٍ يَقْرُبُ منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: ٱخْسَأْ، وإن كان بين يديك شيء من ذٰلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذٰلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما القلب الذي غلب عليه الهوىٰ، فإنه يرفع الذكر إلىٰ حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء.

وإذا أردت مِصْداق ذٰلك، فتأمل هٰذا في صلاتك، وٱنظر إلىٰ الشيطان كيف يُحَدِّث قلبك في مثل ذٰلك الموطن: بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

[بيان أنه يعفىٰ عن (حديث النفس)]

وٱعلم أنه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذٰلك ما هَمَمْتَ به، ومَنْ تركَ ذٰلك خوفاً من الله تعالىٰ كتبت له حسنة، وإن تركه لعائق، رَجَوْنا له المسامحة، إلا أن يكون عَزْماً، فإن **العزم** علىٰ الخطيئةِ خطيئةٌ، بدليل قوله ﷺ: «**إذا ٱلتقىٰ المسلمان بسَيفَيْهِما فالقاتل**

والمقتول في النار، قيل: ما بال المقتول؟ قال: **إنه كان حريصاً علىٰ قتل صاحبه**»[١].

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم، والأعمال بالنية، وهل الكِبْرُ والرياء والعُجْبُ إلا أمورٌ باطنة؟ ولو أن إنساناً رأىٰ علىٰ فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأىٰ زوجته وظنها أجنبية أَثِمَ بوطئها، وكل هٰذا متعلق بِعَقْدِ القلب.

فصل

[بيان سرعة تقلب القلب]

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يقول:

«**يا مُقَلِّبَ**[٢] **القلوبِ ثَبِّتْ قلوبنا علىٰ دينك**»[٣].

«**يا مُصَرِّفَ القلوبِ اَصْرِفْ قَلْبَنَا إلىٰ طاعتك**»[٤].

وفي حديث آخر: «**مثل القلب كمثل ريشةٍ بأرض فلاة تُقَلِّبها الرياح**»[٥].

واَعلم أن القلوب في الثبات علىٰ الخير والشر والتردُّدِ بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عُمِّر بالتقوىٰ، وزُكِّيَ بالرياضة، وطُهِّرَ عن خبائث الأخلاق، فتنفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده المَلَكُ بالهدىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٣١ و٦٨٧٥)، ومسلم (٢٨٨٨)، والنسائي [«صحيح سننه» (٣٨٤٣)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٠٣/ ٣٩٦٤)]. وهو في «صحيح الجامع» (٣٨٧).

(٢) في المخطوطة الثانية والمطبوع: «يا مثبت القلوب».

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٢/ ٣٥٢٢) عن أم سلمة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) عن ابن عمرو.

(٥) أخرجه ابن ماجه [«صحيح سننه» (٧١-٨٨)]، وأحمد (١٩٦٠٧ و١٩٧٠٢) عن أبي موسى الأشعري ﷺ. وهو في «صحيح الجامع» (٥٨٣٣)، و«المشكاة» (١٠٣).

انظر «شرح السنة» للإمام البغوي ١/ ١٦٤ رقم الحديث (٨٧) ـ طبع المكتب الإسلامي بتحقيقي والشيخ شعيب الأرناؤوط.

القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوىٰ، مُنْدَسٌّ بالخبائث، مُلَوَّثٌ بالأخلاق الذميمة، فيقوىٰ فيه سلطان الشيطان لاتّساع مكانه، ويَضْعُفُ سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدُخَان الهوىٰ، فيعدم النور، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يُؤَثِّر عنده زجر ولا وعظ.

والقلب الثالث: قلب يبتدئ فيه خاطر الهوىٰ، فيدعوه إلىٰ الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلىٰ الخير.

مثاله: أن يحمل الشيطان حملة علىٰ العقل، ويُقوِّي داعيَ الهوىٰ، ويقول: أمَا ترىٰ فلاناً وفلاناً كيف يُطْلِقون أنفسهم في هواها، حتىٰ يَعُدّ جماعة من العلماء، فتميل النفس إلىٰ الشيطان، فيحمل المَلَكُ حَمْلةً علىٰ الشيطان، ويقول: هل هلك إلا مَنْ نسي العاقبة؟ فلا تَغْتَرَّ بغَفْلة الناس عن أنفسهم، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد، أكُنْتَ توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلىٰ النار؟ فتميلِ النفس إلىٰ قول المَلَكِ، ويقع التردد بين الجُنْدَين، إلىٰ أن يَغْلِبَ علىٰ القلب ما هو أَوْلىٰ به، فَمَنْ خُلِقَ للخير يُسِّرَ له، ومن خلق للشر يسر له: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

اللهم وَفِّقْنا لما تحبه وترضاه.

١٥ - كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

وذٰلك في فصول:

اْعلم أن الخُلُقَ الحسن صفة الأنبياء والصِّدِّيقين، وأن الأخلاق السيئة: سمومٌ قاتلة تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراض تُفَوِّتُ جاه الأبد، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها، ونحن نشير إلىٰ جمل من الأمراض، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل، فإن ذٰلك يأتي مبيناً إن شاء الله تعالىٰ.

الفصل الأول
في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذُكر شيء من ذٰلك في آداب الصحبة.

واْعلم أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرِّضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كلٌّ منهم ما حضر في ذهنه.

وكَشْفُ الحقيقة في ذٰلك أن يقال: كثيراً ما يُستعمل حُسن الخُلُق مع الخَلْق، فيقال: فلان حسن الخَلْق والخُلُق، أي حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخَلْق: الصورة الظاهرة، والمراد بالخُلُق: الصورة الباطنة، وذٰلك أن الإنسان مركَّبٌ من جسد ونفس.

فالجسد مُدْرَك بالبصر، والنفس مُدرَكة بالبصيرة، ولكل واحدة منهما هيئة وصورة، إما جميلة أو قبيحة، والنفس المُدرَكة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذٰلك عظَّم الله ﷻ أمْره فقال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص]، فنبه علىٰ أن الجسد منسوب إلىٰ الطين، والروح منسوب إليه ﷻ، فالخلق عبارة عن هيئةٍ للنفس راسخة

تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسْر من غير حاجة إلىٰ فكر ورَويّة، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خُلُقاً حسناً، وإن كانت قبيحة سُمِّيَتْ خلقاً سيئاً.

[بيان قبول الأخلاق للتغيير]

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فٱستثقل الرياضة: أن الأخلاق لا يُتَصَوَّر تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانتِ الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنىً، وكيف تُنكر تغيير الأخلاق ونحن نرىٰ الصيد الوحشي يُسْتَأنس، والكلب يُعَلَّم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجَودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مُستصعِبة.

وأما خيال منِ ٱعتقد أن ما في الجِبِلّة لا يتغير، فٱعلم أنه ليس المقصود قَمْعَ هٰذه الصفات بالكُلية، وإنما المطلوب من الرياضة رَدُّ الشهوة إلىٰ الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قَمْعُها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدةٍ ضرورية في الجبلة؟ ولو ٱنقطعت شهوة الطعام لَهَلَكَ الإنسان، أو شهوة الوِقاع لانقطع النسل، ولوِ ٱنعدم الغَضَب بالكلية لم يدفع الإنسانُ عن نفسه ما يُهلكه. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تَصْدُر الشِّدَّة إلا عن الغَضَب، ولو بَطَلَ الغَضَب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولم يقل: الفاقدين الغيظَ.

وكذٰلك المطلوب في شهوة الطعام: الاعتدالُ دون الشَّرَهِ والتَّقَلُّلِ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

إلا أن الشيخ المُرشِدَ للمريد إذا رأىٰ له ميْلاً إلىٰ الغَضَب والشهوة، حَسُنَ أن يبالغ في ذَمِّهما علىٰ الإطلاق لِيَرُدَّه إلىٰ التوسط.

ومما يدل علىٰ أن المراد من الرياضة الاعتدالُ: أن السخاءَ خُلُقٌ مطلوبٌ شرعاً، وهو وسط بين طَرَفَي التقتير والتبذير، وقد أثنىٰ الله عليه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]. وٱعلم أن هٰذا الاعتدال، تارة يحصل بكمال الفِطْرة مِنحةً من

الخالق، فكم من صبيٍّ يُخلَق صادقاً سَخِيّاً حليماً، وتارة يحصل بالاكتساب، وذٰلك بالرياضة، وهي حمل النفس علىٰ الأعمال الجالبة للخُلُق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل لِيصيْر ذٰلك طبعاً له.

وكذٰلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذٰلك جميع الأخلاق المحمودة، فإن للعادة أثراً في ذٰلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطىٰ فِعْل الكتابة، أو فقيهاً تعاطىٰ فعل الفقهاء من التكرار، حتىٰ ينعطف علىٰ قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب نُمُوّ القامة[١] في يومين أو ثلاثة. وللدوام تأثير عظيم.

وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثّر، وكذٰلك لا يستهان بقليل الذنوب.

وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغيِّر طبعها، فكذٰلك مُساكَنة الكسل أيضاً يصير عادة، فيُحْرَمُ بسببه كل خير.

وقد تُكْتَسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لِصٌّ يَسرق الخير والشر.

قلت: ويؤيد ذٰلك قوله صلّى الله عليه وسلّم:

«المرء علىٰ دِين خليله فلينظر أحدكم من يُخالِل»[٢].

الفصل الثاني
في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فاْعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يُخْلَق كاملاً، وإنما يَكْمُل بالتربية بالغذاء، كذٰلك النفس

---

(١) أي: الزيادة، وفي النسخة الثانية: كما لا يطلب بالنمو علو القامة.
(٢) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (١٢٣) الحاشية (١).

تُخْلَق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل علىٰ حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلْب الصحة إليه، كذٰلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبةَ الأخلاقِ، فينبغي أن يسعىٰ بحفظها وجلْب مزيد من القوة إليها، وإن كانت عديمةَ الكمال، فينبغي أن يسعىٰ بجلب ذٰلك إليه.

وكما أن العِلّة المُوجبة لمرض البدن لا تُعالَج إلا بضدِّها، إن كانت من حرارةٍ فبالبرودة، وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذٰلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجُها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرضُ الكِبْر بالتواضع، ومرض الشَّرَهِ بالكفِّ عن المشتهىٰ.

وكما أنه لا بد مِن احتمال مَرَارة الدواء، وشدة الصبر عن المُشْتَهَيات لصلاح الأبدان المريضة، فكذٰلك لا بد مِن اَحتمال مرارة المجاهدة، والصبر علىٰ مداواة مرض القلب، بل أَوْلىٰ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً.

وينبغي للذي يُطِبُّ[1] نفوس المُريدين ألا يهجم عليهم بالرياضة في فَنٍّ مخصوص، حتىٰ يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذْ ليس علاج كل مريض واحداً، فإذا رأىٰ جاهلاً بالشرع عَلَّمه، وإذا رأىٰ متكبراً على ما يُوجِب التواضع، أو شديدَ الغَضَبِ أَلْزمه الحِلْمَ.

وأشدُّ حاجةِ الرائض لنفسه: قوةُ العزم، فمتىٰ كان متردداً: بَعُدَ فَلاحُه، ومتىٰ أَحَسَّ من نفسه ضَعْفَ العَزْمِ: تَصَبَّرَ، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تُعاوِد، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعنيك! لأُعاقِبَنَّك بصوم سنة.

---

(١) علىٰ هامش المخطوطة الأولى: يطيب، وفي المطبوع: يطلب.

الفصل الثالث

في علامات مرض القلب وعَوده إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفةِ الإنسان عيوبَ نفسه

اَعلم أن كل عضو خُلِقَ لفعلٍ خاص، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذٰلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع منَ الاَضطراب، فمرضُ اليد تعذُّر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاصّ به الذي خُلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالىٰ وعبادته، وإيثار ذلك علىٰ كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرفِ الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً.

وعلامةُ المعرفة: الحبُّ، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة ألاّ يُؤْثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فَقَلْبُه مريضٌ، كما أن المعدة التي تُؤْثِر أكل الطين علىٰ أكل الخبز ـ وقد سقطت عنها شهوة الخبز ـ مريضة.

ومرضُ القلب خفيٌّ قد لا يعرفه صاحبه، فلذٰلك يغفل عنه، وإنْ عرفه صَعُب عليه الصبر علىٰ مَرارة دوائه، لأن دواءَه مخالفةُ الهوىٰ، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذِقاً يعالجه، فإن الأطباء، هم العلماء، والمرض قدِ اَستولىٰ عليهم، والطبيب المريض قلما يُلتفت إلىٰ علاجه، فلهذا صار الداء عُضالاً، واَنْدَرس هذا العلم، وأُنكر طبُّ القلوب ومرضها بالكلية، وأقبل الناس علىٰ أعمالٍ ظاهرُها عباداتٌ وباطنها عادات، فهٰذه علامة أصل المرض.

وأما عافيته وعَوْدُه إلىٰ الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلىٰ العلة، فإن كان المرض داء البُخل، فعلاجه بَذْلُ المال، ولكنه لا يسرف، ويَصير إلىٰ حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتىٰ تغلب الحرارة، فيكون داء أيضاً، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردتَ أن تعرف الوسط، فٱنظر إلىٰ نفسك، فإن كان إمساكُ المال وجمعُه أَلَذَّ عندك، وأيسر عليك من بذله لمُسْتَحِقِّه، فٱعلم أن الغالب عليك خُلُق البُخل، فعالِجْ نفسك علىٰ البذل، وإن صار البذلُ للمستحق ألذَّ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فٱرجع إلىٰ المواظبة علىٰ الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل علىٰ خُلُقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتىٰ تنقطع علاقة قَلْبك عن المال، فلا تميل إلىٰ بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجةِ محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلبٍ صار كذٰلك، فقد ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء] في هذا المقام.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق، حتىٰ لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا، حتىٰ ترتحل النفس عن الدنيا منقطعةَ العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا مُتَشَوِّفة[1] إلىٰ أسبابها، فحينئذ ترجع إلىٰ ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشَّعْرِ وأَحَدُّ من السيف، فلا جرم مَنِ ٱستوىٰ على هذا الصراط المستقيم في الدنيا: جاز علىٰ مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجلِ عُسْر الاستقامة أُمِر العبد أن يقول في كل يوم مرات: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة] ومن لم يقدر علىٰ الاستقامة، فليجتهد علىٰ القرب مِنَ الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذو العزم علىٰ مَضَضِ هٰذا الأمر، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له، فلو رُدَّ إلىٰ الثَّدْي لَكَرِهَهُ، ومن عرف قِصَر العُمر بالنسبة إلىٰ مدة حياة الآخرة: حَمَلَ مشقةَ سفرِ أيامٍ لِتَنَعُّمِ الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السُّرَىٰ.

---

(١) في المخطوطة الثانية والمطبوع: «ولا متشوقة».

[بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه]

وٱعلم أن الله تعالىٰ إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه، فمن كَمُلت بصيرته لم تَخْفَ عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرىٰ أحدهمُ القَذىٰ في عين أخيه ولا يرى الجِذْع في عينه.

فمن أراد الوقوف علىٰ عيب نفسه، فله في ذٰلك أربع طرق:

الطريقة الأولىٰ[1]: أن يجلس بين يَدَيْ شيخٍ بَصيرٍ بعيوب النفس، يُعَرِّفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عَزّ في الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً علىٰ نفسه لينبهه علىٰ المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: رحم الله ٱمْرَأً أهدىٰ إلينا عيوبنا.

وسأل سلمانَ ﷺ ـ لما قَدِمَ عليه ـ عن عيوبه، فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حُلَّتَين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هٰذا؟ قال: لا، قال: أما هٰذان فقد كُفِيتهما.

وكان عمر ﷺ يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من عَلَتْ مرتبته في اليَقَظة زاد ٱتّهامه لنفسه، إلا أنه قد عَزّ في هٰذا الزمان وجودُ صديق علىٰ هٰذه الصفة، لأنه قلّ في الأصدقاء من يترك المداهنة، فيُخْبِر بالعَيْب، أو يترك الحسد، فلا يزيد علىٰ قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم علىٰ عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهٰذا دليل علىٰ ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب. ولو أن منبهاً نَبَّهَنا علىٰ أن تحت ثوب أَحدنا عقرباً لَتَقَلَّدْنا له مِنَّةً، وٱشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب علىٰ ما لا يخفىٰ.

---

(١) في النسخة المخطوطة الثانية: الطريق الأول.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوئ، ولعلّ انتفاع الإنسان بعدوٍّ مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مُداهِنٍ يخفي عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه.

فصل

[(شهوات النفوس)]

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذْ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطُغيانها، وثَمَّةَ قوم لم يفهموا هذا القَدْرَ، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها، فإن لها حقاً بدليل قوله ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقاً**»[1] حتىٰ إن قائلاً منهم يقول: لي كذا، وكذا سنة أشتهي كذا، فلا أتناوله، وهذا انحرافٌ عن الحِلِّ، وخلاف سنة رسول الله ﷺ، فإنه يتناول المشتهىٰ من الحلو والعسل وغيرهما، فلا يُلتفت إلىٰ زاهد قل عِلْمه، فحَرَمَ نفسه حَظَّها من المشتهىٰ علىٰ الإطلاق، فإنه إلىٰ الظلم أقرب منه إلىٰ العدل، وإنما يُترك المشتهىٰ إذا صعبتِ الطريق إليه، مثل ألاّ يحصل إلا بوجهٍ مكروه، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه، فتطمع النفس في استدامته، أو يحذر من ذلك زيادةَ شِبَع، فيُثقله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذٰلك كالطب للمريض، يُمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتَقوىٰ علىٰ السلوك.

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتىٰ ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هَذّب خُلُقه، واستغنىٰ عن المجاهدة، وليس كذٰلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالىٰ فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) وغيره من حديث أبي جحيفة وهب بن عبدالله السُّوائي رضي الله عنه.

إذا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[١] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾[٢] إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾[٣] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٤] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢ وتمامها: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٢ وتمامها: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

(٣) سورة المؤمنون، والآيات هي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٣ وتتمتها: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾.

حاله، فَلْيَعْرِضْ نفسه علىٰ هٰذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفَقْدُ جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل علىٰ البعض دون البعض، فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلىٰ محاسن الأخلاق.

ففي «الصحيحين» من حديث أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[1].

وفيهما من حديث أبي هريرة ﷺ، عنه ﷺ أنه قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[2].

وفي حديث آخر: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»**[3].

ومن حسن الخلق: ٱحتمال الأذىٰ، ففي «الصحيحين» أن أعرابياً جَذَبَ رداء النبي ﷺ حتىٰ أَثَّرت حاشيته في عاتقه ﷺ، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فٱلتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٤٥) وغيرهما بألفاظ متعددة. وهو في «الصحيحة» (٧٣)، و«صحيح الجامع» (٧٥٨٢).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٩ و٦١٣٨ و٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٢٩٣/ ٥١٥٤)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٦٠٢/ ١٩٦٧ و٢٠٣٠/ ٢٥٠٠)].

(٣) أخرجه أبو داود [«صحيح سننه» (٣٩١٦/ ٤٦٨٢)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٩٢٨/ ١١٦٢)] عن أبي هريرة. وهو في «الصحيحة» (٢٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧) عن أنس.

وكان إذا آذاه قومه قال: «**اللّهم ٱغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[١].

وكان أويس القَرَنِيُّ إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: يا إِخْوَتَاه، إن كان ولا بُدَّ، فٱرموني بالصغار لئلا تُدْمُوا ساقي فتمنعوني من الصلاة.

وخرج إبراهيم بن أَدْهَمَ إلىٰ بعض البراري، فٱستقبله جندي فقال: أين العمران؟ فأشار إلىٰ المقبرة، فضرب رأسه فَشَجَّهُ، فلما أُخْبِرَ أنه إبراهيم، جعل يُقَبِّلُ يده ورجله، فقال: إنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأني علمت أَني أوجر بضربه إياي، فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر.

وٱجتاز بعضهم في سكة، فطُرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: مَنِ ٱستحق النار فصولح علىٰ الرماد، ينبغي له ألا يغضب.

فهٰذه نفوس ذُلِّلتْ بالرياضة، فٱعتدلت أخلاقها، ونُقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضا بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هٰذه العلامات التي وجدها هٰؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة لِيَصِلَ، فإنه بَعْدُ ما وصل.

فصل في رياضة الصبيان أول النشوء

ٱعلم أن الصبي أمانة عند والديه، وقَلْبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عوِّد الشر نشأ عليه، وكان الوِزْرُ في عنق وَلِيِّه، فينبغي أن يَصُونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يُعوِّده التنعّم، ولا يُحبِّب إليه أسباب الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كَبِرَ.

---

(١) أخرجه ابن حبان والبيهقي عن سهل بن سعد، وفي البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود أنه ﷺ حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه. قاله العراقي. وقال الألباني في «المشكاة» (٥٣١٣): ويروىٰ أنه ﷺ قال مثل ذٰلك في قومه ولم يصح.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضانته إلا ٱمرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بَدَتْ فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذٰلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهٰذا يستعان علىٰ تأديبه بحيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شَرَهُ الطعام، فينبغي أن يُعلَّم آداب الأكل، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحَتْم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثيرَ الأكل بالبهائم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملوثة والإبريسم، ويقرر عنده أن ذٰلك من شأن النساء والمخنثين، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عُوِّدوا التنعّم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتىٰ ظهر من الصبي خُلُق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يُكرم عليه، ويجازىٰ بما يفرح به، ويمدح بين أَظْهُر الناس، فإن خالف ذٰلك في بعض الأحوال تُغوفل عنه ولا يكاشف، فإن عاد عوتب سِرّاً وخُوِّفَ مِنِ ٱطِّلاع الناس عليه ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذٰلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه.

وينبغي للأم أن تخوِّفه بالأب، وينبغي أن يُمنع النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولٰكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه، ويتعوَّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم، ويعوَّد المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل. ويُمنع أن يفتخر علىٰ أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه، ويعوَّد التواضع والإكرام لمن يعاشره، ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبي مثله، ويعلَّم أن الأخذ دناءة، وأن الرِّفْعة في الإعطاء، ويُقبح عنده حُبّ الذهب والفضة.

ويُعوّد ألا يبصق في مجلسه، ولا يَتَمخّط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رِجْلاً علىٰ رِجْل، ويمنع من كثرة الكلام، ويعود ألا يتكلم إلا جواباً،

وأن يُحْسِنَ الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه.

ويُمنع من فُحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذٰلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويَحسُن أن يُفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: رَوِّحِ القلوب تَعِ الذِّكْر.

وينبغي أن يُعلَّم طاعة والديه ومُعلّمه وتعظيمهم.

وإذا بلغ سبع سنين أُمِرَ بالصلاة، ولم يُسامَح في ترك الطهارة لِيَتَعَوَّد، ويُخَوَّف من الكذب والخيانة، وإذا قارب البلوغ، أُلقيتْ إليه الأمور.

واْعلم أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن علىٰ طاعة الله تعالىٰ، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهو مُنتظَر في كل ساعة، وأن العاقل مَنْ تَزَوَّد لآخرته، فإن كان نُشوؤه صالحاً ثبت هٰذا في قلبه، كما يثبت النقش في الحجر.

قال سهل بن عبد الله: كنت ابن ثلاث سنين، وأنا أقوم بالليل أنظر إلىٰ صلاة خالي محمد بن سَوَّار، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ قال: قُلْ بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: (الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي)، فقلت ذٰلك ليالي، ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة إحدى عَشْرة مرة. فقلت ذٰلك، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما عَلّمتك، ودُمْ عليه إلىٰ أن تدخل قبرك، فلم أزل علىٰ ذٰلك سنين، فوجدت له حلاوة في سِرِّي. ثم قال لي خالي: يا سهل من كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهد عليه، هل يعصيه؟ إياك والمعصية. ومَضَيْتُ إلىٰ المكتب، وحفظت القرآن، وأنا ابن ست سنين أو سبع، ثم كنت أصوم الدهر، وقُوتيْ من خبز الشعير، ثم بعد ذٰلك كنت أقوم الليل كله.

فصل

[بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة. .]

وٱعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين، أصبح بالضرورة مريداً لها، زاهداً في الدنيا، فإن من كان معه خرزة، فرأىٰ جوهرة نفيسة، لم يبق له رغبة في الخرزة، فإذا قيل له: بِعْها بالجوهرة، أسرع في ذٰلك.

وٱعلم أن من رزقه الله تعالىٰ الانتباه لذٰلك، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لا بد من تقديمه، ومُعْتَصَماً لا بد من التمسك به، وحِصْناً لا بد من التَحصُّن به.

فأما الشرط، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب.

وأما المعتصم، فشيخٌ يدله علىٰ الطريق لئلا تختطفه الشياطين في السُّبُل.

وأما الحصن، فالخلوة.

وعليه من الوظائف مخالفة الهوىٰ، وكثرة الذِّكر والاقتصاد في الأوراد.

ومنتهىٰ الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذٰلك إلا بأن يخلو عن غيره، ولا يخلو إلا بِطُولِ المجاهدة.

فهٰذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج، فأما تفصيل الرياضة في كل صفة، فسيأتي إن شاء الله تعالىٰ[1].

---

(١) انظر كتاب «تهذيب الأخلاق» للعلامة عبد الحي الحسني الندوي، والد العالم الفاضل أستاذنا الشيخ أبي الحسن علي الندوي.

وكتاب «تعليم المتعلم» للشيخ الزرنوجي تحقيق المربي الدكتور مروان القباني.

وكتاب «مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام» للأستاذ الجليل المربي الشيخ عبد الرحمن الباني. وهي كلها من مطبوعات المكتب الإسلامي.

١٦ - كتاب كسر الشهوتين : شهوة البطن، وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المُهلكات، وبها أُخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تَحْدُثُ شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذٰلك آفات كثيرة، كلها من بَطَرِ الشِّبَعِ.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**المؤمن يأكل في مِعيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»(١).

وفي حديث آخر: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أُكُلات يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٢).

وقال عقبة الراسِبيُّ: دخلت علىٰ الحسن وهو يتغذىٰ، فقال: هَلُمَّ، فقلت: أكلت حتىٰ لا أستطيع، فقال: سبحان الله! أو يأكل المسلم حتىٰ لا يستطيع أن يأكل؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلُّل من الأكل والصبر علىٰ الجوع، وقد بيَّنا عَيْبَ ما سلكوا في غير هٰذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليد مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله ﷺ: «**ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه**»(٣).

فالأكل في مقام العدل يُصِحُّ البدن وينفي المرض، وذٰلك ألا يتناول الطعام حتىٰ يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام علىٰ التقلّل من الطعام يُضْعِف

---

(١) رواه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠ و ٢٠٦٢)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٤٨٤/١٨١٨)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٢٦٣٤/٣٥٥٦)] عن أبي هريرة (٢٦٣٦/٣٢٥٨) وعن أبي موسى الأشعري. و(٢٦٣٥/٣٢٥٧) عن ابن عمر باختلاف في التقديم والتأخير بين شطري الحديث.

(٢) و(٣) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٩١) حاشية (٢).

القُوىٰ وقد قلَّل أقوام مطاعمهم حتىٰ قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذٰلك فضيلة، وليس كذٰلك، ومَنْ مَدَحَ الجوع، فإنما أشار إلىٰ الحالة التي ذكرناها.

[بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن]

وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود ٱستدامة الشبع، فينبغي له أن يقلِّل من مَطْعَمه يسيراً يسيراً مع الزمان، إلىٰ أن يقف علىٰ حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأَوْلىٰ تناوُل ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يُحِسُّ المتناوِل بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتىٰ زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذٰلك بتكثير البُخار في الدماغ حتىٰ يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أُخر.

[بيان آفة الرياء (فيها)]

ولْيَحْذَر مَنْ تَرَكَ شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة ويعلقها في بيته وهو زاهد فيها، يستر بها زهده، وهٰذا هو (الزهد في الزهد) بإظهار ضده وهو عمل الصِّدِّيقين، لأنه يُجَرِّع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أَمَرُّ.

[القول في شهوة الفرج]

وأما شهوة الفرج، فٱعلم أن شهوة الوقاع سُلِّطتْ علىٰ الآدمي لفائدتين:

إحداهما: بقاء النسل.

والثانية: ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يُدْرَك جنسه بالذوق، لا يَعْظُم إليه الشَّوق، إلا أنه إذا لم تُرَدَّ هذه الشهوة إلىٰ الاعتدال، جلبتْ آفات كثيرة، ومِحَناً، ولولا ذٰلك ما كان النساء حبائل الشيطان.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: **«ما تركت في الناس بعدي فتنة أَضَرَّ علىٰ الرجال من النساء»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠ و٢٧٤١)، والترمذي [«صحيحه» (٢٢٣١/ ٢٧٨٠)] عن أسامة بن زيد. وهو في «صحيح الجامع» (٥٥٩٧).

وقال بعض الصالحين: لَوِ ٱئتمنني رجل علىٰ بيت مالٍ، لظننتُ أن أُؤدي إليه الأمانة، ولَوِ ٱئتمنني علىٰ زِنْجيّة أخلو بها ساعة واحدة، ما ٱئتمنت نفسي عليها.

وعن النبي ﷺ قال: «**لا يَخلُوَن رجل بأمرأة فإن ثالِثَهُما الشيطانُ**»[1].

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتىٰ تُصْرَف هِمّةُ الرجل إلىٰ كثرة التمتع بالنساء، فَيَشْغَله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلىٰ الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلىٰ العِشق، وهو أقبح الشَّهَوات، وأَجْدَرُها أن يُسْتَحْيَا منه، وقد يقع عند كثير من الناس عِشْقُ المال، والجاه، واللعب بالنَّرْدِ، والشطرنج، والطُّنبور، ونحو ذٰلك، فتَسْتَوْلي هذه الأشياء علىٰ القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذٰلك في بِدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلىٰ علاج شديد، وقد لا يُنجع، ومثاله من يصرف عِنان الدابة عند توجهها إلىٰ بابٍ تريد دخوله، فما أهون مَنْعها بصرف عِنانها! ومثال من يعالجه بعد ٱستحكامه، مثال من يتركها حتىٰ تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذَنَبِها يجرّها إلىٰ وراء، وما أعظم التفاوُت بين الأمرين!!

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧) عن عمر. وهو في «صحيح الترمذي» (٩٣٤/ ١١٧١).

١٧ - كِتَابُ آفَاتِ اللّسَان

وآفاته كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت، ثم نُتْبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالىٰ.

اْعلم أن الصمت يجمع الهمة ويُفَرِّغ الفكر.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**من يضمنْ لي ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رجليه أَضْمَن له الجنة**»(١).

وفي حديث آخر: «**لا يستقيمُ إيمان عبد حتىٰ يستقيمَ قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيمَ لسانه**»(٢).

وفي حديث معاذ في آخره: «**كُفَّ عليك هذا**»، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار علىٰ وجوههم» ـ أو قال: «على مناخرهم ـ إلا حصائد أَلْسِنَتِهم**»(٣).

وفي حديث آخر: «**مَنْ كَفَّ لسانه ستر الله عورته**»(٤).

وقال اْبن مسعود: ما شيء أحوجَ إلىٰ طُولِ سِجْنٍ من لساني.

وقال أبو الدرداء: أَنْصِفْ أُذُنَيكَ مِنْ فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لِتسمعَ أكثر مما تتكلم به.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد.

(٢) رواه أحمد (١٣٠٣٢)، وابن أبي الدنيا، والخرائطي، والبيهقي، وضعفه العراقي.

(٣) أخرجه الترمذي [«صحيح سننه» (٢٦١٦)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٠٩/٣٩٧٣)]. وصححه الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا وغيره من حديث ابن عمر بسند ضعيف.
انظر «ضعيف الجامع الصغير» رقم ٥٨٢٤ بلفظ «غضبه».

وقال مَخْلَد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أُريدُ أن أَعْتذرَ منها.

ذكر آفات الكلام

الآفة الأولىٰ: الكلام فيما لا يعني.

وٱعلم أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم يُنْفِقْه إلا في فائدة، وهٰذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذِكر الله تعالىٰ وٱشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر علىٰ أخْذ جوهرةٍ، فأخذ عِوَضها مَدَرة، وهذا خسران العمر.

وفي الحديث الصحيح، أن النبيّ ﷺ قال: «**مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[١].

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كُفِيتُه، ولا أتكلم بما لا يعنيني. =

= وقد روي أنه دخل علىٰ داود عليه السلام وهو يسرد دِرْعاً، فجعل يتعجب مما رأىٰ، فأراد أن يسأله عن ذٰلك، فمنعتْه حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نِعْم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعِلُه[٢].

الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفُسّاق.

وأنواع الباطل كثيرة.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة يَزِلُّ بها في النار أَبْعدَ ممّا بين المشرق والمغرب**»[٣].

---

(١) هو في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٦/ ٢٣١٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢١١/ ٣٩٧٦) عن أبي هريرة.

(٢) معنىٰ المثل: ٱستعمال الصمت حكمة، ولٰكن قَلَّ من يستعملها. والمثل في «مجمع الأمثال» للميداني: ١/ ٤٠٢ بتحقيق عبد الحميد.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨). وهو في «صحيح الجامع» (١٦٧٨)، و«الصحيحة» (٥٤٠).

وقريب من ذٰلك **الجدالُ والمراء** وهو كثرة المُلاحاة[١] للشخص لبيان غَلَطه وإفْحامه، والباعث علىٰ ذٰلك: الترفُّعُ.

فينبغي للإنسان أن يُنكِر المنكر من القول، ويبيّن الصواب، فإن قُبِل منه؛ . . .، وإلا؛ ترك المماراة، هٰذا إذا كان الأمر مُعَلَّقاً بالدِّين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بِكَسْرِ الكِبْر الباعث علىٰ إظهار الفضل، وأعظم من المراء **الخصومة**، فإنها أَمْرٌ زائد علىٰ المراء.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**أبغضُ الرجال إلىٰ الله الألَدُّ الخَصِم**»[٢].

وهذه الخصومة نعني بها الخصومةَ بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأَولىٰ أن يَصْدِف[٣] عن الخصومة مهما أمكن، لأنها تُوْغِرُ الصدر، وتُهيِّج الغَضَب، وتُوْرِث الحِقْد، وتُخرج إلىٰ تناول العِرْض.

الآفة الثالثة: التقعّر في الكلام، وذلك يكون بالتشدّق[٤]، وتكلّف السَّجْع.

وعن أبي ثَعْلَبَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة مساويكم أخلاقاً: الثَّرْثارون المُتَشَدِّقون المُتَفَيهِقون**»[٥].

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير

---

(١) يقال: لاحيته ملاحاة ولحاء: إذا نازعته، وفي المثل: (من لاحاك فقد عاداك)، وقولهم: لحاه الله، أي: قبحه ولعنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٨٨)، ومسلم (٢٦٦٨)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٧٧/ ٢٩٧٦)]، والنسائي [«صحيحه» (٥٠١٣)] عن عائشة. وهو في «صحيح الجامع» (٣٩).

(٣) يصدف: يعرض.

(٤) وهو أن يلوي شدقه للتفصح.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠١٨). وهو في «صحيح الجامع» (٢٢٠١)، و«الصحيحة» (٧٩١).

و(المتفيهقون): المتكبرون. و(الثرثار): كثير الكلام. و(المتشدق): الذي يتطاول علىٰ الناس في الكلام ويبذو عليهم.

إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذٰلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذٰلك.

الآفة الرابعة: الفُحش والسبّ والبذاء[(١)]، ونحو ذٰلك فإنه مذموم منهيّ عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفي الحديث: «**إياكم والفحشَ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحّشَ**»[(٢)].

«**الجنة حرام علىٰ كل فاحش**»[(٣)].

وفي حديث آخر: «**ليس المؤمن بالطّعّان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**»[(٤)].

واْعلم أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذٰلك في ألفاظ الجِمَاع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشَوْن عن تلك العبارات ويكنون عنها.

ومن الآفات: الغناء، وقد سبق فيه كلام في غير هٰذا الموضع.

الآفة الخامسة: المزاح، أما اليسير منه، فلا يُنهىٰ عنه إذا كان صِدْقاً.

فإن النبيّ ﷺ كان يمزح ولا يقول إلاّ حقاً[(٥)]، فإنه قال لرجل: «**يا ذا**

---

(١) البذاء، بالمد: الفحش، يقال: فلان بذيء اللسان من قوم أبذياء، والمرأة بذيئة.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٨٤ و٦٧٨٩ و٦٨٣٤) عن ابن عَمْرو. وبنحوه عن أبي هريرة عنده (٩٥٤٨). وكلاهما في «الصحيحة» (٨٥٨). وشطره الثاني في مسلم (٢١٦٥) عن عائشة.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن عمرو. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٦٦٧). والصحيح أنه من قول ابن عَمْرو.

(٤) أخرجه أحمد (٣٨٣٧)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٦١٠/١٩٧٧)] عن ابن مسعود. ورواه البيهقي والحاكم والطبراني في «الكبير» والبخاري في «الأدب المفرد» عن ابن عباس. والحديث في «صحيح الجامع» (٥٣٨١)، و«الصحيحة» (٣٢٠).

(٥) سلفت جملة من أخلاقه ﷺ في الصفحة ١٧٩. وانظر «ضعيف الجامع الصغير» (٢٦٦٧).

الأذنين»[١].

وقال لآخر: «**إنّا حامِلوك علىٰ ولد الناقة**»[٢]، وقال للعجوز: «**إنه لا يدخل الجنة عجوز**» ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ [الواقعة]»[٣]، وقال لأخرى: «**زوجك الذي في عينيه بياض؟**»[٤].

فَقَدِ اتّفق في مزاحه ﷺ ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقاً.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلىٰ تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يَحْتَجَّ به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولو أن إنساناً دار مع الحَبَشَةِ ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبيّ ﷺ وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلىٰ الحبشة[٥]، لكان غالطاً، لِنُدُور ذٰلك، فالإفراط في المزاح والمداومة عليه منهيّ عنه، لأنه يسقط الوَقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، وأما اليسير كما تقدم، من نحو نوع مزاح النبي ﷺ، فإن فيه انبساطاً وطِيب نفس.

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء: ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنبيه علىٰ العيوب والنقائص علىٰ وجه يُضْحَك منه، وقد يكون ذٰلك بالمُحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، وَرَدَ النَّهْيُ عنه في الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٤٨ و١٢٢٧٠ و١٣٥٢٨ و١٣٧٢٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤١٨٢/ ٥٠٠٢)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٦٢٢/ ١٩٩٢ و٣٠٠٩/ ٣٨٢٨)] عن أنس، وهو في «صحيح الجامع» (٧٩٠٩) و«المشكاة» (٤٨٨٧).

(٢) رواه أحمد (١٣٨٠١) عن أنس. وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٦٢٣/ ١٩٩٢).

(٣) هو في «الصحيحة» (٢٩٨٧).

(٤) أخرجه الزبير بن بكار في «الفكاهة والمزاح»، وابن أبي الدنيا. قاله العراقي.

(٥) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (١٧٧) حاشية (١).

الآفة السابعة: إفشاء السرِّ وإخلاف الوعد، والكذب في القول واليمين، وكل ذٰلك منهيّ عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحرب، فإن ذٰلك يباح.

وضابطه أن كلَّ مقصودٍ محمودٍ لا يمكن التوصُّل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباحٌ إنْ كان ذٰلك المقصودُ مباحاً، وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

وتباح المعاريض[1]، لقوله ﷺ: **«إن في المعاريض مَنْدوحة عن الكذب»**[2]، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تُشْبِه الكذب.

فمن المعاريض ما روينا عن عبدالله بن رواحة ﷺ أنه أصاب جارية له، فعلمتِ ٱمرأته، فأخذت شَفْرة، ثم أتت فوافقته قد قام عنها، فقالت: أفعلْتَها؟ فقال: ما فعلت شيئاً، قالت: لتقرأنّ القرآن أو لأَبعجنّك بها، فقال رضي الله عنه:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه ... إذا ٱنشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
يَبيت يُجافي جَنْبه عن فراشه ... إذا ٱستَثْقلتْ بالكافرين المضاجعُ
أرانا الهُدىٰ بعد العَمىٰ فقلوبُنا ... به موقِناتٌ أنَّ ما قال واقعُ

قالت: آمنتُ بالله وكذّبتُ بصري.

وكان النَّخَعيُّ إذا طُلِبَ قال للجارية: قولي لهم: اطْلُبوه في المسجد.

الآفة الثامنة: الغِيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهيِ عنها، وشَبَّه صاحبها بآكِل الميتة.

---

(١) المعاريض: التورية بشيء عن شيء آخر، وهو خلاف التصريح.

(٢) رواه ابن الجوزي في «منهاج القاصدين» ـ الذي هو أصل هٰذا الكتاب ـ من طريق ابن أبي الدنيا، ورواه غيره أيضاً عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ، وهو ضعيف. وقد صح من قول عمران بن حصين نفسه، وكذا عمر بن الخطاب رواهما عنهما البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧ و ٨٨٤). قاله الألباني في «الضعيفة» (١٠٩٤).

وفي الحديث: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**»(١).

وعن أبي بَرْزة الأسلميِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر مَنْ آمَنَ بلسانه ولم يدخلِ الإيمان قلبه: لا تَغْتابوا المسلمين، ولا تَتّبعوا عوراتهم، فإنه مَنِ اتّبع عَوراتهم تَتَبَّع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يَفْضحه في جَوْف بيته**»(٢).

وفي حديث آخر: «**إياكم والغِيبةَ، فإن الغيبة أشدُّ من الزنىٰ، إن الرجل قد يزني ويشرب، ثم يتوب ويتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتىٰ يغفر له صاحبه**»(٣).

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: إياك والغيبة، فإنها إدامُ كلابِ الناس.

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة.

ومعنى الغِيبة: أن تذكر أخاك الغائبَ بما يكرهه إذا بَلَغه، سواء كان نقصاً في بدنه: كالعَمَشِ، والعَوَر، والحَوَل، والقَرَع، والطول، والقِصَر، ونحو ذٰلك.

أو في نَسَبه، كقولك: أبوه نِبْطيّ، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذٰلك.

أو في خُلُقه كقولك: هو سَيِّئ الخلق بخيل مُتكبِّر ونحو ذلك.

أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذَّيل، واسع الكُمِّ، وَسِخ الثياب.

والدليل علىٰ ذٰلك، أن النبي ﷺ سئل عن الغيبة قال: «**ذِكْرُك أخاك بما**

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) عن ابن عباس، و(٧٠٧٨) عن أبي بكرة.
(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٢١ و١٩٧٤٦)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٨٣/ ٤٨٨٠)]. وهو في «صحيح الجامع» (٧٩٨٤)، و«المشكاة» (٥٠٤٤).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، وابن حبان في «الضعفاء»، وابن مردويه في «التفسير» عن جابر، وأبي سعيد. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٢٠٤)، و«الضعيفة» (١٨٤٦).

يكره». قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: **«إن كان في أخيك ما تقول فَقَدِ اْغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فَقَدْ بَهَتَّه»**[1].

واْعلم أن كل ما يُفهَم منه مقصود الذم، فهو داخلٌ في الغِيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغَمْز، والإشارة، والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللِّسانَين.

وأقبح أنواع الغِيبة: غِيبةُ المُتَزَهِّدين المُرائين، مثل أن يُذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يَبْتَلِنا بالدخول علىٰ السلطان، والتبذُّل في طلب الحُطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بُلِيَ بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يُظهِر الدعاء ويُخْفي قَصْده.

واْعلم أن المستمع للغِيبة شريكٌ فيها، ولا يتخلَّص من إثم سماعها إلا أن يُنْكِر بلسانه، فإن خاف، فبِقَلْبه، وإن قدر علىٰ القيام، أو قطْع الكلام بكلامٍ آخر، لزمه ذٰلك.

وقد روي عن النبيْ ﷺ أنه قال: **«من أُذِلَّ عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصُره أذلَّه الله ﷻ علىٰ رؤوس الخلائق»**[2].

وقال ﷺ: **«مَن حمىٰ مؤمناً من منافق يَعيبه، بعث الله مَلَكاً يحمي لَحْمه يوم القيامة من نار جهنم»**[3].

ورأى عَمْرو بن عُتْبة مولاه مع رَجُل وهو يقع في آخر، فقال له: ويلك نَزِّهْ سمعك عَنِ اْستماع الخَنَا، كما تُنزِّه نفسك عن القول به، فالمستمِع شريكُ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٧٩/ ٤٨٧٤)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٥٧٨/ ١٩٣٤)] عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٥٩٦٥) عن سهل بن حنيف. وهو في «ضعيف الجامع» (٥٣٨٠)، و«الضعيفة» (٢٤٠٢).

(٣) رواه أحمد (١٥٦٢٧) عن معاذ بن أنس. وهو في «صحيح أبي داود» (٤٠٨٦/ ٤٨٨٣)، و«المشكاة» (٤٩٨٦).

القائل، وإنما نظر إلىٰ شر ما في وعائه فأفرغه في وِعائك، ولو رُدّتْ كلمة سفيهٍ في فيه لسَعِدَ بها رادُّها كما شقي بها قائلها.

وقد وردت أحاديث في حقِّ المسلم علىٰ المسلم، تقدمت في (كتاب: الصحبة).

فصلٌ في بيان الأسباب الباعثة علىٰ الغِيبة وذكر علاجها: أما الأسباب التي تبعث علىٰ الغِيبة فكثيرة:

منها: تشفِّي الغيظ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفّىٰ بغِيبة صاحبه.

السبب الثاني: من البواعث علىٰ الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرُّفَقاء ومُساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يَتفكّهون في الأعراض، رأىٰ هٰذا أنه إذا أنكر عليهم أو قَطَع كلامَهُمُ ٱستثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرىٰ ذٰلك من حُسن المعاشرة.

الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفَهْمه ركيك، ونحو ذلك، وغَرَضه أن يُثْبِتَ في ضِمْن ذٰلك فَضْلَ نفسه، ويُريهم أنه أعلم منه.

وكذلك الحسد في ثناء الناس علىٰ شخص وحبِّهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يُضْحِك الناس به علىٰ سبيل المحاكاة، حتىٰ إن بعض الناس يكون كسبه من هٰذا.

وأما علاج الغِيبة، فَلْيَعلمِ المغتاب أنه بالغيبة متعرِّض لسخط الله تعالىٰ ومَقْته، وأن حسناته تُنقَل إلىٰ المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نُقل إليه من سيئات خَصْمه، فمنِ ٱستحضر ذٰلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغِيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحيي أن يَعيب وهو مَعيب، كما قال بعضهم:

فإن عِبتَ قوماً بالذي فيك مثلُه ... فكيف يَعيب الناسَ من هو أَعْورُ
وإن عِبْتَ قوماً بالذي ليس فيهمُ ... فذٰلك عند الله والناس أكبرُ

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر علىٰ نِعَم الله عليه، ولا يُلوِّث نفسه بأقبح العيوب وهو الغِيبة، وكما لا يرضىٰ لنفسه بغِيبة غيرِه له، فينبغي ألا يرضاها لغيره من نفسه.

فلينظر في السبب الباعث علىٰ الغيبة، فيجتهد علىٰ قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغَضَب بما سيأتي في (كتاب: الغَضَب)، ويعالج موافقة الجُلاّس بأن يعلم أن الله تعالىٰ يغضب علىٰ من طلب رضا المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب علىٰ رُفَقائه، وعلىٰ نحو هذا معالجة البواقي.

فصل: وقد تَحْصُل الغِيبة بالقلب، وذٰلك **سوء الظن** بالمسلمين.

والظن ما تَرْكُن إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تَظنّ بالمسلم شراً، إلا إذا آنكشف أمر لا يحتمل التأويل، فإن أخبرك بذٰلك عدل، فمال قلبك إلىٰ تصديقه، كنتَ معذوراً، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمُخبِر، فلا ينبغي أن تُحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرّق التهمة حينئذ بسبب ذٰلك، ومتىٰ خطر لك خاطرُ سوءٍ علىٰ مسلم، فينبغي أن تَزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإنّ ذٰلك يَغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يُلقي إليك خاطرَ السوء خِيفةً مِنِ آشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم: فآنصحْه في السر.

وآعلم أن من ثمرات سوء الظن التجسُّس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسّس، وذٰلك منهي عنه، لأنه يوصل إلى هَتْكِ سِتْر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة: إِعلم أن المرخّص في ذكر مساوئ الغير، وهو غرض صحيح في الشرع، لا يمكن التوصّل إليه إلا به، وذلك يدفع إثْم الغيبة، وهو أمور:

أحدها: التظلّم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا اسْتعداه إلىٰ من يستوفي حقّه.

الثاني: الاَستعانة علىٰ تغيير المنكر، وردُّ الظالم إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاَستفتاء، مثل أن يقول للمُفْتي: ظَلَمني فلان، أو أخذ حقي، فكيف طريقي في الخلاص؟ فالتعيين مباح، والأَولىٰ التعريض، وهو أن يقول: ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟

والدليل علىٰ إباحة التعيين حديث هند[١] حين قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح ولم ينكر عليها النبي صلّى الله عليه وسلّم.

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترىٰ متفقّهاً يتردد إلىٰ مُبتدِع أو فاسق، وتخاف أن يتعدّىٰ إليه ذٰلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذٰلك إذا عرفت مِنْ عبدِك السرقةَ أو الفِسْق، فتذكر ذلك للمُشتري.

وكذٰلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه علىٰ قَصْد النُّصْح للمستشير، لا علىٰ قصدِ الوقيعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح.

الخامس: أن يكون معروفاً بلَقَبٍ كالأعرج، والأعمش، فلا إثم علىٰ من يذكره به، وإن وَجد عن ذٰلك مَعدَلاً كان أَولىٰ.

السادس: أن يكون مجاهِراً بالفِسْق. ولا يستنكف أن يُذْكر به.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَلقىٰ جِلْباب الحياء فلا غِيبة له**»[٢].

وقيل للحسن: الفاجر المُعْلِن بفجوره، ذِكْري له بما فيه غِيبةٌ؟ قال: لا، ولا كرامة.

وأما كَفّارة الغِيبة، فاَعلم أن المُغتاب قد جنىٰ جِنايتين:

إحداهما: علىٰ حق الله تعالىٰ، إذْ فعل ما نهاه عنه، فكفارةُ ذلك: التوبةُ والندم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٨٤ و٧١٨٠)، ومسلم (١٧١٤) عن عائشة. وهو في «صحيح الجامع» (٣٢٢١)، و«الإرواء» (٢١٥٨).

(٢) أخرجه البيهقي عن أنس، وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (٥٤٨٣)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٥٨٥).

والجناية الثانية: علىٰ عِرْض المخلوق، فإن كانت الغِيبة قد بلغتِ الرجلَ، جاء إليه وٱستحلَّه، وأَظهرَ له الندم علىٰ فِعله.

وقد روىٰ أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«من كانت عنده مَظْلمة لأخيه، من مال أو عِرض، فلْيأْتِه فَلْيَسْتحلَّها منه قبل أن يُؤخَذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أُخِذَ من حسناته فأُعطيَها هٰذا، وإلا أخذ من سيئات هٰذا فألقي عليه»**[1].

وإن كانت الغِيبة لم تبلغِ الرجلَ، جعل مكان ٱستحلاله الاستغفارَ له، لئلا يُخْبره بما لا يعلمه، فيُوغِر صدره.

وقد ورد في الحديث: **«كفارة مَنِ ٱغتبتَ أن تستغفر له»**[2].

وقال مجاهد: كَفّارة أكلك لحمَ أخيك أن تُثنيَ عليه وتدعوَ له بخير، وكذٰلك إن كان قد مات.

الآفة التاسعة: من آفات اللسان: النميمة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة قَتّاتٌ»**[3] ـ وهو النَّمَّام.

وٱعلم أن النميمة تُطْلَق في الغالب علىٰ نَقْلِ قولِ إنسانٍ، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حَدُّها كَشْفُ ما يُكْرَه كَشْفُه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يَدفن مالاً لنفسه، فَذَكَره، فهو نميمة، وكل من نُقلتْ إليه النميمةُ ـ مثل أن يقال له: (قال فيك فلان كذا وكذا، أو فَعَلَ في حقك كذا) ونحو ذلك ـ فعليه ستة أشياء.

الأول: ألا يصدق الناقل، لأن النّمّام فاسق مردود الشهادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٤)، وأحمد (٩٥٩٥) عن أبي هريرة.

(٢) حديث موضوع. رواه ابن أبي الدنيا. وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٩٠)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٥١٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٧٦/ ٤٨٧١)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٦٤٩/٢٠٢٦)] عن حذيفة. وهو في «صحيح الجامع» (٧٦٧٢)، و«الصحيحة» (١٠٣٤).

الثاني: أن ينهاه عن ذلك ويَنْصَحه.

الثالث: أن يُبْغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: ألا يَظُنّ بأخيه الغائبِ السوءَ.

الخامس: ألا يَحْمِلَه ما حُكِيَ له علىٰ التجسّس والبحث، لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: ألا يرضىٰ لنفسه ما نهىٰ النّمّامَ عنه، فلا يَحكي نميمة.

ويُروىٰ أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغني أنك وقعت فيَّ، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلتُ، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال الرجل: لا يكون النّمّامُ صادقاً، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام.

وقال يحيى بن أبي كثير[1]: يُفْسِدُ النّمّامُ في ساعةٍ ما لا يفسد الساحرُ في شهر.

وقد حكي أن رجلاً ساوَمَ بعبد، فقال مولاه: إني أبرأ إليك من النميمة والكذب، فقال: نعم، أنت بريء منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك تبغي وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرّىٰ، فإن أردت أن أُعطِّفه عليك. فلا يتزوجُ ولا يتسرّىٰ، فخذي الموسىٰ واحلِقي شَعْرة من حَلْقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نِمْتَ. قال: فذهب فتَناوم لها، فجاءت بموسىٰ لتحلق شعرة من حلقه، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاسْتَعْدَوْا عليه فقتلوه.

الآفة العاشرة: كلام ذي اللِّسانَين الذي يتردد بين المتَعادِيَين، وينقل كلام كل واحد إلىٰ الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثني علىٰ الواحد في وجهه ويذمّه عند الآخر.

وفي الحديث: «**إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هٰؤلاء بوجه وهٰؤلاء بوجه**»[2].

---

(١) في المطبوع: «يحيى بن كثير» وهو خطأ.

(٢) رواه البخاري (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦) عن أبي هريرة.

وٱعلم أن هٰذا في من لم يضطر إلىٰ ذٰلك، فأما إذا ٱضطر إلىٰ مداراة الأمراء جاز.

قال أبو الدرداء ﷺ: إنا لَنَكْشِرُ[1] في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لَتَلْعَنُهم. ومتىٰ قدر ألا يظهر موافقتهم لم يجز له.

الآفة الحادية عشر: المدح، وله آفات: منها ما يتعلق بالمادح، ومنها ما يتعلق بالممدوح.

فأما آفات المادح، فقد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل للاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه وَرِعٌ وزاهد، وقد يُفْرط في المدح فينتهي إلىٰ الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يُذَمّ.

وقد روي في حديث: «**إن الله يغضب إذا مُدح الفاسق**»[2].

وقال الحسن: من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصىٰ الله.

وأما الممدوح، فإنه يُحْدِثُ فيه كِبْراً أو إعجاباً، وهما مُهْلِكان.

ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: «**ويلك، قَطَعتَ عنق صاحبك. . .**» الحديثَ[3]، وهو مشهور.

وقد روينا عن الحسن قال: كان عمر ﷺ قاعداً ومعه الدِّرَّة والناس حوله، إذْ أقبل الجارود، فقال رجل: هٰذا سيّد رَبيعة، فسمِعها عمر ﷺ ومَنْ حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خَفَقَهُ[4] بالدِّرَّة، فقال: ما لي ولك يا أمير

---

(١) في النسخة الثانية والمطبوع. «لنشكر» وهو تحريف، والكَشْر: التبسم، والخبر علقه البخاري في «صحيحه» عن أبي الدرداء.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» عن أنس. وهو في «ضعيف الجامع» (١٧٤٦)، و«الضعيفة» (٥٩٥ و١٣٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٢٠/ ٤٨٠٥)] عن أبي بكرة.

(٤) خفقه يخفقه، بضم الفاء وكسرها: ضربه.

المؤمنين؟ قال: ما لي ولك! أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فَمَهْ؟ قال: خشيت أن يُخالِط قَلْبَك منها شيءٌ فأحببت أن أُطأْطِئ[١] منك.

ولأن الإنسان إذا أُثني عليه رضي عن نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهٰذا قال: «**قطعت عنق صاحبك...**»[٢].

فأما إذا سَلِم المدحُ من هٰذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنىٰ النبي ﷺ علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة[٣] رضي الله عنهم.

وعلىٰ الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكِبْر والعُجب والفُتور عن العمل. ولا ينجو من هٰذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكّر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

وقد روي أن رجلاً من الصالحين أُثني عليه، فقال: اللٰهم إن هٰؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني.

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوىٰ الكلام فيما يرتبط في أمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالىٰ، ولا يقدر علىٰ تقويم اللفظ بذٰلك إلا العلماء الفُصَحاء، فمن قَصّر في علم أو فصاحة، لم يَخْلُ كلامه عنِ الزلل، لكن يعفو الله عنه لِجَهْله.

مثال ذٰلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يَقُلْ أحدكم: (ما شاء الله وشئت)، ولكن ليقل: (ما شاء الله ثم شئت)**»[٤]، وذٰلك لأن في العطف المُطْلَق تشريكاً وتسْوِيةً.

---

(١) أي أخفض، حتى لا يصيبك الغرور.
(٢) راجع الحديث المخرج قبلهُ.
(٣) فيه الكثير، ومنه ما في «السنة» لابن أبي عاصم.
(٤) أخرجه أبو داود [«صحيح سننه» (٤١٦٦/ ٤٩٨٠)]، وأحمد (٢٣٢٥٧) عن حذيفة، وهو في «الصحيحة» (١٣٧).

وقريبٌ من ذٰلك إنكاره علىٰ الخطيب قوله: (من يعصهما فقد غوىٰ)، وقال: «**قل: (ومن يعص الله ورسوله)**»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يَقُلْ أحدكم: (عبدي وأَمتي) كلكم عَبيدُ الله، وكلّ نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: (غُلامي وجاريتي)**»[2].

وقال النَّخَعيُّ: إذا قال الرجل للرجل: (يا حمار، يا خنزير)، قيل له يوم القيامة: (أرأيتني خلقته حماراً، أو أرأيتني خلقته خنزيراً).

فهٰذا وأمثاله: مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حَصره، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يَسْلم، وعند ذٰلك يَعرف سِرَّ قوله ﷺ: «**من صَمَتَ نجا**»[3]، لأن هٰذه الآفات مَهالكُ وهي علىٰ طريق المتكلم، فإن سكت سَلِمَ.

فصل

ومن آفات العوامّ سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالىٰ وكلامِه.

[(الآفة الثالثة عشرة)]

اِعلم أن الشيطان يُخَيِّلُ إلىٰ العامِّيِّ أنك بِخَوْضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يُحبِّب إليه ذٰلك حتىٰ يتكلم بما هو كُفْرٌ وهو لا يدري.

قال النبي ﷺ: «**يوشك الناس أن يسألوا، حتىٰ يقولوا: هٰذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٠) عن عَدِيِّ بنِ حاتِم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٩). وأخرج بعضه البخاري (٢٥٥٢) عن أبي هريرة. وهو في «الصحيحة» (٨٠٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٧٨ و٦٦٥١)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٠٣١/٢٥٠١)] عن ابن عَمْرو. وهو في «الصحيحة» (٥٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٣٥)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٩٥١/٤٧٢١)] عن أبي هريرة. وهو في «الصحيحة» (١١٦ و١١٧).

فسؤال العوامّ عن غوامض العلم أعظم الآفات، وبَحْثُهم عن معاني الصفات مما يُفْسدهم لا مما يُصْلحهم، إذِ الواجب عليهمُ التسليمُ، فالأَوْلىٰ بالعامّيّ: الإيمان بما ورد به القرآن، ثم التسليم بما جاء به الرسول من غير بحثٍ، وٱشتغالهم بالعبادات، فإن ٱشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم، كبحث سائمة الدوابّ عن أسرار الملك.

١٨ - كِتَابُ ذمّ الغضب وَالحقد وَالحسَد

اَعلم أن الغضب شُعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلىٰ الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف. ص: ٧٦] فإن شأن الطين السكونُ والوَقارُ، وشأن النار التَّلظِّيْ والاشتعال، والحركة والاضطراب.

ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد.

ومما يدل علىٰ ذم الغضب قول النبي ﷺ للرجل الذي قال له: أوصني. قال: «**لا تغضب**»، فردَّد عليه مراراً، فقال: «**لا تغضب**»(١).

وفي حديث آخر أن ابن عَمْرو ﷺ سأل النبي ﷺ، ماذا يبعدني من غضب الله ﷻ؟ قال: «**لا تغضب**»(٢).

وفي المُتَّفَقِ عليه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٣).

وعن عِكْرِمَةَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] قال: السيد الذي يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه.

وروينا أن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة فقال: عَلِّمْني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون علىٰ اَبن آدم حين يغضب، فَرُدَّ الغَضَبَ بالكظم، وسَكِّنْه بالتُّؤَدة، وإياك والعَجَلَة، فإنك إذا عجلْتَ أخطأت حظّك، وكن سهلاً لَيِّناً للقريب والبعيد، ولا تكن جبّاراً عنيداً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦)، والترمذي [«صحيحه» (١٦٤٤/ ٢٠٢٠)] عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٥) (٦٦٣٢).

(٣) البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) عن أبي هريرة.

وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: يا موسىٰ إياك والحِدَّة، فإني ألعبُ بالرجل الحديد[1] كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء، فإني لم أنصب فَخّاً قط أثبت في نفسي من فَخٍّ أنصبه بٱمرأة، وإياك والشحَّ، فإني أُفسِدُ علىٰ الشحيحِ الدنيا والآخرة.

وكان يقال: ٱتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يُفْسِدُ الصَّبِرُ العَسَلَ، والغضبُ عدوُّ العقل.

[بيان حقيقة الغضب]

وحقيقة الغضب: غَلَيَان دم القلب لطلب الانتقام، فمتىٰ غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثَوَراناً يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق، ويرتفع إلىٰ أعالي البدن، كما يرتفع الماء الذي يغلي في القِدْرِ، ولذٰلك يحمرّ الوجه والعين والبشرة، وكل ذٰلك يحكي لونَ ما وراءه من حُمْرة الدم، كما تحكي الزُّجاجة لون ما فيها، وإنما ينبسط الدم إذا غضب علىٰ مَنْ دُونه وٱستشعر القدرة عليه.

فإنْ كان الغضب صَدَرَ ممَّنْ فَوقه، وكان معه يأس مِنَ الانتقام، تَوَلَّد منه ٱنقباض الدم من ظاهر الجلد إلىٰ جَوْفِ القلب، فصار حزناً، ولذٰلك يصفرُّ اللون، وإن كان الغضب علىٰ نظيرٍ يَشُكُّ فيه، تردّدَ الدم بين ٱنقباض وٱنبساط، فيحمرّ ويصفر ويضطرب، فالانتقام هو قوتٌ لقوة الغضب.

والناس في قوة الغضب علىٰ درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، وٱعتدال.

فلا يُحمد الإفراط فيها، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما، فلا يبقىٰ للإنسان مع ذٰلك نظر ولا فكر ولا ٱختيار.

والتفريط في هٰذه القوة أيضاً مذموم، لأنه يبقىٰ لا حَميّة له ولا غَيْرة، ومن فقد الغضب بالكُلّيّة، عجز عن رياضة نفسه، إذِ الرياضة إنما تتم بتسلّط الغضب علىٰ الشهوة، فيغضب علىٰ نفسه عند الميل إلىٰ الشهوات الخسيسة، ففقْد الغضب مذموم، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطريقين.

---

(١) أي: الذي فيه حِدّة.

وٱعلم أنه متىٰ قويتْ نار الغضب وٱلتهبتْ، أَعمت صاحبها، وأَصمَّتْه عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلىٰ الدماغ، فيُغطِّيْ علىٰ معادن الفكر، وربما تعدىٰ إلىٰ معادن الحسِّ، فتُظلِمُ عَيْنُه حتىٰ لا يرىٰ بعينه، وتسودّ الدنيا في وجهه، ويكون دِماغه علىٰ مثال كهف أضرمت فيه نار، فٱسودّ جوه، وحَمِيَ مُستقرّه، وٱمتلأ بالدخان، وكان فيه سِراج ضعيف فٱنطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تُسمَع فيه كلمة، ولا ترىٰ فيه صورة، ولا يقدر علىٰ إطفاء النار، فكذٰلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه.

ومن آثار الغضب في الظاهر، تغيُّر اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، وٱستحالة الخِلقة وتعاطي فعل المجانين، ولو رأىٰ الغَضْبان صورته في حال غضبه وقُبْحها، لأَنِف نفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قُبح الباطن أعظم.

فصل في بيان الأسباب المُهيِّجة للغضب وذكر علاج الغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحَسْم مادتها وإزالة أسبابها.

فمن أسبابه: العُجب، والمزاح، والمماراة، والمُضادّة، والغدر، وشدة الحِرص علىٰ فُضول المال والجاه، وهٰذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هٰذه بما يضادّه، فيجتهد علىٰ حَسْم موادّ الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كَظْم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاريِّ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً ٱستأذن علىٰ عمر ﷺ، فأذن له، فقال له: (يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل[1]، ولا تحكم بيننا بالعدل) فغضب عمر ﷺ، حتىٰ هَمّ

(١) أي: الكثير من العطية، يقال: عطاء جزل وجزيل.

أن يُوقِعَ به[١]. فقال الحُرُّ بن قيس: (يا أمير المؤمنين إن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] وإن هٰذا من الجاهلين)[٢] فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه وكان وَقّافاً عند كتاب الله عز وجل.

الثاني: أن يُخوِّف نفسه عقاب الله تعالىٰ، وهو أن يقول: (قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي علىٰ هذا الإنسان، فلو أمضيت فيه غضبي لم آمن أن يمضي الله ﷻ غضبه عليّ يوم القيامة، فأنا أَحْوَجُ ما أكون إلى العفو).

وقد قال الله تعالىٰ في بعض الكتب: يا اْبن آدم اْذكرني عند الغضب، أذكرْك حين أغضب، ولا أَمْحَقك في من أَمحقُ[٣].

والثالث: أن يُحَذِّر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدوِّ في هدم أعراضه والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب، فيخوِّف نفسه ذٰلك في الدنيا إن لم يَخَفْ من الآخرة. وهٰذا هو تسليط شهوةٍ علىٰ غضب، ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ علىٰ بعض، إلا أن يكون مَحْذورُهُ أن يتغير عليه أمر يعينه علىٰ الآخرة، فيُثاب علىٰ ذٰلك.

الرابع: أن يتفكر في قُبح صورته عند الغضب علىٰ ما تقدم، وأنه يُشبه حينئذٍ الكلب الضاري، والسَّبُع العادي، وأنه يكون مُجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لِتميل نفسه إلىٰ الاقتداء بهم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلىٰ الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: (إن هٰذا يُحمل منك العجز، والذِّلّة والمَهانة، وصِغَر النفس، وتصير حقيراً في أعين الناس). فليقل لنفسه: (تَأْنَفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خِزْيِ يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هٰذا

---

(١) أي يُنزل به ما يسوؤه.

(٢) هو في البخاري (٤٦٤٢ و٧٢٨٦).

(٣) فذِكر الله سبحانه وتعالىٰ عند الغضب، يجعل الإنسان الغضبان محترساً من الوقوع فيما لا يرضي الله.

بيدك وأنتقم منك، وتحذرين من أن تَصْغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالىٰ وعند الملائكة والنبيين).

وينبغي أن يكظم غيظه، فذٰلك يُعظِّمه عند الله تعالىٰ، فماله وللناس؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: (ليقم من ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠])، فلا يقوم إلا من عفا[١]، فهٰذا وأمثاله ينبغي أن يُقرِّره علىٰ قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرىٰ علىٰ وَفْق مراد الله تعالىٰ، لا علىٰ وَفْق مراده، فكيف يقدم مراده علىٰ مراد الله تعالىٰ؟

هٰذا ما يتعلق بالقلب.

وأما العمل، فينبغي له: السكون[٢]، والتعوذ[٣]، وتغيير الحال[٤]، فإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب[٥]، فهٰذه الأمور وردت في الأحاديث.

أما الحكمة في الوضوء عند الغضب، فقد بيَّنها في الحديث كما روى أبو وائل قال: كنا عند عروة بن محمد، فكلّمه رجل بكلام، فغضِبَ غضباً

---

(١) إسناده واهٍ، سيأتي في الصفحة (٢٣٢) الحاشية (٢).

(٢) وفيه ما أخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس مرفوعاً: «**إذا غضبت فاسكت**». وهو في «صحيح الجامع» (٦٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صرد. ولقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، فصلت: ٣٦].

(٤) أخرجه كاملاً من فعله ﷺ ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف عن أبي هريرة. وهو بلفظ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب؛ ...، وإلا؛ فليضطجع**». في «صحيح الجامع» (٦٩٤) عن أبي ذر.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٩٥٠)، وأبو داود [«ضعيف سننه» (١٠٢٥/ ٤٧٨٤)]. وهو في «ضعيف الجامع» (١٥١٠)، و«الضعيفة» (٥٨٢).

شديداً، فقام وتوضأ، ثم جاء فقال: حدثني أبي عن جدي عطية ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلِق من النار، وإنما تُطْفَأ النارُ بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»**(١).

وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق، فيذكر أصله فيذلّ، ويمكن أن يكون ليتواضع بذُلّه، لأن الغضب ينشأ من الكِبْر؛ بدليل ما روىٰ أبو سعيد، عن النبي ﷺ أنه ذكر الغضب وقال: **«من وجد شيئاً من ذلك، فليلصق خدّه بالأرض»**(٢).

وقيل: غضب المهدي علىٰ رجل، فدعا بالسِّياط، فلما رأى شبيبٌ شدّة غَضَبه، وإطراق الناس، فلم يتكلموا بشيء، قال: يا أمير المؤمنين، لا تُغضبنَّ الله بأشدّ مما غضب لنفسه، فقال: خَلُّوا سبيله.

فصل في كظم الغيظ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح.

وعن رسول الله ﷺ قال: **«من كظم غيظاً وهو قادر علىٰ أن يُنفذه، دعاه الله علىٰ رؤوس الخلائق حتىٰ يخيِّره من أيِّ الحُور شاء»**(٣).

وروي عن عمر ﷺ أنه قال: من اتقىٰ الله لم يَشْفِ غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه أحمد (١١١٢٧ و١١٥٧٣)، وهو في «ضعيف سنن الترمذي» (٣٨٥/ ٢١٩٢) بلفظ: «فليلصق بالأرض».

(٣) أخرجه أحمد (١٥٦١٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٩٩٧/ ٤٧٧٧)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦٤٥/ ٢٠٢١ و٢٠٢٦/ ٢٤٩٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٧٥/ ٤١٨٦)] عن معاذ بن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٦٥١٨).

فصل في الحلم

روىٰ أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنما العلم بالتعلّم، والحلم بالتحلم»**[(١)].

«اُطلبوا العلم، واُطلبوا مع العلم السكينة والحِلْم، لِينوا لمن تُعلِّمون ولمن تَعَلَّمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلب جَهلُكم عليكم»[(٢)].

وقال ﷺ لأَشَجّ[(٣)] عبدِ قيسٍ:

«إن فيك خُلُقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناةُ»[(٤)]

وشتم رجلٌ اُبنَ عباس ﷺ، فلما قضىٰ مَقالته، فقال: يا عِكْرِمَةُ، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واُستحيا.

وأسمع رجلٌ معاويةَ ﷺ كلاماً شديداً، فقيل له: لو عاقبتَه؟ فقال: إني لأستحي أن يَضيق حِلْمي عن ذنبِ أحدٍ من رَعِيَّتِيْ.

وقسم معاوية نِطعاً[(٥)]، فبعث منها إلىٰ شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية، فأتىٰ معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوفِ بنَذْرك واُرفُق بالشيخ.

وجاء غلام لأبي ذَرٍّ وقد كسر رِجْلَ شاةٍ له، فقال له: من كسر رجل هٰذه؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فتضربني، فتأثم. فقال: (لأغيظن مَنْ حَرَّضك علىٰ غيظي) فأعتقه.

---

(١) هو في «الصحيحة» (٣٤٢)، و«صحيح الجامع» (٢٣٢٨).

(٢) رواه ابن السني في «رياضة المتعلمين» بسند ضعيف.

(٣) هذا لقبه، واسمه: المنذر بن عائذ بن الحارث العَصَري ـ بمهملتين مفتوحتين ـ نزل البصرة ومات بها.

(٤) أخرجه مسلم (١٧)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٢٠١١/١٦٣٦)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٤١٨٨/٣٣٧٦)] عن ابن عباس.

(٥) جاء في «القاموس»: النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك: بساط من الأديم، أي: من الجلد. وما أظن هٰذه القصة إلا مكذوبة علىٰ معاوية رضي الله عنه.

وشتم رجل عَدِيَّ بنَ حاتِم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيء، فَقُلْ قبل أنْ يأتي شباب الحيّ، فإنهم إن سمعوك تقول هٰذا لِسَيِّدهم لم يَرْضَوا.

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجدَ ليلةً في الظُّلْمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فَهَمَّ به الحَرَس، فقال عمر: (مَهْ، إنما سألني أمجنون؟ فقلت: لا).

ولقي رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل فقال: ما سُتر عنك من أمرنا أكثرُ، ألك حاجة نُعينك عليها؟ فاستحىٰ الرجل، فألقىٰ عليه خميصة[1] كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذٰلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول.

وقال رجل لوَهْب بن مُنَبِّهٍ: إن فلاناً شتمك، فقال: ما وجد الشيطان بريداً غيرك؟!

فصل في العفو والرِّفق

ٱعلم أن معنىٰ العفو أن تَستحق حقاً فتُسْقِطه، وتؤدي عنه من قِصاص أو غرامة، وهو غير الحِلم والكظم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الحديث أن النبيّ ﷺ، قال: «**ما نَقَصَتْ صدقَةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»[2].

وعن عُقْبَةَ بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل**

(١) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان، فإن لم يكن معلماً فليس بخميصة.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي [«صحيحه» (١٦٥٢/٢٠٢٩)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٨٠٩)، و«الصحيحة» (٢٣٢٨)، و«الإرواء» (٢٢٠٠).

أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تَصِلُ مَنْ قَطَعك، وتُعْطي مَن حَرَمك، وتَعْفو عمن ظَلَمك»[١].

وروي أن منادياً ينادي يوم القيامة: لِيَقُمْ من وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه[٢].

وعن أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»**[٣].

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله ﷻ يحب الرِّفْق في الأمر كله»**[٤].

وفي حديث آخر: **«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفقَ يُحرمِ الخيرَ»**[٥].

باب في الحقد والحسد

اعلم أن الغيظ إذا كُظم لعَجْز عن التشفِّي في الحال رجع إلى الباطن، فاْحتَقن فيه فصار حِقداً.

وعلامته دوام بُغْض الشخص واْستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

وعن الزُّبَير بن العَوّام ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء»**[٦].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والبيهقي بإسناد ضعيف. ورواه أحمد (١٧٤٢٠) بنحوه دون جملة: **«ألا أخبرك»**.

(٢) أخرجه الطبراني في «مكارم الأخلاق» من حديث أنس بإسناد واهٍ.

(٣) رواه الطبراني والبزار. وهو في «صحيح الجامع» (١٧٧١).

(٤) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم(٦٠٢٤). وهو في «صحيح الجامع» (١٧٧١).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٢)، وأحمد (١٩١٥٧ و١٩٢٠١)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٢٤/٤٨٠٩)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٢٩٧٣/٣٦٨٧)] عن جرير بن عبد الله البجلي. وهو في «صحيح الجامع» (٦٦٠٦).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١١ و١٤٢٩ و١٤٣٠). وهو في «صحيح الترمذي» (٢٠٣٨/ ٢٥١٠)، «إرواء الغليل» (٧٧٧)، و«صحيح الجامع» ٣٣٦١/١.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ قال: **«لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»**[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: **«إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**[٢].

وفي حديث آخر أنه قال: **«يَطْلُعُ عليكم من هذا الفَجِّ[٣] رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أَجِدُ لأحد من المسلمين في نفسي غِشّاً ولا حسداً علىٰ خيرٍ أعطاه الله إياه»**[٤].

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول: (الحاسد عدو نعمتي، مُتَسَخِّطٌ لقضائي، غير راضٍ بقسمتي بين عبادي).

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً علىٰ شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده علىٰ شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلىٰ الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده علىٰ شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلىٰ النار.

وقال إبليس لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: إياك والحسد، إنه صَيَّرني إلىٰ هٰذه الحال.

وٱعلم أن الله تعالىٰ إذا أنعم علىٰ أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهٰذا هو الحسد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥ و٦٠٧٦)، ومسلم (٢٥٦٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤١٠٣/ ٤٩١٠)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣١٠٤/ ٣٨٤٩)] عن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٧١٩٩ و٧٢٠٠)، و«غاية المرام» (٤٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود [«ضعيف سننه» (١٠٤٨/ ٤٩٠٤)]، وابن ماجه [«ضعيف سننه» (٩٢٢/ ٤٢١٠)] عن أبي هريرة. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٧٨١)، و«الضعيفة» (١٩٠١ و١٩٠٢).

(٣) الفج بالفتح: الطريق الواسع بين الجبلين، والجمع فِجاج.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٦٨١) عن أنس وباختلاف في اللفظ. وظاهر إسناده أنه صحيح على شرط الشيخين، إلا أن حمزة الكناني قال: لم يسمعه الزهري من أنس، رواه عن رجل عن أنس. . . وهو الصواب. انظر «تحفة الأشراف» ١/ (١٥٥٠).

والحالة الثانية: ألا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولٰكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهٰذا يُسمىٰ غِبْطة.

قال المصنف رحمه الله:

قلت: وٱعلم أني ما رأيت أحداً حَقّق الكلام في هٰذا كما ينبغي، ولا بد لي من كَشْفه فأقول:

ٱعلم أن النفس قد جُبلتْ علىٰ حب الرِّفعة، فهي لا تحب أن يعلُوَهَا جنسها فإذا علا عليها، شَقّ عليها وكرهتْه، وأَحبّت زوال ذٰلك ليقع التساوي، وهٰذا أمر مركوز في الطِّباع.

وقد روىٰ أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظنّ، والطِّيَرَة، والحسد، وسأُحدِّثكم ما المخرج من ذٰلك، إذا ظننْتَ فلا تُحقّقْ، وإذا تَطيّرتَ فٱمْضِ، وإذا حسدتَ فلا تَبْغِ**»[1].

وعلاج الحسد، تارة بالرضا بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النِّعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلّىٰ بذٰلك ولا يعمل بمقتضىٰ ما في النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذٰلك لم يَضُرّه ما وُضع في جِبِلّته.

فأما من يحسد نبيّاً علىٰ نُبُوّته، فيحب ألا يكون نبيّاً؛ أو عالماً علىٰ علمه، فيؤثر ألا يُرزَق ذٰلك أو يزول عنه، فهٰذا لا عذر له، ولا تُجْبَل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشِّرِّيرة، فأما إن أحب أن يَسبِق أقرانه، ويَطَّلِع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذٰلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لوِ ٱستبقَ عبدان إلىٰ خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يَسْتبق. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الحسد» من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٥٢٦ و٢٥٢٧)، و«غاية المرام» (٣٠٢) نحوه.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر[١] رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله ﷻ القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار»**[٢].

والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة، والتكبّر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها.

وأشدُّها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسببٍ من الأسباب، وخالفه في غَرَضه، أبغضَه قلبُه، ورسخ في نفسه الحِقْدُ، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوّه من البلاء فَرِحَ بذٰلك، وظنه مكافأة من الله تعالىٰ له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذٰلك، فالحسد يَلزم البُغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقيّ ألاّ يبغي، وأن يكره ذٰلك من نفسه، فأما أن يُبغض إنساناً فيستوي عنده مَسرَّته ومساءته، فهذا غير مُمْكن.

وأما الكِبْر، فهو أن يُصيب بعضُ نُظَرائه مالاً أو وِلاية، فيَخاف أن يتكبّر عليه ولا يطيق تكبّره، أو يكون مَنْ أصاب ذٰلك دونه، فلا يحتمل ترفُّعه عليه أو مساواته. وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريباً من ذٰلك. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف] وقال في حق المؤمنين: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال في آية أخرى: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وقال: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون] فعجبوا وأَنِفُوا من أن يفوز برُتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله: أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فَنٍّ من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزّه الفرح بما يُمدح

---

(١) في المطبوع: من حديث عمر، ولا يعرف من حديثه، بل من حديث ابنه.

(٢) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥)، والترمذي [«صحيحه» (١٥٨٠/ ١٩٣٦)].

به، من أنه أوحد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصىٰ العالم، ساءه ذٰلك، وأحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذٰلك، وليس ذٰلك إلا لِمَحْضِ الرياسة بدعوىٰ الانفراد.

وقد كان علماء اليهود يُنْكِرون معرفة النبيّ ﷺ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خُبْث النفس وشُحُّها علىٰ عِباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبّر، وإذا وصُف عنده حُسْنُ حالِ عبدٍ من عباد الله تعالىٰ فيما أنعم عليه به، شَقّ عليه ذٰلك، وإذا وُصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عَيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله علىٰ عباده، كأنهم يأخذون ذٰلك من مُلكه وخزانته.

وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره، فهٰذا يبخل بنعمة الله علىٰ عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهٰذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهٰذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل علىٰ إزالته، بل سببه خبث الجِبِلَّة، فيعسر إزالته، فهٰذه أسباب الحسد.

فصل

[بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران و. . .]

واَعلم أنما يكثر الحسد بين أقوام تَكثُر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذٰلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العَمّ، لأن سبب التحاسُد توارد الأغراض علىٰ مقاصد يحصل التناقض فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذٰلك ترىٰ العالِمَ يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البَزّاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هٰؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة التزاحُمُ علىٰ غَرَض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدَين، إذْ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه علىٰ الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها.

ومنشأ جميع ذٰلك حبُّ الدنيا، فإن الدنيا هي التي تَضيق علىٰ المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالىٰ، وملائكته، وأنبيائه ومَلَكوتِ أرضه وسمائه، لم يَحسد غيره إذا عَرف ذٰلك، لأن المعرفة لا تَضيق علىٰ العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه ألفُ ألفِ عالِم، ويفرح بمعرفته غيرُه، فلذٰلك لا يكون بين علماء الدين مُحاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أَجلَّ ما عند الله من النعيم لذّة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين علىٰ بعض، بل يزيد الأُنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المالَ والجاه تحاسدوا.

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يَحِلُّ في يدٍ ما لم يرتحلْ عن يدٍ أخرىٰ، والعلم مُستِقرٌّ في قلب العالِم، ويحل في قلبِ غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمنَ عوَّد نفسه الفكر في جلال الله وعَظَمته ومُلْكه، صار ذٰلك عنده أَلَذَّ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مُزاحَماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته.

فقد عرفتَ أنه لا حسد إلا في المتوارد علىٰ مقصود يضيق عن الوفاء بالكل، ولهٰذا لا ترىٰ الناس يتزاحمون علىٰ النظر إلىٰ زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الأبصار، فعليك إن كنت شفيقاً علىٰ نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدّر، ولا يوجد ذٰلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالىٰ وعجائب مَلَكوته، ولا ينال ذٰلك في المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشتاق إلىٰ معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذّتها، وضَعُفَتْ فيها رغبتك، فلست برجل، إنما هٰذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يَذُقْ لم

يعرف، ومن لم يعرف لم يَشْتَقْ، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يُدرِكْ، ومن لم يدرك بَقِيَ من المحرومين.

[(دواء الحسد)] وٱعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تُداوىٰ أمراض القلوب إلا بالعلم، والعمل:

والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تَعرف حقيقة أن الحسد ضَررٌ عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يَضرّ المحسودَ في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمِن بالبعث لكان مُقتضىٰ الفِطْنة إن كنت عاقلاً أن تَحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: (إن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا) لأن ما قَدَّره الله له من نعمة لا بد أن تدوم إلىٰ أجله الذي قدّره، ولا ضرر عليه في الآخرة، لأنه لا يأثم هو بذٰلك، بل يَنتفع به، لأنه مظلوم من جِهَتك، لا سيما إذا أَخرجت الحسد إلىٰ القول والفعل.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن من أهمّ أغراض الخلق غَمَّ الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرنا، علمتَ أنك عدوٌّ لنفسك، وهو صديق لعدوِّك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجراً إلىٰ عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر علىٰ حَدَقته اليمنى فيَقْلعها، فَيَزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشدّ من الأول، فيرجع الحجر علىٰ عينه الأخرى فيَعميها، فيزداد غَيْظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر علىٰ رأسه فَيَشدَخُه، وعدوُّه سالمٌ يضحك منه، فهٰذه الأدوية العلمية، فإذا تَفكّر الإنسان فيها، أُخمِدتْ نارُ الحسد من قَلبه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نَقيض ما يأمره به الحسد، فإذا بعثه علىٰ الحقد والقَدْح في المحسود، كَلَّف نفسه المدحَ له، والثناء عليه، وإن حمله علىٰ الكِبْر، أَلْزم نفسه التواضع له، وإن بعثه علىٰ كَفِّ الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادةً في الإنعام. وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً ٱغتابهم، أَهْدَوْا إليه هدية.

فهٰذه أدوية نافعة للحسد جدّاً، إلا أنها مُرَّة، وربما يُسَهِّلُ شُرْبَها أن يُعلمَ أنه إذا كان لا يكون كُلُّ ما تريد، فَأَرِدْ ما يكون. وهٰذا هو الدواء الكلي، والله أعلم.

[كتاب: ذم الدنيا]

باب في ذم الدنيا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بِعَيْبِ الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[1] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الآيةَ، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران. الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية[2]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المُسْتَوْرِدِ بن شَدّاد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بم يرجع؟**»[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤ وتمامها: ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٤ وتمامها: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي [«صحيحه» (١٨٩٢/٢٣٢٣)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٣١٦/٤١٠٨)]. ولم أره في البخاري.

وفي حديث آخر: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**[١] رواه مسلم.

وفي حديث آخر: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ منها كافراً شربة ماء»**[٢]. رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث آخر: **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»**[٣].

ورویٰ أبو موسیٰ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«من أحب دنياه، أَضَرَّ بآخرته، ومن أحب آخرته، أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ»**[٤].

وكتب الحسن إلىٰ عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه:

أما بعد: فإن الدنيا دار ظَعْنٍ ليست بدار مقام، وإنما أُنزل إليها آدم عقوبةً، فاْحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تَرْكها، والغنىٰ فيها فقرها، تُذِلُّ مَنْ أَعزَّها، وتُفْقر من جَمَعَها، كالسُّمِّ يأكله من لا يعرفه وهو حَتْفُه، فاْحذر هٰذه الدار الغَرّارة الخَتّالة الخداعة، وكن أسرَّ ما تكون فيها: أَحْذَرَ ما تكون لها، سرورُها مَشُوب بالحزن، وصَفْوُها مشوب بالكَدَر، فلو كان الخالقُ لم يُخْبر

---

(١) هو في مسلم (٢٩٥٦)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٣/ ٢٣٢٤)، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٤١٢).

(٢) هو في «صحيح الترمذي» (١٨٨٩/ ٢٣٢٠) عن سهل بن سعد. وفي «الصحيحة» (٩٤٣)، و«صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

(٣) روى الترمذي [«صحيحه» (١٨٩١/ ٢٣٢٢)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٢٠/ ٤١١٢)] عن أبي هريرة نحوه. وهو في «صحيح الجامع» (٣٤١٤)، و«المشكاة» (٥١٧٦).

وعن جابر واللفظ له، وقال عنه الشيخ الألباني: ضعيف، انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٣٠١٩).

(٤) رواه أحمد (١٩٦٤٣)، والحاكم ٣٠٨/٤ عن أبي موسى الأشعري. وفيه انقطاع.

وقال عنه الشيخ الألباني: ضعيف، انظر «مشكاة المصابيح» (٥١٧٩)، و«ضعيف (الجامع الصغير وزيادته: الفتح الكبير)» للألباني طبع المكتب الإسلامي رقم ٥٣٤٠.

عنها خَبَراً، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت قد أيقظتِ النائم، ونَبَّهتِ الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجِرٌ، وفيها واعظٌ، فما لها عند الله سبحانه قَدْرٌ ولا وَزْنٌ، ما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرِضت علىٰ نبينا محمد ﷺ مفاتيحُها وخزائنها[1]، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبىٰ أن يقبلها، وكَرِه أن يُحِبَّ ما أبغض خالِقُه، أو يَرفع ما وَضع مَليكُه، زواها الله عن الصالحين ٱختياراً، وبسطها لأعدائه ٱغتراراً، أَفَيَظُنُّ المغرور بها المُقْتَدِرُ عليها أنه أُكْرِمَ بها؟ ونَسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شَدَّ علىٰ بطنه الحَجَرَ[2]، والله ما أَحَد من الناس بُسِط له في الدنيا، فلم يَخَفْ أن يكون قد مُكِرَ به، إلا كان قد نقص عقلُه، وعجز رأيُه، وما أُمسك عن عَبْدٍ، فلم يظن أنه قد خُيّر له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السَّحّارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا.

ومن أمثلة الدنيا: قال يونس بن عُبيد: شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأىٰ في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذٰلك ٱنتبه.

ومثل هٰذا قولهم: (الناس نيام، فإذا ماتوا ٱنتبهوا). والمعنىٰ أنهم يَنتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما رَكنوا إليه وفرحوا به.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا هٰكذا مرسلاً، ورواه أحمد والطبراني متصلاً من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه: «**إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة. . .**» الحديث؛ وسنده صحيح. وللترمذي من حديث أبي أمامة: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً. . .**» الحديث.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا هٰكذا. وللبخاري (٤١٠١) من حديث جابر: قام وبطنه معصوب بحجر.

وللترمذي من حديث أنس: رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ حجرين، وقال: حديث غريب. وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤١٣/ ٢٣٧١). ولمسلم (٢٠٤٠) قبل الأخير عن أنس أيضاً: (وقد عصب بطنه بعصابة على حجر).

قيل: إن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى الدنيا في صورة عجوز هَتماء[١] عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أُحصيهم. قال: فكلهم مات عنكِ أو كلهم طَلَّقك؟ قالت: بل كلهم قَتلْتُ. فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بُؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يَعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تُهْلِكينَهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منكِ علىٰ حَذَرٍ.

وروي عن ٱبن عباس رضي الله عنه قال: يُؤتىٰ بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء[٢] زرقاء، أنيابها بادية، مُشَوَّهٌ خَلْقها، فتُشْرِف علىٰ الخلق، فيُقال: هل تعرفون هٰذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هٰذه. فيقال: هٰذه الدنيا التي تَشاجرتم عليها، وبها تقاطعتمُ الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم وٱغتررتم، ثم تُقْذَف في جهنم، فتقول: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: أَلْحِقوا بها أتباعها وأشياعها.

وعن أبي العلاء: قال: رأيتُ في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة، والناس عُكوف عليها مُتعجِّبون، ينظرون إليها، فقلت: مَن أنتِ وَيْلكِ؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا. قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله مِنْ شَرِّكِ. قالت: إن أحببْتَ أن تُعاذ من شَرِّيْ فأبغضِ الدرهم.

وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخِلْقة حَدْباء.

مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاثة:

حال لم تكن فيها شيئاً، وهي قبل أن تُوجَد.

وحال أخرىٰ، وهي مِنْ ساعةِ موتك إلىٰ ما لا نهاية له في البقاء السَّرْمديّ، فإن لنفسك وُجوداً بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أوِ النار، وهو الخُلود الدائم.

---

(١) ليس لها أسنان، وفي نسختنا الثانية: صماء، وهي الداهية.

(٢) الشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض.

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فٱنظر إلىٰ مقدار ذٰلك، وٱنسبه إلىٰ الحالتين، تعلم أنه أقلّ من طَرفة عينٍ في مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا بهٰذه العين لم يَركن إليها، ولم يبال كيف ٱنقضتْ أيامه بها في: ضَرر وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهٰذا لم يضع رسول الله ﷺ لَبِنَةً علىٰ لبنة، ولا قصبة علىٰ قصبة[1]. وقال: **«ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كَراكبٍ قال[2] تحت شجرة ثم راح وتركها»**[3].

وقال عيسىٰ ﷺ: الدنيا قنطرة، فٱعبُروها ولا تعمروها.

هٰذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلىٰ الآخرة، والمَهْد هو الركن الأول علىٰ أوّل القنطرة، واللَّحد هو الركن الثاني علىٰ آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمَنْ وقف يبني علىٰ القنطرة ويُزَينها وهو يُستحَثُّ للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ٱزداد شرباً، ٱزداد عطشاً حتىٰ يقتله.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتىٰ أُريكم الدنيا، فيذهب بهم إلىٰ مَزْبلة فيقول: انظروا إلىٰ ثمارهم ودجاجهم وعَسَلهم وسَمْنهم.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «الثقات». وللطبراني في «الأوسط» من حديث عائشة بسند ضعيف: **«من سأل عني، أو سره أن ينظر إليّ، فلينظر إلى شعث شاحب مشمر لم يضع لبنة علىٰ لبنة...»** الحديث.

(٢) من القيلولة، وهي النوم في الظهيرة.

(٣) رواه الترمذي [«صحيحه» (١٩٣٦/ ٢٣٧٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣١٧/ ٤١٠٩)] عن ابن مسعود. وهو في «صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، و«الصحيحة» (٤٣٩، ٤٤٠).

مثال آخر: روي عن الحسن قال: بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مَفَازة غَبْراء، حتىٰ إذا لم يَدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي، أنفدوا الزاد وخَسِروا الظَّهرَ، وبَقَوْا بين ظهرانَيِ المَفَازة، لا زادَ ولا حَمُولةَ، فأيقنوا بالهَلَكة، فبينما هم كذٰلك، إذْ طلع عليهم رجل في حُلّة يَقطر رأسُه، فقالوا: إن هٰذا قريبُ عهد بريفٍ، وما جاء هٰذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم، قال: يا هٰؤلاء، عَلامَ أنتم؟ قالوا: علىٰ ما ترىٰ. قال: أرأَيْتَكُمْ إن هَدَيتكم إلىٰ ماءٍ رَوَاءٍ، ورياض خُضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردهم ماءً. ورياضاً خُضراً، فمَكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هٰؤلاء، الرحيلَ. قالوا: إلىٰ أين؟ قال: إلىٰ ماء ليس كمائكم، وإلىٰ رياض ليست كرياضكم. فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هٰذا حتىٰ ظننّا أن لن نجده، وما نَصنع بعيش خيرٍ من هٰذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تُعطُوا هٰذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تَعصونه؟ وقد صَدَقكم في أول حديثه، فوالله لَيَصْدُقَنّكم في آخره. قال: فراح في مَنِ اتبعه، وتَخلّف بَقِيّتهم، فنزل عدوٌّ، فأصبحوا بين أسير وقتيل»**[1].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسىٰ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتىٰ قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بِعَيني، وأنا النذير العُرْيان، فالنجاءَ، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا علىٰ مهلهم، فَنَجَوا، وكَذبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبّحهمُ الجيش في مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذٰلك مثل من أطاعني واتّبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»**[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا هٰكذا مرسلاً بطوله. ولأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان... الحديث، وفيه: فقال ـ أي أحد الملكين ـ: إن مثل هٰذا ومثل أمته كمثل قومٍ سَفْرٍ انتهوا إلى مفازة. فذكر نحوه أخصر منه، وإسناده صحيح.

(٢) هو عند البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

وقد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً، فٱعتقدوا أن الإشارة إلى هٰذه الموجودات التي خُلقتْ للمنافع، فأعرضوا عما يُصْلحهم من المَطَاعم والمشارب. وقد وضع الله في الطباع تَوَقان النفس إلىٰ ما يُصْلحها، فكلما تاقَتْ مَنعوها، ظنّاً منهم أن هٰذا هو الزهد المُراد، وجَهْلاً بحقوق النفس، وعلىٰ هٰذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذٰلك لِقِلّة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

[بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها . . .]

ٱعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حَظّ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدميّ، وما عليها مَلبس ومَطعم ومَشرب ومَنكح، وكل ذٰلك عَلَفٌ لراحلة بدنه السائر إلىٰ الله ﷻ، فإنه لا يبقى إلا بهٰذه المصالح، كما لا تبقىٰ الناقة في طريق الحج إلا بما يُصْلحها، فمن تناول منها ما يُصْلحه علىٰ الوجه المأمور به مُدِح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنفه الشَرَهُ وقع في الذمّ، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلىٰ الأذىٰ، ويشغل عن طلب الأخرىٰ فيفوت المقصود، ويصير بمثابة مَن أقبل يَعْلِفُ الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسىٰ أن الرُّفقة قد سارت، فإنه يبقىٰ في البادية فريسة للسِّباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تَقوىٰ علىٰ السير إلا بتناول ما يُصْلحها، فالطريق السليم هي الوسطىٰ، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مُشتهىً، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عَوْنٌ لها وقضاء لِحَقِّها.

وقد كان سفيان الثَوْريُّ يأكل في أوقات من طَيِّب الطعام، ويَحمل معه في السفر الفالوذج.

وكان إبراهيم بن أَدْهَم يأكل من الطَّيِّبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أَكَلْنا أَكْلَ الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال.

ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المُشتهىٰ، فإن كان في حظها حِفظُها وما يُقيمها ويُصلحها ويُنَشِّطها للخير، فلا يَمنعها منه، وإن كان حظها مُجَرَّدَ شهوةٍ ليست متعلقة بمصالحها المذكورة، فذٰلك حَظٌّ مذموم، والزهد فيه يكون.

[كتاب: ذم البخل وذم حب المال]

باب في ذم البخل والحرص والطمع وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك

اِعلم أن المال لا يُذَمّ لذاته بل يقع الذم لمعنىً من الآدميِّ، وذٰلك المعنىٰ إما شِدّةُ حِرْصِه أو تناوله من غير حِلِّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهٰذا قال الله تعالىٰ: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨. التغابن: ١٥].

وفي «سنن الترمذي» عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم، بأفسدَ لها من حرصِ المرءِ علىٰ المال والشرفِ: لدينه**»(١).

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال.

وكان عمر ﷺ إذا رأىٰ الفُتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هٰذا عن نبيّه ﷺ وعن أبي بكر لشرٍّ أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادةَ الخيرِ له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عَقْرَبٌ، فإن لم تُحْسِن رُقْيَتَهُ فلا تَأخذْه، فإنه إنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ سُمُّه. قيل: ما رقيته؟ قال: أَخْذه من حِلِّه ووَضْعُه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٦٥ و ١٥٧٧٥)، والترمذي [«صحيحه» (١٩٣٥/ ٢٣٧٦)]، والدارمي ٢/ ٢٠٤ عن كعب بن مالك. وهو في «صحيح الجامع» (٥٦٢٠).

بيان مدح المال

قد بيّنا أن المال لا يُذمّ لذاته، بل ينبغي أن يُمدَح، لأنه سبب للتوصل إلىٰ مصالح الدين والدنيا، وقد سَمَّاه الله تعالىٰ خيراً، وهو قِوام الآدميّ. قال الله تعالىٰ في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ(1) أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب: لا خير في من لا يريد جمع المال مِنْ حِلِّه، يَكُفّ به وجهه عن الناس، ويَصِل به رَحِمهُ، ويعطي منه حقه.

وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ: كانوا يَرَون السعة عوناً علىٰ الدين.

وقال سفيان: المال في زماننا هٰذا سلاح المؤمنين.

وحاصل الأمر: أن المال مثل حية فيها سُمّ وتِرْياق، فترياقه: فوائده، وغوائله: سُمُّه، فمن عرف فوائده وغوائله، أَمكنه أن يَحْترز مِن شره ويَستدرّ من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلىٰ دنيوية ودينية.

أما الدنيوية، فالخَلْق يعرفونها، ولذٰلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية، فتنحصر في ثلاثة أنواع:

[(فوائد المال الدينية)]

أحدها: أن يُنفقه علىٰ نفسه، إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة علىٰ العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هٰذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يَتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يُتوصل إلىٰ العبادة إلا به، فهو عبادة، فأَخذُ الكِفاية من الدنيا للاستعانة علىٰ الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هٰذا التنعمُ والزيادة علىٰ الحاجة، فإن ذٰلك من حُظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلىٰ الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدها: الصدقة، وفضائلها كثيرة مشهورة.

---

(١) السفه: ضد الحلم، وأصله الخفة والحركة، والسفيه: الجاهل، والمراد هنا: الجهال بموضع النفقة من الرجال والنساء والصبيان.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلىٰ الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذٰلك، وهٰذا من الفوائد الدينية، إذْ به يكتسب العبدُ الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بَذْل المال لدفع هَجْو الشعراء، وثَلْبِ[١] السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبي ﷺ قال: «**ما وقىٰ الرجل به عرضه فهو صدقة**»[٢]. وهٰذا لأنه يمنع المُغتاب من معصية الغِيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام علىٰ مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجراً علىٰ الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلىٰ مقامات السالك، ومَنْ لا مال له يفتقر إلىٰ أن يتولىٰ خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يُتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذٰلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن، لأن ٱحتياجك إلىٰ التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشدّ.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلىٰ معين، لٰكن يُحصِّل به خيراً عاماً، كبناء المساجد والقناطر، والوقوف المؤبدة.

فهٰذه جملة فوائد المال في الدين، سوىٰ ما يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الخلاص من ذلّ السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضاً إلىٰ دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث فئات:

---

(١) يقال: ثلبه: يثلبه بكسر اللام ثلباً: إذا لامه وعابه وصرح بالعيب، وقال فيه وتنقصه.

(٢) رواه الحاكم وأبو يعلى والدارقطني عن جابر. وفي إسناده ضعف.

[(آفات المال الدينية)]

الأولىٰ: أنه يجر إلىٰ المعاصي غالباً، لأن مَنِ ٱستشعر القدرة علىٰ المعصية، ٱنبعثت داعيته إليها. والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلىٰ المعاصي، ومتىٰ يئس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها. ومن المعصية أن لا تجد، فصاحب القدرة إن ٱقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلىٰ التنعم في المباحات، حتىٰ تصير له عادة وإلفاً، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر علىٰ ٱستدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقىٰ إلىٰ آفات من المداهنة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغِيبة، وكل ذٰلك من الحاجة إلىٰ إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يُلهيه ماله عن ذكر الله تعالىٰ، وهٰذا هو الداء العُضال، فإن أصل العبادات ذكرُ الله تعالىٰ، والتفكّر في جلاله وعَظَمته، وذٰلك يستدعي قلباً فارغاً.

وصاحب الضَّيْعة يُمسي ويصبح مُتفكِّراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والأُجراء علىٰ التقصير في العمارة ونحو ذٰلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال.

وكذا سائر أصناف المال، حتىٰ صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قُوتُ يومٍ بيوم، فهو في سلامة من جميع ذٰلك.

[(آفات المال الدنيوية)]

وهٰذا سوىٰ ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذاً ترياق المال أَخْذُ القوت منه، وصرف الباقي إلىٰ الخيرات، وما عدا ذٰلك سمومٌ وآفات.

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والياس

وٱعلم أن الفقر محمودٌ، ولٰكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص علىٰ ٱكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذٰلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.

وقد روي في «صحيح مسلم» عن [عبد الله بن] عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلح من أسلم، ورُزق كَفافاً، وقَنَّعه الله بما آتاه»**[(١)].

وقال سليمان بن داود عليه السلام: قد جربنا العيش كله، لَيِّنه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه.

وفي حديث عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«القناعة مال لا يَنْفَدُ»**[(٢)]

وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عَقْلُه: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عز وجل.

وقرأ بعض الحكماء: أنت أخو العز ما ٱلتحفْتَ بالقناعة.

وأما الحرص، فقد نهىٰ عنه رسول الله ﷺ فقال: **«أيها الناس، أَجْمِلوا في الطَّلَب، فإنه ليس لعبد إلا ما كُتب له»**[(٣)].

ونهىٰ عن الطمع فقال: **«وأَجْمِعِ اليأس مما في أيدي الناس»**[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤)، والترمذي [«صحيحه» (١٩١٤/٢٣٤٨)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٣٨/٤١٣٨)]. وهو في «الصحيحة» (١٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٣٦٨).

و(الكفاف): هو الذي لا يفضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه، وهو نصب علىٰ الحال.

(٢) ضعيف جداً، رواه القضاعي عن أنس. وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٤٠).

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن جابر. وهو في «صحيح الجامع» (٢٧٤٢)، و«المشكاة» (٥٣٠٠).

(٤) رواه أحمد (٢٣٤٨٨)، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٦٣/ ٤١٧١)] عن أبي أيوب. وهو في «الصحيحة» (٤٠١). وسيأتي نحوه في الصفحة (٣٣١) حاشية (١).

وقال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حِرْفتك؟ قال: اكتساب الذلّ، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحِرْمان.

وقيل: الطمع يُذِلّ الأمير واليأس يُعزّ الفقير.

بيان علاج الحرص والطمع
والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هٰذا الدواء مُركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذٰلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغي أن يَسدّ عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويردّ نفسه إلىٰ ما لا بد له منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه علىٰ ذٰلك، وإن كان له عيال، فيردّ كل واحد إلىٰ هٰذا القدر.

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «**ما عال مَن اقتصد**»(١).

وفي حديث آخر: «**التدبير نصف العيش**»(٢).

وفي حديث آخر: «**ثلاث منجيات: خشية الله تعالىٰ في السر والعلانية، والقَصْد في الغنىٰ والفقر، والعدل في الرضا والغضب**»(٣).

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويُعينه علىٰ ذٰلك قِصَر الأمل، واليقين بأن رِزْقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يَعِدُه الفقر(٤).

---

(١) رواه أحمد (٤٢٧٠) عن ابن مسعود. وهو في «ضعيف الجامع» (٥١٠٠ و٥١٠١)، و«الضعيفة» (٦١١).

(٢) رواه الديلمي والطبراني في «الصغير» من حديث أنس. والقضاعي من حديث علي. وهما في «الضعيفة» (١٥٦٠) و«ضعيف الجامع الصغير» (٢٥٠٦).

(٣) هو في «صحيح الجامع» (٣٠٤٥)، و«الصحيحة» (١٨٠٢). وذكر في أوله: «**ثلاث مهلكات: شحّ مطاع . . .**».

(٤) قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وعن ابن مسعود ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن روح القُدُس نَفَثَ في رُوعي، أنه ليس مِنْ نفسٍ تموت حتىٰ تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأَجمِلوا في الطَّلَب، ولا يَحملنَّكُمُ استبطاء الرزقِ أن تطلبوه بمعاصي الله ﷻ، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»**[1].

وإذا انسد عنه بابٌ كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فإن في الحديث:

«أبىٰ الله أن يرزق عَبْدَه المؤمن إلا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]»[2].

الثالث: أن يعرف ما في القناعة مِنْ عِزِّ الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذُّلّ. وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يُؤثر عزَّ نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يُكثر تفكُّره في تنعم اليهود والنصارىٰ وأَرَاذِل الناس والحمقىٰ منهم، ثم ينظر إلىٰ أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم، ويُخَيِّر عقله بين مشابهة أرذال العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالىٰ، حتىٰ يَهُون عليه الصبر علىٰ القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعَّم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سِفاداً[3] منه.

الخامس: أن يفهم ما في جَمْع المال من الخطر، كما ذكرنا في (: آفات المال)، وينظر إلىٰ ثواب الفقر، ويتمّ ذٰلك بأن ينظر أبداً إلى مَنْ دونه في

---

(١) هو في «صحيح الجامع (٢٠٨٥)، و«تخريج مشكلة الفقر» (١٥)، و«الصحيحة» (٢٨٦٦).

(٢) رواه الديلمي عن أبي هريرة. وفي الباب عن غيره. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٨)، و«الضعيفة» (١٤٩٠). ومعناه صحيح؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

(٣) أي: نزواً.

الدنيا، وإلىٰ من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«ٱنظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فإنه أجدرُ ألا تزدروا نعمة الله عليكم»(١).

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتُّع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر علىٰ مرارة الدواء لِمَا يرجو من الشفاء.

فصل

[بيان فضيلة السخاء]

ينبغي لمن فَقَدَ المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار وٱصطناع المعروف، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة.

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«قال جبريل: قال الله ﷻ: الإسلام دينٌ ٱرتضَيْتُه لنفسي، ولن يُصْلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صَحِبْتُموه»**(٢).

وفي حديث آخر: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«تجافوا عن ذنوب السَّخِيِّ، فإن الله آخذٌ بيده كلما عَثر»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)، والترمذي [«صحيحه» (٢٠٤٠/ ٢٥١٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٤١/ ٤١٤٢)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٨٠٨). وستأتي بعض ألفاظه في الصفحة (٣٦٠).

(٢) رواه الدارقطني في «المستجاد» دون قوله: «**وحسن الخلق**» بسند ضعيف. ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات». وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن السفر، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. ويوسف ضعيف.

(٣) رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن ابن مسعود. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٣٩٠)، و«الصحيحة» (٦٣٨).

وفي حديث آخر: **«الجنة دار الأسخياء، وما جُبِل وَلِيٌّ لله إلا على السخاء»**[١].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن بُدَلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بعبادةٍ ولا بصيامٍ، ولكن دخلوها بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصح للمسلمين»**[٢].

وفي حديث آخر: **«عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء»**[٣].

وقال ابن السَّمَّاك: عجبت ممن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه؟!

ومن حكايات الأسخياء

قد صح عن النبي ﷺ أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة[٤].

وأنه ما سئل شيئاً قط فقال: لا[٥].

وأن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجلُ قومه، فقال: يا قوم، أَسْلِموا، فإن محمداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يَخشى الفقرَ[٦].

★ وقيل: كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم،

---

(١) أخرجه ابن عدي، والقضاعي، والدارقطني، عن عائشة. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٦٦٨)، و«الضعيفة» (٣٤٧٧).

(٢) أخرجه الدارقطني وفيه من هو منكر الحديث. ورواه الخرائطي عن صالح المري وهو متكلم فيه.
وانظر «ضعيف الجامع» (١٣٥٦) عن أبي سعيد.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» عن ابن عباس. وهو في «الصحيحة» (١٩٠٨).

(٤) رواه البخاري (١٩٠٢ و٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عباس. وهو في «الإرواء» (٨٨٨).

(٥) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) عن جابر.

(٦) رواه مسلم (٢٣١٢) عن أنس.

فخرج إلىٰ المسجد، فقال له طلحة: قد تَهَيَّأ مَالُكَ فاْقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد مَعونة علىٰ مروءتك.

★ وجاء أعرابي إلىٰ أبي طلحة، فسأله، وتَعَرَّف إليه بِرَحِمٍ، فقال: إن هٰذه الرحم، ما سألني بها أحدٌ قبلك، فأعطاه ثلاثمئة ألف درهم.

★ وقال عروة: رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهي ترقع دِرْعَها.

وروي أنها قسمت في يوم ثمانين ومئة ألف بين الناس، فلما أَمْست قالت: يا جارية: عليَّ فَطُورِيْ، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أمّ دُرّة: أمَا اْستطعتِ فيما قسمتِ اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نُفْطر عليه؟ فقالت: لو ذَكَّرْتِني لفعلتُ.

★ واْشترىٰ عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة دارَه التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بُكاء أهل خالد. فقال لأهله: ما لهٰؤلاء؟ قالوا: يبكون علىٰ دارهم. قال: يا غلام: اْئتِهم، فأَعْلِمْهم أن الدار والمال لهم جميعاً.

وبعث رجل إلىٰ عبدالله أنه قد وُصف لي لبن بقر، فاْبعث لي بقرة أشرب من لبنها، فبعث إليه بسبعمئة بقرة ورُعاتها، وقال: القرية التي كانت ترعىٰ فيها لك.

★ ودخل علي بن الحسين علىٰ محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل يبكي: فقال: ما شأنك؟ قال: عَلَيَّ دَيْنٌ. قال: كم هو؟ قال خمسة عَشَرَ ألف دينار، أو بضعة عشر ألف دينار. قال: فهي عليَّ.

★ وجاء رجل إلى مَعْن فسأله، فقال: (يا غلام، ناقتي الفُلانية وألف دينار)، فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

وبَلَغَنا عن مَعْنٍ أن شاعراً أقام مُدَّة فلم يَتَهيأ له لقاؤه، فقال لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستانَ فعرِّفني، قال: فلما دخل عَرّفه، فكتب الشاعر بيتاً علىٰ خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلما بَصُر معن الخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوب:

أيا جودَ مَعْنٍ ناجِ مَعْناً بحاجتي فَمَا لي إلىٰ مَعْنٍ سِواك شفيعُ

فقال: مَنْ صاحب هٰذه؟ فدعا الرجلَ، فقال له: كيف قلت؟ فقاله، فأمر له بعشر بِدَرٍ[1]، فأخذها ووضع الأميرُ الخشبةَ تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجل، فدفع إليه مئة ألف درهم أخرىٰ، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطُلِبَ فلم يوجد. فقال مَعْنٌ: حَقٌّ عليَّ أن أعطيه حتىٰ لا يَبقىٰ في بيت مالي درهم ولا دينار.

★ ومرض قيس بن سعد بن عُبادة، فٱستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحيون مِمّا لك عليهم من الدَّين. فقال: أخزىٰ الله مالاً يمنع الإخْوَان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: مَنْ كان عليه لِقيسٍ حقٌّ، فهو منه في حِلٍّ، قال: فٱنكسرت درجته بالعَشِيِّ لكثرة من عادَهُ.

★ وقام رجل إلىٰ سعيد بن العاص يسأله، فأمر له بمئة ألف درهم، فبكىٰ، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي علىٰ الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمئة ألف أخرىٰ.

فصل في البخل وذمه

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»**[2].

وقال ﷺ: **«لا يجتمع الشُّحُ والإيمان في قلب عبد أبداً»**[3].

---

(١) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.

(٢) رواه الترمذي [«ضعيف سننه» (٣٣٥/ ٢٠٤٥)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٨٣٣)، و«الضعيفة» (١١١٩).

(٣) هو في «صحيح سنن النسائي» (٢٩١٧ و٢٩١٨) ـ باختلاف في اللفظ ـ عن أبي هريرة.

وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللّٰهم إني أعوذ بك من الجُبْن والبخل**»[1].

ورویٰ جابر ﷺ، قال: قال النبي ﷺ لبني سلمة: «**من سيدكم؟**» قالوا: جَدّ بن قيس علىٰ أننا نبخِّله. قال: «**وأيُّ داءٍ أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر ابن البراء بن معرور**»[2]. وهي أصح مِن ذكر عَمْرو بن الجَموح. وغلط بعض الرواة، فقال: البراء بن معرور، والبراء مات قبل الهجرة.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث مُهلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجاب المرء بنفسه**»[3].

قال الخَطّابيُّ: الشح في المنع: أَبْلغُ من البخل.

وقال سَلْمان الفارسيُّ: إذا مات السخي، قالت الأرض والحَفَظة: رَبِّ تَجاوزْ عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللّٰهم ٱحجبْ هٰذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلتَ في يديه من الدنيا.

وقال بعض الحُكَماء: من كان بخيلاً وَرِث ماله عدوُّه.

ووصف أعرابيّ رجلاً فقال: لقد صَغُر في عيني لِعِظَمِ الدنيا في عينه.

وذَمَّ أعرابي قوماً فقال: يصومون عن المعروف ويُفْطِرون علىٰ الفواحش.

من حكايات البخلاء

روي عن ابن عباس ﷺ قال: كان الحاجب رجلاً من أَجَلِّ العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يُوقِدُ ناراً بليل كراهة أن يراها راءٍ فَيَنْتفعَ بضوئها، فإذا ٱحتاج إلىٰ إيقادها فأوقد ثم بَصُرَ بِمُسْتَضيء بها أطفأها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٩ و٦٣٧٠ و٦٣٦٥)، ومسلم (٢٧٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٨٢٥/٣٥٦٧)]، والنسائي [«صحيحه» (٥٠٣٣-٥٠٣٩) و(٥٠٤٣-٥٠٤٥)].

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم. والرواية الثانية أخرجها البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٦) من حديث جابر.

(٣) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٢٥١) الحاشية (٣).

وقيل: كان مروان بن أبي حفصة مِنْ أبخل الناس، فخرج يريد المَهْدِيَّ، فقالت له آمرأته: مالي عليك إن رجعْتَ بالجائزة؟ قال: إن أُعْطِيْتُ مئة ألف درهم، أعْطَيْتُكِ درهماً، فأُعطي ستين ألف درهم، فأعطاها أربعة دوانق[١].

وقيل: كان بعض البخلاء مُوسِراً كثير الأموال، وكان ينظر في دقائق الأشياء، فآشترى شيئاً من الحوائج، ودعا حَمَّالاً وقال: بِكَمْ تحمل هٰذه الحوائج؟ قال: بِحَبّةٍ[٢]. قال: أبخس. قال: ما أقلُّ مِنْ حبة[٣]؟! لا أدري ما أقول. قال: نشتري بالحبة[٤] جزراً، فنجلس جميعاً فنأكله.

فصل في فضل الإيثار وبيانه

آعلم أن السخاء والبخل درجات:

فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

وأشدُّ درجات البخل، أن يبخل الإنسان علىٰ نفسه مع الحاجة، فَكَمْ مِنْ بخيل يُمسك المال، ويمرض فلا يتداوىٰ، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل.

فكم بين من يبخل علىٰ نفسه مع الحاجة، وبين من يُؤْثِر علىٰ نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله ﷻ حيث يشاء.

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٥] [الحشر: ٩] وكان سبب نزول هٰذه الآية قصة أبي طلحة، لما آثر ذٰلك الرجل الجود بِقُوْته وقُوْتِ صبيانه، وحكايته مشهورة[٦].

---

(١) والدانِق: سُدس الدرهم!

(٢) و(٣) و(٤) الحبة: رُبع قيراط، أو ١/٤٨ من الدرهم الشرعي = ٠,٠٥٠١١٥٠ غرام فضة.

(٥) والخصاصة هي الحاجة إلىٰ المال.

(٦) أخرجها البخاري (٣٧٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة.

وٱسْتُشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسُهيل بن عَمْرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المُغِيرة، فأُتوا بماء وهُمْ صَرعىٰ، فتدافعوه حتىٰ ماتوا ولم يذوقوه. أُتي عكرمة بالماء، فنظر إلىٰ سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهٰذا، ونظر سهيل إلىٰ الحارث ينظر إليه: فقال: ابدأ بهٰذا، وكل منهم يُؤثر الآخر علىٰ نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم.

وأُهدي إلىٰ رجل من الصحابة ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي أَحْوج إليه مني، فبعث به إلىٰ رجل، فبعث به ذٰلك إلىٰ آخر، حتىٰ تداولته سبعة أبيات، فرجع إلىٰ الأول.

خرج عبدالله بن جعفر إلىٰ ضَيْعة له، فنزل علىٰ نَخْلٍ لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها، إذْ أتىٰ الغلام بِقُوته، فدخل الحائطَ كلبٌ، فدنا من الغلام فرمىٰ إليه قُرْصاً فأكله، ثم رمىٰ إليه قرصا آخر فأكله، ثم رمىٰ إليه الثالث فأكله، وعبدالله ينظر فقال: يا غلام! كم قُوْتُك كلّ يوم؟ قال: ما رَأَيْتَ. قال: فَلِمَ آثرتَ به هٰذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهتُ رَدَّهُ. قال: فما أنت صانع؟ قال: أَطوي يومي هٰذا. فقال عبد الله بن جعفر: أُلاَمُ علىٰ السخاء وهٰذا أسخىٰ مني! فٱشترىٰ الحائط وما فيه من الآلات، وٱشترىٰ الغلامَ وأعتقه ووهبه له.

وٱجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم، وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم، فكسروا الرُّغفان، وأَطْفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رُفع الطعام إذا هو بحاله، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

فصل

[بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما]

وقد تكلم الناس في حَدِّ البخل والسخاء، فذهب قوم إلىٰ أن حد البخل مَنْع الواجب، وأن من أدّىٰ ما يجب عليه، فليس ببخيل، وهٰذا غير كافٍ، فإن من لم يُسَلِّم إلىٰ عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو تمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح

أن البراءة من البخل تَحصل بفعل الواجب بالشرع، واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبَذْل.

فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال.

وأما اللازم بطريق المروءة فهو تَرْك المضايقة، والاستقصاء عن المُحَقَّرات، فإن ذٰلك يُستقبح، ويَختلف ذٰلك بٱختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يُستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير، ويُستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخيل: الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أو لازِم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تَبَرَّأ من البخل، لكنَ لا يَتَّصف بصفة الجُود ما لم يبذل زيادة علىٰ ذٰلك.

قال بعضهم: الجَوَاد: هو الذي يعطي بلا مَنٍّ. وقيل: هو الذي يفرح بالإعطاء.

فأما علاج البخل، فٱعلم أن سبب البخل حب المال.

[علاج البخل]

ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يُحِبَّ عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو ٱقتصر علىٰ ما جرت عادته به، ويفضل معه آلاف، ويكون شيخاً لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه، أو ضاع إن كان مدفوناً، وهٰذا مرض لا يُرجىٰ علاجه.

ومثال ذٰلك: رجل أحب شخصاً، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسي محبوبه وٱشتغل بالرسول، فإن الدنانير رسولٌ مُبَلِّغٌ إلىٰ الحاجات، فيحب الدنانير لِذَاتها، وينسىٰ الحاجات، وهٰذا غاية الضلال.

وٱعلم أن علاج كلّ علة بمُضَادّةِ سببها:

فيعالج حب الشهوات: بالقناعة والصبر، وطول الأمل: بكثرة ذكر الموت.

ويعالج ٱلتفات القلب إلىٰ الولد، بأن مَنْ خَلَقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يَرثْ شيئاً أحسن حالاً ممن ورث. فليحذر أن يترك لولده الخير، ويَقْدَمَ علىٰ الله بشرٍّ، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن كان فاسقاً فلا يترك له ما يستعين به علىٰ المعاصي، ولْيُرَدِّدْ علىٰ سَمْعِه ما ذكرناه في ذمِّ البخل ومَدْحِ السخاء.

وٱعلم أنه إذا كَثُرتِ المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يَأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذٰلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

١٩ - كتاب ذمّ الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول ونحو ذلك

روي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال:

«إن أخوفَ ما أخاف على أمتي: الرياء والشهوة الخفية»[1].

وهٰذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يُبتلىٰ بها العلماء والعباد المُشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مَخْلَصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابَت النفسَ في ذٰلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مُخلِص لله ﷻ، وقد أُثبِتَ في ديوان المنافقين، وهٰذه مَكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المُقرَّبون.

ولذٰلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصِّدِّيقين حب الرياسة، وإذا كان ذٰلك هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكةٍ للشياطين، وَجَبَ شرح القول في سببه، وحقيقته، وأقسامه.

[بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت وفضيلة الخمول]

اِعلم أن أصل الجاه هو حب انتشار الصِّيت والاشتهار، وذٰلك خطر عظيم. والسلامة في الخُمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالىٰ، فَرُّوا عنها، وكانوا يُؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود ﷺ أنه

---

(١) أخرجه ابن ماجه [«ضعيفه» (٩٢١/ ٤٢٠٥)] عن شداد بن أوس. وهو في «ضعيف الجامع» (١٣٧٨)، و«الصحيحة» (٩٥١).

خرج من منزله، فتبعه جماعة، فٱلتفت إليهم وقال: عَلاَمَ تتبعوني؟ فوالله لو عَلِمْتُم ما أُغلِقُ عليه بابي ما ٱتبعني منكم رجلان. وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وكان أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام.

وكان خالد بن معدان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا عظمت حَلْقته، قام وٱنصرف كراهة الشهرة.

وقال الزُّهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرىٰ الرجل يذهب في المَطْعَم والمشْرَب والمال، فإذا نُوزِعَ الرياسة، حامىٰ عليها وعادىٰ.

قال رجل لِبِشْرِ الحافي: أوصني، فقال: أَخْمِل ذِكْرَكَ، وطيِّب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس.

وقد روي في «صحيح مسلم» أن عمر بن سعد ٱنطلق إلىٰ أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هٰذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أتريد أن تكون أعرابياً في غنمك، والناس يتنازعون في المُلك بالمدينة؟ فضرب سعد صدره وقال: اسكت، إني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:

«إن الله يحب العبد التَّقِيَّ الغنيَّ الخَفِيَّ»(١).

وعن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«إن أَغبط أوليائي عندي لَمؤمن خفيف الحَاذِ، ذو حَظٍّ من الصلاة، أحسن عبادةَ ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يُشار إليه بالأصابع،

---

(١) هو في مسلم (٢٩٦٥).

والمراد بـ«الغني» غني النفس، هٰذا هو الغني المحبوب؛ لقوله ﷺ: **«ولكن الغنى غنى النفس»**. وأما «الخفي»: معناه الخامل المنقطع إلىٰ العبادة والاشتغال بأمور نفسه، وفي الحديث حجة لمن يقول: الاعتزال أفضل من الاختلاط.

وعمر بن سعد كان في الكوفة أيام خروج سيدنا الحسين بن علي إلى الطف (أي: كربلاء). وكان ممن قاتله عمر بن سعد هذا.

وكان رزقه كفافاً، فصبر علىٰ ذٰلك» ثم نقر بيده، فقال: «**عُجِّلَت مَنيَّته، قلَّت بواكيه، قلَّ تراثه**»[1] حديث حسن.

وكان ابن مسعود ﷺ يوصي أصحابه، فيقول: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدىٰ، أَحْلاس البيوت، سُرُج الليل، جُدد القلوب، خلقان الثياب، تُعرفون في السماء، وتَخْفَوْن علىٰ أهل الأرض.

فإن قيل: هٰذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأيّ شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء. =

= قلنا: المذموم طلبُ الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالىٰ من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن وجودها فتنة علىٰ الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعةِ في السباحة، إذا تعلق به أحد غَرِق وغرَّقه، فأما السابح النِّحْرير، فإن تعلُّق الغرقىٰ به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

فصل

[بيان معنى الجاه وحقيقته]

واَعلم أن الجاه والمال هما رُكنا الدنيا. ومعنىٰ المال: مُلك الأعيان المُنتفع بها. ومعنىٰ الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها.

فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس، وهو اَعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هٰذا الشخص، إما من علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حُسن صورة، أو غير ذٰلك مما يعتقده الناس كمالاً فبقدر ما يعتقدون له من ذٰلك، تُذْعِن قلوبهم لطاعته، ومدحه، وخدمته، وتوقيره.

فهٰذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٩٣)، والترمذي [«ضعيف سننه» (٤٠٧/٢٣٤٧)]، وابن ماجه [«ضعيف سننه» (٨٩٧/٤١١٧)]. وهو في «ضعيف الجامع» (١٣٩٧)، و«المشكاة» (٥١٨٩).

يتعلق لغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلىٰ المحبوبات، فٱشتراك الجاه والمال في السبب ٱقتضىٰ الاشتراك في المحبة، والجاه في ذٰلك أَرجحُ من المال.

[بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم]

وٱعلم أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لا بد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما. فكذٰلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلىٰ سلطان يحرسه، ورفيق يُعينه، وخادم يخدمه، فحبه ذٰلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلىٰ الأغراض، كالمال.

والتحقيق في هٰذه ألا يكون المال والجاه محبوبَين لأعيانهما، ومتىٰ طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة مُتّصف بها لغرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته، كان ذٰلك مباحاً، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذٰلك محظور.

وكذٰلك لو حسّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مُرائياً بذٰلك، فلا يجوز تملُّك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلبيس.

بيان علاج حب الجاه

ٱعلم أن من غلب علىٰ قلبه حب الجاه، صار مقصورَ الهمِّ علىٰ مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردّد إليهم، والمراءاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلىٰ ما يُعظِّم منزلته عندهم، وذٰلك بَذْرُ النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس ٱضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه، ويجر ذٰلك إلى المراءاة بالعبادات وٱقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب.

ولذٰلك شبه الرسول عليه السلام حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضارِيين **«أُرسلا في غنمٍ»**[1].

---

(١) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٢٤٦) حاشية (١).

فحب الجاه إذاً من المهلكات، فيجب علاجه، وعلاجه مركَّب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة علىٰ أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسَلِمَ يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرُّق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين علىٰ الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب.

والقلوب أشدّ تغيُّراً من القِدْرِ في غليانها، فالاشتغال بمراعاة ذٰلك غمومٌ عاجلة، مكدِّرة لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهٰذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذٰلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعىٰ طعاماً وبَقْلاً ولبناً، وجعل يأكل بِشَرهٍ، ويعظّم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه.

ولما أُريد إبراهيم النَّخَعِيُّ علىٰ القضاء، لبس قميصاً أحمر[١]، وقعد في السوق.

واَعلم أن اَنقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فلْيخالطهم علىٰ وجه السلامة، ولْيَمْشِ في الأسواق، ولْيَشْتَرِ حاجته ويحملها، وليقطع طَمَعه من دنياهم، وقد تَمَّ مراده.

وقد كان بِشْرُ الحافيْ يجلس إلىٰ عَطّار، وما كانوا يُراعون نواميس[٢] المتزهدين اليوم.

---

(١) كان العلماء والقضاة في أيام الدولة العباسية يلبسون الثياب السوداء، ولما لبس الأحمر تخلص من تولية القضاء.

(٢) عادات التظاهر بالزهد.

فصل

[بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم]

وٱعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا خوف مَذَمَّة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها علىٰ ما يوافق رضا الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذٰلك من المهلكات، فوجبت معالجته.

وطريق ذٰلك أن ننظر إلىٰ الصفة التي مُدحْتَ بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يُفْرَح به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال.

أما الأول، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها علىٰ رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوىٰ، لا بمدح الناس.

وأما القسم الثاني: وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذٰلك، كالفرح بنَبَاتِ الأرض الذي يصير عن قريب هشيماً، ولا يَفرح بذٰلك إلا من قلَّ عقله، وإن كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في (كتاب: آفات اللسان)، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون علىٰ فاعله.

[بيان علاج كراهة الذم]

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه:

إن مَنْ ذَمَّك، إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح لك، فينبغي أن تَتَقَلَّدَ مِنَّتَهُ، ولا تغضب، فإنه قد أهدىٰ إليك عيوبك.

وإن لم يقصد بذٰلك النصحَ، فإنه يكون قد جنىٰ هو علىٰ دينه، وٱنتفعتَ بقوله، لأنه عرَّفك ما لم تكن تعرف، وذكَّرك من خطاياك ما نسيت.

وإن ٱفترىٰ عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء:

أحدها: أنك إن خَلَوْتَ من ذٰلك العيب لم تَخْلُ من أمثاله، فما ستر الله ﷻ

عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يُطْلعه على عيوبك، ودفعه عنك، فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن تسأل الله العفو عنه، كما روي أن رجلاً شَجَّ إبراهيم بن أدْهَم، فدعا له بالمغفرة وقال: صِرْتُ مأجوراً بسببه، فلا أجعله مُعاقَباً بسببي.

وقد تقدمت هذه الحكاية في: (فضل الحلم).

القسم الثاني من الكتاب

في بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ونحو ذلك

[بيان ذم الرياء]

وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسُّنَّة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون] وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

وأما الأحاديث، فقد روي عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «**من عَمِل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء**»[١].

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أَخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: يا رسول الله! وما الشرك الأصغر؟ قال: «**الرياء. يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيراً**»[٢].

---

(١) روى مسلم نحوه (٢٩٨٥). وبلفظه في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٧/ ٤٢٠٢) كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٥). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٥٥٥)، و«الصحيحة» (٩٥١).

وقال بِشْرٌ الحافيْ: لَأَنْ أَطلب الدنيا بمزمار، أحب إليَّ من أن أطلبها بالدين.

واْعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمُرائي يُري الناس ما يطلب به الحظوة عندهم، وذٰلك أقسام:

[بيان حقيقة الرياء وما يراءى به][1]

الأول[2]: الرياء في الدين، وهو أنواع:

أحدها: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، لِيُريهم بذٰلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذٰلك يرائي بتشعّث الشعر، لِيُظهر أنه مستغرق في هَمِّ الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويَقْرب من هٰذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذٰلك علىٰ أنه مواظب علىٰ الصوم.

ولهٰذا قال عيسىٰ ابن مريم عليه السلام: (إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويُرَجِّل شعره). وذٰلك لما يخاف علىٰ الصائم من آفات الرياء، فهٰذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السِّمَن، وصفاء اللون، واْعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزِّيِّ، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود علىٰ الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيراً، وتقصير الأكمام، وترك الثوب مُخَرَّقاً غير نظيف.

ومن ذٰلك لبس المُرَقَّعة، والثياب الزُّرْق، تشبُّهاً بالصوفية، مع الإفلاس من صفاتهم في الباطن.

ومنه التقنُّع فوق العِمامة، لتنصرف إليه الأعين بالتميز بتلك العادة.

---

(١) إن ما يذكره من صفات المرائين، يختلف من زمن إلى زمن ومن بلد إلى آخر. و«**إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى**». نسأل الله السلامة.

(٢) لم يذكر المؤلف القسم الثاني صراحة، وهو رياء أهل الدنيا كما في «الإحياء». وقد أدرج القسمين في كل نوع كأصله.

وهٰؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المُخَرَّقة الوَسِخة الغليظة، ليرائي بذٰلك، ولو كُلِّف هٰذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذَّبح، لِخَوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهُمُ القُرّاءُ أهل الصلاح، ولو لبسوا المخرقة الدَّنِيّة لازْدَرَتْهُمُ الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرقيقة، والفوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغنيّ، ولونه وهيئته لون ثياب الصُّلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهٰؤلاء لو كُلِّفوا لبس ثوب خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفاً من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذٰلك، لَعَظُمَ ذٰلك عليهم، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مُراءٍ بِزِيٍّ مخصوصٍ ثَقُلَ عليه الانتقال إلىٰ ما دونه أو فوقه خوفاً من المذَمَّة.

وأما أهل الدنيا، فَمُراءاتهم بالثياب النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجمُّل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتدّ عليهم أن يُرَوْا بتلك المنزلة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة علىٰ شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمُنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذٰلك علىٰ الخوف والحزن ونحو ذٰلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في الكلام ونحو ذٰلك.

النوع الرابع: الرياء بالعمل، كمُراءاة المصلي بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذٰلك. وكذٰلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذٰلك.

وأما أهل الدنيا فمُراءاتهم، بالتَّبَخْتُر، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخُطَا، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العِطْفَين ليدلوا بذٰلك علىٰ الحِشْمة.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذين يتكلف أن يَسْتزير عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به.

وكذٰلك من يرائي بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخاً كثيرة، وٱستفاد منهم، فيباهي بذٰلك.

فهٰذه مجامع ما يرائي به المراؤون، يطلبون بذٰلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابدٍ ٱعتزل في جبل، وراهبٍ ٱنزوىٰ إلىٰ ديرٍ، مع قطع طَمَعِهم من مال الناس، لٰكنه يحب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال.

ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصِّيت.

فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟ =

= فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو بغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرائي بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذٰلك، عاصٍ آثم، لأنه يقصد بذٰلك غير الله تعالىٰ المُسْتَحقّ للعبادة وحده، فالمرائي بذٰلك في سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال علىٰ ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طَلَبُ منزلةٍ في قلوب العباد، ولٰكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة، فكذٰلك الجاه، وكما أن كسب قليلٍ من المال وهو ما

يحتاج إليه الإنسان محمودٌ، فكذٰلك الجاه، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف].

ولا نقول بتحريم الجاه وإن كَثُر، إلا إذا حمل صاحبه علىٰ ما لا يجوز، علىٰ نحو ما ذكرنا في المال.

وأما سعة الجاه من غير حِرصٍ علىٰ طلبه، ومن غير اْغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذْ لا جاه أوسع من جاه الرسول ﷺ وعلماء الدين بعده، ولٰكن اْنصراف الهمم إلىٰ طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم.

وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلىٰ الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذٰلك كل تجمُّل لأجلهم لا يقال: إنه منهي عنه.

وقد تختلف المقاصد بذٰلك، فإن أكثر الناس يحبون ألا يُرَوْا بعينِ نقصٍ في حال.

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**». فقال رجل: إن الرجل يُحِبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْر بَطَرُ الحق وغَمْط الناس**»[١].

ومن الناس من يُؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أُمر رسول الله ﷺ بذٰلك[٢].

فصل

[بيان درجات الرياء]

اْعلم أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات:

أشَدُّها وأغلظها: ألاّ يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين الناس، وَلَوِ اْنفرد لم يُصَلِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٤٤٧/ ٤٠٩١)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦٢٦/١٩٩٨ و١٩٩٩)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٥٩/٥٠)]. وهو في «الصحيحة» (١٦٢٦).

(٢) يشير إلىٰ ما رواه ابن عدي ـ وقال: حديث منكر ـ من فعله ﷺ. قاله الحافظ العراقي ١/ ١٣٧ و ٣/ ٣٠٠.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونهما مَمْقُوتَين عند الله تعالىٰ.

الثالثة: أن يكون قَصَد الرياء، وقصد الثواب متساويَين، بحيث لَو انفرد كلّ واحد منهما عن الآخر لم يبعثه علىٰ العمل، فهٰذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم.

الرابعة: أن يكون ٱطّلاع الناس عليه مُقَوِّياً لنشاطه، ولو لم يَطّلع عليه أحد لم يتركِ العبادة، فهٰذا يُثاب علىٰ قصده الصحيح، ويعاقب علىٰ قصده الفاسد.

وقريب من ذٰلك: الرياء بأوصاف العبادة لا بأَصْلِها، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذٰلك، فهو أيضاً من الرياء المحظور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولٰكنه دون الرياء بأصول العبادات.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

ٱعلم أن الرياء جَلِيٌّ وخَفِيٌّ.

فالجلي: هو الذي يبعث علىٰ العمل ويَحْمِل عليه.

وأخفىٰ منه قليلاً رياءٌ لا يبعث علىٰ العمل بِمُجَرَّدِه، لٰكنْ يخفّفُ العمل الذي أُريد به وجه الله تعالىٰ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نَشَط له وسَهُل عليه.

وأخفىٰ من ذٰلك ما لا يُؤَثر في العمل ولا في التسهيل، لٰكنه مع ذٰلك مستبطن في القلب، ومتىٰ لم يؤثر الدعاء في العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلىٰ علاماته أنه يُسَرّ بٱطّلاع الناس علىٰ طاعته، فَرُبَّ عبدٍ مُخْلِصٍ يُخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل علىٰ ذٰلك، لٰكن إذا ٱطّلع الناس عليه سَرَّه ذٰلك وٱرتاح له، ورَوَّح ذٰلك عن قلبه شِدَّة العبادة، فهٰذا السرور يَدُلّ علىٰ رياء خَفِيٍّ منه يرشح السرور، ولولا ٱلتفات القلب إلىٰ الناس لما ظهر سروره عند ٱطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان

مُسْتَكِنّاً في القلب ٱسْتِكْنانَ النار في الحجر، فأظهر منه ٱطلاع الناس أثر الفرح والسرور، ثم إذا ٱستشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذٰلك بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطّلع عليه بالتعريض لا بالتصريح.

وقد يخفىٰ، فلا يدعو إلىٰ الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، ويُبْسِ الشفتين، وآثار الدموع، وغلبة النعاس الدالّة علىٰ طول التهجّد.

وأخفىٰ من ذٰلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولٰكنه مع ذٰلك إذا رأىٰ الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المُعَاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذٰلك مقصر، ثقل ذٰلك علىٰ قلبه، كأن نفسه تتقاضىٰ الاحترام علىٰ الطاعة التي أخفاها.

ومتىٰ لم يكن وجود العبادة كَعَدَمِها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شَوْبٍ خَفِيٍّ من الرياء، وكل ذٰلك يُوشِكُ أن يُنْقِصَ الأجر، ولا يسلم منه إلا الصِّدِّيقون.

وقد روينا عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ، أن رجلاً من العبّاد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هٰذا الطغيان أكثر مما دخل علىٰ أهل الأموال في أموالهم، إنّ أحدنا إذا لُقِيَ أَحَبَّ أن يُعَظَّمَ لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحبَّ أن تُقضىٰ لمكان دينه، وإن ٱشترىٰ شيئاً أحب أن يُرَخَّص له لمكان دينه، فبلغ ذٰلك مَلِكَهُمْ، فركب في موكبه، فإذا السهل والجبل قدِ ٱمتلأ من الناس، فقال العابد: ما هٰذا؟ قيل: هٰذا الملك، فقال لصاحبه: ٱئتني بطعام، فأتاه بِبَقْلٍ وزبيب وقُلوب الشَّجَر، فجعل يحشو شِدْقَيه ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هٰذا. فقال: كيف أنت؟ قال: كالناس. فقال الملك: ما عند هٰذا خير، وٱنصرف عنه. فقال: الحمد لله الذي صَرَفه عني وهو لي لائِمٌ.

ولم يَزَلِ المخلصون خائفين من الرياء الخَفِيّ، يجتهدون في مُخادعة الناس

عن أعمالِهِمُ الصالحة، ويحرصون علىٰ إخفائها أعظمَ ما يحرص الناس علىٰ إخفاء فواحشهم، كل ذٰلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيَهُم الله تعالىٰ في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتىٰ أدرك الإنسان من نفسه تَفْرِقةً بين أن يُطَّلع علىٰ عبادته أو لا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب مُحبِطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترىٰ أحداً يَنْفَكُّ عنِ السرور إذا عُرِفَتْ طاعته، فهل جميع ذٰلك مذموم؟ =

= فالجواب: أن السرور ينقسم إلىٰ محمود ومذموم:

فالمحمود: أن يكون قَصْده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولٰكن لما اَطّلع عليه الخلق علم أن الله تعالىٰ أطلعهم وأظهر الجميل مِن أحواله، فيُسَرُّ بحسن صُنْع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يَستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحه بذٰلك، لا بحمْد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدل بإظهار الله الجميلَ، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذٰلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنىٰ ذٰلك في الحديث[1].

فأما إن كان فرحه باَطّلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتىٰ يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهٰذا مكروه مذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسرّه، فإذا اُطُّلِعَ عليه أعجبه. فقال: **«له أجران: أجر السر، وأجر العلانية»**[2].

---

(١) للحديث الذي رواه مسلم (٢٥٩٠) عن أبي هريرة مرفوعاً:
«ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة».

(٢) رواه الترمذي [«ضعيفه» (٤١٦/ ٢٣٨٥)]، وابن ماجه [«ضعيفه» (٩٢٧/ ٤٢٢٦)].
وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٤٧٨٧).

فالجواب: أن هٰذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذي، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله ﷺ: **«أنتم شهداء الله في الأرض»**[1].

وقد روي في أفراد مسلم، من حديث أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أرأيت الرجلَ يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: **«تلك عاجل بُشرىٰ المؤمن»**[2].

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخيرَ ويُكْرموه عليه، فهٰذا رياء.

فصل في بيان ما يُحبِط العملَ من الرياء وما لا يحبط

إذا ورد علىٰ العبد واردُ الرياء، فلا يخلو:

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرورٌ بالظهور من غير إظهار منه، فهٰذا لا يُحبط العملَ، لأنه قد تمَّ علىٰ نعتِ الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلَّف هو إظهاره والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهٰذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوعُ رياءٍ، فإن سَلِمَ من الرياء نقص أجْره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها علىٰ الإخلاص، فإن كان مُجرَّدَ سرورٍ، لم يؤَثِّر في العمل، وإن كان رياءً باعثاً علىٰ العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرىٰ مكانُه، فهٰذا يحبط الأجر.

وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة علىٰ قصد الرياء، فإن أتمها علىٰ ذٰلك لم يُعْتَدَّ بها، وإن ندم فيها علىٰ فعله فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، وابن ماجه [«صحيحه» (١٢١١/ ١٤٩١ و١٢١٢/ ١٤٩٢)]، والنسائي [«صحيحه» (١٨٢٤ و١٨٢٥)] عن أنس.

(٢) هو في مسلم (٢٦٤٢).

باب في دواء الرياء
وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفتَ أن الرياء مُحْبط للأعمال، وسببٌ لِمَقْتِ الله تعالىٰ، وأنه من المهلكات، ومَنْ هٰذا حاله، فجديرٌ بالتشمير عن ساق الجِدِّ في إزالته.

وفي معالجته مقامان: أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انْشعابه. والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فُصِّلَ، رجع إلىٰ ثلاثة أصول، وهي: حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذمّ، والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد لذٰلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسىٰ ﷺ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذٰلك في سبيل الله؟ فقال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»**[1].

فمعنىٰ قوله: يقاتل شجاعة، أي: لِيُذْكَر ويحمد، ومعنىٰ قوله: يقاتل حمية، أي: يأنف أن يُقهر أو يُذم، ومعنىٰ: يقاتل رياء: أي: لِيُرىٰ مكانه، وهٰذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولٰكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتي الإنسان بغير علم حَذَراً من الذم بالجهل.

فهٰذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلىٰ الرياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣ و٢٨١٠ و٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود [«صحيحه» (٢١٩٧/٢٥١٧)]، والترمذي [«صحيحه» (١٣٤٣/١٦٤٦)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٩٣٩)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٢٢٤٣/ ٢٧٨٣)].

وعلاجه: أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما في الحال أو المآل، فإن عَلم أنه لذيذ في الحال ضارٌّ في المآل، سَهُل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان له أن فيه سُمّاً، أعرض عنه، فكذٰلك طريق هٰذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرَّة، فإن الإنسان متىٰ عرف مضرَّة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمَقْتِ والخِزْي، هٰذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تَشَتُّتِ الهَمِّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنَّ رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يَرضىٰ به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه، ثم أي غَرَض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفَاقَتِهِ، وكذٰلك ذمهم لِمَ يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئاً، ولا يُعَجِّل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عَجَزَةٌ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان] فإذا قرر هٰذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل علىٰ الله تعالىٰ بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويَقِلُّ نفعه.

وأما الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالىٰ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع في الخلق لم يَخْلُ من الذل والخيبة، وإن وصل إلىٰ المراد، لم يخل من المِنّة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووَهَم فاسد.

ومن الدواء النافع أن يُعَوِّد نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تُغْلَق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذٰلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكلّف، سقط عنه ثِقَله، وأمده الله بالعون، فعلىٰ العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثاني: في دفع العارض من الرياء في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مَغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط

نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمّهم، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: مالَكَ وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأي فائدة في علم غيره؟

فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكَّرها آفات الرياء والتعرُّض للمَقْتِ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة اطِّلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهةً.

فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وكراهة اطّلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول: فاعلم أن في أسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمُظْهِر للعمل ينبغي أن يُراقب قلبه، حتىٰ لا يكون فيه حب الرياء الخفيّ، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلىٰ جماعة من الغرقىٰ فرحمهم، وأقبل عليهم حتىٰ تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قَوِيَ وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوىٰ عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير.

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يُظْهِرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليُقتدىٰ بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احْتُضِر: لا تُبْكوا عليَّ، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمتُ.

وقال أبو بكر ابن عَيّاش رحمه الله لابنه: إياك أن تَعصي الله تعالىٰ في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثْنَتَي عَشْرة ألف ختمة.

ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

[بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطّلاع الناس عليها وكراهة ذمهم لها]

وأما الرخصة في كتمان الذنوب، فربما ظنَّ ظَانٌّ أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذٰلك، فإن الصادق الذي لا يُرائي إذا وقعت منه معصية، كان له سَتْرُها، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سَتْرها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنِ ٱرتكب شيئاً من هٰذه القاذورات، فليستتر بستر الله عز وجل**»[1].

فهٰذا وإن عصىٰ بالذنب، لم يَخْلُ قلبه عن محبة ما أحبه الله ﷻ، وهٰذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً، فهٰذا أثر الصدق فيه.

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث إن ذٰلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالىٰ، فإن الطبع يَتأذَّىٰ بالذم، وبهٰذه العلة أيضاً ينبغي أن يَكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالىٰ، ويستغرق قلبه، ويصرفه عنِ الذكر، فإن هٰذا أيضاً من قوة الإيمان.

فصل

[بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات]

فأما تَرْك الطاعات خوفاً من الرياء، فإن كان الباعث له علىٰ الطاعة غير الدين، فهٰذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث علىٰ ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالىٰ خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذٰلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مُراءٍ، فلا ينبغي ذٰلك، لأنه من مَكايِدِ الشيطان.

قال إبراهيم النَّخَعِيُّ: إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مُراءٍ، فَزِدْها طولاً.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر. وهو في «صحيح الجامع» (١٤٩)، و«الصحيحة» (٦٦٣).

وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء كما روي عن إبراهيم النَّخَعِيِّ أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يراني هٰذا أني أقرأ كل ساعة فيُحْمَل هٰذا علىٰ أنهم أحسّوا من نفوسهم بنوع تزيّن فقطعوا.

فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

قد يبيت الرجل مع المُتَهَجِّدين، فَيُصَلّون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولاهم ما ٱنبعث هٰذا النشاط. فربما ظن ظانٌّ أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق. بل فيه تفصيل:

وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالىٰ، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغَفْلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة وٱندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تَمكَّن من النوم علىٰ فراش وطيء وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، ٱندفعت هٰذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث علىٰ الخير، منها مشاهدة العابدين. وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هٰذه الأحوال ينتدب الشيطان للصَّدِّ عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلىٰ قصده الباطن، ولا يلتفت إلىٰ وَسْواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأىٰ نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تَسْخَ كان سخاؤها عندهم رياء، وقِسْ علىٰ هٰذا.

فهٰذه جملة آفات الرياء، فكن بَحَّاثاً عنها، وتفقد نِيَّتك، فإن الرياء أخفىٰ من دبيب النمل.

وينبغي للمريد أن يُلْزِم قلبه القناعة بِعِلْم الله في جميع طاعته.

[بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه]

وإنما يقنع بذٰلك من خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أن يُؤْيِس نفسه من الإخلاص بأن يقول: إنما يقدر علىٰ الإخلاص الأقوياء، وأنا من المخَلِّطِين، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأن المُخَلّط إلىٰ ذٰلك أحوج.

قال إبراهيم بن أَدْهَمَ: تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سَمْعان، دخلت علىٰ صومعته فقلت له: منذ كم أنت في صومعتك هٰذه؟ قال: منذ سبعين سنة. قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حِمِّصة، قلت: فما الذي يُهَيِّج من قلبك حتىٰ تكفيك هٰذه الحمصة؟ قال: ترىٰ الدَّيْرَ الذي بِحِذائك؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيُزيِّنون صَوْمَعَتي ويطوفون حولها يُعَظِّمونني بذٰلك، فكلما تثاقلتْ نفسي عن العبادة، ذَكَّرْتُها عزَّ تلك الساعة، فأنا أَحْتمل جهد سنة لعز ساعة، فٱحتمل يا حَنيفيّ[1] جُهْدَ ساعة لعزِّ الأبد.

فوقَّر في قلبي المعرفة. فقال: أزيدك؟ قلت: نعم. قال: اِنزل عن الصومعة، فنزلتُ، فأدلىٰ إليَّ رَكْوة فيها عشرين حِمِّصة، ثم قال لي: ادخلِ الدَّيْرَ، فقد رَأَوْا ما أَدلَيْتُ إليك، فلما دخلت الدَّيْرَ، ٱجتمعتِ النصارىٰ فقالوا: يا حَنيفيّ، ما الذي أدلىٰ إليك الراهب؟ قلت: شيئاً من قُوْتِهِ. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحق به، ساوِمْ به. قلت: عشرون ديناراً، فأَعْطَوْني عشرين ديناراً، فرجعْتُ إلىٰ الراهبِ، فقال: أخطأتَ، لو ساوَمْتَهم عشرين ألفاً لأَعْطَوْك، هٰذا عِزُّ من لا يعبده، فٱنظُرْ كيف يكون عِزّ من يعبده، يا حنيفي أَقْبِلْ علىٰ عبادة ربّك.

فقد بَانَ بهٰذا أن ٱستشعار النفوس عِزَّ العَظَمة في القلوب يكون باعثاً إلىٰ الخَلْوة، فهٰذه آفة عظيمة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابةٍ واحدة، ويكون عملُهُ عملَ مَنْ ليس علىٰ الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة رَدَّها، والله أعلم.

---

(١) أي يا مسلم.

٢٠ - كِتَابُ ذَمّ الكبر وَالعُجب

وهما فصلان:

[بيان ذم الكبر]

الفصل الأول: قال الله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل].

وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله ﷺ قال:

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**»[١].

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ قال: «**قالت النار: أوثرت بالمتكبرين**»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «**يُحشَر الجبّارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ الناس لِهَوانِهِمْ علىٰ الله عز وجل**»[٣].

وقال سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من كانت معصيته في شهوة، فأْرْجُ له التوبة، فإن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عصىٰ مُشْتَهِياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كِبْر، فاْخْشَ عليه اللعنة، فإن إبليس عصىٰ مستكبراً فلُعِنَ.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «**من جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم يَنْظُرِ الله إليه يوم القيامة**» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ أحدَ شِقَّيْ إزاري لَيَسْترخي، إلا أن أتعاهد ذٰلك منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لست ممن يصنعه خُيَلاء**»[٤].

---

(١) سلف تخريجه في الصفحة (٢٧٢) حاشية (١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٠٧٦/ ٢٥٦١)] عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البزار هٰكذا مختصراً دون قوله: «**الجبارون**» وإسناده حسن.

(٤) رواه البخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٤٤٣/ ٤٠٩٣)] عن ابن عمر، طبع مكتب التربية العربي، توزيع المكتب الإسلامي.

[بيان حقيقة الكبر وآفته]

وٱعلم أن الكِبْر خُلُقٌ باطن تَصْدُر عنه أعمال هي ثمرته، فَيَظهر علىٰ الجوارح، وذٰلك الخُلُق هو رؤية النفس علىٰ المُتَكَبَّرِ عليه، يعني يرىٰ نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذٰلك يكون متكبراً.

وبهٰذا ينفصل عَنِ العُجْب، فإن العجب لا يستدعي غير المُعْجب، حتىٰ لو قُدِّرَ أن يُخْلَق الإنسان وحده تُصُوِّر أن يكون مُعْجَباً، ولا يُتَصَوَّر أن يكون مُتَكَبِّراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرىٰ نفسه فوقه، فإن الإنسان متىٰ رأىٰ نفسه بعين الاستعظام، حَقَّر مَنْ دونه وٱزْدَراه. وصفة هذا المتكبر: أن ينظر إلىٰ العامّة كأنه ينظر إلىٰ الحمير ٱستجهالاً وٱستحقاراً.

وآفة الكِبْر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقَلَّما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تَعْظُم آفته، وقد أخبر النبي ﷺ أنه:

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(١).

وإنما صار حِجاباً دون الجنة، لأنه يَحُول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يُحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر علىٰ التواضع، ولا علىٰ ترك الحقد والحسد والغضب، ولا علىٰ كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم مِنَ الازدراء بالناس وٱغتيابهم. فما مِنْ خُلُق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومِن شرِّ أنواع الكبر ما يمنع مِنِ ٱستفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تَحْصل المعرفة للمتكبر، ولٰكن لا تُطاوعه نفسه علىٰ الانقياد للحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هٰذا. وهٰذا تكبر علىٰ الله وعلىٰ رسوله.

---

(١) أخرجه مسلم، وسلف تخريجه في الصفحة (٢٧٢) حاشية (١).

وقد تقدم أن التكبّر علىٰ العباد هو احتقارهم وٱستعظام نفسه عليهم، وذٰلك أيضاً يدعو إلىٰ التكبر علىٰ أمر الله تعالىٰ، كما حَمَلَ إبليس كِبْرُهُ علىٰ آدم عليه السلام أنِ ٱمتنع مِنِ ٱمتثال أمْر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال:

«**الكبر: بطر الحق وغمط الناس**»[١]. ومعنىٰ غمط الناس: الازدراء بهم، وٱستحقارهم. ويروى: غمص الناس بمعنىٰ غمط الناس.

فصل

وٱعلم أن العلماء والعُبّاد في آفة الكبر علىٰ ثلاث درجات:

[(درجات العلماء والعباد في آفة الكبر)]

الأولىٰ: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرىٰ نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهٰذا في قلبه شَجَرة الكِبْر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من: الترفُّع في المجالس، والتقدم علىٰ الأقران، والإنكار علىٰ من يُقَصِّر في حقه، فترىٰ العالِمَ يُصَعِّر[٢] خدَّه للناس، كأنه مُعْرِض عنهم، والعابد يَعْبِسُ وجهه[٣] كأنه مُسْتَقْذِرٌ لهم، وهٰذان قد جهلا ما أدّب الله به نبيّه ﷺ، حين قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

الدرجة الثالثة: أن يُظْهِر الكِبْرَ بلسانه، كالدعاوي والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في مَعْرِض المفاخرة لغيره.

---

(١) أخرجه مسلم، وسلف تخريجه في الصفحة (٢٧٢) حاشية (١).

(٢) صعر خده وصاعره: أي أماله من الكبر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] وقول المتلمس:

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من خده فتقوما

(٣) في الأصول: (يعيش وجهه)، والإصلاح من «الإحياء»!

[بيان ما به التكبر (من الأمور الدنيوية)]

وكذٰلك التكبُّر بالنَّسَبِ، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذٰلك النسب وإن كان أرْفع منه عملاً.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذٰلك التكبُّر بالمال. والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذٰلك.

فالكِبْر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجَمَال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهن إلىٰ التنقُّص والغِيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمُكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يُعْتَقَدَ كَمالاً فإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبّر به، حتىٰ إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لِظنّه أن ذٰلك كمال.

[بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر]

واْعلم أن التكبر يظهر في: شمائل الإنسان، كصَعَرِ وجهه، ونَظَرِه شَزَراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومُتَّكئاً. وفي أقواله، حتىٰ في صوته ونَغْمته، وصيغة إيراده الكلامَ. ويظهر ذٰلك أيضاً في مَشْيه وتَبَخْتُره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تَقَلُّباته.

ومن خصال المتكبر، أن يُحبّ قيام الناس له.

والقيام علىٰ ضربين:

قيام علىٰ رأسه وهو قاعد، فهٰذا منهيّ عنه، قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار**»[1]. وهٰذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٠٧)، وأبو داود [«صحيحه» (٤٣٥٧/ ٥٢٢٩)] عن معاوية ﷺ. وهو في «صحيح الجامع» (٥٩٥٧).

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذٰلك.

قال أنس: لم يكن شخص أحبّ إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رَأَوْه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذٰلك[١].

وقد قال العلماء: يُستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفُضَلاء الناس. وقد صار هٰذا كالشِّعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يُفعل في حقه، لم يأمن أن يَنْسِبَه إلىٰ إهانته، والتقصير في حقه، فيوجب ذٰلك حقداً.

واستحباب هٰذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذٰلك، ويرىٰ أنه ليس بأهلٍ لذٰلك.

ومن خصال المتكبر: ألا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

ومنها: ألا يزور أحداً؛ تكبراً علىٰ الناس.

ومنها: أن يستنكف من جلوس أحد إلىٰ جانبه أو مشيه معه.

وقد روىٰ أنس ﷺ قال: كانتِ الأَمَةُ من أهل المدينة لَتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به في حاجتها[٢].

وقال ابن وهب: جلستُ إلىٰ عبد العزيز بن أبي رَوّاد[٣]، وإن فخذي لَتَمَسُّ فخذه فَنَحَّيْتُ نفسي عنه، فأخذ ثيابي فَجرَّني إليه وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلاً شرّاً مني؟!

ومنها: ألا يتعاطىٰ بيده شغلاً في بيته، وهٰذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٤].

---

(١) هو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢١١/ ٢٧٥٥).
(٢) هو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٦٧/ ٤١٧٧).
(٣) في المطبوعة الأولىٰ: عبد الله ابن أبي داود وهو خطأ.
(٤) سلف في الصفحة (١٧٩-١٨٠).

ومنها: ألا يحمل متاعه من سُوقه إلىٰ بيته، وقَدِ ٱشترىٰ رسول الله ﷺ شيئاً وحَمَلَهُ[١].

وكان أبو بكر ﷺ يَحمل الثياب إلىٰ السوق يَتَّجِرُ فيها.

وٱشترىٰ عمر ﷺ لحماً فعَلَّقه بيده وحمله إلىٰ بيته.

وٱشترىٰ علي ﷺ تَمْراً فحمله في مِلْحفة، فقال له قائل: أَحْمِلُ عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحقّ أن يَحمل.

وأقبل أبو هريرة ﷺ يوماً من السوق، وقد حمل حزمةَ حطب، وهو يومئذ خليفة مَرْوان، فقال لرجل: أَوْسِعِ الطريق للأمير[٢].

ومن أراد أن ينفي الكِبْر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ، وقد سَبقتِ الإشارة إليها في (كتاب: آداب المعيشة).

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

ٱعلم أن الكبر من المُهْلكات، ومداواته فَرْضُ عَيْنٍ، ولك في معالجته مقامان:

الأول: في ٱستئصال أصله وقَطْع شَجَرته، وذٰلك بأن يَعرِف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، عَلِم أنه أذلُّ مِنْ كلِّ ذليلٍ، ويَكفيه أن ينظر في أصل وُجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من عَلَقةٍ، ثم من مُضْغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جَماداً لا يَسمع ولا يُبصر، ولا يُحس ولا يتحرك، فَقَدِ ٱبتدأ بموته قبل حياته، وبِضَعْفه قبل قُوَّته، وبفقره قبل غِناه.

وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ هٰذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ ثم ٱمْتَنَّ عليه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ [عبس]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ

---

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله.

(٢) وهذا من مزاح أبي هريرة رضي الله عنه.

سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ [الإنسان] فأحياه بعد الموت، وأَحسن تصويره، وأخرجه إلىٰ الدنيا، فأَشْبعه وأَرْواه، وكساه وهَداه وقوّاه.

فَمَنْ هٰذا بدايته، فأي وجه لكبره وفخره؟

علىٰ أنه لو دام له الوجود علىٰ ٱختياره، لكان لِطُغْيانه طَريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المُتَضادّة، والأمراض الهائلة، بينما بُنْيانه قد تمّ، إذْ هو قد وَهىٰ وتهدّم، لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً، بينما هو يذكر الشيء فينساه، ويَسْتلذُّ الشيء فَيُرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يُسْلب حياته بَغْتة.

هٰذا أوسط حاله، وذاك أول أمره.

وأما آخر أمره، فالموت الذي يعيده جماداً كما كان، ثم يُلقىٰ في التراب فيصير جِيفةً مُنْتِنةً، وتَبلىٰ أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدودُ أجزاءه، ويعود تراباً يُعمل منه الكيزان، ويُغمر منه البنيان، ثم بعد طول البلىٰ تُجمع أجزاؤه المتفرقة، ويحضر عَرْصة القيامة، فيرىٰ أرضاً مُبَدَّلة، وجِبالاً مُسيَّرة، وسماء مُنْشقَّة، ونجوماً مُنْكَدِرة، وشمساً مكوَّرة، وأحوالاً مظلمة، وجحيماً تَزفِرُ، وصحائف تُنْشَر، ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كان قد وُكل بك ـ في حياتك التي كنتَ تفرح بها وتتكبر بنعيمها ـ مَلَكان يُحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذٰلك، وأحصاه الله تعالىٰ، فَهَلُمَّ إلىٰ الحساب عليه، وأَعِدّ جواباً له، وإلا فأنت تُساق إلىٰ النار، فما لِمَنْ هٰذه حاله التكبر. فإن صار إلىٰ النار، فالبهائم أحسن حالاً منه، لأنها تعود إلىٰ التراب، ومن هٰذا حاله وهو علىٰ شَكٍّ من العفو عن أخطائه، كيف يتكبر؟ ومن الذي يسلم من ذنب يَستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثل رجل جنىٰ علىٰ مَلِكٍ جناية ٱستحق أَن يُضرَب لأجلها ألف سَوْطٍ، فحُبِس في السجن ليخرج فيعاقب، وهو منتظر أن يُدعىٰ به لذٰلك. أَفَتَراه يتكبر علىٰ أهل السجن؟ وهَلِ الدنيا إلا سِجْنٌ، وهَلِ المعاصي إلا مُوجبة للعقاب؟

وأما معرفة ربه، فيكفيه أن يَنظر في آثار قدرته وعجائب صَنعته، فتلوح له العَظَمة، وتَظهر له المعرفة، فهٰذا هو العلاج القالع لأَصْل الكبر.

ومن العلاج العَمَليّ: التواضُعُ بالفعل لله تعالىٰ ولعباده، وذٰلك بالمُواظبة علىٰ ٱستعمال خُلُق المُتواضعين، وقد تَقدمت الإشارة إلىٰ طريقة رسول الله ﷺ، وما كان عليه من التواضعُ والأخلاق الجميلة.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبُّر بالأسباب[١]:

فَمَن ٱعْتراه الكِبر من جهة النَّسبِ فليَعلم أن هٰذا تَعزُّزٌ بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجَدّه، فإن أباه القريب نطفة قَذِرة، وأباه البعيد تراب.

ومَنِ ٱعْتراه الكبر بالجَمَال، فلْينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلىٰ ظاهره نظر البهائم.

ومن ٱعْتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو آلَمه عِرَق، عاد أَعجز من كل عاجز، وأن حُمّىٰ يوم تُحَلِّلُ من قوّته ما لا يعود في مُدَّةٍ، وأن شَوْكةً لو دخلت في رِجْله لَأَعْجزتْه، وبَقَّةً لو دخلت في أذنه لأَقْلَقَتْهُ.

ومَنْ تَكبَّر بسبب الغنىٰ، فإذا تأمل خَلْقاً من اليهود، وَجَدَهم أغنىٰ منه، فَأُفٍّ لشرف تَسبق به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً.

ومَنْ تَكبَّر بسبب العلم، فليَعلم أن حجة الله علىٰ العالم آكَدُ من الجاهل، ولْيَتَفكّر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قَدْره أعظم من قدر غيره.

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق إلا بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالىٰ بغيضاً عنده. وقد أحبّ الله منه أن يتواضع. وكذٰلك كل سبب يعالجه بنَقيضِه ويستعمل التواضع.

---

(١) في الأصول: (بالأنساب)، والإصلاح من «الإحياء».

[بيان غاية الرياضة في خلق التواضع]

وٱعلم أن هٰذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط:

فطرفه الذي يميل إلىٰ الزيادة يُسمىٰ تكبراً.

وطرفه الذي يميل إلىٰ النقصان يسمىٰ تخاسساً[1]، ومَذَلَّة.

والوسط يُسمّىٰ تواضعاً، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مَذلَّة، فـ(خير الأمور أوساطها)[2]، فمن تقدم علىٰ أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً مِنْ قدره، فأما إذا أُدخِل علىٰ العالِم إسكافٌ أو نحوه، فتنحىٰ له عن مجلسه وأَجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشىٰ معه إلىٰ الباب، قد تخاسَسَ[1] وتذلل، فذٰلك غير محمود، بَلِ المحمود العَدْلُ، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، لكن تواضعه للسُّوقيِّ بالرِّفق في السؤال واللِّين في الكلام، وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

الفصل الثاني في العُجب

روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«بينما رجل يَتَبَخْتَر في بُرْدَين وقد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل[3] فيها إلىٰ يوم القيامة»**[4].

وقال ﷺ: **«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»**[5].

وروي عَنِ ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (الهلاك في شيئين: العجب،

---

(١) كذا في الأصول و«الإحياء»، والجادّة أن يقال: (تَخَاسّاً) و (تَخَاسَّ).

(٢) مثل يضرب في التمسك بالاقتصاد. «مجمع الأمثال» ١/(١٢٩٤).

(٣) أي: يغوص في الأرض حين يخسف به، و(الجلجلة): الحركة مع الصوت.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٥) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٢٥١) الحاشية (٣).

والقنوط). وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يَطلب، والمُعجَب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعىٰ.

قال مُطَرِّفٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَأَنْ أَبِيت نائماً وأُصبح نادماً، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائماً وأُصبح معجباً.

[بيان آفة العجب]

وٱعلم أن العجب يدعو إلىٰ الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العُجبِ الكبرُ، ومن الكبرِ الآفاتُ الكثيرة، وهٰذا مع الخلق.

فأما مع الخالق، فإن العجبَ بالطاعات: نتيجة ٱستعظامها، فكأنه يَمُنُّ علىٰ الله تعالىٰ بِفِعلها، ويَنسىٰ نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمىٰ عن آفاتها المُفسِدة لها.

وإنما يتفقَّد آفات الأعمال من خاف رَدَّها دون من رَضيها وأُعجب بها.

[بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما]

والعجب إنما يكون بوصفِ كمالٍ مِنْ علم أو عمل، فإن ٱنضافَ إلىٰ ذٰلك أن يرىٰ حَقًّا عند الله إدْلالاً، فالعجبُ يحصل بٱستعظام ما عُجب به، والإدْلال يوجب توقُّع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رَدّه.

فصل في علاج العجب

ٱعلم أن الله سبحانه هو المُنْعِم عليك بإيجادك، وإيجاد أعمالك، فلا معنىٰ لِعُجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميلٍ بجماله، ولا غنيٍّ بغِناه، إذْ كل ذٰلك من فضل الله تعالىٰ، وإنما الآدميُّ محلٌّ لفيض النِّعَم عليه، وكونه مَحَلاً له نعمة أخرىٰ.

فإن قلت: إن العلم حصل بقُدْرتك، ولا يُتَصَوَّر العلم إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقُدرتك.

فمِنْ أين قدرتك؟ وكل ذٰلك من الله تعالىٰ لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهٰذا المفتاح بيد الله تعالىٰ، وما لم تُعْطَ المفتاح لا يُمكنك العمل، كما لو قعدتَ عند خزانة مُغلقة لم تقدر علىٰ ما فيها إلا أن تُعطىٰ مفتاحها.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لن يُدْخِل أحداً منكم عَمَلُهُ الجنة»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يَتَغمدني الله برحمة منه وفضل»**[١].

[بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه]

وٱعلم أن العجب يكون بالأسباب التي يقع به الكبر، وقد سبق ذكرها وعلاجها.

ومن ذٰلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متىٰ خالف آباءه، وظَن أنه مُلْحَق بهم، فقد جَهِل، وإن ٱقتدىٰ بهم، فإنه لم يكن العُجْب مِنْ أخلاقهم، بل الخوف والازدراء علىٰ النفس.

وإنما شَرُفوا بالطاعة والصفات المحمودة، لا بنفس النسب. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: **«يا فاطمة، لا أغني عنك من الله شيئاً»**[٢].

فإن قلت: إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته. =

= فالجواب: أن كل المسلمين يَرجون الشفاعة، وقد يُشْفع في الشخص بعد إحراقه بالنار وقد يَقوىٰ الذنب فلا تُنجي الشفاعة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«لا أُلفينَّ[٣] أحدكم يجيء يوم القيامة علىٰ رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك»[٤].

ومثل المُنْهَمِك في الذنوب ٱعتماداً علىٰ رجاء الشفاعة، كمثل المريض

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦). وسيمر شبهه في الصفحة (٣٧٣) حاشية (٣).

(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (١٧٣) حاشية (٢).

(٣) أي، لا أجد، يقال: ألفيت الشيء: إذا وجدته.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٧١٧٣).

المنهمك في الشهوات، ٱعتماداً علىٰ طبيبه الحاذق المُشفِقِ، وذٰلك جهل، فإن ٱجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها.

ويوضح هٰذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يَتَّكِلُ مَنْ ليس في مثل مراتبهم؟

ومن ذٰلك العجب بالرأي الخطإ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: ٨]. وعلاج هٰذا أشد من علاج غيره، فإن هٰذا متىٰ كان مُعْجباً برأيه لم يُصغ إلىٰ نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟ وإنما علاجه في الجملة أن يكون مُتَّهِماً لرأيه أبداً، لا يَغْتَرُّ به، إلا أن يشهد له قاطعٌ من كتاب، أو سنة أو دليل عَقْليٍّ جامع لشروط الأدلّة، ولن يَعرف ذٰلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأَولىٰ لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم ألاّ يَخوض في المذاهب، ولٰكن يقف عند ٱعتقاد الجُمَل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ] وأن رسوله صادق فيما جاء به، ويؤمن بما جاء به القرآن من غيرِ بحثٍ ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوىٰ، وأداء الطاعات، فمتىٰ خاض في المذاهب وَرَامَ ما لا يحصل إلىٰ معرفته، هَلَكَ.

٢١ - كِتَابُ الغرور وَأقسَامه وَدرَجَاته

من الناس مَنْ غَرَّتهُ الدنيا، فقال: النَّقدُ خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهٰذا مَحَلُّ التلبيس، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلىٰ مدة الآخرة ليس بجزء من ألف ألف جزء إلىٰ أن ينقطع النَّفَسُ، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهٰذا غرور الكفار.

فأما مُلابِسو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هٰذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا علىٰ الآخرة، إلا أن أمرهم أسْهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العُصاة مَنْ يَغْترُّ، فيقول: إن الله كريم، وإنما نَتَّكِلُ علىٰ عَفْوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: مَنْ رجا شيئاً طَلَبَهُ، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور.

وليُعلم أن الله تعالىٰ مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضىٰ بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يَضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمِحَن علىٰ خلق من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادر علىٰ إزالتها، ثم خَوَّفنا من عقابه، فكيف لا نَخاف؟!

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان علىٰ العمل، وما لا يبعث علىٰ العمل فهو غرور. يوضح هٰذا أن رجاء أكثر الخلق يَحملهم علىٰ البطالة، وإيثار المعاصي.

والعَجَبُ أن القرن الأول عَمِلوا وخافوا، ثم أهل هٰذا الزمان أَمِنوا مع التقصير واطمَأنّوا، أَتُرَاهم عَرفوا من كرم الله تعالىٰ ما لم يعرف الأنبياء والصالحون؟!

ولو كان هٰذا الأمر يدرك بالمُنىٰ، فَلِمَ تعب أولئك وكَثُر بُكاؤهم؟! وهل ذَمَّ أهلَ الكتابِ بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] إلا لمثل هٰذه الحال؟!

وأما مَنْ ٱغترَّ بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه[1]، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومحمد مع أمه ﷺ[2]، وعلىٰ سائر النبيين.

ويَقْرُب من هٰذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم تَرجح، فترىٰ الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغَصْب أضعاف ذٰلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، ويَتَّكل علىٰ تلك الصدقة وما هو إلا كمن وضع درهماً في كفه وألفاً في أخرىٰ، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه. وسبب ذٰلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه علىٰ سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبحه مئة مرة في اليوم، ثم يَظلّ طول نهاره يَغتاب المسلمين، ويتكلم بما لا يُرضي الله، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغِيبة والكلام المنهيِّ عنه.

فصل

[بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف]

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف: العلماء، والعبّاد، والمُتصوِّفة، والأغنياء.

[(صنف أهل العلم)]

فأما أهل العلم، فالمُغْتَرُّون منهم فِرَق:

منهم فرق: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقُّد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، وٱغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هٰؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا

---

(١) حيث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

(٢) ونصه: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي**» أخرجه مسلم (٩٧١) عن أبي هريرة.

يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦] و﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ومنهم فرقة أخرىٰ: أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم لِيَمْحوا الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العُلُوّ، وطلب الشهرة، فهٰؤلاء زَينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونَسُوْا قوله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، إنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**»[1].

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

ومثال هٰؤلاء كمثل رجل زَرع زرعاً، فنبت ونبت معه حشيش يُفسده، فأمر بقلعه، فأخذ يَجُزُّ رؤوسه وأطرافه ويَترك أصوله، فلم تَزَلْ أصوله تَقوىٰ.

وفرقة أخرىٰ: عَلِموا أن هٰذه الأخلاقَ الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعُجبهم بأنفسهم يظنون أنهم مُنفَكُّون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يَبتليهم بذٰلك، وإنما يبتلي بذٰلك العوامّ دون من بلغ ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]. فإذا ظهر عليهم مَخايل الكبر والرياسة، قال أحدهم: (ما هٰذا بكبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام المبتدعين، فإني لو لَبِسْتُ الدُّون من الثياب، وجلست في الدون من المجالس، شَمِتَتْ بي أعداء الدين، وفرحوا بذلِّي، وفي ذلي ذل الإسلام)، ويَنسىٰ الغُرور، وإن إبليس هو الذي سَوَّل له هٰذا بدليل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويُؤْثرون الفقر والمسكنة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨١٠ و ١٠٩٤٢)، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٤٢/ ٤١٤٣)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (١٨٦٢)، و«غاية المرام» (٤١٥)، و«الصحيحة» (٢٦٥٦)، و«رياض الصالحين» (٨).

وقد روينا عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما قدم الشام عَرَضَتْ له مَخَاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خُفَّيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره. فقال له أبو عُبَيْدَةَ: (لقد صَنعتَ اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض)، فَصَكَّ في صدره وقال: (أَوَّه لو غَيْرك يقول هٰذا يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأَعَزَّكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يُذِلّكم الله)[1].

وفي رواية عنه: لما قدم الشام، استقبله الناس وهو علىٰ بعيره. فقيل له: لو رَكِبْتَ بِرْذَوْناً تلقىٰ به عظماء الناس ووجوههم؟ فقال عمر ﷺ: (لا أراكم هٰهنا، إنما الأمر من هٰهنا ـ وأشار بيده إلىٰ السماء ـ خُلُّوا سبيل جملي).

ثم العَجَب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة، والخيول الفارهة ونحو ذٰلك، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما غَرَضي بهٰذا إظهار العلم والعمل، لاقتداء الناس بي ليهتدوا إلىٰ الدين، ولو كان هٰذا قصده لفرح بٱقتداء الناس بغيره كما يفرح بٱقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الخَلْق يفرح بصلاحهم علىٰ يد من كان، وكذلك من يدخل منهم علىٰ سلطان، ويتودَّد إليه، ويُثني عليه، ويتواضع له ويقول: (إنما غرضي بهٰذا أن أشفع في مسلم أو أدفع عنه الضرر) والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لَثَقُل عليه ذٰلك.

وقد ينتهي غرور بعضهم إلىٰ أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول: (هٰذا مالٌ لا مالِكَ له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم) فيَغتر بهذا التلبيس من جهة نظره إلىٰ نفسه، وربما كان دجّالاً من الدَّجّالين من جهة قوله: (هٰذا مال لا مالك له) وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، وذٰلك لا يَمنع كونها حراماً، وقد يكون عالماً بمن أُخذ منه المال.

وفرقة أخرىٰ: أَحكموا العلم، وطَهَّروا جوارحهم وزيَّنوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذٰلك، ولٰكن بَقيتْ في زوايا القلب خفايا من مَكايد الشيطان وخُدَع النفس لم يَفطنوا لها وأهملوها،

(١) «حلية الأولياء» ١/ ٤٧، و«أخبار عمر» ٣١٧.

فترىٰ أحدهم يُسْهِر ليله ويُنصِب[1] نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرىٰ أن باعثه علىٰ ذٰلك الحرص علىٰ إظهار دين الله تعالىٰ، وربما كان الباعث لذٰلك طلبُ الذِّكر وٱنتشار الصِّيت، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء علىٰ النفس، إما صريحاً بالدعاوي الطويلة العريضة، وإما ضِمْناً بالطَّعْن في غيره لِيُبيِّنَ في طعنه في غيره أنه أفضل من ذٰلك الغير، وأعظم منه علماً. فهٰذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفطن لها إلا الأكياس ولا يَتَنَزَّهُ منه إلا الأقوياء، ولا مَطمع فيه لأمثالنا من الضُّعَفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويَحرص علىٰ صلاحها.

ومن سَرَّته حسنته وساءته سيئته، فهو مَرْجُوٌّ أمره بخلاف من يُزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق.

فهٰذا غرور الذين حَصَّلوا العلوم المهمة.

فكيف بالذين قَنِعوا من العلوم بما لا يُهِمُّهم وتركوا المهم:

فمنهم مَنِ ٱقتصر علىٰ علم الفتاوي في الحكومات والخصومات، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش، وربما ضَيَّعوا الأعمال الظاهرة وٱرتكبوا بعض المعاصي من الغِيبة والنظر إلىٰ ما لا يَحِلّ، والمشي إلىٰ ما لا يَجوز، ولم يَحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهٰؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم.

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء وٱشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به عِلة البِرْسام وهو مُشرف علىٰ الهلاك، فٱشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يُكرر ذٰلك، وذٰلك غاية الغرور.

وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يَدْرِ أن الفقه هو الفقه عن الله تعالىٰ، ومعرفة صفاته المُخَوِّفة والمَرْجُوَّةِ، ليستشعر القلبُ الخوفَ ويلازم التقوىٰ.

---

(١) أي: يتعب.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية[1] والذي يحصل به الإنذار غير هٰذا العلم، فإن مقصود هٰذا العلم حفظ الأموال، بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، وبدفع القتل والجراحات.

والمال في طريق الله تعالىٰ آلة، والبدن مركب.

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالىٰ.

ومثال من اقتصر علىٰ ذٰلك، كمثل مَنِ ٱقتصر في سلوك طريق الحج علىٰ علم خَرْزِ الراوية والخُفِّ، ولا شك أنه لا بد من ذٰلك، ولكن ليس من الحج في شيء.

- ومن هٰؤلاء مَنِ ٱقتصر علىٰ علم الخلاف، ولا يَهُمُّه إلا طريق المُجادلة، والإلزام والإفحام، ودفع الحق لأجل الغَلَبة، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم.

وجميع دقائق الجَدَل في الفقه بِدْعةٌ لم يعرفها السلف. وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفهم معانيهما. وأما حِيَل الجَدَل من الكَسْر، والقلب، وفساد الوضع والتركيب، والتعدية فإنما أُبدعت لإظهار الغَلَبة والإفحام.

وفرقة أخرىٰ: ٱشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد علىٰ المخالفين.

ثم هٰؤلاء طائفتان: ضالة، ومُحِقّة، فالضالة التي تدعو إلىٰ غير السنة، والمحقة التي تدعو إلىٰ السنة، والغرور شامل لجميعهم.

أما الضالة، فٱغترارها ظاهر، وأما المحقة فٱغترارها من حيث إنها ظنت أن الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالىٰ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صَدَّق الله ورسوله من غير تحريرِ دليل،

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢ وتمامها: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

فليس بكامل الإيمان، فلهٰذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلُّم الجدل والبحث عن المقالات، وعَميت بصائرهم، فلم يلتفوا إلى القرن الأول، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق[1]، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوىٰ، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذٰلك عن تفقُّد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتَكلموا فيه إلا لضرورةِ رَدِّ الضلال، فإن رَأَوْه مُصِرّاً علىٰ بدعته هجروه من غير مُماراة ولا جدل.

وقد روي في الحديث: **«ما ضل قوم قطّ بعد هُدىً إلا أوتوا الجدل»**[2].

وفرقة أخرىٰ: ٱشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهٰذه الصفات وهم مُنفكّون عنها أنهم من أهلها، فهٰؤلاء يَدْعون إلىٰ الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غِرّة.

ومن هٰؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلىٰ الشَّطْح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب.

ومنهم من يستشهد بأَشْعار الوِصال والفِراق، وغَرَضهم أن يَكثُر الصياحُ في مجالسهم والتَّواجُد، ولو علىٰ أغراض فاسدة، فهٰؤلاء شياطين الإنس.

ومنهم فرقةٌ: ٱستغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجَمْع رواياته، وأسانيده الغريبة والعالية، فَهَمُّ أحَدِهم أن يدور البلاد، ويَرىٰ الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولَقِيتُ فلاناً، ولي من الإسناد ما ليس لغيري.

ومنهم فرقة: ٱشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأُمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، لو عقلوا لَعَلِموا أن مُضيِّع عُمْرِه في

---

(١) بقوله ﷺ: **«خير الناس قرني»**. وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٣٢٨٨ و٣٢٩٣-٣٢٩٥ و٣٣٠١ و٣٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٦٠ و٢٢٢٠٠)، والترمذي [«صحيحه» (٢٥٩٣/٣٢٤٨)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٥/٤٨)] عن أبي أمامة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٦٣٣)، و«المشكاة» (١٨٠).

معرفة لغة العرب كالمُضيّع عُمْرَه في معرفة لغة الترك، وإنما فارقَتْها لغة العرب لأجل وُرُود الشريعة بها.

فيكفي من اللغة علم الغريبين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يُقَوّم به اللسان. فأما التعمُّق إلىٰ درجات لا تتناهىٰ، فذٰلك يُشغِل عما هو أجودُ منه وألْزَمُ.

ومثال التعمق في ذٰلك، مثال من ضَيَّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصراً علىٰ ذٰلك، وذٰلك غرور، لأن المقصود من الحروف: المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومَنِ ٱحتاج إلىٰ شرب السَّكَنْجَبين لإزالة الصفراء، فضَيَّع عمره في تحسين القَدَح الذي يشرب فيه، فهو مغرور.

والسعيد من أخذ من كل شيء من هٰذا: حاجَتَه المهمة لا غير، وتجاوز إلىٰ العمل، وٱجتهد فيه وفي تَصْفيته من الشوائب، فهٰذا هو المقصود.

وفرقة أخرىٰ: عَظُم غرورهم، فوضعوا الحِيَل في دَفْع الحقوق، وظنوا أن ذٰلك ينفعهم، بل ذٰلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلىٰ أن تُبَرِّئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالىٰ.

وكذٰلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحَوْلِ لزوجته، وٱتّهابه مالها حيلةً لإسقاط الزكاة، ونحو ذٰلك من أنواع الحيل.

الصنف الثاني: أرباب التعبد والعمل.

وهم فرق:

[صنف أرباب التعبد والعمل]

فرقة أهملوا الفرائض وٱشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا في ٱستعمال الماء حتىٰ خرجوا إلىٰ الوسوسة في الوضوء، فترىٰ أحدهم لا يَرضىٰ بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً، بل يُقدِّر له الاحتمالات البعيدة في التنجُّس، ولا يُقدِّر ذٰلك في مطعمه، فلو ٱنقلب هٰذا الاحتياط من الماء إلىٰ المطعم، لكان أشبه بِسِيَرِ السلف، فإن عمر ﷺ توضأ من جَرَّةِ نصرانيةٍ مع ظهور ٱحتمال النجاسة، وكان مع هٰذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

وقد صحّ أن النبي ﷺ توضأ من مَزادة مُشرِكة[١].

ثم منهم من يَخرج إلىٰ الإسراف في الماء، ويَطول به الأمر حتىٰ تَضيع الصلاة ويخرج وقتها.

ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصلاة، حتىٰ ربما فاتَته ركعة مع الإمام.

ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفَرْق بين الضاد والظاء فوق الحاجة، ونحو ذٰلك، بحيث يهتم بذٰلك حتىٰ لا يَتفكّر فيما سواه، ويَذهل عن معنىٰ القرآن والاتعاظ به، وهٰذا من أقبح أنواع الغرور، فإن الخلق لم يَتكلّفوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جَرَت به العادة في الكلام.

ومثال هٰؤلاء: مثال مَنْ حَمَلَ رسالة إلىٰ سلطان، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنُّق في مخارج الحروف وتكراره، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أَحْراه بالطرد والتأديب.

وفرقة أخرىٰ ٱغتروا بقراءة القرآن، فَهُمْ يَهُذُّونه هَذّاً، وربما ختموا في اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني، ولا يتفكر في معاني القرآن، ولا يَتَّعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهٰذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط.

ومثال هٰذا: مثال عَبْدٍ كتب إليه مَوْلاه كتاباً يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلىٰ فهمه والعمل به، بَلِ ٱقتصر علىٰ حفظه وتكراره، ظانّاً أن ذٰلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونَهْيه.

ومنهم من يَلْتَذّ بصوته بالقرآن، مُعرضاً عن معانيه، فينبغي أن يَتفقّد قلبه فيعرف هَل ٱلتذاذُهُ بالنَّظْم، أو بالصوت، أو بالمعاني.

---

(١) لعله يعني حديث عمران الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٤٤) وغيره؛ لكن قال الألباني في «الإرواء» (٣٦): ليس في الحديث توضؤه من مزادة مشركة، ولكن فيه استعماله لمزادة المشركة.

وفرقة أخرىٰ ٱغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغِيبة والفُضول، ولا بُطُونهم من الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرياء.

ومنهم مَنِ ٱغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، وٱسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذٰلك بعد سقوط فرض الحج ويُضَيِّعون في الطريق العبادة والفرائض، ويَعْجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرَّفَثِ والخصام، وهم مع ذٰلك يظنون أنهم علىٰ خير وهم مغرورون.

وفرقة أخرىٰ: أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونَسُوا أنفسهم.

ومنهم من يَؤُمُّ في مسجدٍ، ولو تقدم عليه أوْرع منه وأعلم، ثَقُل عليه.

ومنهم من يُؤَذِّن ويظن أن ذٰلك لله، ولو أَذَّن غيره في غَيْبته، ٱشتد عليه ذٰلك وقال: قد زاحمني في مَرْتَبتي.

ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق بـ(بلاده، وقولِ الناس: فلان مجاور بمكة أو المدينة)، ثم إنه يُجاور ويطمع في أوساخ الناس، وقد يَجمع ذٰلك ويَشُحُّ به ويجتمع له جُمْلة من المهلكات.

وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومَن أراد أن يعرفها، فلينظر في كتابنا هٰذا، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هٰذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلىٰ مجامع ما سبق.

وفرقة أخرىٰ: زَهِدت في المال، وقنعت بالدُّون من اللباس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظنَّتْ أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هٰذا شديدُو الرغبةِ في الرياسة والجاه، فقد تركوا أَهْون الأمرين وباؤوا بأعظم المَهْلِكَيْنِ.

وفرقة أخرىٰ: حرصت علىٰ النوافل، ولم تَعْتَنِ بالفرائض، فترىٰ أحدهم يفرح بصلاة الضحىٰ وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لَذَّة، ولا يحرص علىٰ

المبادرة إليها في أول الوقت، وينسىٰ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: **«ما تقرب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما ٱفترضت عليهم»**[1].

الصنف الثالث: المتصوفة

[صنف المتصوفة]

والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهُمُ ٱغتروا بالزِّيِّ والنطق والهيئة فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يُتْعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون علىٰ الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا ٱختلفوا في غَرَض، وهٰؤلاء غرورهم ظاهر.

ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تُثْبَتُ أسماؤهم في الديوان، ويَقْطع كل واحد منهم قُطراً من أقطار البلاد، فٱشتاقت نفسها إلىٰ ذٰلك، فلبست دِرْعاً ووضعت علىٰ رأسها مِغْفَراً، وتَعلّمت من رجز الأبطال أبياتاً، وتعلمت زِيَّهم وجميع شمائلهم، ثم توجهت إلىٰ العَسْكر، فكُتب ٱسمها في ديوان الشجعان، فلما حضرت في ديوان العَرْض، أمرت بتجريد المِغْفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة، فلما جرّدت إذا هي عجوزٌ ضعيفةٌ زَمِنة[2]، فقيل لها: جئت تستهزئين بالمَلِكِ وأهل حضرته، خذوها وألْقُوها بين أيدي الفيل، فأُلقيتْ إليه.

فهٰكذا يكون حال المُدَّعين التصوفَ في القيامة إذا كُشف عنهم الغطاء، وعُرضوا علىٰ الحاكم الأكبر الذي ينظر إلىٰ القلب لا إلىٰ المُرَقَّعات والزَّيّ.

وفرقة أخرىٰ ٱدعتْ علم المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاوزة المقامات والأحوال، والوصول إلىٰ القُرْب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء، فترىٰ أحدهم يرددها ويظن أن ذٰلك أعلىٰ من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلىٰ الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلاً عن العوامّ، حتىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: **«ما تقرب إليّ عبدي..»**. وهو في «الصحيحة» (١٦٤٠). وستأتي قطعة أخرى منه في الصفحة (٤٣٥).

(٢) الزَمِنْ: المرض الذي لا يرجى له شفاء.

إن بعض العامّة يلازمهم الأيام الكثيرة، ويَتلقّف منهم تلك الكلمات المُزَيَّفة، ويُرددها كأنه يتكلم عن الوحي، ويَحتقر في ذٰلك جميع العلماء والعباد، ويقول: (إنهم محجوبون عن الله، وإنه هو الواصل إلىٰ الحق، وإنه من المُقَرَّبين) وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحَمْقىٰ الجاهلين، لم يُحْكِمْ عِلْماً ولم يُهَذِّبْ خُلُقاً، ولم يراقِبْ قلباً سوىٰ اتباع الهوىٰ وحفظ الهَذَيان.

وفرقة منهم طوَوا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسَوَّوا بين الحلال والحرام. وبعضهم يقول: إن الله مُستغْنٍ عن عملي، فلِم أُتْعِبُ نفسي؟

وبعضهم يقول: لا قَدْر للأعمال بالجوارح، وإنما النظر إلىٰ القلوب، وقلوبنا والِهةٌ بحب الله تعالىٰ، وواصلة إلىٰ معرفته، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد تَرَقَّوْا عن رتبة العوام، واستَغْنَوْا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تَصُدُّهم عن طريق الله تعالىٰ لِقُوَّتِهم فيها، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء[1]، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبكون علىٰ خطيئة واحدة سنين.

وأصناف غرورِ أهل الإباحة لا تُحصىٰ، وكل ذٰلك أغاليط ووَساوس، خدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به.

ومنهم فرقة أخرىٰ جاوزوا هٰذه الطريق، واشتغلوا بالمجاهدة، وابتدؤوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة، فلما استنشقوا مبادىء ريح المعرفة، تَعَجَّبوا منها، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها، تَقيَّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكّر فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذٰلك غرور، لأن عجائب طريق الله ﷻ ليس لها نهاية، ولو وقف مع كلِّ أعجوبةٍ

---

(١) ومن ذٰلك ما يقوله محمد بن علي المعروف بـ: ابن عربي، المعظم عند أهل وحدة الوجود من المتصوفة وغيرهم مثل الإسماعيلية والباطنية، والقاديانية:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وتَقيَّد بها قَصرت خُطاه وحُرِم من الوصول إلىٰ القصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً، فرأىٰ علىٰ بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأىٰ مثلها، فوقف ينظر إليها حتىٰ فاته الوقت الذي يُمكن فيه لقاء الملك.

الصنف الرابع: أرباب الأموال

[(**صنف أرباب الأموال**)]

وهم فرق:

ففرقة منهم يحرصون علىٰ بناء المساجد والمدارس والرِّباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتَخلَّد ذكرهم، ويبقىٰ بعد الموت أثرهم، ولو كُلِّف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يُكتب ٱسمه في الموضع الذي أنفق عليه لَشَقَّ عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذٰلك، فإن الله يَطَّلع عليه، سواء كتب ٱسمه أو لم يكتبه.

وبعضهم يَصرف المال في زخرفة المسجد، وتزيينه بالنقوش التي هي منهيٌّ عنها وشاغلة للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذٰلك يُفسد قلوب المصلين. فأما إن كان المال الذي صرفه في ذٰلك حراماً، كان أشدّ في الغرور.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أتىٰ رجل مسجداً، فوقف علىٰ الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله، فكُتب في مكانه صِدِّيقاً.

فبهٰذا ينبغي أن تُعظَّم المساجد، وهو أن يرىٰ تلويثَ المسجد بدخوله فيه بنفسه جِناية علىٰ المسجد، لا أن يرىٰ تلويث المسجد بالحرام، أو بزخْرف الدنيا مِنّة علىٰ الله تعالىٰ، فغرور هٰذا من حيث إنه يرىٰ المنكر معروفاً.

وفرقة أخرىٰ يحفظون الأموال ويمسكونها بُخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلىٰ نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرورون، لأن البخل مُهْلِكٌ، وقد ٱستولىٰ علىٰ قلوبهم، فهم محتاجون إلىٰ قَمْعِه بإخراج المال، فَقَدِ ٱشتغلوا عنه بفضائل لا تَجِبُ عليهم.

ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حيّة، فٱشتغل عنها بطبخ السَّكَنْجَبين لِتَسكن به الصَّفراء.

ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرَّديء من المال،

أو يُعطي من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجاته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض.

ومنهم من يسلم ذٰلك إلىٰ بعض الأكابر لِيُفَرِّقه، لينال بذٰلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه، وكل ذٰلك مُفْسِد للنية وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالىٰ عِوَضاً عن غيره.

وفرقة أخرىٰ من أرباب الأموال وغيرهم، ٱغتروا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يُغنيهم عن العمل والاتعاظ وليس كذٰلك، لأن مجلس الذكر إنما فُضِّل لكونه مُرَغِّباً في الخير، وكل ما يُراد لغيره إذا لم يُوصِل إلى ذٰلك الغيرِ فلا وَقْع له، وربما سمع أحدهُمُ التخويف، فلا يزيد علىٰ قوله: يا سلام سَلِّم، أو أعوذ بالله، ويظن أنه قد أتىٰ المقصود.

ومثال هٰذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغني ذٰلك عنه. فكذٰلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغيِّر منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك.

فإن قيل: فما ذَكَرْتَه من مَداخل الغرور أمر لا يكاد يُخْلَص منه =

= فالجواب: أن مدار الآخرة علىٰ معنىٰ واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذٰلك إلا من لم تَصْدُق نِيَّته، فإن الإنسان لو ٱهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لَنَالها. وقد فعل ذٰلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

ويُستعان علىٰ التخلُّص من الغرور بثلاثة أشياء:

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته.

وفي (كتاب: المحبة)، و(: شرح عجائب القلب)، و(: التفكر)، و(كتاب: الشكر) إشارات إلىٰ وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه.

ويستعين علىٰ معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في (كتاب: ذم الدنيا) و(كتاب: ذكر الموت).

فإذا حصلتْ هٰذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالىٰ حبُّ الله،

وبمعرفة الآخرة حبُّ شِدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يُوْصِله إلىٰ الله تعالىٰ، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبتْ الدنيا هٰذه الإرادة علىٰ قلب، صَحَّتْ نيته في الأمور كلِّها، وٱندفع عنه كل غرور.

فإذا غلب حبّ الله تعالىٰ علىٰ قلبه لمعرفته به وبنفسه: ٱحتاج[1] إلىٰ الأمر الثالث وهو:

العلم: ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلىٰ الله تعالىٰ وآفاتها، والعلم بما يُقَرِّبه منه ويهديه، وجميع ذٰلك في كتابنا هٰذا.

فيعرف من (ربع: العبادات) و(:العادات) ما هو محتاج إليه، وما هو مُستَغْنٍ عنه، ويتأدب بأدب الشرع.

ويعرف من (رُبع: المُهْلِكات) جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالىٰ، وهي الصفات المذمومة في الخلق.

ويعرف من (ربع: المنجيات): الصفات المحمودة التي لا بد أن توضع خَلَفاً من المذمومة بعد مَحْوِها.

فإذا أحاط بجميع ذٰلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم.

وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفاً أن يَخدعه الشيطان، ويدعوه إلىٰ الرياسة، ويُخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالىٰ[2].

ولذلك قيل: والمُخْلِصون علىٰ خَطَر عظيم.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ للشيطان حين قال له عند الموت: فُتَّنِيْ. فقال: لا! بعد!

فلا ينبغي أن يُفارق الخوفُ قلوبَ الأولياء أبداً.

نسأل الله تعالىٰ السلامة من الغرور، وحُسن الخاتمة، إنه ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود].

آخر الغرور وبه تمَّ (ربع: المهلكات)، ونشرع الآن في (ربع: المنجيات).

---

(١) في الأصول: (واحتاج).

(٢) ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

رُبْع المنجيات

٢٢ - كِتَابُ التَّوبَةِ وَذِكر شروطهَا وَأركَانها وَمَا يتعَلّق بذٰلك

ٱعلم أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يُبْعِد عن المحبوب واجب.

وإنما يَتِمّ ذٰلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متىٰ لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم علىٰ الذنوب، ولم يتوجَّع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع.

وقد أمر الله تعالىٰ بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

وقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ ربكم، فإني أتوب إلىٰ الله في اليوم مئة مرة**»[1].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّيّة[2] مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فٱستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتىٰ أدركه العطش، ثم قال: أَرجع إلىٰ مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتىٰ أموت، فوضع رأسه علىٰ ساعده ليموت، فٱستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هٰذا براحلته**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وأحمد (١٨٢٥٤)، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٣٤١/ ١٥١٥)] عن الأغرّ المزني.

(٢) الدوّ والدوية: الفلاة المستوية الواسعة، البعيدة الأطراف، وربما قالوا: داوية.

(٣) هو في مسلم (٢٧٤٤)، و«صحيح الترمذي» (٢٠٢٨/ ٢٤٩٨)، وبنحوه في البخاري (٦٣٠٨). وهو في «صحيح الجامع» (٥٠٣٣).

والأحاديث في هٰذا كثيرة، والإجماع منعقد علىٰ وجوب التوبة، لأن الذنوب مُهْلِكات مبعدات عن الله تعالىٰ، فيجب الهرب منها علىٰ الفور.

[بيان وجوب التوبة وفضلها]

والتوبة واجبة علىٰ الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو خلا عن معصية بالجوارح لم يَخْلُ عن الهَمّ بالذنب بقلْبه، وإن خلا عن ذٰلك، لم يَخْلُ عن وَسْواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالىٰ، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالىٰ وصفاته وأفعاله، وكل ذٰلك نقْص، ولا يَسْلَم أحد من هٰذا النقص، وإنما الخَلْق يتفاوتون في المقادير، وأمّا أصل ذٰلك، فلا بد منه.

ولهٰذا قال النبي صلّى الله عليه وسلّم:

«إنه لَيُغَان علىٰ قلبي، فأَستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[1].

ولذٰلك أكرمه الله تعالىٰ بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتىٰ ٱجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورىٰ: ٢٥].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»**[2]. والأحاديث في ذٰلك كثيرة.

فصل في بيان أقسام الذنوب

ٱعلم أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لٰكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات:

(١) أخرجه مسلم، وهو السالف في الصفحة (٣١٣) الحاشية (١) إلا أنه عنده: **«في اليوم مئة مرة»**. وللبخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة: **«إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة»** وليس عند البيهقي في «الشعب» كلمة: **«أكثر»**.

(٢) أخرجه أحمد (٦١٥٤)، والترمذي [«صحيحه» (٢٨٠٢/٣٥٣٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٤٣٠/٤٢٥٣)] عن ابن عمر. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٩٠٣)، و«المشكاة» (٢٣٤٣).

أحدها: صفات رُبوبية، ومنها يحدث الكِبْر والفخر، وحُبُّ المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذٰلك، وهٰذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يَعُدُّها ذنوباً.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد، والبغي والحيل، والخداع والمكر، والغِشّ والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذٰلك.

الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يَتَشَعَّب الشَّرَهُ والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذٰلك الزنىٰ واللواطة والسرقة، وأخذ الحُطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السَّبُعِية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجُّم علىٰ الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال.

وهٰذه الصفات لها تدرُّج في الفطرة:

فالصفة البهيمية هي التي تَغلب أوّلاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، فإذا اَجتمعت هاتان، اَسْتَعملتا العقلَ في الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحِيَل، ثم تَغْلب الصفات الربوبية.

فهٰذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هٰذه المنابع إلىٰ الجوارح، فبعضها في القلب، كالكفر، والبدعة، والنفاق، وإضمار السوء، وبعضها في العين، وبعضها في السمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها علىٰ جميع البدن، ولا حاجة إلىٰ تفاصيل ذٰلك، فإنه واضح.

ثم الذنوب تنقسم إلىٰ: ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلىٰ ما بين العبد وبين ربه. فَمَا يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفو فيه أرجىٰ وأقرب، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله، فذٰلك الذي لا يغفر.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الدواوين عند الله ﷻ ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يَترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله.

فأما الديوان الذي لا يغفره الله تعالىٰ، فالشرك. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد فيما بينه وبين الله ﷻ، يغفر ذٰلك، ويتجاوز إن شاء.

وأما الديوان الذي لا يترك منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً، فالقِصاص لا محالة»[١].

قِسمة أخرىٰ: اعلم أن الذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر، وقد كَثُرَ الاختلاف فيها، واختلفتِ الأحاديث في عدد الكبائر.

والأحاديث الصِّحاح في ذكرها خمسة:

الأول: حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال:

[(قسمة أخرىٰ)]

«اجتنبوا السبع المُوبِقات». قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: **«الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلِّي يوم الزحف، وقذف المُحصنات المؤمنات الغافلات»**[٢].

الثاني: حديث ابن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ، سئل أيّ الذنب أكبر؟ قال: **«أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك»**. قال: ثم أيّ؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك»**. قال: ثم أيّ؟ قال: **«أن تُزانيَ حَلِيلة جارك»**[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠٢٠) عن عائشة. وهو في «ضعيف الجامع» (٣٠٢٢)، وفيه (٣٠٥٣) عن أبي هريرة. لكن صح نحوه ـ بلفظ: «الظلم ثلاثة...» دون تسميته ديواناً، وهو عن أنس ـ في «صحيح الجامع» (٣٩٦١). وله شاهد من حديث سلمان عند الطبراني. وتنظر «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦ و٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٤٩٨/ ٢٨٧٤)]، والنسائي [«صحيحه» (٣٤٣٢)]. وهو في «الإرواء» (١٣٣٥ و٢٣٦٥).

(٣) هو عند البخاري (٤٧٦١ و٦٠٠١ و٦٨١١ و٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦)، وأبي داود [«صحيحه» (٢٠٢٥/ ٢٣١٠)]، والترمذي [«صحيحه» (٢٥٤٣/ ٣١٨٢ و٢٥٤٤/ ٣١٨٣)]، والنسائي [«صحيحه» (٣٧٤٧-٣٧٤٩)]. وهو في «الإرواء» (٢٣٣٧).

الثالث: حديث عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»[١].

الرابع: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور**» ـ أو قال ـ «**شهادة الزور**»[٢].

الخامس: حديث أبي بَكْرة أن النبي ﷺ ذُكرت عنده الكبائر قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» وكان متكئاً فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت[٣].

وَقَدِ اختلف العلماء فيها علىٰ أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل علىٰ حَصْرها فيها، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس علىٰ وَجَلٍ من الذنوب، لٰكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر.

فأما أصغر الصغائر، فلا سبيل إلىٰ معرفته، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر، فروي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: هي أربع.

وروي عَنِ ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هي سبع.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر: (إنها سبع) قال: هي إلىٰ سبعين أقرب منها إلىٰ سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: هي ما أوجبَ الحدَّ في الدنيا.

وعن ابن مسعود أن الكبائر في فاتحة النساء إلىٰ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [سورة النساء: ٣١].

وقال سَعِيد بن جُبَيْرٍ وغيره: هي كل ذنب أَوْعدَ الله عليه النارَ.

وقال أبو طالب المَكِّيُّ: الكبائر سبع عَشْرة جَمَعْتُها من جملة الأخبار:

أربعة في القلب: الشرك، والإصرار علىٰ المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله تعالىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٠ و٦٦٧٥)، والترمذي [«صحيحه» (٢٤١٦/ ٣٠٢١)].

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨) عن أنس.

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغَموس، والسحر.
وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا.
وٱثنتان في الفرج: الزنىٰ، واللواطة.
وٱثنتان في اليدين: القتل، والسرقة.
وواحدة في الرِّجلين: الفرار من الزحف.
وواحدة في جميع البدن: وهي عقوق الوالِدَين.
وهٰذا يمكن أن يزاد عليه، ويُنقص منه، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله، والله أعلم.

فصل في كيفية توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

ٱعلم أن الناس يتفاوتون في الآخرة، كما يتفاوتون في الدنيا، وينقسمون إلىٰ أربعة أقسام: هالكين، ومُعَذَّبين، وناجين، وفائزين.

ومثال ذٰلك أن يستولي مَلك من الملوك علىٰ إقليم، فيقتل بعض أهله، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم، ويُخَلِّي بعضهم، فهم الناجون، ويخلع علىٰ بعضهم وَهُمُ الفائزون. وإذا كان الملك عادلاً، فلا يقسمهم كذٰلك إلا بٱستحقاق، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك، معانداً له في أصل الولاية، ولا يعذب إلا من قصّر في خدمته مع الاعتراف له بالملك، ولا يُخَلِّي إلا معترفاً له بالملك، ولم يقصر، ولا يخلع إلا علىٰ مَن أبلىٰ عمره في الخدمة والنصرة.

وكل واحد من هٰذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب علىٰ حَسَب أحوالهم. ويشهد لذٰلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر علىٰ الصراط **«كالبرق»**[1] الخاطف، ومنهم مَن يَبقىٰ في النار **«سبعة آلاف سنة»**[2]، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوُتٌ كثير.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢) عن أبي سعيد الخدري.
(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في كتابه «نوادر الأصول» من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

وأما ٱختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب.

وتفاوت منازل أهل السعادة علىٰ نحو ذٰلك في النعيم، فهٰذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة.

فأما من جهة التفصيل، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان، وٱجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يُصِرُّ عليها، فيشبه أن يُعفىٰ عنه، فقد نص القرآن علىٰ أن ٱجتناب الكبائر مكفر للصغائر.

وهٰذا إما أن يلتحق بالمُقَرَّبين، أو بأصحاب اليمين، وذٰلك بحسب إيمانه ويقينه، فإن قَلَّ أو ضعف، دنت منزلته، وإن كثر وقوي، عَلَتْ منزلته.

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالىٰ، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر، لأن بحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغوص فيه الغَوّاصون بقدر قواهم، فأعلىٰ درجات أصحاب اليمين: أدنىٰ درجات المقربين، هٰذا حال مَنِ ٱجتنب الكبائر وأَدىٰ الفرائض.

فأما مَنِ ٱرتكب كبيرة، أو أهمل أركان الإسلام، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل، ٱلتحق بمن لم يرتكب، لأن «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١)، والثوب المغسول كالذي لم يَتّسخ أصلاً.

فأما إنْ مات قبل التوبة، فأمره خطر، إذْ ربما يكون موته علىٰ الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً، فإنه قابل للانحلال بأدنىٰ شك وخيال، والعارف الموقن أبعد من أن يُخاف عليه سوء

---

(١) «صحيح الجامع الصغير» (٣٠٠٨) طبع المكتب الإسلامي.

الخاتمة. ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار، ثم ينزل البُلْه المُقَلِّدون الجنة، وينزل العارفون المستبصرون أعلىٰ عليين، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكْم ظاهر الأسباب، يضاهي حكم الطبيب علىٰ مريض بأنه يموت لا محالة، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلىٰ مريض آخر بأن عارضه خفيف، وعلاجه هين، فإن ذٰلك ظن يصيب غالباً، وقد تثوب إلىٰ المُشرف علىٰ الهلاك نفسُه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يُساق إلىٰ ذي العارض الخفيف أجَله من حيث لا يطلع عليه، وذٰلك لأسرار الله تعالىٰ الخفيَّة، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتَبها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف علىٰ كنهها، وكذٰلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاَطّلاع عليها، وكذٰلك يجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته، والغضب علىٰ المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد علىٰ التقوىٰ، والتقوىٰ في القلب، وأحوال القلب قد تخفىٰ علىٰ صاحبه، فكيف علىٰ غيره!؟!

وأما الناجون، ونعني بالنجاة: السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هٰذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ويصلح أن يكونوا علىٰ الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون، وهم المقربون والسابقون، وهٰؤلاء الذين لا ﴿تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وليس حرصهم علىٰ الجنة، بل علىٰ لقاء الله ﷻ والنظر إليه.

ومثالهم مثال المحب، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ولا همَّ له سوىٰ محبوبه، فهٰؤلاء الواصلون إلى قرَّة أعين، لا تخطر علىٰ قلب بشر، فهٰذا القدر كافٍ في بيان توزع الدرجات علىٰ الحسنات.

فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اَعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة.

وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»**[١].

واعلم أن العفو عن كبيرة قَدِ انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجىٰ من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذٰلك قطرات من الماء تقع علىٰ حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصُبَّتْ عليه لم تؤثر، ولهٰذا قال عليه السلام: **«أَحَبُّ العمل إلىٰ الله أَدْوَمُهُ وإن قَلَّ»**[٢].

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالىٰ، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالىٰ، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذُباب وقع علىٰ أنفه، فقال به هٰكذا. أخرجاه في «الصحيحين».

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالىٰ، فإذا نظر إلىٰ عظمة من عصىٰ، رأىٰ الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أَدَقُّ في أعينكم من الشعر إنْ كنا لَنَعُدُّها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الْمُوْبِقات[٣].

وقال بلال بن سعد رحمه الله: لا تَنْظُرْ إلىٰ صِغَرِ الخطيئة، ولكن انْظرْ إلىٰ عَظَمة مَن عَصيتَ.

ومِنَ الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أَمَا رأيتني كيف مزقت عِرْض فلان، وذكرت مساويه حتىٰ خَجَّلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغَبَنْته، فهٰذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

---

(١) في «مسند الفردوس» عن ابن عباس (٧٩١٤). وهو ضعيف انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٦٣٠٨).

(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٨٢) حاشية (١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالىٰ وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذٰلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً.

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«كل أمتي مُعافىً إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»**[1].

ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدىٰ به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله علىٰ الظَّلَمة مع ترك الإنكار عليه، وإطلاق اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعِلْم الجَدَل، فهٰذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقىٰ شره مُسْتطيراً في العالَم، فطوبىٰ لِمَن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

وفي الحديث: **«من سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وِزْرها ووزر مَن عَمِل بها بعده من غير أن يَنقص من أوزارهم شيء»**[2].

فعلىٰ العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب، **والثانية**: إخفاؤه إذا أتاه.

وكما تتضاعف أَوزار العلماء إذا أُتبعوا علىٰ الذنوب، كذٰلك تتضاعف حسناتهم إذا أُتبعوا علىٰ الخير.

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلىٰ التقلُّل أَميل، فإن الناس ينظرون إليه.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٤٥١٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥١ و١٩١٥٣)، والنسائي [«صحيح سننه» (٢٣٩٤)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (١٦٨/٢٠٣)] عن جرير.

وينبغي له الاحتراز مما يُقتدىٰ به فيه، فإنه متىٰ ترخص في الدخول علىٰ السلاطين وجمع الحطام، فٱقتدىٰ به غيره، كان الإثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

وقد روينا أن ملكاً كان يُكْرِه الناس علىٰ أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جَدْياً فكل منه، فلما دخل قُرِّب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك: إنه جَدْيٌ، فقال: ومن أين يعلم حالي من يَقتدي بي.

فصل في شروط التوبة

وٱعلم أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذٰلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن مَنِ ٱستشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه، طال بكاؤه، وٱشتدت مصيبته، وأيُّ عزيز أعزُّ عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأيّ سبب أدلّ علىٰ نزول العقوبة من المعاصي؟ وأيّ مُخْبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه ٱشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشدّ من النار، ولا المرض أدلّ علىٰ الموت من المعاصي علىٰ سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها، مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس أو بِنِيّة غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها.

وكذٰلك إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حج، أو غير ذٰلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش علىٰ ذٰلك ويتداركه.

وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن كل معصية صدرت

منه، وينظر فيها، فما كان من ذٰلك فيما بينه وبين الله تعالىٰ، فالتوبة منه **«الندم والاستغفار»**[(١)].

ثم ينظر إلىٰ مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وقال النبي ﷺ: **«أتبع السيئة الحسنة تَمْحُها»**[(٢)].

مثال ما ذكرنا: أن يكفِّر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفِّر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويَقِفَه فليفعل، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال. وعلىٰ هٰذا فاَسلُك سبيل المضادّة، فإن الأمراض تُعالَج بضدها، فهٰذا حكم ما بينه وبين الله تعالىٰ.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالىٰ، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قَدِ ٱرتكب نَهْيَه تعالىٰ، فيتدارك ذٰلك بالندم والعزم علىٰ ترك مثل ذٰلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المُضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفِّر غَصْب الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء علىٰ أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق.

هٰذا فيما يتعلق بحق الله تعالىٰ، فإذا فعل ذٰلك، لم يَكْفِ حتىٰ يخرج من مظالم العباد. ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب:

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأً أَوصل الدِّيَةَ إلىٰ مستحقها، إمّا منه أو من عاقِلَتِهِ، وإن قتل عمداً، وجب عليه القِصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لوَلِيِّ الدَّمِ، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمْره، بخلاف

---

(١) هو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٠٨ و٢٥٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (١٦١٨/١٩٨٧)] عن أبي ذر، وأحمد (٢٢٠٥٤) عن معاذ. وهو في «صحيح الجامع» (٩٧)، و«المشكاة» (٥٠٨٣).

ما لو زنىٰ، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حَدٌّ لله تعالىٰ، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلىٰ الوَلِيِّ حتىٰ أقام عليه الحد، وقع ذٰلك موقعه، وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالىٰ، بدليل قصة ماعِزٍ والغامِدِيّة(١).

وكذٰلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتَّلبيس في المعاملات، فيجب عليه رد ذٰلك إلىٰ أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلىٰ أصحاب المظالم، وليؤدِّ إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر علىٰ أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذٰلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في الاقتصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تَفِ بذٰلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هٰذا حكم المظالم الثابتة في الذِّمّة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذٰلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن ٱختَلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية علىٰ الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، ولْيَسْتحِلّه، ولْيُعَرِّفْه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذٰلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذىٰ، كنسبته إلىٰ عيب من خفايا عيوبه، أو كَزِنىً بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولا بد أن يَبقىٰ في مثل ذٰلك مظلمة تُجْبَرُ بالحسنات يوم القيامة، وكذٰلك من مات من هٰؤلاء، فإنه يفوت أمره، ولا يُتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عِوَضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برُجحان الحسنات.

---

(١) مسلم (١٦٩٥) عن بريدة. في الرواية الأولىٰ توبة ماعز، وفي الرواية الثانية توبة الغامدية.

فصل: ومن شرط التوبة الصحيحة العزم علىٰ ألا يعود في المستقبل إلىٰ تلك الذنوب، ولا إلىٰ أمثالها، ويعزم علىٰ ذٰلك عزماً مؤكداً.

مثال ذٰلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضره في مرضه، فيعزم عزماً جزماً ألاّ يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام في مرضه ذٰلك، فإن هٰذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولٰكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذٰلك للتائب في أول أمره إلاّ بالعُزْلة، والصمت، وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوتٍ حلالٍ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات.

قال بعضهم: مَنْ صَدَقَ في ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يُبْتَلَ بها. وقال: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يَعُدْ إليه أبداً.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولىٰ: تائب يستقيم علىٰ التوبة إلىٰ آخر عمره، ويتدارك ما فرَّط من أمره، ولا يحدّث نفسه بالعود إلىٰ ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهٰذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات.

وتُسمّىٰ هٰذه التوبة: **النَّصوحَ**، وتُسمّىٰ هٰذه النَّفْس: **المُطْمَئِنة**، وهٰؤلاء يختلفون، منهم مَن سَكنتْ شهوته تحت قهر المعرفة فَفَتَرَ نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولٰكنه يُبتلىٰ بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً علىٰ الإقدام عليها، وكلما أتىٰ شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم علىٰ الاحتراز من أسبابها، فهٰذه هي **النفس اللَّوَّامة** لأنها تلوم صاحبها علىٰ ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهٰذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولىٰ، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر

مَعْجُونٌ بِطِينة الآدميِّ، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سَعْيه أن يغلب خيُره شرَّه، حتىٰ يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كِفَّةُ السيئات، فبعيد.

وهٰؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إذْ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢]. وإلىٰ هٰذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ: «**إن الله يُحِبُّ المؤمن المُفَتَّنَ التوّاب**»[١].

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر علىٰ الاستقامة مُدّة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فَيُقْدِم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذٰلك مواظب علىٰ الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يَوَدُّ لو أقْدره الله علىٰ قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهتْ ندم، لٰكنه يَعِدُ نفسه بالتوبة عن ذٰلك الذنب، فهٰذه النفس تُسمّىٰ **المسؤولة**، وصاحبها من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ فأمر هٰذا من حيث مواظبته علىٰ الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مَرْجُوٌّ لقوله تعالىٰ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [النجم: ١٠٢]. وعاقبته مُخْطِرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يُخْتَطف قبل التوبة، فإن الأعمال بالخواتيم، فعلىٰ هٰذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقبِ الأنفاس، ولْيَحْذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة علىٰ الاستقامة، ثم يعود إلىٰ الذنوب منهمكاً من غير أن يُحَدِّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف علىٰ فعله، فهٰذا من المُصِرِّين، وهٰذه النفس هي **الأمّارة بالسوء**، ويُخاف علىٰ هٰذا سوء الخاتمة.

---

(١) موضوع. رواه عبد الله بن أحمد ١/ ٨٠ (٦٠٥) و١/ ١٠٣ (٨١٠) عن علي بن أبي طالب. وهو في «ضعيف الجامع» (١٧٠٥)، و«الضعيفة» (٩٦).

فإنْ مات هٰذا علىٰ التوحيد، فإنه يُرجىٰ له الخلاص من النار، ولو بَعْدَ حينٍ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسببٍ خَفِيٍّ لا يُطلع عليه، إلا أن التعويل علىٰ هٰذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالىٰ كريم، وخزانته واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب دينار. فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً، فٱجْلِسْ في بيتك لعله يرزقك، ٱسْتَجهل قائل هٰذا، وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هٰكذا النجاة بالتقوىٰ.

فصل

[بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب]

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تُضادُّ ما عمل من السيئات، لِتَمْحُوَها وتُكَفِّرَها، والحسنات المُكفِّرة تكون بالقلب واللسان والجوارح، علىٰ حَسَبِ السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التَّضَرُّعِ والتذلُّل، وأما اللسان، فالاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رَبِّ ظلَمتُ نفسي فٱغفر لي.

وروي في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويُحْسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله ﷻ، إلا غفر له**»(١).

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

فصل في دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

ٱعلم أنه لا يقف علىٰ الدواء من لا يقف علىٰ الداء، إذْ لا معنىٰ للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تُضادُّ الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر علىٰ قطع الأسباب المحركة للشهوة.

والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجونٌ يُعجن من حلاوة العلم

---

(١) أخرجه أحمد (٢)، والترمذي [«صحيحه» (٣٣٣/٤٠٦ و٢٤٠٤/٣٠٠٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١١٤٤/١٣٩٥)] عن أبي بكر. وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٣٨)، و«المشكاة» (١٣٢٤).

ومرارة الصبر، كما يجمع في السَّكَنْجَبِين حلاوةُ السكر وحموضة الخَلِّ، فيحصل بمجموعهما قَمْعُ الصفراء.

والأطباء لهٰذا المرض هُمُ العلماء، إنه مرض القلوب، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:

أحدها: أن المريض لا يدري أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هٰذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موتٌ مُشاهَدٌ يَنفِرُ الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلّتِ النفرة عن الذنوب وإنْ عَلِمها مرتكبها، فلذٰلك تراه يَتّكل علىٰ فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير ٱتّكال.

الأمر الثالث، وهو الداء العُضال: فَقْدُ الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مَرِضوا في هٰذه الأعصار، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هٰذا الداء علىٰ الأطباء، فلم يقدروا علىٰ تحذير الخلق ٱستنكافاً من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؟ [البقرة: ٤٤]. فبهٰذا السبب عَمَّ الداء وٱنقطع الدواء.

فإن قيل: فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه من الخلق؟ =

= فالجواب: أن ذٰلك يطول، لٰكنا نشير إلىٰ الأعمال النافعة في ذٰلك، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المُخَوِّفة للمُذْنبين، وما ورد في الأخبار والآثار من ذٰلك، ويَمْزُج ذٰلك بمدح التائبين.

النوع الثاني: حكايات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحَالِ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرىٰ لداود وسليمان ويوسف عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولم يُورِد القرآن هٰذه الأشياء إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معاجلتهم بذٰلك، والأشقياء يُمْهَلون ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾

[آل عمران: ١٧٨]، ولأن عذاب ﴿ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ [طه: ١٢٧] فينبغي أن يكثر من هٰذا علىٰ أسماع المُصِرِّين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو سبب جناياته، فرُبَّ عَبْدٍ يتساهل في أمرِ الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لِفَرْط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها، كما قال النبي ﷺ: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

وقال الفُضَيْل بن عِيَاضٍ: إني لأعصي الله، فأعرف ذٰلك في خُلُق حِماري وخادمي.

وقال أبو سليمان الدارانيُّ: الاحتلام عقوبة، ولا تفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتىٰ تعلو قلبه، وذلك الرَّانُ الذي ذكر الله ﷻ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]**»(٢). قال التِّرمِذيُّ: حديث حسن صحيح.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحسنة نُور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظُلْمة في القلب، ووَهَنٌ في البدن.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنىٰ، والقتل، والكبر، والحسد، والغِيبة.

وينبغي أن يَكون طبيباً يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أوصني، قال: «**لا تَغْضَبْ**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٠٩ و ٢٢٤٣٤)، وابن ماجه [«ضعيف سننه» (٨٧٢/ ٤٠٢٢)] عن ثوبان. وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (١٤٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٣٤). وهو في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٢/ ٤٢٤٤).

(٣) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٢٢٤) حاشية (١).

وقال آخر: أوصني؛ فقال: «**عليك باليأس مما في أيدي الناس**»[(١)].

فكأنه تخايل في الأول مخايل الغضب، وفي الثاني مخايل الطمع.

وهٰذا الذي ذكرنا هو علاج الغَفْلة، فيبقىٰ علاج الشهوة، وطريق علاجها يُؤخذ ممّا ذَكَرْناه في (كتاب: رياضة النفس)، ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوُل ما يضره، وإنما يحمله علىٰ ذٰلك شدة شهوته، أو غفلته عن مَضَرَّته، فلا بد من مَرارة الصبر، وكذٰلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبتْه الشهوة، فصار لا يقدر علىٰ حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة، فينبغي أن يستحضر المُخَوِّفات التي جاءت في كتاب الله تعالىٰ، وسنة رسوله ﷺ، فإذا ٱشتد خوفه تباعد عن الأسباب المُهَيِّجة للشهوة.

والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المُشتهىٰ، والنظر إليه، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذٰلك لا يتم إلا بالصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل، ثم التفكر فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتتيسر الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذٰلك كله.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟ =

= فعن ذٰلك أجوبة:

منها: أن العقاب المَوْعود ليس بحاضر.

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يَعْزِم علىٰ التوبة، وقد وُعِدَ أن التوبة تَجْبُر ما فعل، وطول الأمل غالب علىٰ الطباع، فلا يزال يُسَوِّفُ بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل علىٰ الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه.

---

(١) أخرجه الحاكم عن سعد. وهو في «الصحيحة» (١٩١٤). ومضى له شاهد في الصفحة (٢٥٠) حاشية (٤).

وعلاج هٰذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت. ويعالج التسويف بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، والمُسَوِّف يبني الأمر علىٰ ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقىٰ، وإن بقي فربما لم يقدر علىٰ الترك غداً كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً؟ بل يتأكد بالاعتياد، ومن هٰذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال مَنِ ٱحتاج إلىٰ قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بِمَشَقَّةٍ شديدة، فقال:

أُؤَخِّرها سَنَةً ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيتِ ٱزداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ٱزداد ضعفه.

فالعَجَبُ مِن عَجْزِه مع قُوَّته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغَلَبة إذا ضَعُفَ وقَوِيَتْ.

وأما ٱنتظار عفو الله تعالىٰ، فعفو الله سبحانه مُمْكِنٌ، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخْذ بالحَزْم.

وما مثال ذٰلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فُقراء ينتظر من الله تعالىٰ أن يرزقه العثور علىٰ كَنْز في خِرْبةٍ، وهٰذا ممكن، إلا أن صاحبه مُلَقَّبٌ بالأحمق. والله سبحانه وتعالى أعلم.

٢٣ - كتاب الصّبر والشّكر

وهو شطران: الأوّل في:

فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذٰلك:

[بيان فضيلة الصبر]

وقد ذكر الله تعالىٰ الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

فما من قُرْبة إلا وأَجْرُها بتقديرٍ وحِسابٍ إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر «**قال الله تعالىٰ: والصوم لي وأنا أجزي به**»[١]. وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم[٢]، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]. والآيات في هٰذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**»[٣].

---

(١) متفق عليه، سلف في الصفحة (٥٤) حاشية (١).

(٢) ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩، والأنفال: ٤٦، ٦٦].

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (٢٠٥٣)، وأبو داود [«صحيحه» (١٤٤٧/ ١٦٤٤)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦٤٧/ ٢٠٢٤)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٤٢٥)] عن أبي سعيد الخدري.

وفي حديث آخر: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد**»[١].

وقال الحسن: الصبر كنز من[٢] كنوز الخير، لا يعطيه الله ﷻ إلا لعبد كريم عنده.

كان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها، وفيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

[بيان حقيقة الصبر ومعناه]

وٱعلم أن الصبر من خاصِّية الإنسان، ولا يُتَصوَّر في البهائم لِنُقْصانها، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها، ولا يتصور الصبر أيضاً في الملائكة لِكَمالها، فإن الملائكة جرِّدوا للشوق إلىٰ حضرة الرُّبوبية، ولم تُسَلَّطْ عليهم شهوة صارفة عنها حتىٰ يُحتاج إلىٰ مصادمة ما يَصُدّها عن حضرة الجلال.

وأما الإنسان فإنه يُخلق في ٱبتداء الصِّبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، وليس له قوةُ الصبر، فإذا تحرك العقل وقوي، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سِن التمييز، وينمو علىٰ التدرُّج إلىٰ سن البلوغ، كما يبدو نور الصبح إلىٰ أن يطلع قرص الشمس، ولٰكنها هداية قاصرة لا مُرْشِد لها إلىٰ مصالح الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضي ما يحب، وباعث الشرع والعقل يَمنع، والحرب بينهما قائمة، ومعركة هٰذا القتال قلْب العبد، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات، فإن ثَبَتَ حتىٰ قهر الشهوة: ٱلْتَحق بالصابرين، وإن ضعف حتىٰ غلبتِ الشهوة ولم يصبر علىٰ دفعها: ٱلْتَحق بأتباع الشياطين، وإذا

(١) أخرجه الديلمي عن أنس مرفوعاً، والبيهقي في «الشعب» عن علي موقوفاً. وهو ضعيف جداً مرفوعاً، وضعيف موقوفاً. كذا في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٣٥٣٥).

(٢) لفظ (كنز من) لم ترد في المطبوع.

ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوىٰ، فهٰذه المقاومة من خاصّة الآدَميِّين.

فصل

[بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلىٰ ما عنه الصبر]

اعلم أن الصبر علىٰ ضربين:

أحدهما: بدني، كتحمُّل المشاقِّ بالبدن، وكَتَعَاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني عن مُشْتَهَيَات الطبع ومُقْتَضَيات الهوىٰ، وهٰذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سُمِّيَ عِفّةً، وإن كان الصبر في قتال، سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ، سمي حِلْماً، وإن كان في نائبة مُضْجِرة، سمي سَعَةَ صَدْرٍ، وإن كان في إخفاء أمْر، سمي كتمان سِرٍّ، وإن كان في فُضُولِ عَيْشٍ، سمي زُهْداً، وإن كان صبراً علىٰ قدر يسير من الحظوظ، سمي قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يُقْتَصر فيها على اسم الصبر، فقد بَانَ بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المُتعلَّقات.

[بيان مظان الحاجة إلىٰ الصبر، وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال]

ثم اعلم أن العبد لا يَستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذٰلك أن جميع ما يلقىٰ العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول: ما يوافق هواه: من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة والأتباع، وجميع مَلاَذِّ الدنيا، فالعبد محتاج إلىٰ الصبر في جميع هٰذه الأمور، فلا يَركُن إليها، ولا ينهمك في التلذُّذ بها ويراعي حق الله تعالىٰ في مالِهِ بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتىٰ لم يضبط نفسه عن الانهماك في المَلاذِّ والركون إليها، أخرجه ذٰلك إلىٰ البَطَرِ والطُّغيان. حتىٰ قال بعض العارفين: المؤمن يصبر علىٰ البلاء، ولا يصبر علىٰ العافية إلا صِدِّيق.

وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: ابْتُلينا بالضراء فصبرنا، وابْتُلينا بالسَّرّاء، فلم نصبر، ولذٰلك قال الله تعالىٰ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

فالرّجلُ كُلُّ الرجلِ مَنْ يَصبر علىٰ العافية، وهٰذا الصبر مُتَّصلٌ بالشكر، فلا يَتِمُّ إلا بالقيام بحقِّ الشكر، وإنما كان الصبر علىٰ السّرّاء شديداً، لأنه مَقْرُونٌ بالقدرة، والجائع عند غَيْبة الطعام أَقْدَرُ علىٰ الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ.

النوع الثاني: المخالف للهوىٰ، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلىٰ الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً، كالحج، والجهاد.

ويحتاج المريد إلىٰ الصبر علىٰ طاعته في ثلاثة أحوال:

حال قبل العبادة، وهي تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء.

وحال في نفس العبادة، وهي ألا يغفل عن الله تعالىٰ في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلىٰ الفراغ من العمل.

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهي الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسُّمْعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصَّدَقة عن المَنِّ والأذىٰ أبطلها[1].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلىٰ ذٰلك!

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصي اللسان من الغِيبة، والكذب والمِراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترىٰ الإنسان إذا لبس حريراً، ٱستنكر ذٰلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذٰلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر علىٰ الصبر، لم يُنجِهِ إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختبار، كالمصائب، مثل موت الأَحِبَّة، وهلاك الأموال، وعمىٰ العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر علىٰ ذٰلك من أعلىٰ المقامات، لأن سنده اليقين.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُصِبْ منه**»(١).

وقريبٌ من هٰذا القسم، الصبر علىٰ أذىٰ الناس، كالذي يُؤذىٰ بقول أو فعل أو جناية علىٰ نفسه أو ماله، والصبر علىٰ ذٰلك يكون بترك المكافآت.

والصبر علىٰ أذىٰ الناس من أعلىٰ المراتب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصبر ثلاثة: صبر علىٰ المصيبة، وصبر علىٰ الطاعة، وصبر علىٰ المعصية، فمن صبر علىٰ المصيبة حتىٰ يَرُدَّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمئة درجة، ما بين الدرجة إلىٰ الأخرىٰ كما بين السماء والأرض، ومن صبر علىٰ الطاعة كتبت له ستمئة درجة، ما بين الدرجة إلىٰ الدرجة كما بين تُخُومِ الأرض إلىٰ منتهىٰ العرش، ومن صبر عن المعصية كتب**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وأحمد (٧٢٣١) عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٦١١٠)، و«مشكاة المصابيح» (١٥٣٦).

الله له تسعمئة درجة، ما بين الدرجة إلىٰ الدرجة كما بين تخوم الأرض إلىٰ منتهىٰ العرش مرتين»[١].

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة، منها ما أخرجاه في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله ﷻ بها عنه، حتىٰ الشوكةِ يشاكها»**[٢].

وفي حديث آخر: **«ما يصيب المسلم من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذىً ولا غَمٍّ، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله له من خطاياه»**[٣]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: **«لا يزال البلاء بالمؤمن أوِ المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتىٰ يَلقىٰ الله وما عليه خطيئة»**[٤].

وفي حديث سعد بن أبي وقّاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: **«الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثل من الناس، يُبتلىٰ الرجلُ علىٰ حَسَب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رِقّة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتىٰ يمشي علىٰ الأرض وليس عليه خطيئة»**[٥]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «فضل الصبر»، وأبو الشيخ في «الثواب» عن علي. وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (٣٥٣٢).
من قوله: «ومن صبر . . .» إلىٰ قوله: «مرتين» لم يرد في المطبوع، وإنما هو من نسختنا الثانية فقط.

(٢) رواه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢). وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٨٣).

(٣) رواه البخاري (٥٦٤١ و٥٦٤٢)، ومسلم (٤٥٧٣) وهو في «صحيح الجامع» (٥٨١٨)، و«المشكاة» (١٥٣٧).

(٤) أخرجه أحمد (٩٧٩٢)، والترمذي [«صحيحه» (١٩٥٧/٢٣٩٩)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٨١٥)، و«الصحيحة» (٢٢٨٠).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (١٩٥٦/٢٣٩٨)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٢٤٩/٤٠٢٣)]، والدارمي ٢/ ٣٢٠. وهو في «المشكاة» (١٥٦٢)، و«الصحيحة» (١٤٣).

ورُوينا عنِ النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله تعالىٰ: (إذا وَجّهتُ إلىٰ عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم ٱستقبل ذٰلك بصبر جميل، ٱستَحْيَيْتُ منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً، أو أنشر له ديواناً**»[1].

فصل

[(آداب الصبر)]

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**»[2]. حديث صحيح.

ومن الآداب الٱسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سَلَمَةَ رضي الله عنها، وهو من رواية مسلم[3].

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز، قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يَسُرّ الشامت.

ومن حسن الصبر ألاّ يظهر أثر المصيبة علىٰ المصاب، كما فعلت أمّ سُلَيْمٍ ٱمرأة أبي طلحة لما مات ابنها.

وحديثها مشهور في «صحيح مسلم»[4].

وقال ثابتٌ البُنَانِيُّ: مات عبدالله بن مُطَرِّفٍ، فخرج مُطَرِّفٌ علىٰ قومه في ثياب حسنة وَقَدِ ٱدَّهَنَ، فغضبوا وقالوا: يموت عبدالله، ثم تخرج في ثياب من هٰذه مُدَّهِناً؟ قال: أَفَأَسْتَكِين لها، وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إليَّ من الدنيا وما فيها: قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

---

(١) أخرجه ابن عدي من حديث أنس، وسنده ضعيف، كما قال الحافظ العراقي.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٢)، ومسلم (٩٢٦) عن أنس.

(٣) أخرجه مسلم (٩١٨)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٢٦٧٦/ ٣١١٩)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٧٨٨/ ٣٥١١)].

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤) بعد (٢٤٥٧) من حديث ابنها أنس بن مالك.

وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَتِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة]. وقال مُطَرِّفٌ: ما شيء أُعطي به في الآخرة قَدْرَ كُوزٍ من ماء، إلا وَدِدْتُ أنه أُخذ مني في الدنيا.

وكان صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ في مَغْزىً له ومعه ٱبنه، فقال: (أي بُنَيّ؟ تقدم فقاتلْ حتىٰ أَحْتَسبك)، فحمل فقاتل حتىٰ قتل، ثم تقدم فقتل، فٱجتمع النساء عند أُمِّه مُعاذَةَ العَدَوِيَةِ، فقالت: مرحباً إن كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ تُهَنِّئْنَنِيْ، وإن كنتن جئتنّ لغير ذٰلك فٱرْجِعْنَ.

وإذا كانتِ المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نِعَم الله ﷻ الخَفيّة.

وروىٰ أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:

«إذا مرض العبد بعث الله إليه مَلَكين، فيقول: ٱنظروا ما يقوله لِعُوّاده، فإن حَمِد الله تعالىٰ إذا دخلوا عليه، رَفَعا ذٰلك إلىٰ الله تعالىٰ وهو أعلم. فيقول: لعبدي إن أنا توفّيتُه أنْ أُدخله الجنة، وإن أنا شفيتُه أنْ أُبدله لحماً خيراً من لحمه، ودَماً خيراً من دَمِهِ، وأن أُكَفر عنه خطاياه»[1].

وقال علي ﷺ: من إجلال الله ومعرفة حقه: ألا تَشْكُوَ وَجَعَكَ، ولا تذكر مصيبتك.

وقال الأَحْنَفُ: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذَكرتها لأحد.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبدالله؟ قال: بخير، في عافية. فقال له: حُمِمْتَ البارحة؟ قال: إذا قلت لك: (أنا في عافية) فحَسْبُكَ، لا تخرجني إلىٰ ما أكره.

وقال شَقِيقٌ البَلْخِيُّ: من شكا مصيبة به إلىٰ غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً.

وقال بعض الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلىٰ ثوابها.

---

(١) هو من مراسيل عطاء عند مالك: ٢/ ٩٤٠ وتفرد برفعه ـ من مسند أبي هريرة ـ علي بن محمد الزياباذي ـ وفيه لين، فرواه عن معن عن مالك، أخرجه عنه الدارقطني في «الغرائب» وابن صخر في «عوالي مالك».

وحكاياتهم مشهورة في ذٰلك:

منها: ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر، وسَوّىٰ عليه، ثم آستوىٰ قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك الله يا بنيّ؟ قد كنت بَرّاً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشدّ بك سروراً، ولا أرجىٰ بحَظّي من الله تعالىٰ فيك منذ وضعتك في هٰذا المنزل الذي صيَّرك الله إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدميِّ علىٰ ذٰلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حَكَيْتُم، فهو أبعد. =

= والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو علىٰ مكروه، ولا يُنهىٰ عما لا يدخل تحت الكسب، وهو آنزعاج الباطن، وإنما يُنهىٰ عن المُكْتَسَبِ. كَشَقِّ الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذٰلك فرح شرعي لا طَبْعِيٌّ، إذِ الطَّبْعُ لا بد له من كراهة المصائب.

ومثال هٰذا: مثال رجل مريض وُصِفَتْ له شَرْبةٌ لِمَرَضِهِ، فسعىٰ في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالاً، فلما تَمّتْ، فرح بتمامها، وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طَبْعه، فما زالت عنه كراهة التناوُل أصلاً. ولو أن مَلِكاً قال لرجل فقير: كلما ضَربْتك بهٰذا العُود اللطيف ضربة أعطيتُك ألف دينار، لأَحَبَّ كثرة الضرب، لا لأنه لا يُؤْلِم، ولٰكن لما يرجو من عاقبته، وإنْ آنكاهُ الضرب، فكذٰلك السلف تَلَمَّحوا الثوابَ، فهان عليهِمُ البلاء.

فصل في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اِعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء[1]، فالصبر وإن كان شاقّاً فتحصيله مُمْكِنٌ بمَعْجونِ العلم والعمل، فمنهما تُركَّبُ الأدوية لأمراض القلوب

---

(١) ففي الحديث: **«ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»**. «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٥٥٥٩).

كلها، فيحتاج كل مرض إلىٰ علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا ٱختلفَتِ ٱخْتَلف العلاج، إذْ معنىٰ العلاج: مُضَادَّة العِلّة.

ونضرب لك مثالاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلىٰ الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فَرْجَهُ ولا عَيْنه ولا قَلْبه، فعلاج ذٰلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار علىٰ قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه المُهَيِّجة، فإنه إنما يُهيِّجُ بالنظر، والنظر يُحرِّك القلب، والقلب يحرّك الشهوة، ودواء هٰذا: العُزلةُ، والاحتراز عن مَظانّ وقوع البصر علىٰ الصُّوَرِ المُشْتَهاة، فإن النظرَ سَهْمٌ مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المُشتهىٰ، وذٰلك بالنكاح، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام: ففي المباحات غُنْيةٌ عنه، وهٰذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يُضعِف، ولا يقمع الشهوة بخلاف هٰذا.

وينبغي للإنسان أن يعوِّد نفسه المجاهدة، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوىٰ، غلبها متىٰ أراد.

وٱعلم أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كَفُّ الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذٰلك علىٰ من تفرغ وٱعتزل، فإن الوساوس لا تَزال تُجاذِبه، ولا علاج لهٰذا إلا قطع العلائق، وجعْل الهمّ هَمّاً واحداً، وصرف الفكر إلى ملكوت السماوات والأرض وعجائب صُنع الله تعالىٰ، وجميع أبواب معرفة الله تعالىٰ، حتىٰ إذا ٱستولىٰ ذٰلك علىٰ قلبه، دَفَعَ ٱشتغالُه مجاذبة الشيطان ووَسْواسه، وإن لم يكن له سير الباطن فلا يُنجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذٰلك إلىٰ تكليف القلب الحضورَ، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهٰذا الذي يمكن أن يُنال بالاكتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومَبالغ ما يَرِدُ من لُطف الله تعالىٰ من الأحوال والأعمال، فذٰلك يجري مجرىٰ الصيد، وهو بحَسَبِ الرزق، فقد يَقِلُّ الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمُعَوَّل وراء هٰذا الاجتهاد علىٰ جذبة من جذبات الرحمٰن ﷻ، فإنها تُوازي أعمال الثَّقَلَيْنِ، وليس ذٰلك إلىٰ ٱختيار العبد، بَلِ ٱختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن يَقْلع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلىٰ ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين]، لا يُجذب إلىٰ أعلىٰ ﴿عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين] وكل مَنهوم بالدنيا هو مُنجذِبٌ إليها، فقطع العلائق الجاذبة، هو المراد بقوله ﷺ: «**إن لربكم في أيام دهركم نفحات**[1]، **ألا فَتعرَّضوا لها**»[2].

فالذي علينا: تفريغُ المَحَلِّ، والانتظار لنزول الرحمة، كالذي يُصْلِح الأرض ويُنقيها من الحشيش، ويضع فيها البَذْرَ، وكل ذٰلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يَدري متىٰ يُقدِّر الله أسباب المطر، إلا أنه يَثِقُ بفضل الله تعالىٰ أنه لا يُخلي سنة عن مطر، وكذٰلك قلما تَخلو سنةٌ وشهرٌ ويوم عن جذبة من الجَذَبات ونفحة من النَّفَحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طَهَّر القلب من حشيش الشهوات، وبذر فيه بَذْرَ الإرادة والإخلاص، وعَرَّضه لمَهَابِّ ريح الرحمة، وكما يَقوىٰ ٱنتظارُ الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، كذٰلك ٱنتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند ٱجتماع الهَمِّ ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان. والهِمَمُ والأنفاس أسبابٌ لاسْتِدْرار رحمة الله تعالىٰ بحِكْمته وتقديره.

---

(١) نفح الريح: هبوبها. ونفح الطيب: إذا فاح.
(٢) رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (١٩١٧).

الشطر الثاني من الكتاب في:
الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران] وقال الله تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ]، وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، مع كونه وقف أشياء كثيرة غيرَه: علىٰ المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢، آل عمران: ٣٧. النور: ٣٨. الشورىٰ: ١٩] وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥].

ولما عرف إبليس قَدْرَ الشكر قال في الطعن علىٰ بني آدم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

وروي أن النبي ﷺ قام حتىٰ تَفَطَّرَتْ[1] قَدَماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أَتَصْنَعُ هٰذا وقد غفر الله لك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ [الفتح: ٢] قال: «**أفلا أكون** ﴿عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء]»[2].

وعن معاذ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إني أُحبك فقل: اللٰهم أَعِنِّي علىٰ ذِكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[3].

---

(١) أي: تشققت.
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨٢٠).
(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٣٤٧/ ١٥٢٢)، و«صحيح سنن النسائي» (١٢٣٦). وانظر «مشكاة المصابيح» (٩٤٩)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٣٥). وهذا الدعاء مقيد في روايات الحديث في أدبار الصلوات.

فصل

[بيان حد الشكر وحقيقته]

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح:

أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويُضمره للخلق كافة.

وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح، فهو ٱستعمال نعم الله في طاعته، والتَّوَقِّيْ مِنْ الاستعانة بها علىٰ معصيته، فمِنْ شكرِ العينين أن تستر كل عَيْبٍ تراه لمسلم، ومِنْ ستر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهٰذا يدخل في جملة شكر هٰذه الأعضاء.

و الشكر باللسان: إظهار الرضا عن الله تعالىٰ، وهو مأمور به. قال رسول الله ﷺ: «**التحدُّث بالنعم: شُكر، وتَرْكها: كُفر**»(١).

وروي أن رجلين من الأنصار ٱلْتَقَيَا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحتَ؟ فقال: الحمد لله. فقال النبي ﷺ: «**قولوا هٰكذا**»(٢).

وروي أن رجلاً سَلَّم علىٰ عمر بن الخطاب ﷺ، فَرَدَّ عليه، ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قال: أَحْمَدُ الله.

فقال عمر: ذاك الذي أردتُ.

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهُمُ ٱستخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً، والمُسْتَنْطِق مُطيعاً.

وقال أبو عبد الرحمٰن الحُبُليُّ: إن الرجل إذا سَلَّم علىٰ الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمدُ الله إليك، قال: يقول المَلَكُ الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أَكْتُبه من الحامدين. فكان أبو عبد الرحمٰن إذا سئل كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك، وإلىٰ جميع خلقه.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «المسند» (١٨٤٠٨ و١٨٤٠٩ و١٩٢٩٨ و١٩٢٩٩) عن النعمان بن بشير بلفظ: «**التحدث بنعمة الله. . .**» وليس هو من رواية الإمام أحمد كما في المطبوع. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣٠١٤).

(٢) لم أره.

فصل

[بيان تمييز ما يحبه الله تعالىٰ عما يكرهه]

اَعلم أن فعل الشكر وترك الكُفرانِ، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالىٰ، إذْ معنىٰ الشكر اَستعمال نعمه في مَحَابِّهِ، ومعنىٰ الكُفْرانِ نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أوِ اَستعماله فيما يكره.

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مَدْرَكان:

أحدهما: السمع، ومُسْتَنَدُهُ الآيات.

والثاني: بَصيرة القلب، وهو النظر بعين الاَعتبار، وهٰذا الأخير عسير عزيز، ولذٰلك أرسل الله تعالىٰ الرسل، وسَهّل بِهِمُ الطُّرُقَ علىٰ الخَلْق، ومعرفة ذٰلك تُبنىٰ علىٰ معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يَطَّلع علىٰ حكم الشرع في جميع أفعاله، لم يُمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني: وهو النظر بعين الاَعتبار، فهو إدراك حِكمة الله تعالىٰ في كل موجود خَلَقه، إذْ ما خلق الله تعالىٰ شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذٰلك المقصود هو المحبوب.

وتلك الحكمة منقسمة إلى جليَّة وخفيَّة:

أما الجلية: فكالعالم بأن الحكمة في خَلْق الشمس أن يَحصل الليل والنهار، فيكون ﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ] والليل سباتاً فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهٰذا من جملة حكم الشمس، لا كُلّ الحكمة فيها، وكذٰلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة في خلق الكواكب، فخَفِيّة لا يَطّلع عليها كل الخلق، وقد يطّلعون علىٰ بعض ما فيها من الحِكَم، نحو كونها زينة للسماء[1]، وجميع

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات]. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢. الملك: ٥]. ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: ٦].

وقال الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن» مادة (كب): (والكواكب: النجوم البادية، ولا يقال لها كواكب إلا إذا بدت). اهـ. فالتفريق بين النجم والكوكب إنما هو من اَصطلاحات الفلكيين المتأخرين.

أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة، وكذٰلك أعضاء الحيوان، منها ما تَبين حِكمته بياناً ظاهراً، كالعلم بأن العين للإبصار، واليد للبطش، والرِّجل للمشي.

فأما الأعضاء الباطنة، كالمَرارة والكُلْية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلىٰ علم الله تعالىٰ، فكل مَنِ ٱستعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذٰلك الشيء علىٰ غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر بنعمة الله تعالىٰ فيه، فمن ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالىٰ في اليد، لأنها خُلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها غيره، وكذٰلك العين إذا نظر بها إلىٰ مُحَرم، فقد كفر نعمتها، ونعمة الشمس أيضاً، إذ الإبصار يتم بها، فالعين والشمس خُلِقتا لِيُبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما.

وٱعلم أن المراد من خَلْق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها، أن يستعين بها الخَلْقُ علىٰ الوصول إلىٰ الله تعالىٰ، ولا وصول إليه إلا بمحبته، والأنس به في الدنيا، والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أُنسَ إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام علىٰ الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقىٰ البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذٰلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذٰلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلىٰ الله هي ﴿ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر] بطول العبادة والمعرفة، ولذٰلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] فكل مَنِ ٱستعمل شيئاً في غير طاعة الله، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه علىٰ تلك المعصية.

ولنذكر مثالاً واحداً للحِكَم الخَفِيَّة التي ليست في غاية الخفاء، حتىٰ يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران علىٰ النعم، فنقول:

مِنْ نعم الله تعالىٰ خَلْق الدراهم والدنانير اللَّذَيْن بهما قِوَام الدنيا، وهما حَجَران لا منفعة في أعيانهما، ولكن يضطر الخلق إليهما، من حيث إن كل إنسان يحتاج إلىٰ أعيان كثيرة، في مَطْعَمه، ومشربه، وملبسه، ومركبه، وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قَدْراً من الزَّعْفَران مثلاً، وهو يحتاج إلىٰ جَمَلٍ يركبه، وآخر يَملك الجَمَل، وربما ٱستغنىٰ عنه، ويحتاج إلىٰ الزعفران، فلا بد بينهما من مُعاوضة، ولا بد في مقدار العِوَض من تقدير، إذْ لا يبذل صاحب الجَمَل جَمَلَهُ بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل، حتىٰ يُعطىٰ مثله في الوزن والصورة.

وكذا من يشتري داراً بثياب، أو عبداً بِخُفٍّ، أو دقيقاً بحمار، فهٰذه الأشياء لا تَناسب بينهما، فخَلَقَ الله تعالىٰ الدراهم والدنانير، حاكِمَيْنِ ومُتَوسِّطَين بين سائر الأموال، حتىٰ تُقدّر بهما، فيقال: هٰذا الجمل يساوي مئة، وهٰذا القَدْرُ من الزَّعْفَرانُ يُساوي مئة، فحصل التساوي بينهما حينئذ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنَّقْدَيْنِ، إذْ لا غرض في أعيانهما، فإنه لو كان في أعيانهما غَرَضٌ لم ينتظم الأمر، فخَلَقهما الله تعالىٰ لتتداولهما الأيدي، ويكونا حاكِمَين بين الأموال بالعدل، وجَعَلهما عزيزين في أنفسهما، ونسبتهما إلىٰ سائر الأموال نسبة واحدة، فمَنْ مَلَكَهُما، فكأنه ملك كل شيء.

إذا عرفت حِكمتهما، فكل من عَمِل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما، ولا يليق بحكمتهما، فقد كفر نعمة الله فيهما، فمن كنَزَهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حَبَسَ الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه، لأنه ضَيَّعهما ومنع الأيدي من تداولهما. ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلٰهية المكتوبة علىٰ صفحات الموجودات بخط إلٰهي لا يُدرك بعين البصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالىٰ بكلام سمعوه بواسطة رسوله ﷺ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة].

وكل مَنِ اتَّخذ الدراهم والدنانير آنِيَةً، فقد كفر الله فيهما، لأنه أسوأ حالاً ممن كَنَزَهما. ومثال ذٰلك مَنِ ٱستعمل حاكمَ البلد في الحِياكة والكَنْسِ والأعمال التي يقوم بها أخسُّ الناس. وذٰلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات ولا تكفي تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قِيَم الأشياء، فمن لم تنكشف له هٰذه الحكمة بالرحمة الإلٰهية قيل له: **«من شرب في إناء ذهب وفضة، فإنما يُجَرْجِرُ في بطنه نار جهنم»**[1]. وكذٰلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير، فقد أخرجهما عن مقصودهما، فهٰذا مثال لحكمة خفية من حكم النقدين.

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهٰذا المثال في غيره من جميع أمورك، في: حركتك، وسكونك، ونطقك، وسكوتك في كل فصل صادر منك، إما شكراً أو عكسه، وهو الكفر، وبعض ذٰلك تَصِفُهُ بالكراهة، وبعضه بالحَظْر.

ومن ذٰلك أن الله تعالىٰ خلق لك يَدَيْنِ، وجعل إحداهما أقوىٰ من الأخرىٰ، فٱستحقَّتْ بمزيد القوة رُجْحاناً وشَرَفاً علىٰ الأخرىٰ، وقدْ أحْوَجَكَ مَنْ أعطاك اليدين إلىٰ أعمال، بعضها شريفة، كأخْذِ المُصْحَفِ، وبعضها خَسيسة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذتَ المصحف باليسار، وأَزَلْتَ النجاسة باليمين، فقد عكستَ المقصود، وخصَصْتَ الشريف بما هو خسيس، فظَلَمْتَه.

وكذٰلك في الرِّجْلَين، إذا ٱبتدأت باليُسرىٰ في لبس الخُفِّ، فقد ظلمت اليُمنىٰ، لأن الخُفَّ وقاية الرِّجْل، وقِسْ علىٰ ذٰلك.

وكذٰلك نقول: من كَسَرَ غُصْناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة في خَلْق الأشجار، لأنها خُلقتْ للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس، وإنْ فعل ذٰلك في ملك غيره، فهو ظالم وإن كان محتاجاً إلا أن يأذن صاحبه.

---

(١) رواه مسلم ٣/ ١٦٣٥ (٢٠٦٥). وانظر «الإرواء» (٣٣).

فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

ٱعلم أن كل مطلوب يُسمّىٰ نعمة، ولٰكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأُخْرَوِيّةُ، وتسمية ما عداها نعمةً تَجَوُّزٌ، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدها: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم، وحُسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني: ما هو ضارٌّ فيهما جميعاً، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المآل، كالتلَذُّذِ، وٱتباع الشَّهَوات، فهو بلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سُمٌّ، فإنه يَعُدُّهُ نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذٰلك عَدَّه بلاءً.

القسم الرابع: الضارُّ في الحال، النافع في المآل، وهو نعمة عند ذوي الألباب، بلاء عند الجُهّال.

ومثاله: الدواء الشنيعُ مَذاقُه في الحال، الشافي في المآل من الأسقام، فالصَّبيُّ الجاهل، إذا كُلِّفَ شُرْبَهُ ظنه بلاء، والعاقل يَعُدُّه نعمة، وكذٰلك إذا ٱحتاج الصبي إلى الحجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأمّ تمنعه من ذٰلك لِفَرْطِ حبها وشَفَقَتِها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذٰلك، فالصبي يتقلد مِنَّةَ أُمّه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدوّاً، ولو عقل لعلم أن الأمّ هي العدو الباطن في صورة صديق، لأن مَنْعَها إياه من الحِجامة يسوقه إلىٰ أمراض ألَمُها أشدّ من ألَم الحِجامة، فالصديق الجاهل شَرٌّ من العدوّ العاقل، وكل إنسان صَديقُ نَفْسِه، وَلٰكن النَّفْسَ صديقٌ جاهل، فلذٰلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحَصْر والإحصاء

ٱعلم أن النعم تنقسم إلىٰ ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلىٰ ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية، فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلىٰ أربعة أمور: بقاء لا فَناء له، وسرور لا غَمَّ فيه، وعلم لا جهْل معه، وغِنىً لا فَقْر بعده، وهي السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثاني، فهو الوسائل إلىٰ السعادة المذكورة، وهي أربعة أقسام:

أعلاها: فضائل النفس، كالإيمان، وحُسن الخلق.

الثاني: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المُطيفة بالبدن، من المال والجاه والأهل.

الرابع: الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل، من الهداية والإرشاد، والتسديد، والتأييد، وكل هٰذه نعم عظيمة.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلىٰ النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟ =

= قلنا: هٰذه الأشياء جارية مجرىٰ الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.

أما المال، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية، كان كَسَاعٍ إلىٰ الهَيْجاء بغير سلاح، ولأنه يبقىٰ مستغرق الأوقات في طلب القُوْتِ، فيشغله عن تحصيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذٰلك.

وأما الجاه، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضَّيْمَ، ولا يَنْفَكُّ عن عدو يؤذيه، وظالم يُهَوِّشُ عليه، فيشغل قلبه، وقَلْبُه رأس ماله. وإنما تدفع هٰذه الشواغل بالعز والجاه.

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها فهي نعم، إذْ لا يَتِمُّ علم ولا عمل إلا بذٰلك.

وقد قال النبي صلّى الله عليه وسلّم:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري، وسيأتي في الصفحة (٤٨٦) حاشية (١).

ولمّا سئل: مَن خَيْرُ الناس؟ قال: «**من طال عمره وحَسُن عمله**»[(١)].

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمَذْمُومَيْنِ علىٰ الإطلاق.

وأما الهداية والرُّشْدُ والتسديد والتأييد، فلا خَفاء في كونها من أعظم النِّعمِ فلا يَستغني أحد عن الحاجة إلىٰ التوفيق، ولذٰلك قيل:

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله لِلْفتىٰ فَأَكْثَرُ ما يَجْني عليه ٱجتهادُهُ

فصل

[بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالىٰ وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء]

وٱعلم أنّا قد ذكرنا جملة من النعم، وجَعلْنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية، فلو أردْنا أن نستقصي الأسباب التي بها تَمّتْ هٰذه النعمة، لم نقدر عليها، ولٰكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جُمْلة الأسباب التي يتم بها الأكل علىٰ سبيل التلويح، لا علىٰ سبيل الاستقصاء، فنقول:

[نعم الله تعالىٰ في خلق أسباب الإدراك]

من جُمْلة نعم الله عليك أنْ خَلَقَ لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فٱنظرْ إلىٰ ترتيب حكمة الله تعالىٰ في الحواسّ الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولها: حاسَّة اللمس، وهو أول حسّ يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحسِّ أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتمّ لا مَحالة، فٱفتقرت إلىٰ حس تدرك به ما بَعُدَ عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بُعْدٍ، ولٰكن لا تدري من أيِّ ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتىٰ تعثر علىٰ الذي شممتَ رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هٰذا

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٦)، والترمذي [«صحيحه» (١٨٩٨/ ٢٣٢٩)] عن عبدالله بن بسر، وأحمد أيضاً (٢٠٣٦٢)، والترمذي [«صحيحه» (١٨٩٩/ ٢٣٣٠)] عن أبي بكرة. وهو في «الصحيحة» (١٨٣٦)، و«المشكاة» (٥٢٨٥).

لكنت ناقصاً، إذْ لا تدرك بذٰلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتىٰ تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذٰلك، لو لم يكن لك حسّ الذوق، إذْ به تعلم ما يوافقك وما يضرّك، بخلاف الشجرة، فإنه يُصبّ في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذٰلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالىٰ بصفة أخرىٰ، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فَبِهِ تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المآل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنىٰ فوائد العقل، والحكمة الكبرىٰ فيه معرفة الله تعالىٰ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تَظُنَّ أننا ٱسْتَوْفَيْنا شيئاً من ذٰلك، فإن البصر واحد من الحواسِّ، والعين آلة له، وقد رُكِّبَتِ العينُ من عَشْر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لكل واحدة من الطبقات العشر صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو ٱخْتَلَّتْ طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاَخْتَلَّ البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهٰذا في حِسٍّ واحد، وقِسْ حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يُستوفىٰ ذٰلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!

[في أصناف النعم في خلق الإرادات]

ثم ٱنظر بعد ذٰلك في خَلْق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذٰلك أنه لو خلق لك البصر حتىٰ تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك علىٰ الحركة، كان البصر مُعَطَّلاً، فكم من مريض يَرىٰ الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر علىٰ تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرك إلىٰ تناول الغذاء.

ثم هٰذه الشهوة لو لم تَسْكُنْ عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفتَ وأهلكتَ نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لِتَتْرك الأكل بها، وكذٰلك القول في شهوة الوِقاع لحكمة بقاء النسل.

[في نعم الله تعالىٰ في خلق القدرة وآلات الحركة]

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان علىٰ مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكفُّ، وقسمه خمسة أقسام، وهي: الأصابع، وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور علىٰ الأصابع البواقي، ولو كانت مجتمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع لِتَقوىٰ بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هَبْ أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتىٰ يصل إلىٰ باطنك، فجعل لك الفم واللَّحْيَيْنِ، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرَّبَاعِيَاتِ، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس، وجعل اللَّحْيَ الأسفل متحركاً حركة دورية، واللَّحْيَ الأعلىٰ ثابتاً لا يتحرك، فٱنظر إلىٰ عجيب صنع الله تعالىٰ، وإن كل رَحَىً صنعها الخلق يَثْبُتُ منها الحجر الأسفل ويدور الأعلىٰ، إلا هٰذه الرَّحىٰ التي هي صنع الله ﷻ، فإنه يدور منها الأسفل علىٰ الأعلىٰ، إذْ لو دار الأعلىٰ خُوْطِرَ بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم ٱنظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويردّ الطعام من الوسط إلىٰ الأسنان بحسب الحاجة، كالمِجْرَفة التي تردّ الطعام إلىٰ الرَّحىٰ، هٰذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هَبْ أنك قَطعت الطعام وعجنْتَه وهو يابس، فما تقدر علىٰ الٱبتلاع إلا بأن ينزلق إلىٰ الحلق بنوعِ رطوبةٍ.

فٱنظر كيف خلق الله تعالىٰ تحت اللسان عيناً يفيض منها اللُّعاب، ويَنْصَبُّ بقدر الحاجة حتىٰ ينعجن به الطعام.

ثم هٰذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلىٰ المعدة وهو في الفم، فإنه

لا يُمْكِنُ إيصاله باليد؟ فهَيَّأ الله تعالىٰ المَرِيءَ[١] والحَنْجَرَةَ، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتىٰ يقلب الطعام، فيهوي في دهليز المريء إلىٰ المعدة، فإذا ورد الطعام إلىٰ المعدة وهو خبز وفاكهة مُقَطَّعَةٌ، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً علىٰ هٰذه الهيئة حتىٰ يُطْبَخَ طبخاً تاماً، فجعل الله المعدة علىٰ هيئة قِدْرٍ يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدّىٰ إليها من الأعضاء الأربعة، وهي الكبد من جانبها الأيمن، والطِّحال من جانبها الأيسر، والثَّرْب[٢] من أمامها، ولحم الصُّلب من خلفها، فَيَنْضَجُ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم يَنصبُّ الطعام من العروق إلىٰ الكبد، فيستقر فيها، ريثما يصلح له نُضْجٌ آخَرُ.

ثم يتفرق في الأعضاء، ويبقىٰ منه ثُفْلٌ ثم يندفع[٣].

ولَو ٱستوفينا الكلام في ذٰلك لطال.

وفي الآدميِّ من العضلات والعروق ما لا يُحصىٰ، مُختلِفٌ بالصِّغَر والكبر والدِّقَّةِ والغِلَظِ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذٰلك من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عِرْق متحرك، أو تحرك عرق ساكن، لَهلكْتَ يا مسكين.

فٱنظر إلىٰ نعم الله تعالىٰ عليك، لتَقوىٰ علىٰ الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالىٰ إلا نعمة الأكل، وهي أَخسُّها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتجامع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالىٰ؟! وهٰذا الذي رمزنا إليه علىٰ الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالىٰ، فقِسْ علىٰ ذٰلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالىٰ بالإضافة إلىٰ ما لم

---

(١) والمَرِيء: مجرىٰ الطعام والشراب، وهو رأس المعدة اللاصق بالحلقوم.
(٢) الثرب: شحم رقيق يلف الكرش والأمعاء والكبد.
(٣) والثفل: البقية التي لا خير فيها.

يعرفوه، أَقَلّ من قطرة في بحر. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤. النحل: ١٨].

فصل

[في نعم الله تعالىٰ في الأصول التي يحصل منها الأطعمة. . .]

وٱعلم أن الأطعمة كثيرة مختلفة، ولله تعالىٰ في خلقها عجائب لا تُحصىٰ.

وهي تنقسم إلىٰ أغذية وأدوية وفواكه وغيرها:

فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شيء من الحِنْطة، فلو أَكلْتَها لَفَنِيَتْ وبَقِيْتَ جائعاً، فما أحوجك إلىٰ عمل يُنْمىٰ به حب الحنطة ويتضاعف، حتىٰ يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، ثم لا يكفي الماء والتراب، إذْ لو تركت في الأرض نَدِيّة صُلْبة، لم تنبت، لفقد الهواء، فيحتاج إلىٰ تركها في أرض مُتَخَلْخِلة يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج إلىٰ ريح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر علىٰ الأرض، حتىٰ ينفذ فيها، ثم كل ذلك لا يغني، فيحتاج إلىٰ حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت.

ثم ٱنظر إلىٰ الماء الذي تحتاج إليه هٰذه الزراعة كيف خلقه الله تعالىٰ؟ فَجَّرَ العيون وأَجرىٰ منها الأنهار، ولَمَا كان بعض الأرض مرتفعاً لا يَنالهُ الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلىٰ أقطار العالم، وهي سُحُبٌ ثِقال، ثم يرسله علىٰ الأرض مِدْراراً في وقت الحاجة.

وٱنظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقتِ البلاد وهلك الزرع وغيره.

وٱنظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بُعْدِها عن الأرض، مُسَخِّنة لها في وقتٍ دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحَرُّ عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو يُنْضِجُ الفواكه بتقدير الحكيم الخبير وكل كوكب خلق في السماء،

فهو مُسَخَّرٌ لنوعٍ فائدةٍ، كما سخرت الشمس والقمر، ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرةٍ لا تفي قوة البشر بإحصائها، وكذٰلك الشمس والقمر، فيهما حكم أُخَرُ غير ما ذكرنا لا تُحصىٰ.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان، سخر الله تعالىٰ التُّجّار، وسلط عليهم الحرص علىٰ جمع المال، مع أنه لا يُغْنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قُطّاع الطرق، أو يموتون في بعض البلاد، فتأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها وَرَثتهم، وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا.

فٱنظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة، حتىٰ يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار، وركوب الأخطار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصىٰ الشرق والغرب إليك.

[بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر]

وٱعلم أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذٰلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنىٰ الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

أحدها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذٰلك لا يشكرون علىٰ جملة مما ذكرناه من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرىٰ واحد منهُمُ ٱختصاصاً به، فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله علىٰ روح الهواء، ولو أخذ بمَخْنَقهم لحظة حتىٰ ٱنقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في حَمّام أو بئر ماتوا غَمّاً، فإن ٱبْتُلي أحدهم بشيء من ذٰلك ثم نجا، قدَّر ذٰلك نعمة يشكر الله عليها، وهٰذا غاية الجهل، إذْ صار شكرهم موقوفاً علىٰ أن تسلب عنهم النعمة، ثم تردّ إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أَولىٰ بالشكر، فلا ترىٰ البصير يشكر

صحة البصر إلا أن يَعمىٰ، فإذا أعيد بصره أحسّ بالنعمة وشكرها حينئذ وعَدَّها نعمة، وهو مثل عبد السوء يُضْرَب دائماً، فإذا ترك ضرْبه ساعة، شكر وتقلد ذٰلك مِنّة، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البَطَر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا علىٰ المآل الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالىٰ عليهم.

كما روي أن بعضهم شكا فقره إلىٰ بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة ٱغتمامه بذٰلك، فقال له: أيسرك أنك أعمىٰ ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا. قال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً.

وحكي عن بعض الفقراء أنه ٱشتد به الفقر حتىٰ ضاق به ذرعاً. فرأىٰ في المنام كأن قائلاً يقول له: أَتَوَدُّ أنّا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا. قال: فسورة يوسف؟ قال: لا. قال: فمعك قيمة مئة ألف دينار وأنت تشكو؟! فأصبح وقد سُرِّيَ عنه.

ودخل ٱبن السَّمّاك علىٰ الرشيد في عِظَةٍ، فبكىٰ ثم دعا بماء في قَدَحٍ فقال: يا أمير المؤمنين! لو مُنِعْتَ هٰذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها، أكنتَ تَفْديها بها؟ قال: نعم. قال: فٱشربْ رَيّاً، بارك الله فيك. فلما شرب. قال له: يا أمير المؤمنين: أرأيت لو مُنعتَ إخراج هٰذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذٰلك؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بشيءٍ، شربةُ ماءٍ خيرٌ منه!

وهٰذا يبين أن نعمة الله تعالىٰ علىٰ العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلّها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم.

وهٰذه إشارة وجيزة إلىٰ النعم الخاصة:

ٱعلم أنه ما من عبدٍ إلا إذا أمعن النظر رأىٰ عليه من نعم الله نعماً كثيرة لا

يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذٰلك كثير منهم، من ذٰلك العقل، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذٰلك ٱعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ذٰلك.

ومن ذٰلك الخُلُق، فإنه ما من عبد إلا ويرىٰ من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، ويرىٰ نفسه بريئاً منها، فينبغي أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ذٰلك، حيث أحسن خُلُقه وٱبتلىٰ غيره.

ومن ذٰلك أنه ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كُشِف الغطاء عنه حتىٰ ٱطّلع عليه أحد من الخلق لٱفتضح، فكيف لَوِ ٱطّلع الناس كافّة؟ فلِمَ لا يشكر الله بستر الجميل علىٰ مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح.

ولْننزلْ إلىٰ طبقة أعم من هٰذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالىٰ في صورته، أو أخلاقه، أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه، أو بلده، أو رفيقه، أو أقاربه، أو سائر مَحابّه أموراً، لو سلب ذٰلك وأعطي ما خصص به من ذٰلك غيره، لكان لا يرضىٰ به، وذٰلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً، وحَيّاً لا جماداً، وإنساناً لا بهيمة، وذكراً لا أنثىٰ، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيباً، فإن كل هٰذه خصائص.

فإن كان لا يرىٰ أن يبدّل حالَه بحال غيره، مثل ألا يعرف شخصاً يرتضي لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه، إما علىٰ الجملة، أو في أمر خاصٍّ، فإن لله عليه نعماً ليست له علىٰ أحد من عباده سواه، وإن كان يرىٰ أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فلْينظر إلىٰ عدد المغبوطين عنده، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون مَن دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر إلىٰ مَن فوقه ولا ينظر إلىٰ مَن دونه؟!

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلىٰ من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلىٰ من هو أسفل منه ممن**

فضل عليه»[١]. وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: «**انظروا إلىٰ من هم أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»[٢].

فإن مَنِ اعتبر حال نفسه، وَفتش علىٰ ما خُصَّ به، وجد لله تعالىٰ عليه نِعَماً كثيرة، لا سيما من خُصَّ بالإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن، وغير ذٰلك.

وقد روي في بعض الأحاديث: «**من قرأ القرآن فهو غني**» وفي لفظ: «**القرآن غِنىً لا فقر بعده، ولا غنى دونه**»[٣].

وفي حديث آخر: «**من أصبح آمناً في سِرْبِه مُعافىً في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما حيزت الدنيا له بِحَذافيرها**»[٤].

وقال بعضهم شعراً:

إذا ما القوتُ يأتي لك ... والصحة والأمن[٥]
وأصبحت أخا حزنٍ ... فلا فارقك الحزن

فإن قيل: فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالىٰ؟ =

= فالجواب: أما القلوب المبصرة، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله ﷻ، وأما القلوب البليدة التي لا تَعُدُّ النعمة نعمة، إلا إذا نزل بها البلاء، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلىٰ مَن دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٢٩٦٣).
(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٢٥٣) حاشية (١).
(٣) رواه أبو يعلى وابن نصر عن أنس. وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٣٤)، و«الضعيفة» (١٥٥٨).
(٤) رواه ابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٤٠/٤١٤١)]، والترمذي [«صحيحه» (١٩١٣/٢٣٤٧)] عن عُبيدالله بن محصن الأنصاري. وهو في «صحيح الجامع» (٦٠٤٢).
(٥) البيتان لأبي العتاهية كما في ديوانه الصفحة ٤٢٥ وقد اختلفت روايتهما في كل النسخ المخطوطة وفي إحدى المخطوطات جاء البيت الأول كما يلي:
إذا ما القوت يأتيك ... كذاك الصح والأمن
في الثانية: في الصحة والأمن!

فإنه كان يحضر دار المرضىٰ ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله علىٰ سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلىٰ الموتىٰ أن يُرَدّوا إلىٰ الدنيا، ليتدارك مَن عصا: عصيانَه، وليزيد في الطاعة: من أطاع، فإن يوم القيامة ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالىٰ وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلىٰ ما خلق لأجله، وهو التزود للآخرة.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفُضَيْل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: عليكم بمداومة الشكر علىٰ النعم، فَقَلَّ نعمة زالت عن قوم فعادتْ إليهم.

فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول: قد ذكرتَ أن لله تعالىٰ في كل موجود نعمة، وهٰذا يشير إلىٰ أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنىٰ الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنىٰ الشكر علىٰ البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعي ألماً، والشكر يستدعي فرحاً، وهما مُتَضادّان، فاْعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يُؤْمَرُ بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنىٰ للصبر عليه، وكذا المعاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به عِلّة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والعاصي يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان علىٰ دفعه لا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتىٰ عظم ألمه، لم يؤمر علىٰ ذٰلك، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر علىٰ ألم ليس إلىٰ العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلىٰ ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجهٍ،

فلذٰلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغنىٰ مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتىٰ يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضاً كذٰلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء.

وقد يكون علىٰ العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذٰلك: جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذْ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذٰلك غمه، وكذٰلك جهْله بما يُضْمِرُهُ بعض الناس له، إذْ لَوِ ٱطّلع عليه لَطالَ أَلَمه وحقده وحسده وٱشْتغاله بالانتقام، وكذٰلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذْ لو عَرَفَ منه ذٰلك، أبغضه وآذاه، فكان ذٰلك وَبالاً عليه. ومن ذٰلك إبهام القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذٰلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعي علىٰ الطلب والاَجتهاد، فهٰذه وجوه نعم الله تعالىٰ في الجهل، فكيف في العلم؟!

وقد قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، حتىٰ إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كألَم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذْ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا تَرىٰ أن أهل الدنيا لا يَشتدّ فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامّة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهي أحسن من كل نبت، لأنها عامة، فلذٰلك لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالىٰ لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما علىٰ جميع العباد، أو علىٰ بعضهم، ففي خلق الله تعالىٰ البلاء نعمةٌ أيضاً، إما علىٰ المُبتلىٰ، أو على غيره، فيجتمع علىٰ العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه، فيكون الصبر من حيث الاَغتمام، والشكر من حيث الفرح.

وٱعلم أن في كل فقر، ومرض وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدورات الله تعالىٰ لا تَتَناهىٰ، فلو أَضْعَفَها الله ﷻ علىٰ العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذْ لم يكن أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ما آبْتُليتُ ببلاء إلا كان لله تعالىٰ عليَّ فيه أربع نِعَم. إذْ لم يكن في ديني، وإذْ لم يكن أعظم، وإذْ لم أحرمِ الرضا به، وإذْ أرجو الثواب عليه.

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللِّصُّ بيتي وأخذ متاعي، فقال: اشكرِ الله تعالىٰ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنتَ تصنع؟ ومَنِ آستَحق أن يضربك مئة سَوْطٍ فأقتصر علىٰ عَشَرَةٍ، فهو مستحق للشكر.

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تُؤَخَّر إلىٰ الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلّى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلىٰ تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً، كذا ورد في الحديث[1] عن النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وفي «صحيح مسلم» أن «**كل ما يصاب به المسلم**» يكون «**كَفّارة**» له، «**حتىٰ النكبةَ يُنْكَبُها، والشوكة يُشاكها**»[2].

الرابع: أن هٰذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها إليه، فقد وصلت وآستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلىٰ الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبيّ، فإنه لو خُلِّي واللعب، لٰكان يمنعه ذٰلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذٰلك المال والأهل والأقارب والأعضاء، قد تكون سبباً لهلاكه، فالملحدون غداً يتمنون

---

(١) نحوه في «صحيح سنن النسائي» (٣٩٢٦)، والدارمي ٢/ ٢٢٠، وفي «الصحيحين» شبهه، كلهم عن عبادة بن الصامت.

(٢) هو في مسلم (٢٥٧٤).

أن لو كانوا مجانين وصبياناً، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالىٰ، فما من شيء من هٰذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له في ذٰلك خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله ﷻ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالىٰ عليه، فإن حكمة الله تعالىٰ واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغداً يشكره العباد علىٰ البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبيّ بعد البلوغ أستاذه وأباه علىٰ ضربه وتأديبه، إذا رأىٰ ثمرة ما ٱستفاد من التأديب.

والبلاء تأديب من الله تعالىٰ، ولطفه بعباده أتم وأوفىٰ من عناية الآباء بالأولاد.

وفي الحديث: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له**»[1].

وأيضاً، فٱعلم أن رأس الخطايا المُهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم علىٰ وَفْق المراد من غير ٱمتزاج ببلاء ومصيبة تُورث طمأنينة القلب إلىٰ الدنيا والأُنس بها، فإذا كثرتِ المصائب ٱنزعج القلب عن الدنيا ولم يركن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن.

وأما التألم فهو ضروريٌّ وذٰلك يُضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر، فإنك تتألم وتفرح، فتصبر علىٰ الألم، وتشكر علىٰ سبب الفرح، فمن عرف هٰذا، تصور منه أن يشكر علىٰ البلاء، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر علىٰ المصيبة.

وقد روي أن أعرابياً عزّىٰ ابن عباس ﷺ بأبيه فقال:

ٱصبر نَكُنْ بِكَ صابرين فإنما ... صَبْرُ الرَّعِيَّةِ عنْدَ صَبْرِ الرَّأس
خَيْرٌ مِنَ العَبَّاسِ صَبْرُكَ بَعْدَهُ ... واللهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلعَبَّاسِ

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عَزّاني أحد أحسن من تعزيته.

وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢١٤٣) بنحوه عن أنس. وأخرج معناه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب.

[بيان فضل النعمة على البلاء]

إن قال قائل: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله ﷻ البلاء؟ =

= فالجواب: أنه لا وجه لذلك، فإن في الحديث من رواية أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: **«هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله؟»**. قال: نعم. كنت أقول: اللهم ما كنت مُعاقِبي به في الآخرة، فعَجِّلْه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: **«سبحان الله! لا تُطِيقه ولا تستطيعه، فهلّا قلت: اللهم ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة]»**[١].

ومن حديث أنس ﷺ أيضاً، أن رجلاً قال: يا نَبيَّ الله: أيّ الدعاء أفضل؟ قال: **«سَلِ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة»** ثم أتاه الغد. فقال: يا رسول الله: أيّ الدعاء أفضل؟ قال: **«سَلِ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة»**، ثم أتاه اليوم الثالث: فقال: **«سَلِ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإن أُعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت»**[٢].

وفي «الصحيحين» أنه ﷺ قال: **«تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»**[٣].

وقال مُطَرِّفٌ: لأَنْ أُعافىٰ فأَشكر، أحبّ إليَّ من أن أُبتلىٰ فأصبر.

فصل في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس، هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ وفي ذٰلك كلام طويل، ذكره المصنف رحمه الله.

وتلخيص القول فيه: أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨)، والترمذي [«صحيحه» (٢٧٧٣/ ٣٤٨٧)].

(٢) هو في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨٣٩/ ٣٨٤٨).

(٣) رواه البخاري (٦٦١٦) من قوله، ومسلم (٢٧٠٧) من فعله ﷺ، عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٦٨)، و«الصحيحة» (١٥٤١).

فأقل درجات الصبر، ترك الشكوىٰ مع الكراهة، ووراءها الرضا، وهو مقام وراء الصبر، ووراء ذٰلك الشكر علىٰ البلاء وهو وراء الرضا.

ودرجات الشكر كثيرة، فإن حياءَ العبد مِنْ تتابُعِ نعم الله عليه: شُكْرٌ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر: شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره: شكر، والاعتراف بأن النعم ٱبتداء من الله بغير استحقاق: شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله: شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها: شكر، وشكر الوسائط: شكر، لقوله ﷺ: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**[1] وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يَدَيِ المُنعم: شكر، وتَلَقِّيْ النعمِ بحسن القبول وٱستعظام صغيرها: شكر. فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما علىٰ الآخر؟

لٰكن نقول: إذا أُضيف الصبر إلىٰ الشكر الذي هو صرف المال إلىٰ الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرحٌ بنعمة الله ﷻ، وفيه ٱحتمال ألم في صَرْفه إلىٰ الفقراء، وترك صرفه إلىٰ التنعُّم المباحِ، فهو أفضل من الصبر بهٰذا الأعتبار.

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به علىٰ معصية، بل يصرفه إلىٰ التنعم المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من المُمسِكِ مالَهُ الصارفِ له في المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر علىٰ بلاء الله تعالىٰ.

وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر علىٰ الشكر، إنما أريد به هٰذه الرتبة علىٰ الخصوص، لأن السابق إلىٰ أفهام الناس من نعمة الأموال، والغنىٰ بها، والسابق إلىٰ الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله.

فإذاً الصبر الذي يعتمده العامّة أفضل من هٰذا الشكر الذي يفهمونه.

---

(١) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٥٠) حاشية (١).

ومتىٰ لحظت المعنىٰ الذي ذكرناه، علمتَ بأن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فَرُبَّ فقير صابر أفْضلُ من غنيٍّ شاكر كما ذكر، ورُبَّ غنيّ شاكر أفضل من فقير صابر، وذٰلك هو الغني الذي يرىٰ نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، ويصرف الباقي في الخيرات، أو يمسكه علىٰ اعتقاده أنه خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتىٰ يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد مِنَّة، فهٰذا أفضل من الفقير الصابر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

٢٤ - كِتَابُ الرّجَاء وَالخوفُ

اْعلم أن الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المُقَرَّبون إلىٰ كل مقام محمود، ومَطِيَّتان بهما يقطع من طريق الآخرة كُلّ عقبة كَؤود، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذٰلك. ونحن نذكرهما في شطرين:

الأول: في الرجاء. **والثاني**: في الخوف.

[بيان حقيقة الرجاء]

واْعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يُسمّىٰ الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، فإن كان عارضاً سريع الزوال سُمِّي حالاً، كما أن الصفرة تنقسم إلىٰ ثابتة، كصفرة الذهب، وإلىٰ سريعة، كصفرة الوجل، وإلىٰ ما بينهما، كصفرة المرض، وكذٰلك صفات القلب تنقسم إلىٰ هٰذه الأقسام، وإنما سمي غير الثابت حالاً، لأنه يحول عن القلب.

واْعلم أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلىٰ موجود في الحال، وإلىٰ موجود فيما مضىٰ. **فالأول**: يُسمّىٰ وَجْداً وذَوْقاً وإدراكاً. **والثاني**: يُسمّىٰ ذكراً.

وإن كان قد خطر ببالك شيء في الاستقبال، وغلب علىٰ قلبك، سُمِّي اْنتظاراً، وتوقُّعاً، فإن كان المنتظر محبوباً، سُمِّي رجاء، وإن كان مكروهاً، سمي خوفاً.

فالرجاء: هو اْرتياح لاْنتظار ما هو محبوب عنده، ولٰكن ذٰلك المتوقَّع لا بد له من سبب حاصل، فإن لم يَكُنِ السببُ معلومَ الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمي تَمَنِّياً، لأنه اْنتظار من غير سبب. ولا يطلق اْسم الرجاء والخوف إلا علىٰ ما يُتردَّدُ فيه، فأما ما يُقْطَع به فلا، إذْ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذٰلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولٰكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف اْنقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب:

أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبَذْرِ فيه، والطاعات جارية مَجْرىٰ تنقية الأرض وتطهيرها، ومَجرىٰ حفر الأنهار ومساقي الماء إليها.

وأن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السَّبْخة التي لا ينمو فيها البَذْرُ. ويوم القيامة هو يوم الحَصَاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بَذَرَ الإيمان، وقَلَّ أن ينفع إيمانٌ مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البَذْرُ في الأرض السَّبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقىٰ فيها بَذراً جيداً غير مُسَوَّس ولا عَفِنٍ، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقَّىٰ الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالىٰ دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلىٰ أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهٰذا يُسَمَّىٰ ٱنتظاره رجاءً.

فأما إن بذر في أرض سَبْخة صُلْبة مرتفعة لا يَصِلُ إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً، ثم ٱنتظر الحصاد، فهٰذا يُسمَّىٰ ٱنتظارُه حمقاً وغروراً، لا رجاء.

وإن بَثَّ البذر في أرض طيبة، ولٰكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي ٱنتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذاً: ٱسم الرجاء إنما يصدق علىٰ ٱنتظار محبوب تمهدتْ أسبابه الداخلة تحت ٱختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلىٰ ٱختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بَذْر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطَهَّر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وٱنتظر من فضل الله تعالىٰ تثبيته علىٰ ذلك إلىٰ الموت، وحسن الخاتمة المُفضية إلىٰ المغفرة، كان ٱنتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات، والقيام بمُقتضىٰ الإيمان إلىٰ الموت، وإن قَطَعَ بَذْرَ الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وٱنهمك في طلب لَذّات الدنيا، ثم ٱنتظر المغفرة، كان ذٰلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ

عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وذم القائل: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف].

وروىٰ شَدّادُ بن أوسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكَيِّس**[١] **مَنْ دَانَ**[٢] **نفسه وعَمِل لما بعد الموت، والعاجِزُ مَنْ أَتبَعَ**[٣] **نَفْسَه هواها وتَمنّىٰ علىٰ الله الأماني**»[٤].

وقال مَعْرُوفُ الكَرْخِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رجاؤك لرحمة مَنْ لا تطيعه خِذْلانٌ وحُمقٌ. ولذٰلك قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]. المعنىٰ: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يُرِدْ به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذٰلك.

وٱعلم أن الرجاء محمود، لأنه باعث علىٰ العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عنِ العلم، إذْ من عرف أن الأرض سَبْخة، وأن الماء مُغوَّر، وأن البَذْر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة علىٰ الطاعات كيفما تقلبتِ الأحوال، ومن آثاره التلذُّذ بدوام الإقبال علىٰ الله ﷻ، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هٰذه الأحوال لا بد أن تظهر علىٰ كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذٰلك في حق الله ﷻ؟ فمتىٰ لم يظهرِ ٱسْتُدِلَّ به علىٰ حِرْمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هٰذه العلامات فهو مغرور.

---

(١) أي: العاقِل.
(٢) أي: أَذَلَّها وٱستعبدها، وقيل: حاسَبَها.
(٣) أي: جعل نفسه تابعة للهوىٰ تَأْتَمِرُ بأمرها.
(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٩٤)، والترمذي [«ضعيفه» (٤٣٦/ ٢٤٥٩)]، وابن ماجه [«ضعيفه» (٩٣٠/ ٤٢٦٠)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥)، و«المشكاة» (٥٢٨٩).

فصل في فضيلة الرجاء

روي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي**» وفي رواية أخرىٰ: «**فليظن ظان ما شاء**»[(١)].

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»[(٢)].

وأَوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود ﷺ: أَحِبَّني، وأَحِبَّ من يحبني، وحببني إلىٰ خلقي. قال: يا رب: كيف أحببك إلىٰ خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، وٱذكر آلائي وإحساني.

وعن مجاهد رحمه الله قال: يُؤْمَرُ بالعبد يوم القيامة إلىٰ النار، فيقول: ما كان هٰذا ظني. فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي، فيقول: خَلُّوا سبيله.

فصل في دواء الرجاء والسبب الذي يحصُل به

ٱعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان:

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتىٰ ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف حتىٰ أضَرَّ بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني علىٰ الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يُستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تُقْلَب في حقه سموماً، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة، مضرٌّ لمن غلبت عليه الحرارة.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي [«صحيحه» (٢٨٤٩/ ٣٦٠٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٠٨٠/ ٣٨٢٢)]. وهو في «الصحيحة» (٢٢٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأحمد (١٤١٠٨ و١٤٤٦٥ و١٤٥١٦ و١٤٥٦٤ و١٥١٧٨)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٦٧٠/ ٣١١٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٦٠/ ٤١٦٧)] عن جابر. وهو في «صحيح الجامع» (٧٧٩٩).

ولهٰذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلىٰ موضع العلل، معالجاً كل علة بما يليق بها، وهٰذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده ٱسْتِمالة القلوب إليه، لإصلاح المَرْضَىٰ.

وقد قال عليٌّ ﷺ: إنما العالم الذي لا يُقْنِطُ الناسَ من رحمة الله، ولا يُؤْمِنُهم مَكْر الله.

إذا عرفت هٰذا، فٱعلم أن من أسباب الرجاء، ما هو من طريق الٱعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار:

أما الٱعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في (كتاب: الشكر)، فإذا علم (لطائف الله تعالىٰ بعباده في الدنيا، وعجائب حِكْمته التي راعاها في فطرة الإنسان، وأن لُطْفه الإلٰهيَّ: لم يَقْصُرْ عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يَرْضَ أن تفوتَهُمُ الزيادات في الرتبة): فكيف يرضىٰ سياقتهم إلىٰ الهلاك المؤبد؟! فإن من لَطَفَ في الدنيا يلطف في الآخرة، لأن مُدَبِّر الدارين واحدٌ.

وأما ٱستقراء الآيات والأخبار، فمن ذٰلك قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورىٰ: ٤].

وأخبر تعالىٰ أنه أَعَدَّ النار لأعدائه، وإنما خَوَّف بها أولياءه، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾ [الرعد: ٦].

ومن الأخبار: ما روىٰ أبو سعيد الخُدْرِيُّ ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**إن إبليس قال لربه عزَّ وجل: بعزتك وجلالك، لا أبرح أُغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال الله ﷻ: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما ٱستغفروني**»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم**»(٢). رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدْخِلَ أحداً الجنةَ عملُه**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَنِيَ الله منه برحمته**»(٣).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يقول الله عزَّ وجل يوم القيامة: يا آدم! قم فٱبعث بعث النار، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ تِسْعُمِئة وتسعةً وتسعون، فحينئذ يشيب المولود، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾** [الحج]» فشق ذٰلك علىٰ الناس، حتىٰ تغيرت وجوههم. وقالوا: يا رسول الله! وأين ذٰلك الواحد: فقال ﷺ: «**من يأجوج ومأجوج تِسْعُمِئة وتسعةً وتسعون، ومنكم واحد**» فقال الناس: الله أكبر. فقال النبيُّ ﷺ: «**والله إني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نِصْفَ أهل الجنة**». فكبر الناس، فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (١١٢٣٠ و١١٣٥٣).

(٢) هو في مسلم (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٦٣)، والترمذي [«صحيحه» (٢٠٥٠/ ٢٥٢٦)].

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨)، وأحمد (٢٤٩٣٢). وفي الباب عن أبي هريرة ـ وقد مر في الصفحة (٢٩٣) حاشية (١) ـ وجابر. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣٦٢٨).

«ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض»(١).

فٱنظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعَجَ جاء باللطف، ومتىٰ ٱطْمأَنَّتِ القلوب إلىٰ الهوىٰ فينبغي أن تُزعج، فإذا ٱشتدَّ قلقها، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر.

وقال ابن مسعود ﷺ: ليغفرن الله ﷻ يوم القيامة مغفرة لم تخطر علىٰ قلب بشر.

وروي أن مجوسياً ٱستضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يُضِفْهُ وقال: (إنْ أَسْلمتَ، أَضَفْتُكَ)، فأَوحىٰ الله تعالىٰ إليه: (يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطْعمه علىٰ كفره).

فسعىٰ إبراهيم عليه السلام خَلْفه، فَرَدَّه وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالىٰ، فأسلم.

فهٰذه الأسباب التي تُجتَلب بها روح الرجاء إلىٰ قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحَمْقىٰ المغرورون، فلا ينبغي أن يُسْمَعوا شيئاً من ذٰلك، بل يُسْمَعون ما سنُورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناسِ لا يَصْلُحون إلا علىٰ ذٰلك، كعبدِ السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

الشطر الثاني من الكتاب في الخوف
وحقيقته وبيان درجاته وغير ذٰلك

[بيان حقيقة الخوف]

ٱعلم أنَّ الخوف عبارة عن تَألُّم القلبِ وٱحتراقه بسبب توقعُّ مكروه في الاَستقبال.

مثال ذٰلك: من جنىٰ علىٰ مَلِكٍ جناية، ثم وقع في يده، فهو يخاف القتل، ويُجَوِّز العفو، ولٰكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢).

المفضية إلىٰ قتله، وتفاحش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سببِ جناية، بل عن صفة المُخَوِّف وعظمته وجلاله، إذْ قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان (بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالىٰ واستغنائه، وأنه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢١] يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذٰلك قال النبيُّ ﷺ: «**أنا أَعْرَفُكم بالله، وأَشَدُّكم له خشية**»[١]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كَمِلَتِ المعرفة، أَثَرَتِ الخوفَ، ففاض أثره علىٰ القلب، ثم ظهر علىٰ الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغَشْيِ، وقد يفضي إلىٰ الموت، وقد يصعد إلىٰ الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهور أثره علىٰ الجوارح، فَبِكَفِّها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: «**من خاف أَدْلَجَ**»[٢].

وقال آخر: ليس الخائف مَنْ بَكىٰ، إنما الخائف من ترك ما يَقْدِرُ عليه.

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدِّر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سُمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضنّة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٠١)، وبنحوه عند مسلم (٢٣٥٦). وهو في «صحيح الجامع» (٥٥٧٣)، و«الصحيحة» (٣٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (١٩٩٣/ ٢٤٥٠)] عن أبي هريرة.

ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فَقُوَّةُ المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالىٰ، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإنْ مَنَعَ ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي وَرَعاً، وإنِ ٱنْضَمَّ إليه التجرد والاشتغال بذٰلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

فصل

[بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف]

ٱعلم أن الخوف سَوْطُ الله تعالىٰ، يسوق به عباده إلىٰ المواظبة علىٰ العلم والعمل، لينالوا بها رتبة القُرْبِ من الله تعالىٰ.

والخوف: له إفراط، وله ٱعتدال، وله قصور:

والمحمود من ذٰلك: الاَعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة ألا تخلو عن سوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصِر عن الخوف أيضاً محموداً، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذٰلك السبب عن الحس، رجع القلب إلىٰ الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوىٰ، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مُبَرِّحاً، فلا يسوقها إلىٰ المَقْصِد، ولا يصلح لرياضتها، وهٰذا هو الغالب علىٰ الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المُفْرِط، فهو كالذي يَقْوىٰ ويجاوز حد الاعتدال حتىٰ يخرج إلىٰ اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج إلىٰ المرض والوَلَهِ والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلىٰ المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو

يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر، والورع، والتقوىٰ، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلىٰ الله تعالىٰ، وكل ذٰلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذٰلك شيء، كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول في من مات من الخوف؟

فالجواب: أنه ينال لموته علىٰ تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف. إلا أنه لو عاش وتَرقّىٰ إلىٰ درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طُوْلُ العمرِ في طاعة الله تعالىٰ، فكلُّ ما أبطل العمرَ والعقل والصحة فهو نُقصان وخُسْران.

بيان أقسام الخوف

اْعلم أن مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب علىٰ قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاَستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة، وأعلىٰ من هٰذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالىٰ يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقد قال: «**هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**»[(١)].

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يَدَيِ الله تعالىٰ، والخوف من المناقشة، والعبور علىٰ الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله ﷻ، وكل هٰذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالىٰ، وهو خوف العارفين، وما قبل ذٰلك خوف الزاهدين والعابدين.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٥/ ٢٣٩ (٢٢٠٧١) عن معاذ.

فصل في فضيلة الخوف والرجاء
وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدْر إعانته علىٰ طلب السعادة. وهي لقاء الله تعالىٰ، والقُرْب منه، فكل ما أعان علىٰ ذٰلك فهو فضيلة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن]. وقال تعالىٰ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة].

وفي الحديث، عن النبيِّ ﷺ أنه قال:

«إذا اقْشَعَرَّ جلد العبد من مخافة الله ﷻ تَحَاتَّتْ عنه ذنوبُه، كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقها»[١].

وفي حديث آخر: **«لن يغضب الله علىٰ من كان فيه مخافة»**[٢].

وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: **«قال الله عز وجل:**

(وعزتي وجلالي، لا أجمع علىٰ عبدي خوفين، ولا أجمع له أَمْنَين، إنْ أَمِنَني في الدنيا، أَخَفْتُه يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا، أَمَّنْتُه يوم القيامة)»[٣].

وعَنِ ابن عباس ﷺ عنِ النبيِّ ﷺ أنه قال: **«عينان لا تَمَسُّهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»**[٤].

[بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما]

وٱعلم أن قول القائل: (أيما أفضل: الخوف، أوِ الرجاء؟) كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال: الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان

---

(١) رواه الطبراني عن العباس. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٣٩١)، و«الضعيفة» (٢٣٤٢).

(٢) لم أره في المراجع التي بين يدي.

(٣) رواه ابن حبان عن أبي هريرة، وأبو نعيم عن شداد بن أوس. وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٣٢).

(٤) انظر «صحيح الترمذي» (١٦٣٩/١٣٣٨) طبع مكتب التربية العربي بإشرافي. وهو في «صحيح الجامع» (٤١١١-٤١١٣).

أفضل، فإنِ ٱجْتَمعا، نظر إلىٰ الأغلب، فإنِ ٱسْتَوَيا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دَوَاءَانِ يُداوىٰ بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب علىٰ القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذٰلك إن كان الغالب علىٰ العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السَّكَنْجَبِيْنِ، لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبينُ يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلىٰ الخبز أكثر، فهو أفضل بهٰذا الٱعتبار، لأن المعاصي والٱغترار من الخلق: أغلبُ.

وإن نظرنا إلىٰ موضع الخوف والرجاء، فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يُسْتَقىٰ من بحر الرحمة، والخوف يستقىٰ من بحر الغضب.

وأما المُتقي، فالأفضل عنده ٱعتدال الخوف والرجاء، ولذٰلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لٱعتدلا.

قال بعض السلف: لو نُودي: لِيَدْخُلِ الجنةَ كلُّ الناس إلا رجلاً واحداً لَخَشِيْتُ أن أكون أنا ذٰلك الرجل. ولو نودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذٰلك الرجل.

وهٰذا ينبغي أن يكون مُخْتَصّاً بالمؤمن المتقي.

فإن قيل: كيف ٱعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو علىٰ قدم التقوىٰ، فينبغي أن يكون رجاؤه أقوىٰ؟ =

= فالجواب: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثلُه مثلُ من بَذَر بَذْراً - ولم يجرب جنسه - في أرض غريبة، والبَذْرُ: الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض: القلب وخفايا خبثه وصفاته من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق: أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هٰذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن وهٰذا عمر بن الخطاب ﷺ سأل حذيفة ﷺ: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عَيْبُه عنه؟ فالخوف المحمود هو الذي يبعث علىٰ العمل، ويزعج القلب عن الركون إلىٰ الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسَّوْطِ الباعث علىٰ العمل، وليس ثَمَّةَ عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياطِ[1] قلبه، والرجاء في هٰذه الحال يُقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا مُحبّاً لله تعالىٰ، محباً للقائه، حسن الظن به[2].

وقد قال سليمان التَّيْمِيُّ عند الموت لمن حضره: حَدِّثني بالرُّخصِ، لَعَلّي ألقىٰ الله وأنا أُحْسِنُ الظنَّ به.

فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذٰلك يَحْصُلُ بطريقين:

أحدهما: أعلىٰ من الآخر. مثاله: أن الصبيَّ إذا كان في بيت، فدخل عليه سَبُعٌ، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلىٰ الحية ليأخذها يلعب بها، ولٰكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب: عن معرفة، وخوف الولد: من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هٰذا، فاْعلم أن الخوف من الله تعالىٰ علىٰ مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهٰذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين علىٰ الطاعة والمعصية، ويَضعُفُ هٰذا الخوفُ بسبب ضعف الإيمان أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكّر، والتفكّر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلىٰ الخائفين، ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالىٰ، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠].

---

(١) علىٰ هامش النسخة الثانية والمطبوع «نشاط» والتصحيح من النسختين الأولىٰ والثالثة. والنياط: عرق علق به القلب من الوتين.

(٢) فقد قال ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»، وسلف في الصفحة (٣٧١) حاشية (٢).

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البُعْدَ والحِجاب.

قال ذُو النُّونِ: خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر، ولعامة الناس حظ من هٰذا الخوف، ولٰكن بمجرد التقليد، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية، تقليداً لأبيه، فلذٰلك يَضعُفُ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها علىٰ الدوام، والمواظبة علىٰ مقتضاها في تكثير الطاعات، واَجتناب المعاصي، فإذا اَرتقىٰ العبد إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلىٰ علاج يجلب الخوف إلىٰ قلبه، بل يخاف بالضرورة.

ومن قَصّرَ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلىٰ مناصب الراجين المغرورين، فلا يَتمارىٰ في أن الاقتداء بهم أولىٰ، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دُعيَ رسول الله ﷺ إلىٰ جِنَازَةِ غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله! طُوبىٰ لهٰذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يُدرك الشر ولم يَعمله. قال: «**أوَ غير ذٰلك يا عائشة؟ إن الله ﷻ خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[1]

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه]. فإنه علق المغفرة علىٰ أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر] ثم ذكر بعدها أربع شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة].

---

(١) هو عند مسلم (٢٦٦٢)، وفي «صحيح أبي داود» (٣٩٤٤/ ٤٧١٣)، و«صحيح النسائي» (١٨٣٩)، و«صحيح ابن ماجه» (٦٧/ ٨٢).

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدَّتِ الأطماع في التحيُّل، فأما ما حُقَّ في القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالىٰ لطف بعارِفِيه، ورَوَّح قلوبهم بالرجاء، لاَحترقت من نار الخوف.

وقال أبو الدرداء ﷺ: ما أحد أَمِنَ علىٰ إيمانه أن يُسْلَبَهُ عند الموت إلا سُلِبَهُ.

ولما حضرت سُفْيانَ الثَوْرِيَّ الوفاةُ، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبدالله! أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال:

والله لذنوبي أَهْوَنُ عندي من هٰذا، ولٰكن أخاف أن أُسلب الإيمان قبل الموت.

وكان سهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: المريد يخاف أن يُبتلىٰ بالمعاصي، والعارف يخاف أن يُبتلىٰ بالكفر.

ويُروىٰ أن نبيّاً من الأنبياء، شكا إلىٰ الله الجوع والعُرْيَ، فأوحىٰ الله ﷻ إليه: عبدي! أما رضيت إنْ عصمتُ قَلْبَك أن يَكْفُرَني حتىٰ تسألني الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه علىٰ رأسه وقال: بلىٰ قد رضيت فاَعْصِمني من الكفر.

فإذا كان هٰذا خوفُ العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذٰلك الضعفاء؟!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم علىٰ الموت، مثل: البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذٰلك من الصفات المذمومة، ولذٰلك اَشتَدّ خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أَعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس.

ولم يريدوا بذٰلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصحيح: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اَئْتُمِنَ خان»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣ و٦٠٩٤)، ومسلم (٥٩)، والترمذي [«صحيحه» (٢١٢١/ ٢٦٣١)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٦٤٨)]. وهو في «صحيح الجامع» (١٦) عن أبي هريرة.

وسوء الخاتمة علىٰ رُتبتين:

[بيان معنىٰ سوء الخاتمة]

إحداهما أعظم، وهي: أن يغلب علىٰ القلب ـ والعياذ بالله ـ شَكٌّ أو جُحود عند سَكَرات الموت وأهواله، فيقتضي ذٰلك العذاب الدائم.

الثانية دونها، وهي: أن يسخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يَجور في وصيته، أو يموت مُصِرّاً علىٰ ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشدّ علىٰ ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هٰذا، فإنه إن فاتكُم اليوم لم تَلحقوه.

وقد روي عن النبيِّ ﷺ، أنه كان يدعو: **«اللهمّ إني أعوذ بك أنْ يَتَخَبَّطَنِيَ الشيطانُ عند الموت»**(١).

قال الخَطّابيُّ: وذٰلك أن يستولي علىٰ الإنسان حينئذ، فيُضِلَّه ويَحُول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج عن مَظْلِمَةٍ أو يُؤيسه من رحمة الله ويُكرِّه إليه الموت فلا يرضىٰ بقضاء الله عز وجل.

والأسباب التي تفضي إلىٰ سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها علىٰ التفصيل، لٰكن يمكن الإشارة إلىٰ مجامع ذٰلك. أما الختم علىٰ الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالىٰ، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بان له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هٰكذا لا أصل له.

ومن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً علىٰ طريقة السلف، من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هٰذا الخطر إن شاء الله تعالىٰ(٢).

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٠٢)، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٣٧٣/ ١٥٥٢ و١٣٧٤/ ١٥٥٣)]، والنسائي [«صحيحه» (٥١٠٦)] عن أبي اليسر. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٢٨٢)، و«المشكاة» (٢٤٧٣).

(٢) لأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يتعبدنا إلا بما أنزل علىٰ رسوله، وأما ركوب الصعب والذلول، والتمحل والتأويل والتعطيل، فإنه طريق الضلال والضياع. وهذا كلام الإمام الغزالي يؤكد عقيدة السلف. وهي خلاف ما يدعيه ضلال هذا الزمن من غلاة المؤولة.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالىٰ، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلىٰ مثل هٰذه الخاتمة، هو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله تعالىٰ أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هٰذا الخطر، وكل من مات علىٰ محبة الله تعالىٰ، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلىٰ مولاه، فلا يخفىٰ ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً علىٰ ما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها الإنكار علىٰ الله سبحانه في فعله أو كان مصراً علىٰ مخالفته، قدم علىٰ الله قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفىٰ ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، علىٰ أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الرجل لَيَعْمَلُ بعمل أهل النار، وإنه لَمِنْ أهلِ الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمِن أهل النار»**(١).

وروي: أن العبد إذا عرج بروحه إلىٰ السماء، قالت الملائكة: سبحان الله! نجا هٰذا العبد من الشيطان: يا ويحه! كيف نجا؟!

وإذا عرفت معنىٰ سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأَعِدَّ ما يَصلُح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نَفَس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تُخْطَفَ فيه روحك، والإنسان يموت علىٰ ما عاش عليه، ويُحشر علىٰ ما مات عليه.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٢ و٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢). ونحوه في «صحيح الجامع» (١٦٢٣ و١٦٢٤).

وآعلم أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تَقْنَعَ بما يُقيمك، وتَرْفُضَ طلب الفضول.

وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقلَ منك، فتفكر في آشتداد خوفهم، لعلك تستعدُّ لنفسك.

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالىٰ في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل].

وقد روينا عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال:

«**إن لله ملائكة ترعُدُ فرائِصُهم من مَخَافَتِه**»(١). وذكر الحديث.

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عيناه مثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تُخشىٰ حق خشيتك، فيقول الله: «لٰكن الذين يحلفون بآسمي كاذبين لا يعلمون ذٰلك».

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«**لما كان ليلة أُسري بي، رأيت جبريل ﷺ كالشَّنِّ البالي من خشية الله تعالىٰ**»(٢).

وبلغنا أن جبريل ﷺ جاء إلىٰ النبي ﷺ وهو يبكي فقال له:

«**ما يبكيك؟ قال: ما جَفَّتْ لي عينٌ منذ خَلق الله جهنم، مَخافة أن أعصيه، فَيُلْقِيَنِي فيها**»(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩١٤) عن رجل يحدث عن رسول الله ﷺ.

(٢) هو في «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٥٦) بلفظ: «**كالحِلْس اللاطئ**»، وضعفه الشيخ الألباني، وأحال علىٰ «الضعيفة» (٥٤٤٤).

(٣) خرجه العراقي؛ لكن صحح الألباني قصة شبيهة لها عن ميكائيل، وهي في «الصحيحة» (٢٥١١).

وعن يزيدَ الرَّقاشِيِّ قال: إن لله تعالىٰ ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلىٰ يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالىٰ، فيقول لهم الرب ﷻ: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب! لو أن أهل الأرض أطلعوا من عزتك وعظمتك علىٰ ما أطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلىٰ الصحاري يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المكندر: لما خلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت.

وروي أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طَفِقَ جبريل وميكائيل يبكيان، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليهما: ما هٰذا البكاء؟ قالا: يا رب! ما نأمن من مكرك. فقال: تعالىٰ: هٰكذا فكونا.

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب: بكىٰ آدم عليه السلام علىٰ الجنة ثلاثَمِئة عام، وما رفع رأسه إلىٰ السماء بعد ما أصاب الخطيئة.

وقال وُهيب بن الوَرْدْ: لما عاتب الله تعالىٰ نوحاً عليه السلام في ابنه فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود] بكىٰ ثلاثَمِئة عام حتىٰ صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كان يُسْمَع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلىٰ الصلاة أزيز مِنْ بُعْدٍ خوفاً من الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتىٰ نبت من دموع عينيه من البقل ما غطىٰ رأسه، ثم نادىٰ: يا رب! قَرُحَ الجبين، وجَمَدَتِ العينُ، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء. فنودي: أجائعٌ أنت فَتُطعم؟ أم مريض فَتُشفىٰ، أم مظلوم فتُنصر، فَنَحَبَ نحيباً هاج كل شيء نبت، فعند ذٰلك غفر له.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفَرَقِ من الله عز وجل.

وكان عيسىٰ عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً.

وبكىٰ يحيىٰ بن زكريا عليه السلام حتىٰ بَدَتْ أضراسه، فاتخذت أمه قطعتين من لُبُودٍ[١] فألصقَتْهما بخدَّيه.

ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً، حتىٰ أرىٰ لَهَوَاته[٢] إنما كان يبتسم وكان إذا رأىٰ غيماً أو ريحاً عرف ذٰلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله! الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرفتِ الكراهة في وجهك؟ فقال: «**يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأىٰ قوم العذاب**» فـ ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]» أخرجاه في «الصحيحين»[٣].

وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل[٤] من البكاء[٥].

---

(١) جمع (اللِّبْدة)، وهو: كل شعر أو صوف مُتَلَبِّدٍ - أي متداخل ولازق بعضه في بعض -. والمقصود أن أمه اتخذت هاتين القطعتين لتواري به أضراسه عن الناظرين بسبب تخريق دموعه للحم خديه، وكانت تعصرهما وهو في الصلاة لكثرة دموعه. كذا في «الإحياء». وهٰذه غرائب لا أصل لها صحيح، كان الأجدر بالمؤلف - رحمه الله - الابتعاد عنها، والله أعلم.

(٢) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم، جمعها: لهوات، ولهيات.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٨٩٩). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٧٩٣٠).

(٤) (المِرْجَل): القِدْر من الطين المطبوخ أو النحاس. وأزيزه: صَوْتُه من شدة غليانه. والمقصود أنه شَبَّه شدة بكائه بذٰلك.

(٥) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥). وهو في «صحيح أبي داود» (٧٩٩/ ٩٠٤)، و«صحيح النسائي» (١١٥٦) عن عبد الله بن الشِّخِّير.

ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم

روينا عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يُمْسِك لسانه ويقول: هٰذا الذي أَوردني الموارد. وقال: يا ليتني كنت شجرة تُعْضَد[١] ثم تؤكل. وكذٰلك قال طلحة، وأبو الدرداء، وأبو ذر رضي الله عنهم.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تِبْنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هٰذه التِّبْنة، يا ليتني لم أَكُ ﴿شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان] يا ليت أمي لم تَلِدْني. وكان في وجهه خَطّان أسودان من البكاء.

وقال عثمان ﷺ: وَدِدْتَ أني إذا مُتُّ لا أُبعث.

وقال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: وددت أني كنت كبشاً فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحَسَوْا[٢] مَرَقي.

وقال عمران بن حصين:

يا ليتني كنت رماداً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال حذيفة ﷺ: وددت أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أُغْلِق عليَّ بابي، فلا يدخل عليَّ أحد حتىٰ ألحق بالله ﷻ.

وكان مَجْرَىٰ الدموع في خَدِّ ٱبن عباس ﷺ كالشِّراك[٣] البالي.

وقالت عائشة رضي الله عنها:

يا ليتني ﴿كُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾ [مريم].

وقال علي ﷺ: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرىٰ اليوم شيئاً يُشْبِههم. لقد كانوا يصبحون شُعْثاً غُبْراً[٤]، بين أعينهم أمثال رُكَبِ المِعْزىٰ،

---

(١) أي: تُقْطَع.
(٢) أي: شربوه.
(٣) أي: قطعة الجلد المستطيلة ـ التي علىٰ ظاهر القدم ـ والتي يُشدّ بها النعل.
(٤) أي: مُتّسِخي الجسد ومُتَلبِّدي الشعر لعدم تعهده، ويعلوهم الغبار.

قد باتوا لله ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان]، يتلون كتاب الله تعالىٰ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله ﷻ، مادوا[1] كما يَميد الشَّجَر في يوم الريح، وهَمَلتْ[2] أعينهم حتىٰ تَبُلَّ ثيابَهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هَرِمُ بن حَيّان: وددت والله أني شجرة أَكلتني ناقةٌ، ثم قَذفَتْني بَعْراً، ولم أُكابِدِ[3] الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرىٰ.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغير، فيقال: مالَكَ؟ فيقول: أتدرون بين يديْ مَنْ أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يَفتُرُ.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكي حتىٰ تجري دموعه علىٰ لحيته. وبكىٰ ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العَبْرة[4] قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مِمّ بكيتَ؟ قال: ذكرت مُنصَرَف القومِ من بين يدي الله تعالىٰ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورىٰ] ثم صرخ وغُشي عليه.

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال: أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة علىٰ سطح غرفتي هٰذه وهو من رُخام، فإذا أنا بماء يَقْطُر من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب.

---

(١) أي: تمايلوا.
(٢) أي: فاضت وسالت.
(٣) أي: أقاسي شدته.
(٤) أي: الدمعة.

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفَتْحٍ المَوْصلي أنهما بكيا الدَّمَ.

وقال إبراهيم بن عيسىٰ اليَشْكُريُّ: دخلت علىٰ رجل بالبحرين قَدِ ٱعتزل الناس وتفرَّغ لنفسه، فذاكَرْتُه شيئاً من أمر الآخرة، وذِكْر الموت. قال: فجعل يشهق حتىٰ خرجت نفسه.

وقال مِسْمَع: شهدتُ عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ في ذٰلك المجلس أربعة أنفس.

وكان يزيد بن مَرثَد يبكي كثيراً ويقول: والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي ألا أَفْتُرَ من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن أنا عصيته؟

وقال السَّريُّ السَّقَطِيُّ: إني لأنظر كل يوم إلىٰ أنفي مخافة أن يكون قَدِ ٱسودَّ وجهي.

فهٰذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعُبّاد والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولٰكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولٰكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أَمِنّا لغَلَبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تُحركه أدنىٰ مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.

قال بعض السلف: قلت لراهب: أَوْصِني، فقال: إنِ ٱستطعت أن تكون بمنزلة رجل قَدِ ٱحْتَوَشَتْه[1] السِّباع والهوامُّ[2] فهو خائف حَذِرٌ يخاف أن يغفل فَيَفْتَرِسْنَه، أو يسهو فَيَنْهَشْنَهُ، فهو مذعور فٱفعل. قلت: زِدْني. فقال: الظمآن يُجْزِئُه من الماء أيْسره.

وما ذكره هٰذا الراهب من تقدير شخصٍ ٱحْتَوَشَتْه[1] السباع والهوامُّ[2]، فهو حقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلىٰ باطنه بنور بصيرته، رآه مشحوناً

---

(١) أي: أحاطت به.

(٢) أي: الحيوانات، وليس يقصد به الحشرات، كما يفهم منه الآن.

بالسباع والهوامِّ، كالغضب والحِقْد، والحسد، والكِبْر، والعُجْب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن يَنْهَشْنَه ويفترِسْنَه إنْ سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مُشاهَدتها، فإذا انكشف الغطاء ووُضِع في القبر، عايَنَها مُتَمَثِّلةً حَيَّاتٍ، وَعقارِبَ يَلْدَغْنَه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أنْ يَقْهَرها قبل الموت ويَقْتُلها فَلْيَفعل، وإلا فَلْيُوَطِّنْ نفسه علىٰ لَدْغِها لِصَميم قلبه، فَضْلاً عن ظاهر بَشَرَتِه والسلام.

آخر كتاب الخوف

٢٥ - كتاب الزّهد والفقر

ٱعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة[١]، وبُغْضها أساس كلِّ طاعة، وقد سبق ذَمُّ الدنيا في (ربع: المهلكات)، ونحن نذكر الآن فَضْل البُغْض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بٱنزوائها عن العبد ويُسَمّىٰ ذٰلك فقراً، وإما بٱنزواء العبد عنها، ويسمى ذٰلك زهداً، ولكل واحد منهما: درجةٌ في نَيْل السعادات، وحَظٌّ في الإعانة علىٰ الفوز والنجاة. ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما في شطرين.

الشطر الأول من الكتاب في الفقر

[بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه]

ٱعلم أن الفقير إلىٰ الشيء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوىٰ الله تعالىٰ فهو فقير، لأنه محتاج إلىٰ دوام الوجود، وذٰلك مستفاد من فضل الله تعالىٰ.

وأما فقر العبد بالإضافة إلىٰ أصناف حاجاته، فلا يُحْصَر، ومن جملة حاجاته ما يُتَوَصَّلُ إليه بالمال، ثم يُتَصَوَّرُ أن يكون له خمسة أحوال عند فقره:

الأولىٰ: أن يكون بحيث لو أتاه المال لَكَرِهَه وتَأَذّىٰ به، وهرب مِنْ أَخْذِه بُغْضاً له، وٱحترازاً من شَرِّه وشُغْله، وصاحب هٰذه الحالة يُسمّىٰ زاهداً.

الحالة الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبةً؛ يَفْرح بحصوله، ولا يكرهه كراهةً؛ يَتأذّىٰ بها، وصاحب هٰذه الحالة يُسمّىٰ راضياً.

---

(١) هٰذا القول معروف من كلام الصحابي جندب بن عبدالله البجلي، أو مالك بن دينار، أو التابعي سعد بن مسعود الصيرفي، ونسب إلى عيسى عليه السلام. ولا أصل له من حديث النبي ﷺ كما قاله البيهقي في «الشعب». اهـ. وانظر «الضعيفة» (١٢٢٦).

الثالثة: أن يكون وجودُ المال أَحَبَّ إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولٰكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به، وإنِ ٱفتقر إلىٰ تَعَبٍ في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هٰذه الحالة يُسمّىٰ قانعاً.

الرابعة: أن يكون تَرْكُه للطلب: لِعَجْزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلاً إلىٰ طلبه بالتعب لَطَلَبَهُ، وصاحب هٰذه الحالة يُسمّىٰ الحريص.

الخامسة: أن يكون مُضْطراً إلىٰ ما قَصَده من المال، كالجائع، والعاري الفاقد للمأكول والملبوس. ويُسمّىٰ صاحب هٰذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفةً أو قويةً.

وأعلىٰ هٰذه الخمسة: الحالة الأولىٰ، وهي الزهد، ووراءها حالة أخرىٰ أعلىٰ منها، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجده لم يفرح به، ولم يَتَأَذَّ إن فَقَدَه، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها مال في غِرارتين[1]، ففرقته في يومها، فقالت لها جاريتها: أمَا ٱستطعتِ أن تشتري لنا مما قسمتِ لحماً بدرهم نُفطر عليه؟ فقالت: لو ذَكّرتِني لفعلت.

فمن هٰذه حاله لو كانت الدنيا بِحَذافيرِها في يده لم تَضُرَّه، إذ هو يَرىٰ الأموال في خزانة الله تعالىٰ، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يُسمّىٰ صاحب هٰذه الحالة: المُسْتغِنيَ، لأنه غنيٌّ عن فَقْدِ المال ووجوده جميعاً. ومتىٰ كان الزاهد في الدنيا لا يَرغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال.

قال أحمد بن أبي الحَوَاريّ لأبي سليمان الدارانيّ: قال مالك بن دينارٍ للمُغيرةِ: اذهب إلىٰ البيت فَخُذِ الزكاةَ التي أَهديتَها لي، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان: هٰذا مِنْ ضَعْفِ الزهد، هو قد زَهِدَ

---

(١) (الغِرارة): وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق، جمعها غرائر.

في الدنيا، ما عليه مِنْ أَخْذِها. فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء الأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يُظْهِرُ القويُّ النِّفارَ من المال ليَقتديَ به الضعفاء في التَّرْك، والله أعلم.

فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالىٰ في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية[1]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية[2].

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله ﷺ: **«قمت علىٰ باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجِدِّ محبوسون»**[3] وذكر تمام الحديث. وهو في «الصحيحين».

وفيهما حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«اللّٰهم اجعلْ رِزْقَ آل محمد قوتاً»**[4].

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُرِّ ثلاث ليال تباعاً حتىٰ قبض[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٣ وتمامها: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

(٢) سورة الحشر، الآية ٨ وتمامها: ﴿وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

(٣) هو في البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٤٤١١).

(٤) هو في البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) ـ واللفظ له ـ، و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٢٤/ ٢٣٦١)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٣٩/ ٤١٣٩).

(٥) أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

وفي أفراد مسلم من حديث عمر ﷺ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دَقَلاً يملأ بطنه[١].

وروىٰ أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يدخل فقراء المؤمنين الجنةَ قبل أغنيائهم بخَمْسِمِئة عام**»[٢] وقال الترمذيُّ: حديث صحيح.

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**إياك ومجالسة الأغنياء**»[٣].

وقال: «**يُؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله ﷻ إليه كما يعتذر الرجل إلىٰ الرجل في الدنيا؛ فيقول: (وعِزَّتي وجلالي ما زَوَيْتُ[٤] الدنيا عنك لِهَوَانِك عليّ، ولٰكن لِما أَعددْتُ لك من الكرامة. اُخرج يا عبدي إلىٰ هٰذه الصفوف، فمَنْ أَطعمك أو كساك يريد ذٰلك وجهي، فَخُذْ بيده فهو لك)**»[٥].

وقيل لموسىٰ ﷺ: إذا رأيتَ الفقر مُقْبِلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنىٰ مُقْبِلاً، فقل: ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عقوبته.

وقال أبو الدرداء: حساب ذي الدرهمين أشدّ حساباً من ذي الدرهم.

وكان الفقراء يتقدمون في مجلس الثَّوْريِّ علىٰ الأغنياء.

وجاء رجل إلىٰ إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء!؟ لا أفعل.

---

(١) هو في مسلم (٢٩٧٨). و(الدقل): رديء التمر.

(٢) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (١٩١٨/ ٢٣٥٤)] عن أبي هريرة، و(١٩١٩/ ٢٣٥٥) عن جابر، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٢٦/ ٤١٢٢ و٣٣٢٧/ ٤١٢٣)]. وهو في «صحيح الجامع» (٣٣٢٦ و٣٣٢٧).

(٣) ضعيف جداً، انظر «ضعيف سنن الترمذي» (٢٩٨/ ١٧٨٠). وهو في «ضعيف الجامع» (١٢٨٨)، و«الضعيفة» (١٢٩٤)، و«المشكاة» (٢٣٤٤).

(٤) أي: صرفتها ونَحَّيتُها عنك.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في «الثواب» بنحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف دون آخره.

وقال النبي ﷺ: **«طوبىٰ لمن هُدي إلىٰ الإسلام وكان عيشه كَفافاً، وقنع بما آتاه الله ﷻ»**(١).

وقد ذكرنا في (: القناعة وذم الحرص والطمع) في (كتاب: ذم المال) ما يغني عن الإعادة، ولا يقدر علىٰ ذٰلك إلا بعد قوة الصبر.

[(التفضيل بين الغني والفقير)]

وأما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل علىٰ تفضيل الفقير، ولٰكن لا بد من تفصيل، فنقول: إنما يُتَصوَّر الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص؛ بالإضافة إلىٰ غني شاكر، ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذْ لا يَخفىٰ أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص المُمْسِك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإنْ كان الغني مُتَمَتِّعاً بالمال في المباحات، فالفقير القنوع أفضل منه.

وكشف الغطاء في هٰذا أن ما يُرادُ لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغي أن يُضافَ إلىٰ مقصوده، إذْ به يَظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلىٰ الله تعالىٰ، والفقر ليس مطلوباً لعينه ولٰكن لأن فيه فَقْدَ العائق عن الله تعالىٰ، وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يَشْغَلُه الغنىٰ عن الله تعالىٰ، كسليمان عليه السلام، وكذٰلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالىٰ والأُنسِ به، وإنما الشاغل له حُبُّ الدنيا، إذْ لا يجتمع معه حب الله تعالىٰ، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وِصَالِه، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر.

والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتّع بها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٣٦)، والترمذي [«صحيحه» (١٩١٥/٢٣٤٩)] عن فضالة بن عبيد. وهو في «الصحيحة» (١٥٠٦).

وإن أخذتَ الأمر بٱعتبار الأكثر، فالفقير: عن الخطر أبعد، لأن فتنة السَّرّاء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة ألا تجد، ولمّا كان ذٰلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع بذمّ الغنىٰ وفَضْلِ الفقر. وقد تقدم ما يدل علىٰ فضله.

ومن ذٰلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«التقىٰ مؤمنان علىٰ باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير، كانا في الدنيا. فأُدخل الفقير الجنة، وحُبس الغني ما شاء الله تعالىٰ أن يُحبس، ثم أُدخل الجنة، فلقيه الفقير، فقال: أي أخي! ماذا حَبَسَك؟ والله لَقَدِ ٱحْتُبِسْتَ حتىٰ خِفْتُ عليك، فقال: أي أخي! حُبِسْتُ بعدك محبساً فَظيعاً كريهاً، وما وَصلْتُ إليك حتىٰ سَالَ مني من العَرَقِ ما لو وَرَدَهُ ألف بعيرٍ، كُلُّها آكِلَةُ حَمْضٍ[1]، لَصَدَرَتْ عنه رِوَاءً[2]»**[3].

وٱعلم أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالىٰ، فيكون قدومك بالموت علىٰ ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالىٰ، ولا تحب الدنيا التي تفارقك.

فصل في آداب الفقير في فقره

ينبغي له ألا يكون كارهاً لما ٱبتلاه الله به من الفقر.

وأرفع من هٰذا أن يكون راضياً فَرِحاً، ويكون متوكلاً علىٰ الله سبحانه، واثقاً به، ومتىٰ عكس الحال ـ وكان يشكو إلىٰ الخلق، ولا يشكو إلىٰ الله تعالىٰ ـ كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوىٰ، بل يظهر التعفّف والتجمّل. قال الله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

---

(١) (الحَمْضُ): كل نبت حامض، أو مالح يقوم علىٰ ساق ولا أصل له. وهو للماشية كالفاكهة للإنسان، ولذلك كان يسمى كل حديث يتفكه به (إحماضاً).

(٢) أي: مُرْتَوِيات من عَرَقِه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٧٠).

وينبغي للفقير ألا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته.

وينبغي له أيضاً ألا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بَذْل ما فضل عنه، فإن ذٰلك جهد المُقِلّ.

روىٰ أبو ذر ﷺ قال: يا رسول الله! أيّ الصدقة أَفْضَلُ؟ قال: «**جُهْدٌ من مُقِلٍ إلىٰ فقير في السر**»[1].

بيان آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما في نفس المال: فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة، فليحترز عن أخذه.

وقد تقدم في (كتاب: الحلال والحرام) درجات الشبهة، وما يجب اَجتنابه، وما يُستحبّ.

وأما غرض المعطي: فلا يخلو، إما:

أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها مِنَّةٌ.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب. وهو الزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هو مُسْتَحِقٌّ أم لا؟ فإن اَشتبه عليه فهو مَحَلُّ شبهةٍ، وإن كان صدقة ـ فكان المعطي إنما يعطيه لدينه ـ فلينظر إلىٰ باطنه، فإن كان مُقارِناً لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لو علم بذٰلك، لَنَفِرَ طبعه ولَمَا تقرب إلىٰ الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لو أعطاه لِظَنّه أنه عالِم فلم يَكُنْ.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه لأنه إذا قبله يكون معيناً له علىٰ قصده الفاسد.

(١) ضعيف جداً؛ أخرجه عن أبي ذر. وهو مخرج في «الإرواء» (٨٩٧).

وأما غرضه في الأخذ: فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن كان مستغنياً عنه لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روي عن عمر ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«ما جاءك من هٰذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ[١] ولا سائل، فخُذه، وما لا تُتْبِعْه[٢] نفسك»** أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: **«من جاءه من أخيه معروف من غير إشرافٍ ولا مسألة، فليقبلْه ولا يَرُدَّه، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»**[٣].

فصل في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر في السؤال

اعلم أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النَّهْيِ عنه، وفي الترخيص فيه.

أما الترخيص، فكقوله ﷺ: **«للسائل حق وإنْ جاء علىٰ فَرَسٍ»**[٤].

وفي بعض الأحاديث: **«ردوا السائل ولو بظِلْفٍ[٥] مُحْرَقٍ»**[٦].

ولو كان السؤال حراماً، لَمَا جاز إعانة المعتدي علىٰ عدوانه، والإعطاءُ إعانةٌ.

---

(١) أي: غير متطلّع إليه ولا طامع فيه.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٠١) بنحوه عن خالد بن عدي الجهني.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٢٩)، وأبو داود [«ضعيفه» (٣٦٤/ ١٦٦٥)] عن الحسين بن علي. وهو في «ضعيف الجامع» (٤٧٤٦)، و«الضعيفة» (١٣٧٨).

(٥) الظلف للبقر والغنم، كالحافر للفرس والبغل، وكالخُفِّ للبعير. ومعنى (ردوا): أعطوه ولو الشيء اليسير ولم يُرِدْ ردّ الحرمان والمنع.

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٤٣٩) عن أم بجيد، وفيه عن غيرها باختلاف في اللفظ. والنسائي [«صحيحه» (٢٤٠٥)] عن حواء بنت السكن. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣٥٠٢).

وأما أحاديث النَّهي عن السؤال، فروىٰ ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتىٰ يلقىٰ الله ﷻ وليس في وجهه مُزعةُ[(١)] لحم»**[(٢)] أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما أيضاً: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: **«اليد العليا خير من اليد السفلىٰ»**[(٣)]. واليد العليا المعطية، والسفلىٰ السائلة.

وفي حديث ابن مسعود ﷺ: أنه ﷺ قال: **«مَنْ سأل وله ما يُغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خُدُوشاً أو كُدُوحاً[(٤)] في وجهه»**[(٥)] إلىٰ آخره. وهو حديث حسن.

وفي المعني أحاديث كثيرة.

وكَشْف الغطاء في هٰذا أن نقول: السؤال في الأصل حرام، لأنه لا يَنْفَكُّ عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوىٰ.

والثاني: إذلال نفسه، وما **«ينبغي للمؤمن أن يُذِلّ نَفْسَه»**[(٦)].

والثالث: إيذاء المسؤول غالباً.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة:

أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه علىٰ نفسه موتاً أو مرضاً، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يُواريه.

---

(١) أي: قطعة يسيرة منه.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣) عن ابن عمر.

(٤) كل أَثَر من خَدْش أو عَضّ فهو: كَدْح. وجمعه كُدُوح.

(٥) «صحيح أبي داود» (١٤٣٢/ ١٦٢٦)، و«صحيح الترمذي» (٥٢٦/ ٦٥٠)، و«صحيح النسائي» (٢٤٢٩)، و«صحيح ابن ماجه» (١٤٩٠/ ١٨٤٠)، والدارمي ١/ ٣٨٧. وسيأتي قسم آخر منه في الصفحة (٤٠٢).

(٦) جزء من حديث في «الصحيحة» (٦١٣)، و«صحيح الجامع» (٧٧٩٧). وفسّره ﷺ بقوله: **«يتعرض من البلاء ما لا يطيق»**.

وأما المحتاج حاجةً مُهمةً، فهو كَمَنْ له جُبَّةٌ ولا قميصَ تحتها في الشتاء، فهو يَتأذَّىٰ بالبرد تَأَذِّياً لا ينتهي إلىٰ حد الضرورة، فكذٰلك من يقدر علىٰ المَشْيِ لٰكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجرةً يَكْتري[1] بها للركوب، وتَرْكه أَولىٰ.

ومن وجد الخبز وهو محتاج إلىٰ الأُدْم[2]، فله أن يسأل، مع الكراهة، وكذٰلك إذا سأل المَحْمِل[3] من هو قادر علىٰ الراحلة.

وينبغي في مثل هٰذه المسألة أن يُظْهِر الشكر لله تعالىٰ، ولا يَسأل سؤالَ محتاجٍ، بل يقول: أنا مُسْتَغْنٍ بما أَمْلِكه، وإنما النفس تطالبني، فيخرج بهٰذا عن حَد الشكوىٰ لله تعالىٰ.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا يَنقص بذٰلك في عينه، أو السَّخِيَّ الذي أَعَدّ مالَه للمكارم، فيخرج بذٰلك من الذّل.

وإن أخذ ممّن يعلم أنه إنما أعطاه حَياءً، لم يَجُزْ له الأخذُ، ويجب رَدُّه إلىٰ صاحبه.

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يَحتاج إليه، من: بيت يَسْكُنه، وثوب يستره، وطعام يُقيمه.

ويراعي في هٰذه الدنيا الأشياء ما يدفع الزمان من غير تَنَوُّقٍ[4] في شيء من ذٰلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يَجُزْ أن يسأل أكثر من قُوْتِ يومه وليلته، وإن خاف ألا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيح له السؤال أكثر من ذٰلك.

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لِسَنَتِهِ، وعلىٰ هٰذا يتنزل

---

(١) أي: يستأجر.
(٢) أي: الطعام الذي يؤكل مع الخبز.
(٣) أي: الهودج الذي يوضع علىٰ ظهر الراحلة.
(٤) التنوق في الأمر: التأنق فيه.

الحديث المَرْوِيُّ في تقدير الغنىٰ بخمسين درهماً[١]، فإنها تكفي المنفرد المُقْتَصِدَ لِسَنَتِهِ، فأما ذو العائلة فلا.

بيان أحوال السائلين

كان بِشْرٌ الحَافِيُ يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهٰذا من الروحانيين.

وفقير لا يسأل، وإن أُعطي أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس.

وفقير إذا ٱحتاج سأل، فكَفّارةُ مسألتِهِ صِدْقُهُ في السؤال.

قال الشيخ جمال الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: وفصل الخطاب أنه متىٰ قَدَرَ الفقير علىٰ دفع الزمان من غير سؤال، لم يَجُزْ له أن يسأل، فإن كان يندفع علىٰ مَضَضٍ[٢]، نَظَرْتَ، فإن كان مثله لا يُحْتَمَلُ، ولا يُخاف منه التَّلَفُ، فالسؤال مباحٌ وتركه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل.

قال سفيانُ الثَّورِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من جاع فلم يسأل حتىٰ مات دخل النار.

الشطر الثاني من الكتاب وفيه:

بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

[بيان حقيقة الزهد]

ٱعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عَنِ ٱنصراف الرَّغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يُسَمَّ زاهداً، كمن ترك التراب لا يُسمّىٰ زاهداً.

وقد جَرَتِ العادة بتخصيص ٱسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل

---

(١) صحيح، سلف في الصفحة (٤٠٠) الحاشية (٥).

(٢) يقال: فعلت هٰذا علىٰ مضض؛ أي: كارهاً متألّماً.

شيء سوىٰ الله تعالىٰ، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولٰكنه دون الأول.

وٱعلم أنه ليس من الزهد ترك المال، وبَذْله علىٰ سبيل السخاء والقوة، وٱستِمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحَقارتها بالنسبة إلىٰ نَفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدُّرِّ يبقىٰ، قَويَتْ رغبته في بيع هٰذه بهٰذه. وقد دل علىٰ ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]. وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

[بيان فضيلة الزهد]

ومن فضيلة الزهد قوله تعالىٰ؛ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبيّ ﷺ: «**من أصبح وهَمُّه الدنيا، شَتَّتَ الله عليه أمره، وفرَّق عليه ضَيعَتَه، وجعل فَقْرَه بين عينيه، ولم يَأْتِه من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهَمُّه الآخرة، جمع الله له هَمَّه، وحفظ عليه ضَيعَتَه، وجعل غناه في قلبه، وأتَته الدنيا وهي راغمة**[١]»[٢].

وقال الحسن: يُحشَر الناس عُراةً ما خلا أهل الزهد.

وقال: إن أقواماً أَكْرَموا الدنيا فصَلَبَتْهم علىٰ الخشب، فأَهِينوها، فأَهْنَأُ ما تكون إذا أَهَنْتُموها.

وقال الفُضيل: جُعِل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حُبُّ الدنيا، وجُعل الخير في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

---

(١) يقال: أرغم الله أنفه؛ أي: ألصقه بالرَّغام، وهو التراب. هٰذا هو الأصل، ثم ٱستُعمل في الذُّلّ؛ والعجز عن الانتصاف، والانقياد علىٰ كُرْه.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٧٩)، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣١٣/ ٤١٠٥)] من حديث زيد بن ثابت نحوه. وهو في «الصحيحة» (٩٥٠).

وكان بعض السلف يقول: الزهد في الدنيا يُرِيح القلب والبدن، والرغبة فيها تُكْثِرُ الهَمَّ والحزن.

فصل في درجات الزهد وأقسامه

من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، لٰكنه يجاهد نفسه، وهٰذا يُسمَّىٰ: المتزهد، وهو مَبْدَأُ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذٰلك، لٰكنه يرىٰ زهده ويلتفت إليه، فيكاد يُعْجَب بنفسه، ويرىٰ أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، كما يترك درهماً لأخذ درهمين، وهٰذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده، فلا يَرىٰ أنه ترك شيئاً، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خِرْقَةً، وأخذ جوهرة، فلا يَرىٰ ذٰلك مُعاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلىٰ نعيم الآخرة: أَخَسُّ من خرقة بالإضافة إلىٰ جوهرة. فهٰذا هو الكمال في الزهد.

وٱعلم أن مثلَ من ترك الدنيا، مثلُ مَنْ مَنَعه عن باب المَلِك كلبٌ علىٰ بابه، فألقىٰ إليه لقمة من خبز فشغله بذٰلك ودخل، فقَرُب من الملك. أَفَتَراه يرىٰ لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلىٰ كلبه في مُقابَلةِ ما قد ناله؟

فالشيطان كلب في باب الله ﷻ، يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحِجابُ مرفوع، والدنيا كَلُقمة، فمن تركها لينال عِزَّ الملك، فكيف يَلتفت إليها؟ ثم إنّ نِسْبَتَها ـ أعني ما سَلِمَ لكل شخص منها ولو عُمِّرَ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] بالإضافة إلىٰ نعيم الآخرة: أَقَلُّ مِنْ لقمة بالإضافة إلىٰ ملك الدنيا، لأن الفانيَ لا نسبة له إلىٰ الباقي، كيف ومُدّة العمر قصيرة ولَذّات الدنيا مُكَدَّرة.

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلىٰ المرغوب فيه، فعلىٰ ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يَدَيِ الآدميّ، وهٰذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرغبة في الثواب، والنعيم الموعود به، وهٰذا زهد الراجِين، فإن هٰؤلاء تركوا نعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: وهو ألا يزهد في الدنيا للتخلُّص من الآلام، ولا للرغبة في نَيْل اللَّذاتِ، بل لِطَلَبِ لقاء الله تعالىٰ، وهٰذا زهد المُحْسنين العارفين، فإن لذة النظر إلىٰ الله ﷻ بالإضافة إلىٰ لَذّات الجنة، كَلَذّة مُلْك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلىٰ لذة الاستيلاء علىٰ عُصْفور واللَّعِب به.

فصل في بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المُهِمّات سبعة أشياء: المَطْعَمُ، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمَنْكَحُ، والمال، والجاه.

فأما الأول: وهو المطعم: فاْعلم أن هِمّة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفي الحديث: **«إن عباد الله ليسوا بالمُتَنَعِّمين»**[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: كان يَمُرُّ بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة! فعلىٰ أيّ شيء كنتم تعيشون؟ قالت: علىٰ الأَسْوَدَين: الماء، والتمر[2].

والأحاديث في ذٰلك كثيرة مشهورة.

وقد كان جمهور من الزُهّاد يُخَشّنون المَطْعَم، وكان فيهم من لا يُطيق ذٰلك. فكان الثَّورِيُّ حَسَنَ المَطْعَمِ، وربما حمل في سُفْرته[3] اللحم المَشْوِيَّ والفالوذَجَ[4].

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٠١) عن معاذ. وهو في «صحيح الجامع» (٢٦٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢)، وأحمد (٢٤٤١٢).

(٣) السُّفْرة: هو ما يُحمل فيه طعام المسافر، ويطلق أيضاً على طعام المسافر ذاته.

(٤) هي: حلواء هلامية رجراجة تعمل من الدقيق والماء والعسل ومواد أخرىٰ، وتصنع الآن من النشاء والماء والسكر والرز ومواد أخرىٰ.

وفي الجملة، فالزاهد يقصد ما يُصْلِح به بدنه، ولا يزيد في التنعُّم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشّن.

وقد يدّخر بعض الناس الزاد الحلال يَتَقَوَّتُه، فلا يُخْرِجه ذٰلك من الزهد، فقد كان السَّبْتِيّ يعمل من السبت إلىٰ السبت ويَتَقَوَّتُه.

وورث داودُ الطائيُّ عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس: فالزاهد يقتصر فيه علىٰ ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تَجمُّل، لئلا يُخْرِجَه التقشُّفُ إلىٰ الشهرة. وكان أكثر لباس السلف خَشِناً، فصار لُبْسُ الخَشِنِ شهرةً.

وقد روي عن أبي بردة قال: أَخرجتْ إلينا عائشة رضي الله عنها كساء مُلَبَّداً[١]، وإزاراً[٢] غليظاً، وقالت: قُبِضَ رسول الله ﷺ في هٰذين[٣]. أخرجاه في «الصحيحين».

وعن الحسن قال: خطب عمر ﷺ وهو خليفة، وعليه إزار فيه ٱثنتا عشرة رقعة.

الثالث: المسكن: فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: ألّا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصُّفّة[٤].

---

(١) أي ثخن وسطه وصفق حتى صار يشبه اللِّبْدة ـ وهي الخرقة التي يرقع بها صدر القميص ـ ويقال: المراد هنا المُرقَّع.

(٢) هو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٠٨٠). وهو في «صحيح أبي داود» (٣٤٠٥/ ٤٠٣٦)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٤١٧/ ١٧٣٣).

(٤) هم فقراء المهاجرين ومَن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلىٰ موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، مثل كوخ[١] من سَعَفٍ[٢]، أو خُصٍّ[٣] وما أَشْبَهَ ذٰلك.

وأدناها: أن يطلب حُجْرةً مبنية.

ومتىٰ طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن. وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة علىٰ لبنة[٤].

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ، نِلْتُ السقف[٥].

وفي الحديث:

إن الرجل يؤجر في نفقته كلها إلا في التراب[٦].

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كان البنيان كَفافاً، فلا أجر ولا وِزْرَ.

وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يُجاوز حد الزهد.

الرابع، أثاث البيت: فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه علىٰ الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القَصْعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلىٰ كثرة العَدَد في الآلة، أو في نَفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلىٰ سيرة رسول الله ﷺ. ففي «صحيح مسلم»، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ وهو مضطجع علىٰ حصير، وإذا

---

(١) بيت مُسَنَّم بلا كُوّة يدخل منها الهواء والضوء.

(٢) أي: جريد النخل وورقه.

(٣) بيت يعمل من الخشب والقصب.

(٤) سلف تخريجه صفحة (٢٤٣) حاشية (١).

(٥) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٤٩٧).

(٦) رواه البخاري (٥٦٧٢) من قول خباب بن الأرت، وليس من قول النبي ﷺ كما يوهمه صنيع المؤلف. وهو في «المشكاة» (٥٦٨٢).

الحصير قد أَثّر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع[١]. وفي رواية البخاري: فوالله ما رأيت شيئاً يَرُدُّ البصر[٢]. والحديث مشهور في «صحيح مسلم».

وقال عليٌّ رضي الله عنه: تزوجتُ فاطمة وما لي ولها فراشٌ إلا جِلْدُ كَبْشٍ. كنا ننام عليه بالليل، ونَعْلِفُ عليه الناضِح[٣] بالنهار، وما لي خادمٌ غيرها، ولقد كانت تَعْجِنُ، وإن قُصَّتَها[٤] لَتَضْرِبُ حَرْفَ الجَفْنة[٥] من الجهد الذي بها.

ودخل رجل علىٰ أبي ذر رضي الله عنه، فجعل يُقَلِّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! ما أرىٰ في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً. فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هٰهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يَدَعُنا فيه.

الخامس، المنكح: لا معنىٰ للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته.

قال سهل بن عبدالله: حبب إلىٰ رسول الله ﷺ النساء[٦].

وكان عليٌّ رضي الله عنه من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبِضْعَ عَشْرةَ سُرِّيَّةً[٧].

وكان أبو سليمان الداراني يقول: كُلُّ ما شغلك عن الله، من: أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم.

وكشف الغطاء عن ذٰلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف علىٰ

---

(١) هو مكيال أربعة أمداد يقدر تقريباً بـ ٢,٧٥ ليتراً.
(٢) رواه مسلم (١٤٧٩)، وكذا البخاري (٢٤٦٨) كلاهما روى اللفظين.
(٣) هو الجمل الذي يستقى عليه.
(٤) القُصة بالضم: الناصية، وهي شعر مقدم الرأس.
(٥) أي القصعة؛ وهي: وعاء يؤكل فيه ويُثرد، وكان يتخذ من الخشب غالباً.
(٦) رواه النسائي [«صحيحه» (٣٦٨٠)]، وأحمد (١٢٢٧٩ و١٣٠٤١ و١٤٠٢١) عن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٣١٢٤)، و«المشكاة» (٥٢٦١).
(٧) هي الجارية المملوكة، أي: العَبْدة.

نفسه، تَعَيّن عليه النكاح. فأما من لا يخاف، فَهَلِ النكاح في حقه أفضل أوِ التعبُّد؟ فيه ٱختلاف بين العلماء. والناس مختلفون فيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذٰلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح هَمَّه، ويَكُفُّ بَصَرَه، ويَرُدُّ فِكْره، فهٰذا غايةٌ في الفضيلة، وعليه يُحْمَل حالُ رسول الله ﷺ، وحالُ عليٍّ ﷺ، ومن جرىٰ مَجْراهما، ولا ٱلتفات إلىٰ قول من يرىٰ الزهدَ بتركِ الالتذاذ بالنكاح، فإن ذٰلك يقع ضِمْناً وتَبَعاً للمقصود.

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدُّون علىٰ الجميلة، وذٰلك محمول علىٰ أنّ تلك تكون إلىٰ الدِّين أَمْيَلَ، والنفقة عليها أقل، والاَهتمام بأمرها يسيرٌ، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن.

وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد مِرْطاً[1] فَتَمْرُطُ دينه.

السادس، المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه علىٰ ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.

وكان حَمّاد بن سَلَمة إذا فتح حانوته وكَسِبَ حَبَّتَين، قام.

وكان سعيد بن المُسَيَّبِ يَتَّجِرُ في الزيت، وخَلَّف أربعَمِئة دينار، وقال: إنما تَركْتُها لأَصونَ بها عِرْضي وديني.

---

(١) المرط، بكسر الميم واحد المروط، وهي أكسية من صوف، أو خَزّ - أي: حرير - كان يؤتزر بها، وقوله: تمرط دينه. أي: تذهب به. من قولهم: مرط الشعر: إذا نتفه وأزاله.

السابع، الجاه: ولا بد للإنسان من جاهٍ حتىٰ في قلب خادمه، وٱشتغالُ الزاهد بالزهد يُمهِّد له الجاهَ في القلوب، فينبغي أن يتحرز من شر ذٰلك.

وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يُفْسِدَ علينا دينَنا.

فصل في بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذٰلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشّن، سَهْلٌ علىٰ من أحب المدح بالزهد، فَكَمْ من راهبٍ قد لازم الدَّيْرَ، وقَلَّلَ المَطْعَمَ، وقوَّاه علىٰ ذٰلك حب المَحْمَدة، كما سبق ذكره في (كتاب: الرياء).

ولا بد من الزهد في فُضول الأموال والجاه جميعاً، حتىٰ يَكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مُشْكِلٌ.

وقد قال ٱبن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

وينبغي أن يعوَّل في هٰذا علىٰ ثلاث علامات:

الأولىٰ: ألا يفرح بموجود، ولا يحزن علىٰ مفقود، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهٰذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامُّه ومادِحُه، وهٰذه علامة الزهد في الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب علىٰ قلبه حلاوة الطاعة.

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالىٰ، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلامَ أفضىٰ بِهِمُ الزهد؟ قال: إلىٰ الأُنْس بالله.

قال يحيىٰ بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومَنْ يطلبها: ماشِطَتُها[١]، والزاهد يُسَخِّم[٢] وجهها، ويَنْتِفُ شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالىٰ عنها.

فهٰذا ما أردنا ذِكْره من حقيقة الزهد وأحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل.

فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) التي تتخذ المشاطة حرفة، وهي من الحرف المرذولة، وأكثر ما تحتاجها القبيحة.

(٢) يقال: سخم الله وجهه، أي: سوده من السخمة وهي السواد، ويريد هنا أن الزاهد يكره فيها ويظهر عيوبها.

٢٦ - كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ، ١٦٠. المائدة: ١١. التوبة: ٥١. إبراهيم: ١١. المجادلة: ١٠. التغابن: ١٣] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أُمَّتِه سبعون ألفاً لا حسابَ عليهم، ثم قال: «**هم الذين لا يَكْتَوُون**[١]**، ولا يَسْتَرْقُون**[٢]**، ولا يَتَطَيَّرون**[٣]**، وعلىٰ ربهم يتوكّلون**»[٤] أخرجاه في «الصحيحين».

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**لو أنكم تَوَكَّلتم علىٰ الله حَقَّ تَوَكُّله، لَرَزَقكم كما يَرْزُق الطير تغدو خِماصاً وتَرُوح بِطاناً**»[٥].

وكان من دعاء النبيِّ ﷺ: «**اللهم إني أسألك التوفيق لِمَحَابِّكَ من الأعمال، وصِدْقَ التوكُّلِ عليك، وحُسْنَ الظنِّ بك**»[٦].

---

(١) الكَيُّ: إحراق الجلد بحديدة مُحْماة ونحوها، وهو من العلاج المعروف في كثير من الأمراض.

(٢) أي: لا يطلبون الرّقية، وهي العُوذة والكلام المتْلُوّ علىٰ المريض وغيره لشفائه من الآفات.

(٣) أي: لا يتشاءمون.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٤١ و٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

(٥) أي: تغدو بُكْرةً وهي جياع، وتروح عِشاء وهي ممتلئة الأجواف. والحديث صحيح، سلف في الصفحة (١٠٥) حاشية (٢).

(٦) رواه أبو نعيم عن الأوزاعي مرسلاً، والحكيم عن أبي هريرة. وهو في «ضعيف الجامع» (١١٨٩)، و«الضعيفة» (٢٩١٠).

والتوكل يبتنى على التوحيد، والتوحيد طبقات:

[بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل].

منها: أن يُصَدِّقَ القلبُ بالوحدانية المُتَرْجَم عنها قولك: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥. محمد: ١٩] وحده ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن] فَيُصَدِّقُ بهٰذا اللفظ، لٰكن من غير معرفة دليل! فهو ٱعتقاد العامة.

الثانية: أن يرىٰ الأشياء المختلفة، فيراها صادِرة عن الواحد، وهٰذا مقام المُقَرَّبين.

الثالثة: أن الإنسان إذا ٱنكشف عن بصيرته أنْ لا فاعل سوىٰ الله، لم ينظر إلىٰ غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه! والكُلُّ مُسَخَّرون له، فلا يَعتمد علىٰ المطر في خروج الزرع، ولا علىٰ الغيم في نزول المطر، ولا علىٰ الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد علىٰ ذٰلك جهل بحقائق الأمور. ومَنِ ٱنكشفتْ له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بدّ لها من محرّك، فٱلتفات العبد في النجاة إلى الريح يُضاهي ٱلتفات مَنْ أُخِذَ لِتُضرَبَ عنقه، فوقّع له المَلِكُ بالعفو عنه، فأخذ يشتغل بِذِكْر الحِبْر والكاغَدِ[1] والقلم الذي كتب به التوقيع ويقول: لولا هٰذا القلم ما تَخلّصتُ، فيرىٰ نجاته من القلم لا من مُحَرِّكِ القلم، وهٰذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شَكَر الكاتبَ دون القلم، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق: أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مُسَبِّب الأسبابِ الـ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود. البروج: ١٦].

---

(١) كلمة مُعَرَّبةٌ الأصل، تعني: الصحيفة يكتب فيها.

فصل في بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ونحو ذلك

اِعلم أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلىٰ فلان، أي فوَّض أمره إليه، وٱعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عنِ ٱعتماد القلب علىٰ المُوَكَّل، ولا يتوكل الإنسان علىٰ غيره إلا إذا ٱعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية.

فإذا عرفت هٰذا، فَقِسْ عليه التوكل علىٰ الله سبحانه.

وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعلَ سواه، وٱعتقدتَ مع ذٰلك أنه تامُّ العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، ٱتَّكَلَ قلبك عليه وحده لا مَحالة، ولم يلتفت إلىٰ غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هٰذه الحالة من نفسك، فسَبَبُه أحدُ أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هٰذه الخصال.

وإما ضعف القلب بٱستيلاء الجُبْن عليه، وٱنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوَهَم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعَذِرة[1]، ربما نَفِرَ طَبْعُه منه، وتَعذّر عليه تَناوُلَه.

ولو كُلِّفَ العاقل أن يَبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذٰلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذٰلك جُبْنٌ في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه، وقد يَقوىٰ حتىٰ يصير مَرَضاً، حتىٰ يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذاً لا يَتمّ التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً، فإذا ٱنكشف لك معنىٰ التوكل، وعلمت الحالة التي تُسمّىٰ توكُّلاً، فٱعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

---

(١) أي: الغائط.

الأولىٰ، ما ذكرناه، وهو: أن يكون حاله في حق الله تعالىٰ الثقةَ بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية، وهي أقوىٰ: أن يكون حاله مع الله تعالىٰ كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلىٰ سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر علىٰ قلبه، وأول سابق إلىٰ لسانه: يا أماه. فمن كان تألُّهه[١] إلىٰ الله، ونظره إليه، واعتماده عليه، كَلِفَ[٢] به كما يَكْلَفُ الصبيُّ بأمه، فيكون متوكِّلاً حقاً.

والفرق بين هٰذا وبين الأول، أن هٰذا متوكِّلٌ قد فَنِيَ في توكّله عن توكّله، إذْ لا يلتفت إلىٰ غير المتوكَّلِ عليه، ولا مَجال في قلبه لغيره. وأما الأول، فهو متوكِّل بالتكليف والكسب، وليس فانياً عن توكله، بل له ٱلتفات إليه، وذٰلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكَّل عليه وحده.

الدرجة الثالثة، وهي أعلى منهما: أن يكون بين يَدَيِ الله تعالىٰ مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه، إلا أنه لا يرىٰ نفسه ميتاً، وهٰذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلىٰ أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهٰذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولا سيما المقام الثالث.

فصل في بعض أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنىٰ التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط علىٰ الأرض، كالخِرْقة، وكَلَحْمٍ علىٰ وَضَمٍ[٣]، وهٰذا ظن الجُهّال، فإن ذٰلك حرام في الشرع.

---

(١) أي: تَنَسُّكه وتعبُّده، وتطلق أيضاً على من ٱدّعىٰ الألوهية، فهما معنيان متغايران.
(٢) أي: أحبه وأولع به.
(٣) الوضم كل شيء يجعل عليه اللحم من خشب أو غيره، يوقى به من الأرض.

والشرع قد أثنىٰ علىٰ المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكّل في حركة العبد وسَعْيِهِ إلى مقاصده. وسعي العبد إمّا أن يكون لجلبِ نفعٍ مفقود كالكسب، أو لحفظِ موجودٍ كالادّخار، وإمّا لدفع ضررٍ لم ينزل، كدفع الصائل[1]، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوي من المرض، فحركات العبد لا تَعْدو هٰذه الفنون الأربعة.

١ - **الفن الأول**، في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تُجْلب المنافع علىٰ ثلاث درجات:

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التي ٱرتبطت بها المُسَبَّبات بتقدير الله تعالىٰ ومشيئته ٱرتباطاً مُطّرداً لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تَمُدُّ يدك إليه وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل تَرْكُ السَّعْيِ. ومَدُّ اليد إلىٰ الطعام سعي، وكذٰلك مَضْغُه وٱبتلاعه، فهٰذا جنونٌ مَحْضٌ، ليس من التوكّل في شيء، فإنك إذا ٱنتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام، أو يخلق في الطعام حركة إليك، أو يُسَخِّر ملكاً ليمضغه ويُوصِلُه إلىٰ مَعِدتك، فقد جهلت سنة الله.

وكذٰلك لو لم تزرع، وطمعت أن يخلق الله تعالىٰ نباتاً من غير بَذْرٍ، أو تَلِدَ الزوجة من غير وِقاعٍ، فكل ذٰلك جنون، وليس التوكل في هٰذا المقام ترك العمل، بلِ التوكّل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالىٰ خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة وأنه الذي يُطْعِمك ويَسْقيك.

وأما الحال: فهو أن يكون قلبك وٱعتمادك علىٰ فضل الله تعالىٰ، لا علىٰ اليد والطعام، لأنه ربما جَفّت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك علىٰ الطعام، فَمَدُّ اليد إلىٰ الطعام لا ينافي التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست مُتَيَقَّنةً، لٰكن الغالب أن المسببات لا

---

(١) هو المعتدي القاهر للناس.

تَحصل دُونها. مثاله من يفارق الأمصار، ويخرج مسافراً إلىٰ البوادي التي لا يَطْرقها[١] الناس إلا نادراً، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد، فهٰذا كالمجرب علىٰ الله تعالىٰ، وفعله مَنْهِيٌّ عنه وحَمْلُه للزاد مأمورٌ به؛ فإن رسول الله ﷺ لما سافر تَزَوَّدَ واستأجر دليلاً إلىٰ المدينة[٢].

الدرجة الثالثة: مُلابَسة الأسباب التي يُتَوهَّم إفضاؤها إلىٰ المُسَبَّبات من غير ثقةٍ ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتىٰ كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لٰكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسّب ليس من التوكل في شيء، إنما هو من فِعْل البطّالين[٣] الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر ﷺ: المتوكل الذي يُلقي حَبَّة في الأرض ويتوكل علىٰ الله.

٢ - **الفن الثاني**، في التعرض للأسباب بالادّخار: ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع هَمِّه، فادّخاره إياه لا يُخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النَّضير، ويحبس لأهله قُوتَ سَنَتِهم[٤].

فإن قيل: فقد نهىٰ رسول الله ﷺ بلالاً أن يَدَّخر[٥]

فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي أن يدّخر فيجوعون، بل الجواب: أن حال بلال وأمثاله من أهل الصُّفّة كان مقتضاها

---

(١) أي: لا يَسْلكُها.

(٢) البخاري (٣٩٠٥) عن عائشة لكن، وقع فيه أنها قالت:
فجهزناهما أحثّ الجهاز، ووضعنا لهما سُفرة في جِراب.

(٣) هم العاطلون عن العمل.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧).

(٥) هو في «المشكاة» (١٨٨٥)، و«صحيح الترغيب» (٩٠٨ و ٩٠٩).

عدم الآدّخار، فإن خالفوا كان التوبيخ علىٰ الكذب في دعوىٰ الحال علىٰ الآدّخار الحلال.

٣ - **الفن الثالث**، مباشرة الأسباب الدافعة للضرر؛ ليس من شرط التوكّل تَرْك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المَسْبَعة[١]، أو مَجرىٰ السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذٰلك مَنْهيٌّ عنه.

وكذٰلك لا ينقض التوكّل لُبْس الدِّرْع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعِقال. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلىٰ النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله أَعْقِلُها[٢] وأتوكّل، أو أُطْلِقها وأتوكّل؟ قال: «**اعقِلْها وتوكّل**»[٣].

ويتوكل في ذٰلك كلّه علىٰ المُسَبِّبِ لا علىٰ السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه، ومتىٰ عَرض له إذا سُرق متاعُه أنه لوِ ٱحترز لم يُسرق، أو أَخذ يشكو ما جرىٰ عليه، فقد بانَ بُعْدُه عنِ التوكّل.

وليعلم أن القَدَرَ له كالطبيب، فإن قُدِّمَ إليه الطعام فَرِحَ، وقال: لولا أنه عَلِمَ أن الغذاء ينفعني ما قدّمه، وإنْ مُنِعه فرح. وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يُؤْذيني لَمَا منعني.

وٱعلم أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالىٰ ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق الشفيق، لم يَصِحَّ توكّله، فإن سُرق متاعه رضي بالقضاء، وأَحَلَّ[٤] الآخِذ، شَفَقةً علىٰ المسلمين.

---

(١) أي: أرض كثيرة السِّباع.

(٢) عَقَل البعيرَ: ضم رُسغ يده إلىٰ عَضُده، وربطهما معاً بالعقال (أي: الحَبْل) ليبقىٰ بارِكاً.

(٣) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (٢٠٤٤/٢٥١٧)] عن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (١٠٦٨)، و«تخريج مشكلة الفقر» (٢٢).

(٤) أي: أباحه له، وعفا عنه.

فقد شكا بعض الناس إلىٰ بعض العلماء أنه قُطِعَ عليه الطريق، وأُخذ ماله فقال: إن لم يكن غَمُّك، كيف صار في المسلمين من يفعل هٰذا أكثرَ مِنْ غَمِّك بمالك فما نصحت المسلمين.

٤ - **الفن الرابع**، السعي في إزالة الضرر، كمداواة المريض ونحو ذٰلك:

آعلم أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

إلىٰ مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهٰذا القسم ليس تركه من التوكّل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنوناً، ك: الفصد، والحجامة، وشرب المُسهِّل، ونحو ذٰلك، فهٰذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوىٰ[1] وأمر بالتداوي[2].

وقد تدواىٰ خلق كثير من المسلمين، وآمتنع عنه أقوام توكُّلاً.

كما روي عن أبي بكر الصِّدّيق ﷺ أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: رآني الطبيب. قيل: فما قال لك؟ قال: إني ﴿فَعَّالٌ لِّمَا﴾ أريد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذي ننصره أن التداوي أفضل، ونحمل حال أبي بكر ﷺ أنه قد تداوىٰ ثم أمسك بعد آنتفاعه بالدواء، أو يكون عَلِمَ قُرْبَ أجله بأمارات[3].

وآعلم أن الأدوية أسباب مُسَخَّرة بإذن الله تعالىٰ.

القسم الثالث: أن يكون السبب مَوْهوماً، كالكَيِّ، فيخرج عن التوكل، لأن النبيَّ ﷺ وصف المتوكلين بأنهم «**لا يكتوون**»[4].

---

(١) ينظر في العراقي ٤/ ٢٨٤-٢٨٥، والزبيدي ٩/ ٥١٨-٥١٩.

(٢) منها ما أخرجه أصحاب السنن عن أسامة بن شريك. وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٣٠).

(٣) أي: علامات.

(٤) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٤١٢) حاشية (٤).

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «**لا يكتوون**» علىٰ ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافية لئلا يمرضوا، فإن النبي ﷺ كان يرقي الرقية بعد نزول المرض(١)، وقد كوىٰ أسْعَد ابن زرارة رضي الله عنه(٢).

وأما شكوى المريض، فهي مخرجةٌ عن التوكّل، وقد كانوا يَكرهون أنين المريض لأنه يُتَرْجِم عن الشكوى.

فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضاً بلا عوّاد.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: بخير. قال: حُممتَ البارحة؟ قال: إذا قلت لك: (أنا بخير)، فلا تخرجني إلىٰ ما أكره.

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذٰلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله فيَّ، ويتصور أن يصف ذٰلك لتلميذ يُقَوِّيه علىٰ الضراء، ويرىٰ ذٰلك نعمة، فيصف ذٰلك كما يصف النعمة شكراً لها، ولا يكون ذٰلك شكوىً.

وقد روينا أن النبيَّ ﷺ قال:

«**إني أُوعَك(٣) كما يُوعك رجلان منكم**»(٤).

آخر التوكل

(١) الرقية والإرقاء هو في «صحيح مسلم» (٢١٩١-٢١٩٧)، وأحمد (٢٣١٩٩). و«الصحيحة» (٥٤٨).

(٢) ورد نحوه في «صحيح ابن ماجه» (٢٨١٤/٣٤٩٣) أنه كوى سعْد بن زرارة.

(٣) الوعك: الحُمّىٰ، وقيل: أَلَمُها.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧١) عن ابن مسعود. وهو في «صحيح الجامع» (٢٤٥٥).

٢٧ - كتاب المحبة والشوق والأنس والرضىٰ

اعلم أن المحبة لله هي الغاية القصوىٰ من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابعٌ من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مُقَدِّمتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

[بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالىٰ]

واعلم أن الأمة مُجْمِعة علىٰ أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وهٰذا دليل علىٰ إثبات الحب لله، وإثبات التفاوُت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «**ما أعددت لها؟**» قال: يا رسول الله! ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ:

«**المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت**»(١). فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

وروي أن مَلَك الموت جاء إلىٰ إبراهيم الخليل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحىٰ الله إليه: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبِضْ.

وقال الحسن البصري رحمه الله: من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالىٰ ـ لا من حيث نسبته إلىٰ الله ـ فذٰلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول ﷺ فذٰلك لا يكون إلا عن حب الله تعالىٰ، وكذٰلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوبُ محبوبٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩) عن أنس، دون: «**المرء مع من أحب**».

ورسول المحبوب محبوب، وكل ذٰلك يرجع إلىٰ حُبِّ الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالىٰ، ولا مُستحِقَّ للمحبة سواه.

وإيضاح ذٰلك يرجع إلىٰ أسباب:

[بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده]

أحدها: أن الإنسان يحب نفسه، وبقاءه، وكماله، ودوام وجوده، ويكره ضد ذٰلك من الهلاك والعَدَمِ والنقصان، وهٰذا جِبِلَّةُ[1] كُلِّ حَيٍّ، لا يُتَصَوَّر أن يَنْفَكَّ عنها. وهٰذا يقتضي غاية المحبة لله ﷻ، فإن الإنسان إذا عَرف به، عَرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المُخْتَرِعُ له، المُوجِد لِذَاتِه بعد أن كان عَدَماً مَحْضاً لولا فضلُ الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل. ولذٰلك قال الحسن البصريُّ: من عرف ربه أحبه، ومَنْ عَرف الدنيا، زَهِدَ فيها. وكيف يُتَصَوَّرُ أن يُحبَّ الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قِوام نفسه.

السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يُحبُّ من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب لِنصرته وقَمع أعدائه، وأعانه علىٰ جميع أغراضه، فإنه محبوبٌ عنده لا مَحالة. وإذا عرف الإنسان حَقَّ المعرفةِ علم أن المُحْسِنَ إليه هو الله سبحانه وتعالىٰ فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصرٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤. النحل: ١٨].

وقد أشرنا إلىٰ طرف من ذٰلك في (كتاب: الشكر)، ولٰكنا نبيّن أن الإحسان من الناس غير مُتَصَوَّرٍ إلا بالمَجاز، وأن المحسن في الحقيقة هو الله تعالىٰ:

بيان ذٰلك أن نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، ومَكَّنك فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هٰذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله، وبقدرته علىٰ المال، وبداعيته الباعثة له علىٰ صرف المال. فمن الذي أنعم بخَلْقه وخَلْق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصَرَف وجهه إليك، وألقىٰ في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذٰلك ما أعطاك، فكأنه صار مقهوراً في التسليم لا

---

(١) أي خِلقةٌ وطبعٌ.

يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذي اضطره وسَخَّره لك، فهو جارٍ مَجرىٰ خازن أميرٍ أمره أن يُسَلِّم إلىٰ الإنسان خِلْعة[1] خلعها عليه الأمير، فإن الخازن لا يُرىٰ مُحْسِناً بتسليم خِلْعة الأمير، لأنه مضطر إلىٰ طاعته، ولو خلاّه الأمير ونَفْسَه لَمَا سَلَّم ذٰلك. وكذٰلك كل محسن، لو خلاه الله ونَفْسَه، لم يبذل حَبَّةً من ماله حتىٰ يسلط الله عليه الدواعي، ويُلقي في نفسه أن حَظَّه في بذل ذٰلك، فيَبْذُله. فينبغي للعارف ألا يحب إلا الله، إذِ الإحسان من غيره مُحالٌ.

السبب الثالث: أن المحسن في نفسه ـ وإن لم يصل إليك إحسانه ـ محبوبٌ في الطباع، فإنه إذا بلغك عن مَلِكٍ من الملوك أنه عالمٌ عادل عابد رفيق بالناس، مُتلطِّف بهم وهو في قطر بعيد، فإنك تحبه، وتجد في نفسك مَيْلاً كثيراً إليه، فهٰذا حب المحسن من حيث إنه محسنٌ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك. وهٰذا ما يقتضي حب الله تعالىٰ، بل يقتضي ألا يحب غيره. إلا بحيث أن يَتعلَّق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلىٰ الكل كافة، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم، إلىٰ غير ذٰلك من النِّعَمِ التي لا تُحصىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤. النحل: ١٨] فكيف يكون غيره محسناً؟ وذٰلك المحسن حسنةٌ من حسنات قدرته، فمن عرف هٰذا لم يُحِبَّ إلا الله تعالىٰ.

وكذٰلك نقول: كل من كان مُتَّصفاً بالعلم، أو القدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة، فإن ذٰلك يوجب له المحبة. فصفات الصِّدِّيقين الذين تحبهمُ القلوب طبعاً، ترجع إلىٰ علمهم بالله تعالىٰ وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه، وإلىٰ قدرتهم علىٰ إصلاح نفوسهم وإلىٰ تنزيههم عن الرذائل والخبائث. ولمثل هٰذه الصفات تُحَبُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نَسَبْتَ هٰذه الصفات إلىٰ صفات الله ﷻ وَجدتَها مُضْمَحِلّة بالنسبة إلىٰ صفاته سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) هي ما يعطيه الإنسان غيره من الثياب مِنحة، وأصلها أن يخلع المعطي الثوب ويعطيه لغيره.

أما العلم: فإن علم الأولين والآخرين: من علم الله تعالىٰ الذي يحيط بالكل، حتىٰ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

ولو اجتمع أهل الأرض والسماوات علىٰ أن ﴿يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩] وحِكْمته في تفصيل خَلْقِ نملة، أو بعوضة، لم يَطَّلعوا علىٰ عُشْرِ عُشْرِ ذٰلك، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والقدر اليسير الذي عَلِمه الخلقُ كلُّهم، بتعليمه عَلِموه. فَفَضْلُ علم الله سبحانه علىٰ علم الخلائق كلهم خارجٌ عن النهاية، ومعلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة: فهي أيضاً صفةُ كمال، فإذا نسبتَ قدرة الخلق كُلِّهم إلىٰ قدرة الله تعالىٰ، وجدتَ أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم مُلْكاً، وأقواهم بَطْشاً، وأجمعهم للقدرة علىٰ سياسة نفسه وسياسة غيره، غايةُ قدرته أن يقدر علىٰ بعض صفات نفسه، وعلىٰ بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذٰلك لا يملك لنفسه ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا﴾ يملك ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان]، بل لا يقدر علىٰ حفظ عينه من العمىٰ، ولا علىٰ حفظ لسانه من الخَرَسِ، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر علىٰ ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه وخالقُ قدرته وخالقُ أسبابه والمُمَكِّن له من ذٰلك. ولو سَلَّط بعوضةً علىٰ أعظم مَلِكٍ وأقوىٰ شخصٍ لأَهْلَكَتْه، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالىٰ في حق أعظم ملوك الأرض؛ ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع مُلْكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالىٰ، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته؛ إنْ أَهْلَكَهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرّة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعَظَمَة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإنْ تُصُوِّر أنْ تحبّ قادراً؛ لكمال قدرته وعَظَمته وعِلْمِه، فلا يَستحق ذٰلك سواه، ولا يُتَصَوَّر كمال

التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهو الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد، الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران. الحج: ١٨]. و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة] لا راد لِحُكْمه، ولا مُعقِّب لقضائه، العالم الذي ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣] ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

وكمال معرفة العارفين: الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المُستحِقّ لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

فصل في بيان أن أَجَلَّ اللذّات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وانه لا يُتَصَوَّر ان يُؤْثِر على ذلك لذة اخرى إلا من حُرِم هذه اللذّة

اعلم أن اللذّات تابعةٌ للإدراكات، والإنسان جامعٌ لجملة من القوىٰ والغرائز، ولكلّ قوةٍ وغريزةٍ لذّةٌ. ولم تُخلق هٰذه الغرائز عبثاً، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع:

فغريزة شهوة الطعام خُلِقتْ لتحصيل الغذاء الذي به القِوام.

ولذّة البصر والسمع في الإبصار والإسماع.

وكذٰلك في القلب غريزة تُسمَّىٰ النّور الإلهي، وقد تُسمّىٰ العَقْلَ، وتُسمّىٰ البصيرة الباطنة، وتُسمّىٰ نور الإيمان واليقين، وهٰذه الغريزة خُلِقتْ لِيُعْلَم بها حقائقُ الأمور كلها بطبعها، فمُقتضىٰ طبعِها العلمُ والمعرفة، وذٰلك لذّتُها.

وليس يخفىٰ أن العلم والمعرفة، ولو في شيء خسيس: يُفرَح به، وأن من ينسب إلىٰ الجهل ولو في شيء خسيس: يَغْتَمُّ به، وكل ذٰلك لفَرْط لذّة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومُنتهىٰ الكمال، ولذٰلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أُثني عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذّة العلم بالحِراثة والخياطة كَلَذّة العلم بسياسة المُلْك وتدبير أمر الخلق، ولا لذّة العلم بالشِّعْر والنحو، كلذة العلم بالله تعالىٰ وملائكته وملكوت السمٰوات

والأرض، بل لذة العلم بقَدْرِ شَرَف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهٰذا ٱستبان أنه ألذّ المعارف أشرفها، وشرفها بحَسَبِ شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجلّ والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذّ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجلّ وأعلىٰ وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومُكَمِّلِها ومُزَيِّنِها ومُبْدِئِها ومُعِيدها ومُدَبِّرها ومُرتِّبِها؟ وهل يُتَصَوَّر أن يكون حَضْرةٌ في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وَصْفُ الواصفين؟

فينبغي أن تعرف أن لذّة المعرفة أقوىٰ من جميع اللذّات المُدْرَكة بالحواس الخمس، فإن المعانيَ الباطنةَ أغلبُ علىٰ ذوي الكمال من اللذّات الظاهرة، فلو خُيِّر الرجل بين لذّة أكل الدجاج السمين واللوزينج[1]، وبين لذّة الرياسة، وقهر الأعداء، ونَيْل درجة الاستيلاء، فإنْ كان المُخَيَّرُ خسيسَ الهِمّة مَيِّتَ القلبِ شديدَ الشهوة البَهِيميّة ٱختار اللحم والحَلْواء، وإن كان عَلِيّ الهِمّة كاملَ العقل، فإنه يختار الرياسة، ويَهُون عليه الجوع والصبر علىٰ ضرورة القُوتِ أياماً. فٱختياره للرياسة دليلٌ علىٰ أنه ألذّ عنده من المطعومات الطيّبة.

وكما أن لذّة الرياسة أغلب اللذّات علىٰ من جاوز نقصان الناقص الهمّة، فلذّة معرفة الله ﷻ والنظر إلىٰ أسرار الأمور الإلٰهية ألذُّ من الرياسة التي هي أعلىٰ اللذّات الغالبة علىٰ الخلق، وهٰذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذّتَين جميعاً، فإنه لا محالة يُؤْثِر التبتُّلَ والتفرّد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لِعِلْمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذٰلك مشوباً بالكَدَر، مقطوعاً بالموت. وتعظم عنده معرفة الله ﷻ، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن المُزاحِمات والمُكدِّرات، مُتّسِعة للمُتوارِدِين عليها، لا تَضِيق عنه، فلا يزال العارف

(١) هو: شبه القطائف، يؤدم: بدهن اللوز، والسكر، والعسل.

بمطالعتها في ﴿ جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يرتع[١] في رياضها، ويَقْطِف من ثمارها، ويَكْرَع[٢] من حياضها، وهو آمِنٌ من انقطاعها، إذْ هي أَبديّة سَرْمَديّة[٣]، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يَهْدِم مَحلّ معرفة الله تعالىٰ، إذْ محلها الروح، وإنما الموت يُغَيِّر أحوالها، أما أنْ يُعْدِمَها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالىٰ؛ يتفاوتون، لا يدخل تفاوُتُ درجاتهم تحت الحَصْر، وهٰذه الأمور لا تُدْرَك إلا بالذَّوق، والحكاية فيها قليلة الجَدوىٰ. فهٰذا القَدْر يُنَبِّهك علىٰ أن معرفة الله تعالىٰ ألذّ الأشياء، وأنه لا لذّة فوقها.

ولهٰذا قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله ﷻ خوفُ النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالىٰ؟

وقال بعض أصحاب معروف[٤]: قلت له: أيّ شيء أهاجك[٥] علىٰ العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأيّ شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة. فقال: وأي شيء هٰذا؟ إن مَلِكاً[٦] هٰذا كله بيده، إنْ أحببْتَه أنساك جميع ذٰلك، إن كانت بينك وبينه معرفةٌ كَفاك جميع ذٰلك.

وقال أحمد بن الفتح: رأيت بشر بن الحارث في منامي، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هٰيهات! حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلىٰ جنته، ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه، فرفعه الله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، ورفع الحُجُب بينه وبينه.

---

(١) أي: ينعم بما فيها من اللذّات.
(٢) الكَرع: هو تناول الشراب من موضعه بفمه، من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء.
(٣) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع.
(٤) هو معروفٌ الكَرْخيُّ: عابد مشهور، دفن بالجانب الغربي من بغداد.
(٥) أي: أثارك وحَثّك.
(٦) في المطبوع: «فإن ملك».

فمتىٰ حصلت محبة الله تعالىٰ لشخص، صار قلبه مستغرقاً بها، ولا يلتفت إلىٰ جنة، ولا يَخاف من نار[1]، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وهَجْرُه أعظمُ من نارِه ووَصْلُه أَطْيَبُ من جنتِه

وإنما أراد بهٰذا لذّة القلب في معرفة الله تعالىٰ، وأنها مُفضلة علىٰ لذّة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة مَعْدِنُ تَمتُّعِ الحواسّ، وأما القلب فلذّته في لقاء الله تعالىٰ فقط.

وٱعلم أن لذّة النظر في الآخرة تزيد علىٰ المعرفة في الدنيا، وقدِ ٱقتضت سُنّة الله تعالىٰ أن النفس ما دامت محجوبة بعوارضِ البدن، ومقتضىٰ الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية: لا تنتهي إلىٰ المشاهدة، بل هٰذه الحياة حِجابٌ عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار.

والقول في سبب كونه حِجاباً يطول. فإذا ٱرتفع الحِجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوعُ تلوّثٍ بالدنيا، فإذا أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ وقد صُفُّوا من الأكدار، تَجلّىٰ لهم الحق ﷻ علىٰ قَدْرِ معرفتهم في الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالىٰ في الدنيا، لا يراه في الآخرة. وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا علىٰ ما عاش عليه، فما صَحِبه من المعرفة هو الذي يَتنعّم به بعينه، إلا أنه ينقلب مشاهدةً بكشف الغطاء، فتُضاعَفُ اللذّة، والعيش عيش الآخرة. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهٰذا جاء في الحديث:

«**خير الناس مَنْ طال عمره وحَسُنَ عَمَلُه**»[2] وذٰلك لأن المعرفة إنما تَكْمَل

---

(١) إن هٰذا من التكلّف الذي لا دليل له من الشرع، والله سبحانه قد رَغّبَنا بجنته ونعيمها، وأخافنا من ناره وعذابها، وٱستعاذ منها رسول الله ﷺ في الكثير من الأحاديث الصحيحة.

(٢) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٣٥٢) حاشية (١).

وتَكْثر وتَتّسع في العمر الطويل بمُداومَة الفِكْر والذِّكْر، والمواظبةِ على المُجاهَدة، والأنقطاع عن علائق الدنيا، والتجرّد للطَّلَب، فقد عَرفتَ بما ذكرنا: معنى المحبة، ومعنى لذّةِ المعرفة، ومعنى الرؤية ولذّتها، ومعنى كونها ألذّ من سائر اللذّات عند أهل الكمال.

فصل في بيان الأسباب المُقَوِّية لحبّ الله تعالى وتَفاوُت الناس في الحب وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

وٱعلم أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حُبّاً لله تعالىٰ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالىٰ، ودَرَك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتَمكّن من مشاهدته من غير مُنَغِّصٍ ولا مُكدِّر، إلا أن هٰذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ٱزداد الحب ٱزدادتِ اللذّة.

وأصل الحب لا ينفكّ عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب وٱستيلاؤه، فذٰلك ينفك عنه الأكثرون. وإنما يَحصُل ذٰلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا يَنقُص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضَرَّتان[1]، وسبيل قطع الدنيا عن القلب: سلوك طريق الزهد، ومُلازَمة الصبر، والأنقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وما ذكرناه من المقامات كـ (: التوبة) و(: الصبر) و(: الشكر) و(: الزهد) و(: الخوف) وغير ذٰلك.

السبب الثاني، لقوة المحبة: قوة معرفة الله تعالىٰ، فإذا حصلتِ المعرفة تَبِعَتْها المحبة، ولا يُوْصِل إلى هٰذه المعرفة بعد ٱنقطاع شواغل الدنيا من القلب

(١) الضَرّة: إحدى زوجات الرجل.

إلا الفِكْرُ الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطَّلَب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه. وأَقَلُّ أفعاله: الأرض وما عليها، بالإضافة إلىٰ الملائكة ومَلَكوت السماوات.

والشمس ـ علىٰ ما يُرىٰ من صِغَرِ حجمها ـ مثلُ الأرض مئةً ونَيِّفاً وستين مرة، فأنظر إلىٰ صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم أنظر إلىٰ صغر الشمس بالإضافة إلىٰ فَلَكِها الذي هي مَرْكُوزة فيه وهي في السماء الرابعة[١]، والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلىٰ ما فوقها من السماوات، ثم (السماوات السبع في الكرسي كحَلْقة ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش كذٰلك)[٢].

ثم أنظر إلىٰ الآدميّ المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض، وإلىٰ سائر الحيوانات، وإلىٰ صغره بالإضافة إلىٰ الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض[٣]، فأنظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله ﷻ علىٰ شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وأنظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودَبَّرَه في سائر أحواله، من القُوىٰ الجاذبة والدافعة والهاضمة، وأنظر كيف خلق له الطيران يطير إذا طلب، وجعل له خرطوماً مُحَدَّداً[٤] يَمُصُّ به الدَّمَ.

---

(١) ليس في هٰذا خبر تصح نسبته إلىٰ النبي ﷺ، وإنما هو ضرب من الاجتهاد الإنسانيّ الذي يخضع للمقاييس العلمية الدقيقة، ويحكم عليها بموجبها من صواب أو خطأ، والقسم الأخير وهو قوله: «السماوات السبع في الكرسي كحلقة. . .» إلخ فإنه صحيح.

وأنظر «شرح العقيدة الطحاوية» للعلامة ابن أبي العِزِّ، تخريج الألبانيِّ، وتقديمي، صفحة ٢٧٩ الطبعة التاسعة في المكتب الإسلامي.

(٢) معنىٰ حديث في «الصحيحة» (١٠٩).

(٣) عبارة «الإحياء» ٤/٣١٨: (فأصغر ما نعرفه من الحيوانات: البعوض والنحل وما يجري مجراه). وعلى كُلٍّ فليست هٰذه الحيوانات هي أصغرها، وليس الفيل هو أكبرها.

(٤) أي: مشحوذاً قاطعاً.

وٱنظر إلىٰ النحل في تناوُلها الأزهار من الأنوار[١]، وٱحترازها عن الأقذار، وطاعتها إلىٰ كبيرها، حتىٰ إنه يقتل كل ما وَرَد عليه وقد أكل مُستقذَراً، وإلىٰ ٱختيارها الشكل المُسَدَّس، فلا تبني بيتاً مربعاً، ولا مستديراً، ولا مُخمَّساً، بل مُسدَّساً، لخاصِّيَّته في الشكل المُسدَّس، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستديرُ وما يَقْرُب منه، فإن المُربَّع تخرج منه الزوايا ضائعةً، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرَجٌ ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصَّة، فلا شكل في الأشكال ذواتِ الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراصّ الجملة منه، بحيث لا يبقىٰ بعد ٱجتماعها فرجة إلا[٢] المسدس، فٱنظر كيف ألهمه الله تعالىٰ ذٰلك علىٰ صِغَرِ حجمه وضعْفه، فٱعتبر بهٰذه اللُّمْعة[٣] اليسيرة من مُحقَّرات[٤] الحيوانات، فبالنَّظَرِ[٥] في هٰذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب:

[بيان السبب في تفاوت الناس في الحب]

فٱعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لٰكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالىٰ إلا الصفات والأسماء التي قَرعتْ أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالىٰ حتىٰ يرىٰ ما يَبْهَر عَقْلَه، فتزداد عَظَمة الله في قلبه، فيزداد حبّاً له، وتجره هٰذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالىٰ إلىٰ بَحْرٍ لا ساحل له.

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالىٰ:

[بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه]

فٱعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع علىٰ وجود صانعه، وعلىٰ علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هٰذه

---

(١) عبارة «الإحياء»: (والأنوار) وهو الصواب، لأن الأنوار جمع نَوْر وهو الزهر نفسه.
(٢) أصلحت من «الإحياء» عن (إلىٰ).
(٣) يُقصد بها هنا القطعة اليسيرة من الشيء.
(٤) أي: الصغائر.
(٥) أصلحت من «الإحياء» عن (فالنظر).

الصفات لا تُدْرَك بشيء من الحواسّ الخمس. فوجود الله سبحانه وتعالىٰ وقدرته وعلمه وسائر صفاته يَشهد له بالضرورة كلُّ ما نشاهد من حَجَرٍ وشجر ومَدَرٍ[1] ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبرٍّ وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسُنا وأجسامنا، وتقلُّب أحوالنا، وتغيّر قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسَكَناتنا.

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلّة شاهدة بوجود خالقها ومُدبِّرها ومصرِّفها[2] ومُحرِّكها، ودالة علىٰ علمه وقدرته وحياته ولطفه وحِكْمته وعَظَمته وجلاله، إذْ كلّ ذَرّة تنادي بلسان حالها: أنه ليس وجودها بنفسها، وأنها تحتاج إلىٰ مُوجِد لها، لٰكن عقولنا بالنسبة إلىٰ إدراك الحضرة الإلٰهية، كالخُفّاش بالنسبة إلىٰ النهار، فإنه لضعف بصره يُبصر بالليل، ولا يبصر بالنهار، وليس عَدَمُ إبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدّة ظهوره وٱستنارته وضعف أعين الخُفاش، فكذٰلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلٰهية. فسبحان مَنِ ٱحتجب بإشراق نوره، وٱختفىٰ به عن البصائر والأبصار، فهٰذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالىٰ.

وٱنضم إلىٰ ذٰلك أيضاً أن المُدْرَكات الشاهدة لله تعالىٰ، إنما يُدْرِكها الإنسان في حال الصِّبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً، وهو مُستغرِقُ الهَمّ، مشغول به، وقد أَنِس بمُدرَكاته وأَلِفَها، فسقط وَقْعُها عن قلبه بطول الأُنس.

وكذٰلك إذا رأىٰ فجأة حيواناً غريباً، أو نباتاً، أو فعلاً من أفعال الله تعالىٰ عجيباً خارقاً للعادة، ٱنطلَق لسانه بالتعجّب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرىٰ طول النهار نفسِه، وجميعَ أعضائه، وجميعَ الحيوانات المألوفة، وكلّها شواهد قاطعة، فلا يُحِسّ بشهادتها لطول الأنس بها.

---

(١) هو: الطين اللَّزِج المتماسك.
(٢) أي: مُدَبِّرها ومُوَجِّهها.

ولو فرض أن أعمىٰ[1] بلغ عاقلاً، ثم انقشعت غِشاوة عينه، فٱمتدّ بصره إلىٰ السماء، والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لَخِيف علىٰ عقله أن يَنْبَهِرَ، لِعِظَم تعجّبه من مشاهدة هٰذه العجائب، وشهادتها لِخالِقها، فهٰذا وأمثالُه من الأسبابِ مع الآنهماك في الشهوات هو الذي سَدّ علىٰ الخَلْق سبيل[2] الاَستضاءة بنور المعرفة، والسِّباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

فصل في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

قد تقدم الكلام في المحبة وإثباتها بالأدلّة، وأن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئاً ٱشتاق إليه.

وٱعلم أن الشوق لا يُتَصَوَّر إلا لشيء أُدْرِك من وجه ولم يُدْرَك من وجه.

فأما ما لا يُدْرَك أصلاً، فلا يُشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذٰلك في الآخرة.

وٱعلم أن الأمور الإلٰهية لا نهاية لها، وإنما يُكْشَف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقىٰ أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالىٰ، ويعلم أن ما غاب عن عِلْمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقاً إلىٰ أن يَحْصُل له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنىٰ الذي يُسمّىٰ رؤية ولقاءً ومشاهدةً، ولا يُتَصَوَّر أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يوماً: يا ربِّ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أَضرّ بي القلق. قال: فرأيته ﷻ في النوم، فقال: يا إبراهيم! أمَا ٱستحيَيْتَ مني؟ تسألني

---

(١) في «الإحياء» ٤/ ٣٢٢ بدلها: (أَكْمَه) وهو أجود، لأن معناه الذي وُلِد أعمىٰ.
(٢) أُصلحت من «الإحياء» عن (إلىٰ سبيل).

أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب! تِهْتُ في حبك فلم أَدْرِ ما أقول.

فهٰذا الشوق يَسْكُن في الآخرة. وأما غير ذٰلك ـ مما هو معلوم لله ـ فلا نهاية له، فلا يَتَّضح للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذّةِ ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذّة مُتَزايِدَين حتىٰ يشتغل عن الإحساس بالشوق إلىٰ ما وراء ذٰلك، فهٰذا القدر من أنوار البصائر كاشِفٌ لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روي أن رسول الله ﷺ عَلَّم رجلاً دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه:

«أسألك اللٰهم الرضا بعد القضاء، وبَرْدَ العيش بعد الموت، ولذّة النظر إلىٰ وجهك، وشوقاً إلىٰ لقائك»[١].

وفي التوراة: يقول الله تعالىٰ: طال شوق الأبرار إلىٰ لقائي، وأنا إلىٰ لقائهم أَشَدُّ شوقاً.

وفي بعض ما أوحىٰ الله ﷻ إلىٰ بعض عباده: إن لي عباداً من عبادي، يحبوني وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إليَّ، ويذكروني وأذكرهم، فإن حَذَوْتَ طريقهم أَحبَبْتُك، وإن عدلت عنهم مَقَتُّك. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يُراعون[٢] الظِّلال بالنهار، كما يُراعي[٣] الرَّاعي الشفيق غنمه، ويَحِنّون إلىٰ غروب الشمس كما تَحِنُّ الطير إلىٰ أوكارها عند الغروب، فإذا جَنّهم[٤] الليل، واختلط الظلام، وفُرِشَتِ الفُرُش، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وناجَوْني بكلامي، وتَمَلَّقوني[٥] بإنعامي،

---

(١) جزء من حديث طويل لزيد بن ثابت أخرجه أحمد والطبراني والحاكم. وهو في «صحيح الترغيب» (٦٥٧).

(٢) و(٣) أصلحتا من «الإحياء» عن: (يرعون. . . يرعىٰ).

(٤) أي: سَتَرهم.

(٥) التملق هو: الزيادة في التودد والدعاء بالكلام اللطيف والتضرع، فوق ما ينبغي، هذا بالنسبة للناس، وأما بالنسبة لله فليس فيه فوق ما ينبغي.

فَبَيْنَ صارخٍ وباكٍ، وبين متأوِّهٍ وشاكٍ، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي.

فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالىٰ للعبد، فاْعلم أن شواهد القرآن مُتَظاهِرةٌ علىٰ ذٰلك، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ الآية[1]. ونَبه علىٰ أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رَدّ علىٰ مَنِ ٱدعىٰ أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. وشَرَطَ للمحبة غُفرانَ الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالىٰ يقول: ما يزال عبدي يَتقرّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه»**[2]، إلىٰ آخره. وهو حديث مشهور.

ومن علامة حب الله تعالىٰ للعبد، قول النبي ﷺ: **«إن الله إذا أحب عبداً ٱبتلاه»**[3].

ومن أقوىٰ العلامات، حسن التدبير له، يُرَبِّيه من الطفولة علىٰ أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، ويُنَوِّر له عقله، فيتبع كل ما يُقرِّبه، ويَنْفِر عن كل ما يُبعده عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذُلٍ للخلق، ويُسَدِّد ظاهره وباطنه، ويجعل هَمَّه همّاً واحداً، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

---

(١) سورة الصف، الآية ٤ وتمامها ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.
(٢) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٣٠٥) حاشية (١).
(٣) أخرج نحوه الترمذي [«صحيحه» (١٩٥٤/ ٢٣٩٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٢٥٦/ ٤٠٣١)] من حديث أنس. وهو في «الصحيحة» (١٤٦)، و«المشكاة» (١٥٦٦).

وأما محبة العبد لله تعالىٰ، فٱعلم أن المحبة يَدَّعيها كل أحد، فما أسهل الدعوىٰ وأعزّ المعنىٰ! فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس ـ إذا ٱدعت محبة الله تعالىٰ ـ ما لم يَمْتَحِنْها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حُبُّ لقاء الله تعالىٰ في الجنة، فإنه لا يُتَصَوَّر أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهٰذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموتَ، ولقاءُ الله بعد الموت.

ومن السلف من أحبّ الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مَشُوبة بحب شيء من الدنيا أو لأنه يرىٰ ذنوبه فيحب أن يبقىٰ ليتوب.

ومنهم من يَرىٰ نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يَسْتَعِدَّ للقاء الله تعالىٰ، وهٰذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره، ويُعِدُّ[1] له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فَارِغَ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهٰذا السبب لا تُنافي كمال المحبة، وعلامة هٰذا: الدؤوبُ في العمل، وٱستغراق الهمّ في الاَستعداد.

ومنها أن يكون مُؤْثِراً ما أحبه الله تعالىٰ علىٰ ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب ٱتباع الهوىٰ، ويُعْرِض عن دَعَةِ[2] الكسل، ولا يزال مُواظباً علىٰ طاعة الله تعالىٰ مُتقرِّباً إليه بالنوافل.

ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يُضادّ كَمَالَها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يُضرّه، وسببه أن المعرفة قد تَضْعُف والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل علىٰ ذٰلك حديث نُعَيْمَان أنه كان يؤتىٰ به إلىٰ رسول الله ﷺ فيَحُدّه[3] إلىٰ أن أتي به يوماً، فحَدّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتىٰ به! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) أصلحت من «الإحياء» ٤/ ٣٣١ عن: (يعدل له أسبابه).

(٢) أي: السكون والخلود إليه.

(٣) أي: يقيم عليه الحد.

«لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»[(١)] فَلَمْ تُخرِجْه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مُسْتَهتَراً[(٢)] بذكر الله تعالىٰ، لا يَفْتُر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْره بالضرورة، ومن ذِكْرِ ما يتعلق به،

فعلامة حب الله: حُبُّ ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السلف: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أُدْمِن[(٣)] قراءة القرآن، ثم لَحِقَتْني فَتْرةٌ[(٤)] فانقطعتُ، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إن كنت تزعم حبي ... فَلِمْ هجرت كتابي
أما تدبرت ما فيـ ... ـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أُنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالىٰ، وتلاوة كتابه، فيواظب علىٰ التهجّد، ويَغْتَنِمُ هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذّذ بالخلوة بالحبيب، والتنعّم بمناجاته.

روي أن عابداً عَبَدَ الله في غَيْضَةٍ[(٥)] دهراً، فنظر إلى طائر قد عشّش في شجرة يأوي إليها، ويَصفِر عندها. فقال: لو حوّلْتُ مسجدي إلىٰ تلك الشجرة

---

(١) إنما أخرج البخاري (٦٧٨٠) عن عمر أن المضروب هو عبد الله الحِمَار. لكن ادعى بعضهم أنه النُعيمان، أو ابن النعيمان ـ مع أنها قصة أخرىٰ أخرجها البخاري (٢٣١٦) عن عقبة ـ وقد ذكر الخلاف في ذٰلك في «الفتح» عند الحديث رقم (٦٧٨٠).

(٢) اسْتُهْتِر بالشيء أي فُتن به ولزمه غير مبالٍ بنقد ولا موعظة. ا هـ. فهو علىٰ خلاف ما يستعمله الناس اليوم.

(٣) أي: أواظب عليها.

(٤) أي: سكون وتقليل من العبادات.

(٥) هي: الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفّ، وتكون كثيرة الماء.

كنت آنَسُ بصوت هٰذا الطائر، ففعل فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيهم: قل لفلان العابد: آستأنسْتَ بمخلوق، لأَحُطَّنَّكَ[١] درجةً لا تنالها بشيء من عملك أبداً.

فإذاً: علامة المحبة: كمالُ الأُنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعّم بالخلوة، وكمال الآستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة.

ومتىٰ غلب الحبّ والأُنس صارتِ الخلوة والمناجاة قرّة عينٍ تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتىٰ لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر علىٰ سمعه مراراً، مثل العاشق الوَلْهان[٢].

ومنها أن يتأسف علىٰ ما يَفُوته من ذكر الله تعالىٰ، ويتنعّم بالطاعة لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها.

قال ثابت البُناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كابَدتُ[٣] الصلاة عشرين سنة، وتنعّمتُ بها عشرين سنة.

وقال الجُنيد: علامة المحبة دوام النشاط، والدُّؤوب بشهوة تُفْتِر[٤] بَدَنَه ولا تُفْتِر قَلْبَه.

وكل هٰذا موجود المثال في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه، ويَسْتَلِذّ خدمته بقلبه، وإن كان شاقّاً علىٰ بدنه، وكل حب قاهر لا مَحَالة، فمن كان محبوبه أحبّ إليه من الكسل: ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شفيقاً علىٰ جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً علىٰ أعدائه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف.

---

(١) معناه: لأُنزِلنك منزلة أنقص مما كنت عليها.

(٢) أي: المتحيّر من شدة عشقه.

(٣) أي: قاسيتُ شِدّتها عشرين سنة، ثم بعد ذٰلك أصبحت عشرين أخرىٰ نعيماً لي بعد أن زالت شدّتها.

(٤) أي: تُضعِف الشهوة بدنه. وقد أبدلت من «الإحياء» عن: (يَفتُر) لأنها أصح.

فهٰذه علامات المحبة. فَمَنِ ٱجتمعتْ فيه فقد تَمّتْ محبته، وصفا في الآخرة شرابه، ومَن ٱمتزج بحبه حب غير الله، تَنَعَّم في الآخرة بقدر حبه، فيُمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾[1] إلىٰ قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فقوبل الخالص بالصِّرْف[2]، والمَشُوب بالمَشُوب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين[3] الهَيْبة والتعظيم، فإن الخوف لا يُضادّ المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشدّ من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشدّ منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

ومنها كِتْمان الحب، وٱجتناب الدعوىٰ، والتوقّي من إظهار الوَجْدِ والمحبة، تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبةً وغَيْرةً علىٰ سره، فإن الحب سِرّ من أسرار الحبيب. وقد يقع المحب في دَهَش وسُكْر[4]، فيظهر عليه الحب من غير قصد، فهو في ذٰلك معذور، كما قال بعضهم:

وَمَنْ قَلْبُه معْ غيرِه كيف حالُه ... وَمَنْ سِرُّه في جَفْنِه كيف يَكْتِم

(١) سورة المطففين، وتمام الآية ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.
(٢) أي: قوبل المشوب بغير المشوب.
(٣) إن كتاب «العبودية» لشيخ الإسلام ٱبن تيمية من أحسن ما أُلّف في بيان ذٰلك. وقد قدّم لطبعة المكتب الإسلامي، العالمُ الجليل الأستاذ عبد الرحمٰن الباني ببحث ضافٍ نفيس.
(٤) هو: غيبوبة العقل وٱختلاطه من الشراب المسكر، وقد يعتري الإنسان من الغضب أو العشق أو القوة أو الظفر.

فصل في بيان معنى الأنس بالله والرضا بقضاء الله ﷻ

اَعلم أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الاَنفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحّش من غيره، ويكون أثقل الأشياء علىٰ القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لو ذُقت حلاوة الخلوة لاَستوحشْتَ إليها من نفسك. قلت: متىٰ يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالىٰ؟ قال: إذا صفا الودّ، خَلَصَتِ المعاملة. قلت: متىٰ يصفو الود؟ قال: إذا اَجتمع الهمّ، فصار همّاً واحداً في الطاعة.

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصّة: ضيق الصدر عن معاشرة الخلق، والتبرّم بهم، وإنْ خالَط، فهو كمنفردٍ غائبٍ؛ مُخالِطٍ بالبدن، مُنفرِدٍ بالقلب.

[بيان معنى الاَنبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس]

واَعلم أن الأنس إذا دام وغلب واَستحكم، قد يُثْمِر نوعاً من الاَنبساط والإدلال[1]، وقد يكون ذٰلك منكراً في الصورة، لما فيه من الجَراءة وقلّة الهيبة، وإن كان مُحْتَمَلاً ممن أقيم مقام الأنس، وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذٰلك المقام، أشرف به صاحبه علىٰ الكفر، وذٰلك كما:

يُروىٰ عن أبي حفص أنه كان يمشي يوماً، فاَستقبله رجل مدهوش[2]، فقال: ما لَكَ؟ قال: ضَلّ حِماري، ولا أَمْلِكُ غيره، فوقف أبو حفص وقال: وعِزّتِكَ لا أخطو خطوة ما لم تَرُدّ عليه حماره، فظهر الحمار.

وروي عن بَرْخٍ العابد أنه خرج يستسقي فقال: يا رب! أنت بالبخل لا تُرمىٰ، أَنفِذْ ما عندك، اَسقنا الساعة.

---

(١) هو: الطلب من المحبوب مع الترفق، فوق ما ينبغي من أمثاله؛ وشوقاً منه بذٰلك المحبوب.

(٢) أي: متحير، من دهش الرجل يدهش: إذا تحير.

ولا يُستبعَد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره.

[القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته]

وأما الرضا بقضاء الله تعالىٰ، فهو من أعلىٰ مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة. وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالىٰ.

ومن فضائل الرضا ما ورد في الحديث أن النبيّ ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبد خيراً أَرْضاه بما قسم له**»[١].

وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه السلام: يا داود! إنك لن تَلْقاني بعمل هو أرضىٰ لي عنك، ولا أَحَطَّ[٢] لِوِزْرك: من الرضا بقضائي.

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلىٰ عَدِيّ بن حاتِم كئيباً، فقال: يا عَدِيُّ! مالي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعني؟! فقد قُتِّل ٱبناي، وفُقِئَتْ عيني. فقال: يا عَدِيُّ! من رضي بقضاء الله جرىٰ عليه وكان له أجر، ومَنْ لم يَرْضَ بقضاء الله جرىٰ عليه وحَبِطَ[٣] عمله.

ودخل أبو الدَّرْداء رضي الله عنه علىٰ رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالىٰ، فقال أبو الدرداء: أَصَبْتَ، إن الله عز وجل إذا قضىٰ قضاء أَحَبَّ أن يُرضىٰ به.

وقال ٱبن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالىٰ بِقِسْطِه[٤] وعِلْمِه جعل الرَّوْح[٥] والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط.

وقال عَلْقَمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال: هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فَيُسَلِّم لها ويرضىٰ.

---

(١) الديلمي عن أبي هريرة، كذا في «الكنز» (٧١١٧)، «الفردوس» (٩٤٦) عن يزيد بن عبد الله.
(٢) أي: أكثر إسقاطاً للوِزر؛ أي: الذنب.
(٣) أي: فَسَدَ وسقط ثوابه.
(٤) أي: عَدْله.
(٥) أي: الفرح والسرور.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: الرضا والقناعة.

وفي الأخبار: أن نبيّاً من الأنبياء شكا إلىٰ ربه ﷻ الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلىٰ ما أراد، ثم أوحىٰ الله إليه: كم تشكو؟ هٰكذا كان بَدْؤُك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهٰكذا سبق لك مني، وهٰكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أَفَتُريد أن أُعيد خلق الدنيا من أَجْلِك؟ أم تريد أن أُبَدِّل ما قَدّرْتُ لك فيكون ما تُحِبّ فوق ما أُحِبّ، ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتي وجلالي، لئن تَلَجْلَجَ[1] هٰذا في صدرك مرة أخرىٰ لأَمْحُوَنَّك من ديوان النبوّة.

وفي «زبور داود» عليه السلام: هل تدري مَنْ أسرع الناس مَرّاً علىٰ الصراط؟ الذين يَرْضَونَ بِحُكْمي وأَلْسِنَتُهم رَطْبة من ذكري.

وقال داود عليه السلام: يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبدٌ ٱستخارَني في أمرٍ، فَخِرْتُ له، فَلَمْ يَرْضَ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القَدَرِ.

وقيل له: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله عز وجل.

وقال الحسن: من رضي بما قُسِم له، وَسِعَه، وبارك الله له فيه، ومن لم يرض لم يَسَعْه، ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا بابُ الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومُسْتَراحُ[2] العابدين.

وقال بعضهم: لن يَرِدَ الآخرةَ أرفعَ درجاتٍ من الراضين عن الله تعالىٰ علىٰ كل حال، فمن وُهِبَ له الرضا، فقد بلغ أفضل الدرجات.

---

(١) أي: تردّد في صدرك.
(٢) أي: مكان الراحة.

وأصبح أعرابيٌّ وقد مات له أباعر[١] كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عَبْدٌ في عبادته   لولا شَماتةُ أعداءٍ ذوي إِحَنِ[٢]
ما سَرَّني أن إبْلي في مباركها   وأن شيئاً قضاه الله لم يَكُنِ

فصل

[بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوىٰ]

ويُتَصَوَّر الرضا فيما يخالف الهوىٰ. وبيان ذٰلك إذا جرىٰ علىٰ الإنسان الألم، فتارة يُحِسّ به ويُدْرِك أَلَمَه، ولٰكنه يكون راضياً به، راغباً في زيادته بعَقله، وإن كان كارهاً له بطَبْعه؛ لما يُوْصِله من الثواب. مثاله: أن يلتمس من الحَجّام الحجامة[٣] والفَصْد[٤]، فإنه يدرك أَلَمَ ذٰلك، إلا أنه راضٍ به، وراغب فيه ومُتَقَلِّد[٥] مِنّة الحجام.

وكذٰلك كل من يسافر في طلب الرِّبْح، فإنه يدرك مَشَقّة السفر، لٰكن حُبّه لثمرة سفره طيَّبَ عنده تلك المشقة، وجعله راضياً بها، وكلّ من أصابه بليّة من الله تعالىٰ وكان له يقين، فإنه يَتَوَقَّع الأجر فوق ما فاته، فيرضىٰ بما أصابه، ويشكر الله تعالىٰ عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظّ المحب في مراد محبوبه، ويبطل الإحساس بالألم لِفَرْط الحب، وليس ذٰلك بعجيب، فإن الرجل المُحارِب في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجِراحات ولا يُحسّ بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذٰلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يُدْرِك ما عداه، وذٰلك موجود في المشاهدات.

قال الجُنَيد رحمه الله: سألت سَرِيّاً: هل يجد المُحِبّ أَلَمَ البلاءِ؟ قال: لا. وقد

---

(١) جمع البعير. وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل ـ ذكوراً وإناثاً ـ وذٰلك إذا آستكمل أربع سنوات.
(٢) جمع إحْنة وهي: الحِقْد والضِّغْن.
(٣) هي: آمتصاص الدم بأداة الحجم ويجمع الدم في قارورة خاصة.
(٤) هو: إخراج مقدار من دم الوريد بشَقِّه.
(٥) أي: محتمل.

روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لو قطّعنا إرباً[١] إرباً، ما ٱزددنا له إلا حبّاً.

وقد تقدم أن فَرْط الحب يُزِيل إحساس الألم، وهو مُتَصَوَّر في حب الخلق، كما حكىٰ بعضهم؛ قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فٱعْتَلَّتْ[٢]، فجلس يُصْلِح لها حَسَاءً[٣]، فبينما هو يُحَرِّك القِدْر، قالت: أَوْهِ[٤]، فدُهِش وسقطتِ المِلْعَقة من يده، وجعل يُحرّك القِدْر بيده حتىٰ تساقطتْ أصابعه وهو لا يعلم.

ويُؤيِّد هٰذا قصة النسوة حين شاهَدْنَ يوسف عليه السلام، فإنهنّ قَطَّعْنَ الأيديَ، وما أَحسَسْنَ بألم. فقد بَانَ بما ذكرنا أن الرضا بما يخالف الهوىٰ ليس مستحيلاً، وإذا كان ذٰلك مُمكناً في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأَوْلىٰ. وإمكان ذٰلك في ثلاثة أوجه:

أحدها: عِلْم المؤمن بأن تدبير الله تعالىٰ خيرٌ من تدبيره.

وقد قال النبي ﷺ: «**ما قضىٰ الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له**»[٥].

وعن مَكْحول قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خِيْرَ[٦] له.

وعن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خِباءَهم[٧]، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسىٰ أن يكون خيراً، ثم

---

(١) الإرْب: العضو الكامل. والمعنىٰ: قطّعه عضواً عضواً.
(٢) أي: مرضت.
(٣) بالفتح والمد: طعام من دقيق وماء ودهن، وقد يُحَلّىٰ بسكر أو غيره ويكون رقيقاً يُحسىٰ. يشبه الحريرة.
(٤) كلمة تقال عند الشكاية والتوجع. ومن اللغات فيها أيضاً: آهِ، أَوْهْ، أَوِّ، أَوَّهْ.
(٥) سلف تخريجه في الصفحة (٣٦٤) حاشية (١).
(٦) أي جعل له فيه الخير.
(٧) هو بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون ارتفاعه علىٰ عمود واحد أو أكثر.

جاء ذئب فخَرَقَ بَطْنَ الحمار، فحزنوا، فقال الرجل: عسىٰ أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب، فقال الرجل: عسىٰ أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا سُبي مَنْ حولهم وبَقَوا هم، وإنما أُخذ أولٰئك بما كان عندهم من الصوت والجَلَبة[1]، ولم يكن عند أولٰئك شيء يَجْلُبُ[2]؛ قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم.

وعن سعيد بن المُسَيَّب قال: قال لُقْمانُ لابنه: يا بُنيَّ لا يَنْزلَنَّ بك أمر رَضِيتَه أو كَرِهْتَه، إلا جعلت في الضمير أن ذٰلك خيرٌ لك. قال: أمّا هٰذه فلا أَقْدِر أن أُعْطِيكَها دون أن أعلم ما قلتَ؛ أنه كما قلت. قال: يا بُنَيَّ! فإن الله قد بعث نبياً، هلم حتىٰ نأتيه، فعنده بيان ما قلتُ لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج علىٰ حمار، وابنه علىٰ حمار، وتزودا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً وليالي، حتىٰ تَلقَّتْهما مَفازة[3]، فأخذا أُهْبتهما[4] ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتىٰ تعالىٰ النهار واشتد الحر ونَفِذَ الماء والزاد، فٱستبطآ حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذٰلك، إذْ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسَوادٍ ودُخَانٍ، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عُمْرانٌ وناس، فبينما هما كذٰلك يشهدان، إذْ وَطِئَ ٱبن لقمان علىٰ عَظْم علىٰ الطريق، فدخل في باطن قدمه حتىٰ ظهر مِنْ أعلاها، فَخرَّ مَغْشِياً عليه، فحانَتْ من لقمان ٱلْتِفاتة، فإذا هو بٱبنه صريع، فوثب إليه فَضَمَّه إلىٰ صدره، وٱستخرج العَظْمَ بأسنانه، وشَقَّ عِمامةً كانت عليه فعَصَبَ رِجْلَه، ثم نظر إلىٰ وجه ٱبنه فذَرَفَتْ عيناه، فقطرتْ دمعة من دموعه علىٰ خدِّ الغلام فٱنتبه لها، فنظر إلىٰ أبيه يبكي، فقال: يا أبت! أنت تبكي وأنت تقول: هٰذا خير لي، فكيف ذٰلك وأنت تبكي؟ وقد نَفِذَ الطعام والماء، وبَقِيْتُ أنا وأنت في هٰذا المكان. قال: أمّا بكائي يا بنيّ، فَوَددْتُ أني ٱفتديتُك بجميع حَظّي من الدنيا، ولٰكني والدٌ ومني رِقّة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هٰذا خيراً لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ٱبتليت به، ولعل ما

(١) و(٢) هي: الصياح والصخب، ويجلب، أي: يُحْدِث جَلَبة.
(٣) أي: اعترضتهما الصحراء.
(٤) أي: العُدّة.

أبتليت به أيسر مما صرف عنك. فبينما هو يحاوره، إذْ نظر لقمان أمامه، فلم يَرَ الدخانَ والسواد. فقال في نفسه: لم أَرَ شيئاً، ثم قال: قد رأيت، ولٰكن لعله أن يكون قد أَحْدَثَ ربي بما رأيته شيئاً، فبينما هو يتفكر في ذٰلك، إذْ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل علىٰ فَرَسٍ أَبْلَق[١]، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحاً، فلم يَزَلْ يَرْمُقه بعينيه حتىٰ كان منه قريباً، فتوارىٰ عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك أبنك هٰذا السفيه؟ قال: يا عبد الله! من أنت؛ أسمع كلامك ولا أرىٰ وجهك؟ قال: أنا جبريل، لا يراني إلا مَلَكٌ مقرَّب، أو نبي مرسل، لولا ذٰلك لرأيتني، فما قال لك أبنُك هٰذا، السفيهُ؟ قال: أمَا علمت ذٰلك؟ فقال جبريل: ما لي بشيء مِنْ أَمْركما عِلمٌ، إلا أنّ حَفَظَتَكُما[٢] أَتَوْنِيْ ـ وقد أمرني ربي تعالىٰ بخَسْفِ هٰذه المدينة وما فيها ومن يليها ـ فأخبروني أنكما تريدان هٰذه المدينة[٣]، فدعوتُ ربي أن يحبسكما عني بما شاء، فَحَبَسَكُما عني بما أبتلي به ابنك، ولولا ذٰلك لَخُسِفَ بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده علىٰ قدم الغلام، فأستوىٰ قائماً، ومسح يده علىٰ الذي كان فيه الطعام فأمتلأ طعاماً، ومسح علىٰ الذي كان فيه ماء فأمتلأ ماء، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يَرْحَل الطيرُ، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالي.

الوجه الثاني: الرضا بالألم، لِمَا يتوقَّع من الثواب المُدَّخر، كما تقدم من الرضا بالفَصْدِ والحِجامة وشُرْب الأدوية أنتظاراً للشفاء.

الوجه الثالث: الرضا به لا لِحَظٍّ وراءَه، بل لكونه مُرادَ المحبوب، فيكون أَلَذّ الأشياء عنده ما فيه رضا محبوبه، ولو كان في ذٰلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

---

(١) أي: الذي فيه سواد وبياض.

(٢) الحَفَظَةُ، هم: الملائكة الذين يحفظون بدن الإنسان، وكذا الذين يحفظون عمله ويُحْصُونَه.

(٣) الجملة من قوله: (وما فيها) إلىٰ قوله: (هٰذه المدينة) لم ترد في المطبوع وإنما هي من النسخة المخطوطة الثالثة.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يُدْهِشُ عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن يُنْكِرَ ذٰلك مَنْ فَقَدَه مِنْ نفسه، لأنه إنما فقده لِفَقْدِ سببه، وهو فَرْطُ حبه، ومَنْ لم يَذُقْ طَعْمَ الحبِّ لم يعرف عجائبه. ولَعَمْري إنَّ مَنْ فَقَدَ السمعَ أَنْكَر لَذَّة الألحان والنَّغَمات، فَمَنْ فقد القلبَ، فلا بد أن يُنْكِرَ هٰذه اللذّات التي لا مَظِنّة لها سوىٰ القلب.

فصل

[بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا]

وٱعلم أن الدعاء لا يُناقضُ الرضا، وكذٰلك كراهة المعاصي ومَقْتُ أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تَعَبَّدَنا الله تعالىٰ به، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم.

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضا بها، فقد تعبّدنا الله تعالىٰ به، وذم الراضيَ به، وكذٰلك بُغْضُ الكفارِ والفُجّار، والإنكار عليهم، وشواهد ذٰلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً.

فإن قيل: فقد وردتِ الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالىٰ، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالىٰ، فهو مُحال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهةٌ لقضائه، فكيف الجمع بين هٰذين الحالين. =

= فٱعلم أن هٰذا مما يَلتبس علىٰ القاصرين علىٰ الوقوف علىٰ أسرار العلم، حتىٰ ٱلْتَبس علىٰ قوم، فَرَأَوُا السكوتَ عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضا، وسَمَّوْه حُسْنَ الخُلُقِ، وهو جَهْلٌ مَحْضٌ، بل نقول: الرضا والكراهة يتضادّان، إذا تواردا علىٰ شيء واحد، من جهة واحدة، علىٰ وجه واحد. فأما إذا رَضِيْتَ بشيء من وجهٍ، وكَرِهْتَه من وجه آخر، فليس ذٰلك بِمُتَضادٌ، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضاً عدوٌّ لبعض أعدائك، وساعٍ في إهلاكه، فتَكره موته من حيث إنه مات عدوُّ عدوِّك، وترضاه من حيث إنّه عدوّك، وكذٰلك للمعصية وجهان: وجه إلىٰ الله تعالىٰ من حيث إنها ٱختياره وإرادته، فترضىٰ بها من هٰذا

الوجه تسليماً للمُلْك إلىٰ مالِكِ المُلْكِ، ووجه إلىٰ العبد من حيث إنه كَسْبُه ووصفه وعلامةٌ لكونه ممقوتاً عند الله تعالىٰ وبغيضاً عنده، حيث سَلَّط عليه أسباب البُعْدِ والمَقْتِ، فهو من هٰذا الوجه مُنْكَرٌ ومذموم. ولا ينكشف هٰذا إلا بمثال. فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يَدَيْ مُحِبِّه: إني أريد أن أُميِّز بين مَنْ يُحبني ويُبْغضني، وأنصب لذٰلك معياراً صادقاً، وهو أني أَقْصِدُ إلىٰ فلان، فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذٰلك إلىٰ الشتم لي، حتىٰ إذا شتمني أَبغضْتُه واتّخذْتُه عدوّاً، فكل من أحبه، عَلِمْتُ أنه أيضاً عدوٌّ لي، وكل من أبغضته علمت أنه محبي وصديقي، ثم فعل ذٰلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة، فَحَقٌّ علىٰ كل من هو صادق في المحبة أن يقول: أمّا تدبيرك في ضرب هٰذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفِعْلُك، وأما شَتْمه إيّاك من حيث نسبته إلىٰ هٰذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجّم عليك، فأنا كارهٌ له من حيث نسبته إليه إذْ كان حقه أن يَصْبِر ولا يَشْتُم، فكذٰلك تسليط الله سبحانه وتعالىٰ دواعيَ الشهوة والمعاصي علىٰ العبد، وبُغْضه علىٰ عصيانه.

فواجبٌ علىٰ كل عبد محبٍّ لله أن يُبْغِض من أبغضه الله ﷻ، ويُعادِيَ من عاداه وأبعده عن حضرته، وإنِ اضْطَرَّه بقهره وقدرته إلىٰ معاداته ومُخالَفَتِه، فإنه بعيدٌ مطرودٌ، والمُبْعَدُ عن درجات القُرْبِ ينبغي أن يكون بغيضاً إلىٰ جميع المُحِبِّين، موافقةً لمحبوبهم، بإظهار الغضب علىٰ من أظهر المحبوبُ الغضبَ عليه بإبعاده.

وبهٰذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد علىٰ الكفار والتغليظ عليهم، والمُبالَغة في مَقْتِهم، مع الرضا بقضاء الله تعالىٰ، من حيث إنه قضاؤه. وهٰذا كله يُستَمَدُّ مِنْ سِرِّ القَدَرِ الذي لا رُخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولٰكن الشرّ مُرادٌ مكروه، والخير مراد مَرْضِيٌّ به.

والأَولىٰ السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبّد به الخلق، من الجَمْع بين الرضا بقضاء الله تعالىٰ ومَقْتِ المعاصي، والله تعالى أعلم.

ومما يتعلق بالمحبة:

[خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها]

١ - قيل: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه السلام: لو يعلم المُدْبِرون عني كيف ٱنتظاري لهم، ورِفْقي بهم، وشوقي إلىٰ ترك معاصيهم، لَمَاتوا شوقاً إليَّ، وتَقطَّعَتْ أوصالهم[1] من محبتي.

يا داود! هٰذه إرادتي في المُدْبِرين عني، فكيف إرادتي في المُقْبِلين عليَّ؟ يا داود! أَحْوَج ما يكون العبد إليَّ إذا ٱستغنىٰ عني، وأَجَلّ ما يكون عندي إذا رجع إليَّ.

٢ - وكانت ٱمرأة مُتعبِّدة تقول: والله لقد سئمت الحياة، حتىٰ لو وَجدتُ الموت يُباع لاشتريته شَوقاً إلىٰ الله تعالىٰ، وحبّاً للقائه. فقيل لها: فعلىٰ ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولٰكن[2] لِحُبّي إياه وحُسْنِ ظني به، أَفَتَراه يُعذِّبني وأنا أحبه؟

باب في النية والإخلاص والصدق

ٱعلم أنه قَدِ ٱنكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وُصول إلىٰ السعادة إلا بالعلم والعبادة.

فالناس كلهم هَلْكىٰ، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكىٰ إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكىٰ إلا المُخْلصون، والمُخْلصون علىٰ خطر عظيم.

فالعمل بغير نية عَناءٌ، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباءٌ[3]. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]. وليت شعري، كيف تَصْلُح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو

---

(١) جمع وصْل، وهو: المَفصِل أو مجتمع العظام.
(٢) أبدلتْ من «الإحياء» عن: (ولٰكني).
(٣) هو: التراب الذي تطيره الريح ويلزق بالأشياء، أو ينبثّ في الهواء، فلا يبدو إلا في ضوء الشمس.

كيف يُخْلِص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! وكيف يُطالب المُخْلِصُ نَفْسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولىٰ علىٰ كل عبد أراد طاعة الله تعالىٰ، أن يعلم النية أوّلاً، لِتَحْصُل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فَهْم حقيقة الصدق والإخلاص اللّذينِ هما وسيلتان للعبد إلىٰ النجاة. ونحن نذكر ذٰلك في ثلاثة فصول.

الفصل الأول
في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]. والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل أمرىء ما نوىٰ، فَمَنْ كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أوِ أمرأة يتزوجها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»(١). =

= وعن أبي موسىٰ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت الرجل يُقاتل شجاعةً، ويقاتل حَمِيّةً، ويقاتل رياء، أيّ ذٰلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العُلْيا فهو في سبيل الله**»(٢). = أخرجاهما في «الصحيحين».

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد خَلَّفْتُم**(٣) **بالمدينة رجالاً، ما**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧)، والترمذي [«صحيحه» (١٣٤٤/ ١٦٤٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٤٠٥/ ٤٢٢٧)]. وهو في «الإرواء» (٢٢).

(٢) سلف تخريجه في الصفحة (٢٧٧).

(٣) أي: تركتم وراءكم رجالاً فلم يذهبوا معكم إلى الغزو لمرضهم.

قَطَعْتُمْ وادياً، ولا سَلَكْتُمْ طريقاً، إلا شَرِكوكم[1] في الأجر، حَبَسهمُ المرضُ»[2] أخرجه مسلم، وأخرجه البخاريّ من حديث أنس.

وفي «الصحيحين» من حديث ٱبن عباس، عن النبيّ ﷺ قال: **«من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبتْ له حسنةٌ»**[3].

وعن أبي كَبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ هٰذه الأمة مثل أربعة نفرٍ:**

رجل آتاه الله مالاً وعِلماً، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه.

ورجل آتاه الله علماً ولم يُؤْتِهِ مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل هٰذا عملتُ فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: **«فهما في الأجر سواء.**

ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يَخْبِط[4] فيه، ينفقه في غير حقه.

ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً، فيقول: لو كان لي مثل هٰذا عَملتُ فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: **«فهما في الوِزْرِ سواءٌ»**[5].

وعن أبي عِمْران الجَوْنيِّ قال: تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي المَلِكُ: أَلْقِ تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا! قال خيراً وحَفِظْناه عليه. فيقول تبارك وتعالىٰ: إنه لم يُرِدْ به وجهي. قال: وينادي المَلِكُ: اكتب لفلان كذا وكذا، مَرّتين. فيقول: يا رب! إنه لم يعمله، فيقول ﷻ: إنه قد نَواه.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: أفضل الأعمال أداء ما ٱفترض الله تعالىٰ، والورع عما حرم الله تعالىٰ، وصدق النية فيما عند الله تعالىٰ.

---

(١) أي: صاروا شركاءكم في الأجر.

(٢) هما في مسلم (١٩١١)، والبخاري (٢٨٣٩) على التوالي.

(٣) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١). وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٠٦) وسيأتي بأتم منه في الصفحة (٥١٧) حاشية (١).

(٤) أي ينفقه من غير هدىً وتبصّر.

(٥) رواه أحمد (١٧٩٨٩) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٢٨).

وكان بعضهم يقول: دُلُّوني علىٰ عمل لا أزال به عاملاً لله تعالىٰ. فقيل له: اَنوِ الخير، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه من نوىٰ أن يُصليَ بالليل فنام، كُتب له ثواب ما نوىٰ أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: **«ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أَجْرُ صلاته، وكان نومُه صدقةً تُصُدِّقَ بها عليه»**[1].

وقد جاء في الحديث: **«نيةُ المؤمنِ خيرٌ مِنْ عَمَلِه»**[2].

والنية، والإرادة، والقصد، عبارات مُتَوارِدة علىٰ معنىً واحدٍ.

[بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية]

واَعلم أن الأعمال تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول، المعاصي: فلا تتغير عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجداً بمال حرام يقصد بذٰلك الخير، فإن النية لا تُؤثِّر فيه، فإنَّ قَصْدَ الخير بالشر شرٌّ آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً، هيهات!

واَعلم أن مَنْ تَقَرَّب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرّب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفِسْق، فإن هٰؤلاء إذا تعلموا كانوا قُطّاع طريق الله تعالىٰ، يتكالبون[3] علىٰ الدنيا، ويتبعون الهوىٰ ووَبال[4] ذٰلك راجع إلىٰ مُعَلِّمهم، إذا عَلِمَ فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هٰذا القبيل تعلّم القُصّاص القَصَصَ، فإن مقاصد أكثرهم معروفة،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٣) من حديث عائشة. وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١١٠٥/ ١٣٤٤) بنحوه من حديث أبي الدرداء.

(٢) أخرجه البيهقي والطبراني عن سهل بن سعد. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٥٩٧٦ و٥٩٧٧).

(٣) أي: يَحْرِصون عليها.

(٤) أي: سوء العاقبة.

وقَصْدهمُ ٱجتلاب[١] الدنيا، وأخْذ الأموال كيف ٱتفق، فتعليمهم إعانة علىٰ الفساد.

فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد. وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا ٱنضاف إليها قَصْدٌ خبيث تَضاعف وِزرها وعَظُمَ وَبالها.

القسم الثاني، الطاعات: وهي مرتبطة بالنِّيّات في أصل صحتها، وفي تضاعُفِ فَضْلها:

أما الأصل، فهو أن ينوي عبادة الله تعالىٰ لا غير، فإن نوىٰ الرياء صارت معصية.

وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب. إذْ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذٰلك القُعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نِيّاتٍ كثيرة: منها أن ينوي بدخوله ٱنتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكفُّ الجوارح، فإن الاعتكاف كفٌّ، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالىٰ بالانقطاع إلىٰ المسجد، وإلىٰ ذكر الله تعالىٰ فيه، ونحو ذٰلك، فهٰذا طريق تكثير النيات، فَقِسْ علىٰ ذٰلك سائر الطاعات، إذْ ما من طاعة إلا وتحتمل نِيّات كثيرة.

القسم الثالث، المباحات: فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نِيّاتٍ، تصير بها قُرُباتٍ[٢]، وينال بها معالي الدَّرَجات، فما أعظم خُسْران من يَغْفُل عنها ويتعاطاها تعاطيَ البهائم المُهْمَلة!

ولا ينبغي أن يحتقر العبدُ الخَطَرات[٣] والخُطُوات واللَّحَظات[٤]، فكل ذٰلك يُسأل عنه في القيامة، لِمَ فَعَلَه؟ وما الذي قصد به؟

---

(١) أي: كَسْب الدنيا.
(٢) جمع قُرْبة، وهي: ما يُتَقَرَّب به إلى الله من أعمال البر والطاعة.
(٣) الخَطْرة: ما يخطر في القلب.
(٤) هي: لَحْظُ العين.

مثال ما ينوي به القُرْبة من المباحات أن يَتَطَيَّب، ويَنوِيَ بالطِّيبِ ٱتباعَ السُّنّة، وٱحترام المسجد، ودَفْعَ الروائح الكريهة التي تؤذي مُخالِطِيه.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من طاب ريحه زاد عَقْله.

وكذٰلك معالجة رأسه تَزيد فِطْنته وذكاءه، فَيَسْهُل عليه إدراك مُهِمَّات دينه.

وقال بعض السلف: إني لأَسْتَحِبُّ أن يكون لي في كل شيء نِيّة، حتىٰ في أَكْلي وشُرْبي ونومي ودخولي الخلاء. وكل ذٰلك مما يمكن أن يقصد به التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب: من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوِّيَ علىٰ العبادة، ومن النكاح تحصينَ دينه، وتَطْييب قلب أهله، والتوصُّلَ إلىٰ ولدٍ يعبد الله بعده، أُثِيبَ علىٰ ذٰلك كله. ولا تَحْتَقِرْ شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسِبْ نَفْسَك قبل أن تُحاسَبَ، وصَحِّح قبل أن تفعل ما تفعله، وٱنظر في نِيَّتِك فيما تتركه أيضاً.

[بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار]

وٱعلم أن النية هي ٱنبعاث النفس ومَيْلها إلىٰ ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أوِ المآل. وربما سمع بعض الجُهّال ما أَوصينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن آكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذٰلك نية، وليس كذٰلك، وإنما النية ٱنبعاث القلب. وتجري مجرىٰ الفُتوح من الله تعالىٰ، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر في الغالب لمن قَلْبُه يميل إلىٰ الدين دون الدنيا.

والناس في النيات علىٰ أقسام:

منهم من يكون عَمَلُه للطاعة إجابةً لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابةً لباعث الرجاء.

وثَمَّةَ[1] مَقامٌ أرفع من هٰذين، وهو أن يعمل الطاعة علىٰ نية جلال الله تعالىٰ لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهٰذه لا تتيسر لراغبٍ في الدنيا، وهي أَعَزُّ النِّيّات

(١) أي: هناك.

وأعلاها، وقليلٌ مَنْ يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هٰذا المقام لا يُجاوِز ذكر الله تعالىٰ والفِكْر في جلاله حبّاً له.

وقد حكىٰ أحمد بن خَضْرَوَيْهِ أنه رأىٰ رَبَّ العِزّة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يَزِيدَ يَطْلُبني.

وغرضنا من هٰذه النيات متفاوتة في الدرجات ومَنْ غلب علىٰ قلبه واحدة منها، فربما لم يتيسر له العدول إلىٰ غيرها، ومَنْ حضرتْ له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولىٰ. وٱنتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذٰلك أن تحضره نية في الأكل والنوم لِيتَقوىٰ بذٰلك علىٰ العبادة ويُريح بَدَنَه ولم تنبعث نيته في الحال إلىٰ الصلاة والصوم. فالأكلُ والنوم أَفْضَلُ، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعَلِمَ أنه لو تَرَفَّهَ ساعةً بِمُبَاحٍ عاد نشاطه، فذٰلك أفضل من التعبد حِينَئِذٍ.

قال عليٌّ عليه السلام: رَوِّحوا القلوب، وٱطْلُبوا لها طُرَف الحِكْمة، فإنها تَمَلُّ كما تملُّ الأبدان.

وقال بعضهم: رَوِّحوا القلوب تَعِي[1] الذكرَ.

وهٰذه دقائق لا تُدْرِكها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذِق في الطِّبِّ قد يعالج المَحْرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذٰلك القاصِرُ في الطِّبِّ، وإنما يبتغي به أن تَعُودَ قوّته ليحتمل المعالجة، وكذٰلك الخبير بالقتال، قد يَفِرُّ من بين يَدَيْ قرينه حِيلة منه، لِيَسْتَجِرَّه إلىٰ مضيق. فسلوك طريق الله تعالىٰ كله حرب مع الشيطان، ومعالجة للقلب، والمُبْصِر المُوَفَّق يقف في تلك الطريق علىٰ لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لَهُمْ ٱستبعاد ما خَفِيَ عليهم، بل يُسَلِّمون لأصحاب الأحوال، إلىٰ أن ينكشف لهم أسرار ذٰلك، أو ينالوا ذٰلك المقام.

(١) مضارع وَعىٰ، أي: لتفهم الذكر.

الفصل الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته[١]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣]. وغير ذٰلك من الآيات.

وقال النبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ: **«أَخلِصْ دِينك يَكْفِكَ القليلُ من العمل»**[٢].

وفي حديث أنس ﷺ أنه قال: إذا كان يوم القيامة جاءتِ الملائكة بصُحُفٍ مُخَتَّمةٍ. فيقول الله ﷻ: أَلْقُوا هٰذا، واَقْبَلوا هٰذا. فتقول الملائكة: وعِزَّتِك ما كتبنا إلا ما كان. فيقول: إن هٰذا كان لِغَيري، ولا أَقْبَلُ اليومَ إلا ما كان لي.

وعن النبي ﷺ قال: **«إن الملائكة يَرفعون عَمَلَ العبدِ فَيُكَثِّرونه[٣] ويُزَكونه[٤]، فيُوحي الله تعالىٰ إليهم: أنتم حَفَظَةٌ علىٰ عمل عبدي، وأنا رقيبٌ علىٰ ما في نفسه، إن عبدي لم يُخلِص في عمله! فاَجْعَلوه في سِجِّين[٥]، ويَصْعَدون بعمل العبد يَسْتَقِلُّونه[٦]، فيوحي إليهم: أنكم حَفَظَةٌ علىٰ عمل عبدي، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه فضاعِفوه واَجْعَلوه في عِلِّيِّين[٧]»**[٨].

---

(١) انظر رسالة الإمام اَبن رجب «شرح كلمة الإخلاص» بتحقيقي، وتخريج أستاذنا الألبانيّ فإن فيها علماً نافعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص». وهو في «ضعيف الجامع» (٢٤٠)، و«الضعيفة» (٢١٦٠).

(٣) أي: يجعلونه كثيراً.

(٤) أي: يُنمّونه.

(٥) هو: فِعِّيل من السجن وهو الضيق، وقد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة، ففي حديث البراء كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦): **«اَكتبوا كتابه في سِجِّين في الأرض السفلىٰ»**.

(٦) أي: يَرَونه قليلاً.

(٧) جمع عِلِّيّ: مأخوذ من العلو وهو على الرأي المشهور أنه الجنة.

(٨) أخرجه ابن المبارك عن حمزة بن حبيب مرسلاً.

ويُروىٰ عن الحسن قال: كانت شجرة تُعْبَد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأَقْطَعَنّ هٰذه الشجرة، فجاء إليها لِيَقْطعها غضباً لله، فلقيه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هٰذه الشجرة التي تُعْبَد من دون الله. قال: إذا أنت لم تَعْبُدْها، فما يَضُرُّك مَنْ عَبَدَها؟ قال: لأَقْطَعَنَّها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وِسادَتِك. قال: فَمَنْ لي بذٰلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادَتِه دينارين، ثم أصبح فلم يجد شيئاً، فقام غَضْبانَ لِيَقْطَعَها، فتَمَثَّل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هٰذه الشجرة التي تُعْبَد من دون الله. قال: كذبت، ما لك إلىٰ قَطْعِها سبيل. فذهب لِيَقْطَعَها، فَضَرَبَ به الأرضَ، وخَنَقَه حتىٰ كاد يقتله، ثم قال له: أتدري مَنْ أنا؟ فأخبره أنه الشيطان! وقال: جئت أوّل مرة غَضَباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فَخَدَعْتُك بالدينارين فتركْتَها، فلما فَقدْتَهما جئت غَضَباً للدينارين، فَسُلِّطْتُ عليك.

وكان معروفُ الكَرْخيُّ يَضْرِب نَفْسَه ويقول: يا نفس أَخْلِصي وتخلَّصي.

وقال أبو سليمان: طوبىٰ لمن صَحَّتْ له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ.

وحُكي أن رجلاً كان يخرج في زِيِّ النساء، فيحضر حيث يَحْضُرْنَ مِنْ عُرْسٍ، أو مَأْتم، فاتفق أنه حضر يوماً مَوْضِعا فيه مَجْمَعُ النساء، فسُرِقتْ دُرّةٌ، فصاحوا: أغْلِقوا البابَ حتىٰ نُفتِّش، ففتشوا واحدة واحدة حتىٰ بلغتِ النَّوْبةُ إلىٰ الرجل وإلىٰ امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نَجَوْتُ من هٰذه الفضيحة لا أعود إلىٰ مثل هٰذا، فوُجِدَتِ الدُّرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحُرّة، فقد وجدنا الدُّرّة.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يُتَصَوَّر أن يَشوبه غيره، فإذا صفا عن شَوْبه وخَلَصَ عنه، سُمّي إخلاصاً.

والإخلاص يُضادّه الإشراك. فَمَنْ ليس مُخْلِصاً، فهو مُشْرِكٌ، إلا أن الشِّرْك درجات.

فالإخلاص في التوحيد يُضادّه الشِّرْك في الإلٰهية.

والشِّرْك منه جَليّ، ومنه خفي، وكذٰلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابه، وإنما نتكلم الآن في مَنِ ٱنبعث لِقَصْدِ التقرُّب، ولٰكن ٱمْتَزج بهٰذا الباعثِ باعثٌ آخرَ، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذٰلك أن يصوم لِيَنْتَفع بالحِمْية الحاصلة بالصوم مع قَصْد التقرّب، أو يُعْتِق عبداً لِيَتَخَلَّص من مَؤُونته وسوء خُلُقه، أو يَحُجّ لِيَصِحّ مِزاجه بحركة السفر، أو للتخلص مِنْ شَرٍّ يَعْرِضُ له، أو يَغْزُو لِيُمارِس الحرب ويَتعلَّم أسبابها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليُراقِب رَحْله أو أهله، أو يَتَعلّم العلم ليسهل عليه طَلَب ما يَكْفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس لِيَفْرَحَ بِلذّة الكلام، ونحو ذٰلك. فمتىٰ كان باعثه التقرّب إلىٰ الله تعالىٰ، ولٰكن ٱنضاف إليه خاطرٌ من هٰذه الخواطر، حتىٰ صار العملُ أَخَفّ عليه بسبب هٰذه الأمور: فقد خرج عمله عن حَدِّ الإخلاص.

والإنسان قَلّما يَنفَكّ فِعْلٌ من أفعاله، وعبادةٌ من عباداته عن شيء من هٰذه الأمور، فلذٰلك قيل: مَنْ سَلِمَ له في عُمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالىٰ: نجا. وذٰلك لِعِزّة الإخلاص، وعُسْر تَنْقِية القلب من هٰذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرّب من الله تعالىٰ.

قيل لِسَهْلٍ: أي شيء أشدّ علىٰ النفس؟ قال: الإخلاص، إذْ ليس لها فيه نصيب.

[الشوائب... المكدرة للإخلاص]

وٱعلم أن الشوائب المُكَدِّرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جَليّ، وبعضها خَفيّ، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه.

ومن الرياء ما هو أخفىٰ من دبيب النمل، فَلْيُطْلَب هناك. وحاصِلُه أن ما دام العامِل يُفرّق بين مُشاهَدة الإنسان والبهيمة في حالةٍ من

العمل، فهو خارج عن صَفْوِ الإخلاص، ولا يَسْلَم من الشيطان إلا مَنْ دَقَّ نَظَرُه وسَعِد بِعِصْمة الله تعالىٰ وتوفيقه.

وقد قيل: ركعتان من عالم أَفْضَلُ من سبعين ركعة من جاهلٍ، وأريد به العالِمُ بدقائق آفات الأعمال حتى يَخْلُصَ عنها، والجاهل ينظر إلىٰ ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقِدُ خيرٌ من دينار يرتضيه الغِرُّ[1] الغَبيّ.

فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذي لا يُريد به إلا الرياءَ، فهو علىٰ صاحبه لا له، وهو سبب للعِقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالىٰ سبب للثواب. ولا إشكال في هٰذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشُوب المُمْتَزج بِشَوْبِ الرياء وحُظوظ النفس.

وقَدِ ٱختلف الناس في ذٰلك، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تَعارُض في ذٰلك.

والذي يتضح لنا فيه ـ والعلم عند الله تعالىٰ ـ أنْ نَنْظر إلىٰ قَدْرِ قُوَّة البواعث، فإنْ كان الباعِث الدينيّ مُساوياً للباعث النفسانيّ تَقاوَما وتَساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإنْ كان باعث الرياء أقوىٰ، ضَرَّ وأَوْجَبَ العقاب، لٰكن عقابه دون عقاب مَنْ تَجَرَّدَ للرياء، وإن كان الباعث الدينيّ أقوىٰ من الآخر، فله ثوابٌ بِقَدْرِ ما فَضَلَ مِنْ قُوَّته، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

ويشهد لما ذكرنا إجماعُ الأمة علىٰ أنّ مَنْ خرج حاجّاً ومعه تجارة، صَحّ حَجُّه وأُثيب عليه، وقَدِ ٱمْتَزج به حَظٌّ من حظوظ النفس، إلا أنه متىٰ كان الحجُّ هو المُحرِّكَ الأصليَّ: لم ينفك السفر عن ثواب. وكذٰلك الغازِيْ إذا

---

(١) هو: الذي ينخدع إذا خُدِع، وقد لا يكون غبياً.

قَصَدَ الغَزْوَ والغنيمة ويكون قصد الغنيمة علىٰ سبيل التَّبَع: حَصَلَ له الثواب، ولٰكنه لا يساوي ثوابَ من لا يلتفت إلىٰ الغنيمة أصلاً. والله تعالىٰ أعلم.

الفصل الثالث
في الصدق وحقيقته وفضله

عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلىٰ البِرّ، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال الرجل يَصْدُق ويَتَحَرىٰ الصدقَ حتىٰ يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً**»[١] رواه البخاري ومسلم.

وقال بِشْرٌ الحافيْ: مَنْ عامَلَ الله بالصدق، آسْتَوْحَش من الناس.

وآعلم أن لفظ الصدق قد يُسْتَعمل في معان:

أحدها: الصدق في القول، فَحَقٌّ علىٰ كل عَبْدٍ أن يَحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. وينبغي أن يَحْتَرِزَ عن المعاريض، فإنها تُجانِس الكَذِبَ إلا أن تَمَسَّ الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال. وقد كان النبيّ ﷺ إذا أراد غزوة وَرَّىٰ بغيرها لئلا ينتهي الخبر إلىٰ الأعداء فيتهيؤوا لقتاله[٢]. وقال النبيّ ﷺ: «**ليس بكاذبٍ مَنْ أَصْلَحَ بين آثنين فقال خيراً، أو نَمىٰ خيراً**»[٣].

وينبغي أن يُراعيَ معنىٰ الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. فإنْ كان قلبه مُنْصَرِفاً عن الله مشغولاً بالدنيا: فهو كاذب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، والترمذي [«صحيحه» (١٦٠٦/ ١٩٧١)]. وهو في «صحيح الجامع» (٤٠٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، وأحمد (١٥٧٦٣)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٢٩٥/ ٢٦٣٧)] عن كعب بن مالك.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥) عن أم كلثوم بنت عقبة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٣٧٩)، و«الصحيحة» (٥٤٥).

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذٰلك يرجع إلىٰ الإخلاص، فإنْ مازَجَ عَمَلَهُ شَوْبٌ من حُظوظ النفس، بَطَلَ صِدْقُ النية، وصاحِبُه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة[1]: العالم، والقارئ، والمجاهد. لما قال القارئ: قرأتُ القرآن إلىٰ آخره، إنما كَذَّبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذٰلك صاحِباه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالاً تصدقتُ بجميعه، فهٰذه العزيمة قد تكون صادقةً وقد يكون فيها تَردُّد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم، وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مَشَقّة فيه إذا تحقّقتِ الحقائق، وانجلتِ العزيمة، وغلبتِ الشهوة، ولذٰلك قال الله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال في آية أخرىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[2] إلىٰ قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريرته وعَلانِيَتُه حتىٰ لا تَدُلَّ أعمالُه الظاهرةُ من الخشوع ونَحوِه علىٰ أمرٍ في باطنه، ويكونَ الباطنُ بخلاف ذٰلك.

قال مُطرِّفٌ: إذا اَستوتْ سريرة العبد وعَلانِيَتُه قال الله ﷻ: هٰذا عبدي حقاً.

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلىٰ الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء، والزهد والرضا والحب والتوكل، فإن هٰذه الأمورَ لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المُحقّق من نال

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي [«صحيحه» (١٩٤٢/ ٢٣٨٢)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٩٤٠)] عن أبي هريرة.

(٢) سورة التوبة، وتمام الآيات: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

حقيقتها، وإذا غلب الشيءُ وتَمّتْ حقيقته سُمّي صادقاً. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[1] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ﴾ [البقرة]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[2] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾.

ولْنَضربْ للخوف مثلاً، فنقول: ما مِنْ عَبْدٍ يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غيرُ بالغ إلىٰ درجة الحقيقة. ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يَصْفَرُّ ويَرْتَعِدُ خوفاً من وقُوع المَحْذور، ثم إنه يخاف النار ولا يَظهر عليه شيء من ذٰلك عند فعل المعصية. ولذٰلك قال عامر بن عبد قيس: عَجِبْتُ للجنة نام طالِبُها، وعَجِبْتُ للنار نام هارِبها.

والتحقيق في هٰذه الأمور عزيز جداً، فلا غاية لهٰذه المقامات حتىٰ يُنال تمامُها، ولٰكن لكلٍّ حَظٌّ بِحَسَبِ حاله، إما ضعيف وإما قويّ، فإذا قَوِيَ سُمّي صادقاً. وإذا علم الله مِنْ عَبْدٍ صدقاً صغا له، والصادق في جميع هٰذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صِدْقٌ في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطّلاع الخلق علىٰ ذٰلك.

[كتاب: المراقبة والمحاسبة]

باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[3] إلى قوله:

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٧ وتمامها: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ﴾.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٥ وتمامها: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٠ وتمامها: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾. وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾(١) إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾. وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾(٢) إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الزلزلة]. إلىٰ آخرها.

فاقتضت هٰذه الآيات وما أشبهها خَطَرَ الحسابِ في الآخرة. وتَحَقَّقَ أربابِ البصائرِ أنهم لا يُنَجيهم من هٰذه الأخطار إلا لزومُ المحاسبة لأنفسهم وصدقُ المراقبة. فَمَنْ حاسَبَ نفسَه في الدنيا، خَفَّ في القيامة حسابه، وحَسُن مُنْقَلبه. ومَنْ أهمل المحاسبة دامت حَسَراته. فلما عَلِموا أنهم لا يُنْجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالىٰ بالصبر والمُرابطة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فرابَطوا أنفسهم أولاً بالمُشارَطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة سِتُّ مقامات، وأَصْلُها المحاسبة، ولٰكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، ولا بد مِنْ شَرْحِ ذٰلك المقام.

المقام الأول: المشارطة

اْعلم أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طَلَباً للرِّبْحِ، ويُشارِطه ويُحاسِبه، كذٰلك العقل يحتاج إلىٰ مشاركة النفس، ويُوَظِّف عليها الوظائف، ويَشْرِط عليه الشروط، ويُرْشِدها إلىٰ طريق الفَلاح، ثم لا يَغْفُل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هٰذه التجارة رِبْحها الفِرْدَوْسُ الأعلىٰ.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٤٧ وتمامها: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

(٢) سورة الكهف، الآية ٤٩ وتمامها: ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

فتدقيق الحساب في هٰذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فَحَتْمٌ علىٰ كل ذي حَزْمٍ آمَنَ بالله واليوم الآخر ألا يَغْفُلَ عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخَطَرَاتِهَا، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عِوَض لها.

فإذا فرغ العبد من فريضة الصُّبْح، ينبغي أن يُفَرِّغ قَلْبَه ساعةً لمشارطة نفسه فيقول للنفس: مالي بضاعة إلا العمر، فإذا فَنِيَ رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطَلَبِ الربح، وهٰذا اليوم الجديد قد أَمْهَلَني الله فيه، وأَخَّر أجلي، وأَنْعَمَ عليَّ به، ولو تَوَفّاني لَكُنْتُ أَتَمنّىٰ أن يُرْجِعني إلىٰ الدنيا حتىٰ أعمل فيه صالحاً، فٱحْسُبي يا نفس أنك قد تُوُفِّيتِ ثم رُدِدْتِ، فإياكِ إياكِ أن تُضيعي هٰذا اليوم، وٱعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد يُنْشَر له بكل يوم أربع وعشرون خِزانة مصفوفة، فيُفتَح له منها خِزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عَمِلها في تلك الساعة، فَيَحصُل له من السرور بمُشاهدة تلك الأنوار ما لو وُزِّع علىٰ أهل النار لأَدْهَشَتْهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرىٰ سوداء مُظْلِمة يَفُوح ريحها ويغشاه ظَلامها، وهي الساعة التي عصىٰ الله تعالىٰ فيها، فَيَحْصُل له من الفَزَع والخِزْيِ ما لو قُسم علىٰ أهل الجنة لَنَغَّصَ عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أُخرىٰ فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يَسُرّه، وهي الساعة التي نام فيها أو غَفَلَ أوِ ٱشتغل بشيء من المباح، ويَتَحَسَّرُ علىٰ خُلُوِّها، ويناله ما نال القادِرَ علىٰ الربح الكثير إذا أهمله حتىٰ فاته.

وعلىٰ هٰذا تُعْرَض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تَعْمُري خِزانتك، ولا تَدَعيها فارغة، ولا تَمِيلي إلىٰ الكسل والدَّعة والاستراحة، فَيَفُوتكِ من درجات عِلِّيِّينَ ما يُدركه غيرُك.

قال بعضهم: هَبْ[١] أن المسيء قد عُفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهٰذه وَصِيَّته في نفسه في أوقاته.

---

(١) أي: احْسُب وٱعْدُد.

ثم يَستأنف لها وصيةً أخرىٰ في أعضائه السبعة، وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرِّجْل، وتسليمُها إلىٰ النفس، فإنها رعايا خادِمةٌ لها في هٰذه التجارة المُخلّدة، بها يَتِمُّ أعمالُها، ويُعْلِمها أن أبواب جهنم سبعة علىٰ عدد هٰذه الأعضاء. فتعيين تلك الأبواب لمن عصىٰ الله تعالىٰ بهٰذه الأعضاء، فيُوصيها بحفظها عن معاصيها:

أما العين فيحفظها عن النظر إلىٰ ما لا يَحِلّ النظر إليه، أو إلىٰ مسلم بعين الاحتقار وعن كل فُضول مستغنىً عنه، ويَشْغَلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلىٰ ما خُلِقَتْ له من عجائب صنع الله تعالىٰ بعين الاعتبار، والنظر إلىٰ أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله تعالىٰ، وسنة رسوله ﷺ، ومطالعة كتب الحِكَم للاتعاظ والاستفادة.

وهٰكذا ينبغي أن يتقدم إلىٰ كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فَيَشْغَلُه بما خُلقَ له، من الذِّكر والتذكير، وتَكْرار العِلْم والتعليم، وإرشاد عِباد الله تعالىٰ إلىٰ طريق الله، وإصلاح ذات البَيْنِ[1]، إلىٰ غير ذٰلك من الخير.

وأما البطن، فَيُكَلِّفه تَرْكَ الشَّرَهِ، واْجتناب الشُّبُهات والشَّهَوات، ويَقْتَصر علىٰ قَدْرِ الضرورة، ويَشترط علىٰ نَفْسِه إنْ خالفتْ شيئاً من ذٰلك أن يُعاقِبها بالمنع من شهوات البطن، لِيُفوِّتَها أكثر مما نالت بشهوتها.

وهٰكذا في جميع الأعضاء. واْستقصاء ذٰلك يطول، وكذا ما تُخفي طاعاتُ الأعضاء ومعاصيها.

ثم يَستأنف وصيَّتَها في وظائف العبادات التي تَتكرر في اليوم والليلة، في النوافل التي يَقْدِرُ عليها، وعلىٰ الاستكثار منها.

وهٰذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلىٰ أن تَتعوَّد النفس ذٰلك، فَيستغني عن المشارطة، ولٰكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حُكم جديد لله تعالىٰ عليه في ذٰلك حق. ويَكثر هٰذا علىٰ من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا، من ولاية أو

---

(١) (ذات البين): ما بين القوم من القرابة والصلة والمودة، أو العداوة والبغضاء.

تجارة أو نحو ذٰلك، إذْ قَلَّ أن يخلو يوم عن واقِعة جديدة يَحتاج إلىٰ أن يَقضيَ حق الله فيها. فعليه أن يَشرِط علىٰ نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق.

وعن شَدَّاد بن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكَيِّسُ من دَانَ نفسه، وعَمِل لما بعد الموت، والعاجزُ مَنْ أتبَعَ نَفْسَه هواها، وتَمَنىٰ علىٰ الله»**[١]!

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسِبوا أنفُسَكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنُوها قبل أن تُوزَنوا، وتَهَيَّؤوا للعَرْضِ الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة].

المقام الثاني: المراقبة

إذا أوصىٰ الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يَبْقَ إلا المراقبة لها ومُلاحَظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله ﷺ قال: **«أنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يرَاك»**[٢]، أراد بذٰلك ٱستحضار عَظَمة الله ومُراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشِّبْليُّ علىٰ أبي الحسين النُّوريِّ[٣] وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء. فقال له: ممن أخذتَ هٰذه المراقبة والسكون؟ فقال: مِنْ سِنَّوْرٍ[٤] كانت لنا إذا أرادتِ الصيدَ رابطت رأس الجُحْر[٥] حتىٰ لا يَتحرك لها شعرة.

وينبغي أن يُراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حَرّكه عليه

---

(١) ضعيف، سلف تخريجه في الصفحة (٣٧٠) حاشية (٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٩) عن أبي هريرة. و(٨) عن عمر بن الخطاب.

(٣) في النسخة الأولى: الثوري. وهو سبق قلم من الناسخ، وفي المخطوطة الثانية والثالثة على الصحيح.

(٤) هو: القِطُّ.

(٥) هو: حفرة تأوي إليها الهَوامّ وصغار الحيوانات. والمعنىٰ أنها لزمت الجحر لتصيد الفأر وما أشبهه.

هوىٰ النفس أوِ المحرك له هو الله تعالىٰ خاصة؟ فإن كان الله تعالىٰ، أمضاه، وإلا تَرَكه، وهٰذا هو الإخلاص.

قال الحسن: رَحِم الله عبداً وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضىٰ، وإن كان لغيره تَأَخَّر.

فهٰذه مراقبة العبد في الطاعة وهو أن يكون مُخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والنّدم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر علىٰ النعم. فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يَخْلو من بَلِيّةٍ، لا بد له من الصبر عليها، وكل ذٰلك من المراقبة.

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: في حكمة آل داود: حَقٌّ علىٰ العاقل ألاّ يُشْغَل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يُحاسِب فيها نفسه، وساعة يُفْضي[1] فيها إلىٰ إخْوانه الذين يُخْبرونه بعيوبه، ويَصْدُقونه عن نفسه، وساعة يُخلي بين نفسه وبين لَذّاتها فيما يَحِلّ ولا يحرم.

فإن هٰذه الساعة عَوْنٌ علىٰ هٰذه الساعات، وإجْمام[2] للقوة. وهٰذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب، لا ينبغي أن تَخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذِّكر والفِكْر، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو تَفكَّر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح.

المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. وهٰذه إشارة إلىٰ المحاسبة بعد مضي العمل.

ولذٰلك قال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا.

وقال الحسن: المؤمن قوّام[3] علىٰ نفسه، يُحاسِب نفسه. وقال: إن

(١) أي: يُعْلِمُهم بأحواله.
(٢) أي: إراحة لقوّته.
(٣) أي: المُتَوَلّي لها.

المؤمن يَفْجَؤه الشيء يُعْجِبه. فيقول: والله إني لأَشْتَهيك وإنك لَمِنْ حاجتي، ولٰكن والله ما من حيلة إليك، هيهات! حِيْلَ بيني وبينك. ويَفْرُط[1] منه الشيء فيَرْجِع إلىٰ نفسه فيقول: ما أردْتُ إلىٰ هٰذا، ما لي ولهٰذا؟ والله لا أعود إلىٰ هٰذا أبداً إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أَوْثَقَهم[2] القرآن، وحالَ بينهم وبين هَلَكَتِهم، إن المؤمن أَسِيْرٌ في الدنيا، يَسعىٰ في فِكَاك رقبته، لا يَأْمَن شيئاً حتىٰ يَلقىٰ الله ﷻ، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سَمْعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذٌ عليه في ذٰلك كله.

وٱعلم أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يُشارِط فيه نفسه، كذٰلك ينبغي أن يكون له ساعة يُطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويُحاسِبها علىٰ جميع ما كان منها، كما يفعل التُّجّار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم.

ومعنىٰ المُحاسَبة أن ينظر في رأس المال، وفي الربح، وفي الخُسْران، لِتَتَبيّن له الزيادة من النقصان، فرأس المال في دِينه الفرائضُ، ورِبْحُه النوافلُ والفضائل، وخُسرانه المعاصي، وليُحاسبها أوّلاً علىٰ الفرائض، وإنِ ٱرْتَكب معصيةً ٱشْتَغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فَرَط.

قيل: كان توبة بن الصِّمَّةِ بالرَّقّة، وكان مُحاسباً لنفسه، فَحَسَب يوماً فإذا هو ٱبن سِتِّين سنة، فَحَسَب أيامها فإذا هي أَحَدٌ وعشرون ألف يوم وخمسمئة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي أَلْقىٰ المَلِكَ بأحدٍ وعشرين ألف ذَنْب وخمسمئة ذنب؟ كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب! ثم خَرَّ مَغْشِيّاً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها، رَكْضةٌ إلىٰ الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ!

فهٰكذا ينبغي للعبد أن يُحاسِب نفسه علىٰ الأنفاس وعلىٰ معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لو رَمىٰ بكل معصية يفعلها حَجَراً في

(١) أي: يَسبق منه بغير رَوِيّة.
(٢) المقصود: أنه قَيّدهم بأحكامه، فَحَجَز بينهم وبين ما يُهْلِكهم.

داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولٰكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مُثبَتة ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦].

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها

اِعلم أن المريد إذا حاسب نفسه فرأىٰ منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يُهْمِلها، فإنه يَسْهُل عليه حينئذ مُقارَفة[1] الذنوب، ويَعْسُر عليه فِطامُها[2]، بل ينبغي أن يُعاقِبها عقوبةً مُباحةً كما يُعاقِب أهله وولده.

وكما روي عن عمر ﷺ: أنه خرج إلىٰ حائط[3] له، ثم رجع وقد صَلَّىٰ الناس العصر. فقال: إنما خرجتُ إلىٰ حائطي، ورجعتُ وقد صَلَّىٰ الناس العصر! حائطي صَدَقة علىٰ المساكين. قال اللَّيثُ: إنما فاتَته الجماعة.

وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتىٰ طلع نَجْمانِ، فلمّا صلاها أَعتق رَقَبتَين.

وحكي أن تَميماً الدَّارِيَّ ﷺ نام ليلة لم يَقُمْ يَتَهَجَّدُ فيها حتىٰ أصبح، فقام سَنَةً لم يَنَمْ فيها عقوبةً للذي صنع.

ومرَّ حسان بن سِنان بغُرْفة[4] فقال: متىٰ بُنيت هٰذه؟ ثم أَقبل علىٰ نفسه، فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأُعاقِبَنَّكِ بصوم سَنَةٍ، فَصامَها.

فأمّا العقوبات بغير ذٰلك مما لا يَحِلُّ، فَيَحْرُم عليه فِعْلُه.

مثال ذٰلك: ما حكي أن رجلاً من بني إسرائيل، وضع يده علىٰ فَخِذِ ٱمرأة، فوضعها في النار حتىٰ شَلَّت[5].

---

(١) أي: مُلاصَقتها والقُرْب منها.
(٢) هو في الأصل قطع الولد عن الرضاع. والمقصود هنا إبعادها عن الذنوب.
(٣) هو هنا: البُستان.
(٤) هي: الحُجْرة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها. علىٰ خلاف ما هو المتعارف عليه الآن.
(٥) أي: أُصيبت يده بالشَّلل.

وأن آخَرَ حَوَّل رِجْله لِيَنزل إلىٰ ٱمرأة، فَفَكَّر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلمّا أراد أن يُعِيد رِجْله، قال: هَيْهات! رِجْلٌ خرجت إلىٰ معصية الله لا ترجع معي. فَتَركها حتىٰ تَقَطَّعَتْ بالمطر والرياح.

وأن آخَرَ نظر إلىٰ ٱمرأة فَقَلَعَ عَيْنَيهِ.

فهٰذا كله مُحَرَّمٌ، وإنما كان جائزاً في شريعتهم. وقد سلك نحو ذٰلك خَلْقٌ من أَهلِ مِلَّتِنا، حَمَلهم علىٰ ذٰلك الجهلُ بالعلم:

كما حكي عن غَزوان الزاهد: أنه نظر إلىٰ ٱمرأة، فَلَطَم عينَه حتىٰ نَفَرَتْ[١].

وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جَنابة وكان البرد شديداً، وأنه وَجَدَ في نفسه تَوقُّفاً عن الغُسْل، فآلىٰ[٢] ألا يغتسل إلا في مُرَقَّعَتِهِ[٣]؛ ألا يَنْزِعها ولا يَعْصِرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد علىٰ عشرين رطلاً. وهٰذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هٰذا. وقد ذكرتُ كثيراً من هٰذا الفن الصادر عن المُتعبِّدين علىٰ الجهل في كتابي المُسمّىٰ بـ «تلبيس إبليس».

المقام الخامس: المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه، فينبغي إذا رآها قارفتْ معصيةً، أن يُعاقِبها كما سَبق، فإن رآها تَتوانىٰ ـ بِحُكم الكسل ـ في شيء من الفضائل، أو وِرْدٍ من الأوراد، فينبغي أن يُؤدِّبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه فاتَتْه صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة.

وإذا لم تُطاوِعْه نفسه علىٰ الأوراد، فإنه يُجاهِدها ويُكْرِهُها ما ٱستطاع.

---

(١) أي: وَرِمَتْ.
(٢) أي: أَقسم وحَلف.
(٣) هو: من لباس الصوفية سميت بذٰلك لما فيها من الرُّقَع، وغالباً ما لا تكون لحاجة، وإنما هي من التظاهر بالفقر الكاذب منهم.

وقال ٱبن المُبارَك: إن الصالحين كانت أنفسهم تُواتِيهم علىٰ الخير عَفْواً[١]، وإنّ أنفسنا لا تُواتِينا إلا كُرْهاً.

ومما يُستعان به عليها أن يُسمِّعها أخبار المجتهدين، وما وَرَدَ في فضلهم ويصحب من يَقدِر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا ٱعْتَرَتْني فَتْرة[٢] في العبادة نَظرتُ إلىٰ وَجْهِ محمد بن واسع وإلىٰ ٱجتهاده فعَمِلتُ علىٰ ذلك أسبوعاً.

وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة.

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتىٰ يَخْضَرَّ ويَصْفَرَّ.

وحجَّ مسروق فما نام إلا ساجداً.

وكان داود الطائيُّ يشرب الفَتِيْتَ مكان الخُبْزِ، ويقرأ بينهما خمسين آية.

وكان كرز بن وبرة يَخْتِم كل يوم ثلاث ختمات.

وكان عمر بن عبد العزيز، وفَتْحُ المَوْصِليُّ يبكيان الدَّمَ.

وصَلَّىٰ أربعون نفساً من القُدَماء الفجرَ بوضوء العَتَمة[٣].

وجاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم يَنَمْ ولم يَتكلم، ولم يَسْتَنِد إلىٰ حائطٍ، ولم يَمُدّ رِجْله، فقال أبو بكر الكَتّاني: بم قَدَرْتَ علىٰ هٰذا؟ قال: عَلِمَ صِدْقَ باطِنيْ فأعانَني علىٰ ظاهريْ.

ودخلوا علىٰ زَخْلة العابدة، فكلَّموها بالرِّفْقِ في نفسها، فقالت: إنما هي أيامُ مُبادَرة[٤]، فمن فاته اليوم شيء لم يُدْرِكْه غداً، والله يا إخْوتاه! لأُصلِّيَنَّ لله ما أَقَلَّتْني[٥] جوارحي، ولأَصُومَنَّ له في أيام حياتي، ولأَبْكِيَنَّ ما حَملتِ الماءَ عيناي.

---

(١) أي: تُطاوِعهم بلا كُلْفة أو مَشَقّة.

(٢) أي: أَلَمّ به وأصابه ضُعفٌ.

(٣) هي: ظلام أول الليل بعد زوال نور الشَّفَق. والمقصود هنا وضوء صلاة العشاء!!

(٤) أي: أيام إسراع وفرصة لا تُدْرَك بعد ذٰلك.

(٥) بمعنىٰ: مدة ٱحتمال جوارحي لي.

ومن أراد أن ينظر في سِيَرِ القوم، ويَتفرّج في بساتين مُجاهَداتهم، فَلْيَنظر في كتابي المسمّىٰ بـ «صِفَةِ الصَّفوة» فإنه يرىٰ من أخبار القوم ما يَعُدّ نفسَه بالإضافة إليهم من الموتىٰ، بل من أخبار المُتعبِّدات من النسوة ما يَحْتَقِرُ نفسه عند سماعه.

المقام السادس: في معاتبة النفس وتوبيخها

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

مَنْ مَقَتَ نفسه في ذات الله، آمَنَه الله مِنْ مَقْتِه.

وقال أنس ﷺ: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ وقد دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخٍ بخٍ[١]، والله لتَتَّقِيَنَّ الله يا ٱبن الخطاب أو لَيُعَذِّبَنَّكَ.

وقال البَخْتَرِيُّ بن حارثة: دخلت علىٰ عابد فإذا بين يديه نار قد أَجَّجها وهو يُعاتب نفسه، فلم يزل يُعاتِبها حتىٰ مات.

وكان بعضهم يقول: إذا ذكر الصالحون، فـ(أُف)[٢] لي و(تُفٌ)[٣].

وٱعلم أن أعدىٰ عدوٍّ لك: نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أمّارة بالسوء، مَيّالة إلىٰ الشرّ، وقد أُمرت بتقويمها وتَزْكِيَتِها وفِطامها عن مواردها، وأن تَقُودَها بسلاسل القهر إلىٰ عبادة ربها، فإن أَهْمَلْتَها جَمَحَتْ[٤] وشَرَدَتْ[٥]، ولم تَظْفَرْ بها بعد ذٰلك، وإن لَزِمْتَها بالتوبيخ رَجَوْنا أن تصير مطمئنة، فلا تَغْفُلَنَّ عن تذكيرها. وسبيلُك أن تُقْبِل عليها، فتُقَرِّر عندها جَهْلها وغَباوتها وتقول: يا نفس! ما أَعْظَمَ جَهْلَكِ! تَدَّعِينَ الذكاء والفِطْنة وأَنتِ أَشدُّ

(١) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر.
(٢) كلمة تضجُّرٍ وتكرُّهٍ.
(٣) كلمة تقال عند الشيء الذي يُستقذَر أو يُتأذّىٰ منه.
(٤) في المخطوطة الثانية: حجمت وفي المطبوع: «طمحت». والمثبت في «الإحياء» أيضاً، ومعناه: أنها عَتَتْ عن أمره حتىٰ غلبتْه.
(٥) أي نَفَرت وٱستعصَتْ.

الناسِ غَباوة وحُمْقاً، أما تَعْلَمِينَ أنكِ صائرة إلىٰ الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلىٰ أيّتهما يصير؟ وربما اُخْتُطِف في يومه أو في غده، (أما تَعْلَمِينَ أن كل ما هو آتٍ قريب، وأن الموت يأتي بَغْتة من غير مَوْعِدٍ)، ولا يَتوقَّف علىٰ سِنٍّ دون سنّ، بل كل نَفَسٍ من الأنفاس يُمْكِنُ أن يكون فيه الموتُ فجأةً، وإن لم يكنِ الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يُفْضي إلىٰ الموت. فما لَكِ لا تَسْتَعِدِّينَ للموت وهو قريب منك؟ يا نفس! إنْ كانتْ جُرأَتُكِ علىٰ معصية الله تعالىٰ لاعْتقادِكِ أن الله لا يَرَاكِ فما أعظم كُفْرَكِ! وإن كانت مع عِلْمِكِ باَطلاعه عليكِ، فما أشد رَقاعتكِ[1]، وأَقَلَّ حياءكِ! أَلَكِ طاقةٌ علىٰ عذابه؟ جَرِّبي ذٰلك بالقعود ساعةً في الحَمَّام، أو قَرِّبي أصبعك من النار. يا نفس! إن كان المانع لَكِ من الاستقامة حُبُّ الشهوات، فاَطْلُبي الشهوات الباقية الصافية عن الكَدَر، ورُبَّ أكلة منعتْ أَكَلاتٍ[2].

وما قولكِ في عقلِ مريضٍ أشار عليه الطبيب بِتْركِ الماء ثلاثة أيام لِيَصِحَّ ويَتهيأ لِشُرْبه طُولَ العمر؟ فما مُقتضىٰ العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام لِيَتنعَّم طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يَلْزمه الألم أبداً؟ فجميع عمرك بالإضافة إلىٰ الأبد الذي هو مُدّة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقلّ من ثلاثة أيام بالاضافة إلىٰ جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلىٰ عمر الدنيا. وليت شعري! أَلَمُ الصبر عن الشهوات أشَد وأطول، أم ألم النار في الدَّرَكات[3]؟ فمن لا يُطيق الصبر علىٰ أَلَم المُجاهدة، كيف يُطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أَشَغَلَك حُبُّ الجاهِ؟ أما [تعرفين أنه] بعد سِتِّين سنة أو نحوها، لا

(١) هي: الحماقة وضعف العقل والسماجة، وتُستعمل فيما ينشأ عنها من قِلّة الحياء والصفاقة.

(٢) هو مَثَل يُضرب في ذم الحرص علىٰ الطعام، وقصّته في «مجمع الأمثال» للميداني ١/ ٢٩٧ بتحقيق عبد الحميد.

(٣) من دركات جهنم؛ جمع دَرَكة، وهي: المنزلة السفلىٰ، فالدركات منازل بعضها تحت بعض.

تَبْقَيْنَ أنتِ ولا من كان لكِ عنده جاهٌ. هلا تركتِ الدنيا لِخِسّة شركائها، وكَثْرة عَنائها[١]، وخوفاً من سرعة فَنائها؟ أتَسْتبدِلِين بِجِوار رب العالمين صَفَّ النِّعال في صحبة الحَمْقىٰ؟ قد ضاع أكثرُ البِضاعة، وقد بَقِيَت من العمرِ صُبَابة[٢]، ولَوِ ٱسْتَدْركتِ نَدِمْتِ علىٰ ما ضاع، فكيف إذا أَضَفْتِ الأخيرَ إلىٰ الأول؟ اِعمَلِي في أيامٍ قِصارٍ لأيامٍ طِوالٍ، وأَعِدِّي الجوابَ للسؤالِ. اخْرُجي من الدنيا خروجَ الأحرارِ قبل أن يكون خروج ٱضطرارٍ. إنه من كانت مَطِيَّتُه[٣] الليلَ والنهار سِيْرَ به وإن لم يَسِرْ. تَفَكَّرِيْ في هٰذه الموعظة، فإن عَدِمْتِ تأثيرَها، فٱبْكِيْ علىٰ ما أُصِبْتِ به، فمُسْتَقىٰ[٤] الدمعِ: من بحر الرحمة.

باب التفكر

[كتاب: التفكر]
[فضيلة التفكر]

قد أمر الله سبحانه بالتفكّر والتدبّر في كتابه العزيز، وأَثنىٰ علىٰ المتفكِّرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد. الروم: ٢١. الزمر: ٤٢. الجاثية: ١٣].

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تفكَّروا في آلاء[٥] الله، ولا تفكَّروا في الله»**[٦].

وقال أبو الدَّرداء ﷺ: تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيام ليلة.

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: ما طالت فكرة ٱمرئ قطُّ إلا فَهِمَ، وما فَهِمَ إلا عَلِمَ، وما عَلِمَ إلا عَمِلَ.

---

(١) أي: تَعَبِها.
(٢) هي: البقية القليلة من الشيء، وأكثر استعمالها للماء.
(٣) هي: ما يُمتطىٰ ويُركَب.
(٤) أي: الذي يُستمدّ منه الدمع.
(٥) أي: نِعَمُ الله جل شأنه.
(٦) رواه الطبراني وغيره. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢٩٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨).

وقال بِشْرٌ الحافيْ: لو تَفكَّر الناس في عَظَمة الله تعالىٰ لَمَا عَصَوْهُ.

وقال الفِرْيابيُّ في قوله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال: أَمْنَعُ قلوبَهم التفكير في أَمْرِيْ.

وكان داودُ الطائيُّ علىٰ سطح في ليلةٍ قَمْراء، فَتَفَكَّرَ في مَلَكُوتِ السمٰوات والأرض، فوقع في دار جارٍ له، فَوَثَبَ عُرْياناً وبيده السيفُ، فلما رآه قال: يا داودُ، ما الذي أَلقاك؟ قال: ما شَعَرْتُ بذٰلك.

وقال يوسفُ بن أَسباط: إن الدنيا لم تُخْلَق لِيُنْظرَ إليها، بل لينظر بها إلىٰ الآخرة.

وكان سُفْيانُ مِنْ شِدّةِ تَفكُّره يبول الدَّمَ.

وقال أبو بكر الكَتَّانيُّ: (روعةٌ[1] عند ٱنتباهةٍ من غَفْلةٍ، وٱنقطاعٌ عن حظٍّ نَفْسانيٍّ، وٱرْتِعادٌ من خوفِ قطيعةٍ: أَفضلُ من عبادةِ الثَّقَلَيْنِ[2]).

بيان مجاري الفكر وثمراته

ٱعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشَرْح ذٰلك يطول. فَلْيَنْظُرِ الإنسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المُهلكات، والصفات المُنجِّيَات. فلا تَغْفُل عن نفسك، ولا عن صفاتك المُباعِدة عن الله، والمُقرِّبة إليه.

وينبغي لكل مُريد أن تكون له جَريدة يُثْبِت فيها جملة الصفات المُهلِكات، وجملة الصفات المُنجِيات وجملة المعاصي والطاعات، ويَعْرِض ذٰلك علىٰ نفسه كل يوم.

ويكفيه من المُهلِكات النَّظَرُ في عشرة، فإنه إن سَلِمَ منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكِبْر، والعُجْب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشَرَهُ الطعامِ، وشره الوِقاع، وحُبُّ المال، وحُبّ الجاه.

(١) أي: الفَزْعة والخوف.
(٢) أي: الإنس والجن.

ومن المُنجِيات عشرة: الندم علىٰ الذنوب، والصبر علىٰ البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر علىٰ النَّعْماء، واْعتدال الخوف والرياء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحُسْنُ الخُلُقِ مع الخَلْقِ، وحب الله تعالىٰ، والخشوع.

فهٰذه عشرون خصلة: عَشَرة مذمومة، وعَشَرة محمودة، فمتىٰ كُفِيَ من المذمومات واحدةً خَطَّ عليها في جَريدته، وتَرَكَ الفِكْرَ فيها، وشَكَرَ الله تعالىٰ علىٰ كفايته إياها. ولْيَعلَمْ أن ذٰلك لم يَتِمّ إلا بتوفيق الله وعَوْنِه، ثم يُقْبِل علىٰ التسعة الباقية، وهٰكذا يفعل حتىٰ يَخطّ علىٰ الجميع. وكذٰلك يُطَالب نفسه بالاتصاف بالصفات المُنجِيات، فإذا اْتّصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خَطَّ عليها واْشْتَغل بالباقي.

وهٰذا يحتاج إليه المريد المُشمِّر.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يُثْبِتوا في جرائدهم المعاصيَ الظاهرة، كأَكْلِ الشُّبُهات، وإطلاق اللسان بالغِيبة والنميمة، والمِراءِ[١]، والثناء علىٰ النفس، والإفراط في موالاة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمُداهنة[٢] في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يَعُدُّ نفسه من وجوه الصالحين لا يَنْفَكُّ عن جملة من هٰذه المعاصي في جوارحه، وما لم تَطْهُرِ الجوارح من الآثام، لا يُمْكِنُ الاشتغال بعِمارة القلب وتطهيره.

وكل فريق من الناس يَغْلِب عليهم نوع من هٰذه الأمور، فينبغي أن يكون تَفقُّدُهم لها وتَفكُّرُهم فيها.

مثاله العالِم الوَرِع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطَلَبِ الشُّهْرة، واْنتشار الصِّيْتِ[٣]، إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومَنْ فَعَلَ ذٰلك، فقد تصدّىٰ لِفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصِّدِّيقون. وربما ينتهي العلم

---

(١) هو: الجِدال.

(٢) هي: إظهار خلاف ما يُضمر.

(٣) هو: الذكر الحسن.

بأهل العلم إلىٰ أن يتغايروا[١] كما يتغاير النساء، وكل ذٰلك من رسوخ الصفات المُهلِكات في سِرِّ[٢] القلب التي يَظنّ العالِمُ النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومَنْ أَحس من نفسه هٰذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعُزْلة، وطَلَبُ الخمولِ والمُدافَعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوي، وكلّ منهم، يَوَدُّ لو أن أخاه كَفاه. وعند هٰذا ينبغي أن يَتَّقِيَ شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هٰذا سبب لاندراس[٣] العلم، فَلْيَقُلْ لهم: دين الإسلام مُسْتَغْنٍ عني، ولو مُتُّ لم يَنْهَدِم الإسلام، وأنا غير مُسْتَغْنٍ عن إصلاح قلبي. فَلْيَكُنْ فِكْرُ العالِم في التَّفَطُّن لِخفايا هٰذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يُصْلِح فَساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

فصل

[بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالىٰ]

قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «**تَفَكَّروا في آلاء الله ولا تَفَكَّروا في الله**»[٤] فالتفكُّر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذٰلك أن العقول تَتحيّر في ذٰلك. فإنه أعظم من أن تَمَثَّلَه[٥] العقول بالتفكُّر، أو تَتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ].

فأما التفكّر في مخلوقات الله تعالىٰ، فقد ورد القرآن بالحثّ علىٰ ذٰلك كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران] الآيات. وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) كذا أوردها المصنف تبعاً لـ «الإحياء» ويقصد بها الغَيرة، ولٰكنها في المعجمات بمعنىٰ: الاختلاف.

(٢) أي: في أصل القلب.

(٣) أي: ذهاب أثره وفقده.

(٤) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٤٧٤) حاشية (٦).

(٥) أي: تتصور شبيهاً له.

ومن آيات الله تعالىٰ الإنسانُ المخلوقُ من نُطفة، فَيَتفكّر الإنسان في نفسه، فإن في خَلْقه من العجائب الدالّة علىٰ عَظَمة الله تعالىٰ، ما تنقضي الأعمار في الوقوف علىٰ عُشْرِ عُشْره وهو غافلٌ عن ذٰلك. وقد أمره الله تعالىٰ بالتدبّر في نفسه، فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات]. وقد تقدم في (كتاب: الشكر) الكلامُ علىٰ بعض خَلْق الإنسان فَلْيُطْلَبْ هناك.

ومن آياته الجواهر المُودَعة في الجبال، والمَعادِنُ من الذهب والفضة والفَيْرُوزَجِ[١] ونحوها، وكذٰلك النِّفْط، والكبريت والقارُ[٢] وغيرها.

ومن آياته البحار العظيمة العميقة المُكْتَنِفة لأقطار الأرض، التي هي قِطَعٌ من البحر الأعظم، المحيط بجميع الأرض. ولو جُمِعَ المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لَكان بالإضافة إلىٰ الماء كجَزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائبُ؛ أضعافُ ما نُشاهِده في البر.

وٱنظر كيف خَلَق اللؤلؤ[٣]، ودَوَّره في صَدَفِهِ تحت الماء، وٱنظر كيف أَنْبَتَ المَرْجانَ[٤] في صُمِّ[٥] الصخور تحت الماء، وكذٰلك ما عداه من العَنْبر[٦] وأَصْناف ما يَقْذِفه البحر.

---

(١) هو الفيروز نفسه، وهو: حجر كريم غير شَفّاف، معروف بلونه الأزرق، كلون السماء أو أَمْيَل إلىٰ الخُضْرة، ويتبدل لونه إذا عرض على الشمس والهواء، وهو مما يُتحلّىٰ به.

(٢) هو: الزِّفت.

(٣) يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صُلبة لمّاعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرِّخْويّات.

(٤) جنس حيوانات بحرية ثوابت من طائفة المرجانيات لها هيكل وكِلْس أحمر، يُعَدّ من الأحجار الكريمة، ويكثر في البحر الأحمر. وعَدُّ المصنف لها من النبات هو علىٰ عَدِّ القدماءِ الحركةَ دليلاً علىٰ الحيوانية، بينما المُحْدَثون يرون غير ذلك.

(٥) أي: الصُّلْب المُصْمَت.

(٦) رَوْثُ حيوان ثَدْييّ بحري، وهي صُلْبة لا طعم لها ولا ريح، إلا إذا سُحِقتْ أو أُحْرِقت.

وٱنظر إلىٰ عجائب السُّفن كيف أمسكها الله تعالىٰ علىٰ وجه الماء، وسَيَّرها في البحار تَسُوقها الرياح.

وأعجب من ذٰلك الماءُ، فإنه حياة كل ما علىٰ الأرض من حيوان ونبات، فَلَوِ ٱحتاج العبد إلىٰ شَربةِ ماءٍ، ومُنِعَ منها لَبَذَلَ جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو مَلَكَ ذٰلك، ثم إذا شَرِبها ومُنِعَ خُروجها، لَبَذَلَ جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يَغْفُلِ العبدُ عن هٰذه النعمة.

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يُرىٰ بالعين، ثم ٱنظر إلىٰ شِدَّتهِ وقوَّته. وٱنظر إلىٰ عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبَرَدِ والشُّهُب والصواعق، وغير ذٰلك من العجائب. وٱنظر إلىٰ الطير تَسْبَحُ بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء. ثم ٱنظر إلىٰ السماء وعِظَمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حِكْمة في لونه وشكله وموضعه. وٱنظر إلىٰ إيلاج[1] الليل في النهار، والنهار في الليل. وٱنظر مَسِيرَ الشمس، كيف ٱخْتَلَف في الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مئة ونَيِّفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هٰذا كوكب واحد، فٱنظر إلىٰ كثرة الكواكب، وإلىٰ السماء التي فيها الكواكب، وإلىٰ إحاطة عينك بذٰلك مع صغرها، والعَجَبُ منك أَنك تَدْخُل بيتَ غَنِيٍّ، مُزَخرفٌ مُمَوَّهٌ بالذهب، فلا ينقطع تعجُّبك منه ولا تزال تَذْكُره، وأنت تنظر إلىٰ هٰذا البيت العظيم، وإلىٰ أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تتحدث فيه، ولا تلتفت بقلبك إليه، ولا تتفكر في بناء خالِقك، فلقد نَسِيْتَ نفسك وربك، وٱشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غَفْلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حَفَرَتْه في حائط قصر المَلِكِ، فَتَلْقىٰ أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بَنَتْه وما جمعت فيه، ولا تَذْكُر قَصْرَ الملك ولا من فيه. فهٰكذا أنت في غَفْلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك.

---

(١) أي: إدخاله.

فهٰذا بيان معاقد الجُمَل التي يجول فيها فِكْر المتفكِّرين، والأعمار تَقْصُر، والعلوم تَقِلُّ عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما ٱسْتَكثرتَ من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أَتَمّ. فتفكَّر فيما أشرنا إليه هٰهنا مع ما قدمناه من الإشارة في (كتاب: الشكر). فَمَنْ نظر في هٰذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصُنْعه، ٱستفاد المعرفة بجلال الله تعالىٰ وعَظَمته، ومَنْ قَصَرَ النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ٱرتباطها بِمُسبِّب الأسباب، شَقِيَ. نعوذ بالله من مَزِلَّة[1] أقدام الجُهَّال، ومن الرُّكون[2] إلىٰ أسباب الضلال. ولا وَجْهَ للتفكُّر فيما لا نراه من الملائكة والجن، فلذٰلك عَدَلْنا عنه إلىٰ ما نراه، والله أعلم.

[كتاب: ذكر الموت وما بعده]

باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

[في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره]

ٱعلم أن المُنْهَمِك في الدنيا المُكِبَّ[3] علىٰ غرورها، يَغْفُل قَلْبه لا مَحَالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كَرِهَه ونَفَرَ منه، ثم الناس إما مُنهَمِكٌ، أو تائب مبتدئ، أو عارف مُنْتَهٍ.

فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذَكَره فيذكره للتأسُّف علىٰ دنياه، ويشتغل بذَمِّه. وهٰذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالىٰ إلا بُعْداً.

وأما التائب، فإنه يُكْثِر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوفُ والخشية، فَيَفِيْ بتمام التوبة، وربما يَكْرَه الموت خِيْفة[4] أن يَخْتَطِفَهُ قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل بهٰذا تحت قوله صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) أي: موضع الزَّلَل.
(٢) أي: الميل إليها.
(٣) أي: المُقْبِل عليها المشغول بها.
(٤) أي: مَخافة.

«مَنْ كره لقاء الله كره الله لقاءه»[١] فإنه إنما يَخاف لقاء الله لِقُصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخَّر عن لقاء الحبيب مُشْتَغلاً بالاستعداد لِلقائه علىٰ وجهٍ يرضاه فلا يُعَدُّ كارِهاً للقائه، وعلامة هٰذا أن يكون دائمَ الاستعداد له، لا شُغْلَ له سواه، وإلا ٱلْتَحَقَ بالمنهمك في الدنيا.

وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعدُ لقاء الحبيب، وهو لا يَنسىٰ موعدَ لقاء حبيبه. وهٰذا في غالب الأمر يَستبطئ مجيء الموت، ويُحبُّه لِيَتخلّص من دار العاصِينَ، ويَنتقل إلىٰ جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: (حبيب جاء علىٰ فاقة)[٢].

فإذاً: التائب معذور في كراهة الموت، وهٰذا معذور في حبِّ الموت وتَمنِّيه، وأعلىٰ منهما مَنْ فَوَّض أمره إلىٰ الله تعالىٰ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل تكون [أحبُّ] الأشياء إليه أَحَبَّها إلىٰ مولاه، فهٰذا قَدِ ٱنتهىٰ بفَرْط الحبّ والولاء: إلىٰ مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمُنتهىٰ.

وعلىٰ كل حال، ففي ذكر الموت ثوابٌ وفَضْلٌ، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذِكْرِ الموت التَّجافِيَ عن الدنيا، لأن ذكره يُنَغِّص عليه نعيمه ويُكَدِّره.

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا ذِكْرَ هاذِمِ**[٣] **اللذّات: الموت»**[٤].

---

(١) متفق عليه من حديث جمع من الصحابة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٩٦٤) وحقه أن يكون متواتراً. وسيأتي شطر آخر منه في الصفحة (٤٨٨) حاشية (٣).

(٢) يضرب للشيء يأتيك على حاجة منك إليه وموافقة. انظر كتاب «مجمع الأمثال» ١/ (١٠٨٨).

(٣) هَذَم اللذّة، أي: قطعها بسرعة.

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٠٧)، والنسائي [«صحيحه» (١٧٢٠)]، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٠٧/١٨٧٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٢٥٨/٣٤٣٤)]. وهو في «صحيح الجامع» (١٢١١)، و«الإرواء» (٦٨٢).

وعن أنس ﷺ: أن رجلاً ذُكِرَ عند النبي ﷺ فأحْسَنوا عليه الثناء، فقال النبي ﷺ: **«كيف كان ذِكْرُ صاحبكم للموت؟»** قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يَذكر الموت. قال: **«فإن صاحِبَكم ليس هناك»**[١].

وعنِ ٱبن عمر ﷺ: أن النبيّ ﷺ سئل: أيّ المؤمنين أَكْيَسُ[٢]، قال: **«أكثرهم للموت ذِكراً، وأحسنهم لما بعده ٱستعداداً أولئك الأكْياس»**[٣].

وقال الحسن البصْريُّ: فَضَحَ الموتُ الدنيا، فلم يَترك لذي لُبٍّ[٤] فيها فَرَحاً، وما أَلْزَمَ عَبْدٌ قَلْبَه ذِكْرَ الموت إلا صَغُرَتِ الدنيا عليه، وهَانَ عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر ﷺ إذا ذَكر الموت والقيامة انْتَفَض انتفاضَ الطَّيْر، وكان يَجْمَع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت ثم يبكون، حتىٰ كأن بين أيديهم جنازة.

وكان حامدٌ القَيْصَريُّ يقول: كُلُّنا قد أيقنَ بالموت، وما نَرىٰ له مُسْتَعِدّاً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نَرىٰ لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نَرىٰ لها خائفاً، فَعَلامَ تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول وارِدٍ عليكم من أمر الله بخير، أو بشرٍّ، فيا إخْوَتاه! سِيروا إلىٰ ربكم سَيْراً جميلاً.

وقال شُميط بن عَجْلان: مَنْ جَعَلَ الموت نُصْبَ عينيه، لم يُبال بِضيْقِ الدنيا ولا بِسَعَتِها.

[بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت]

وٱعلم أن خَطَرَ الموت عظيم، وإنما غَفَلَ الناس عنه لِقِلّة فِكْرِهم وذِكْرِهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافِل، فلهٰذا لا يَنْجَعُ[٥] فيه ذِكْرُ الموت، والطريق في ذٰلك أن يُفرِّغ العبدُ قَلْبَه لذكر

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الموت» بسند ضعيف.

(٢) أي: أَعْقل.

(٣) أخرجه ابن ماجه [«صحيحه» (٣٤٣٥/٤٢٥٩)]. وهو في «الصحيحة» (١٣٨٤).
قوله: قال: أكثرهم للموت... إلىٰ آخره، لم يرد في المطبوعة الأولىٰ.

(٤) اللُّبّ: العقل. فـ (ذو اللب): العاقل.

(٥) أي: ينفع ويظهر أثره.

الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلىٰ مَفازَةٍ مُخْطِرة[١]، أو يركب البحر، فإنه لا يتَفكَّر إلا في ذٰلك. وأنفع طريقٍ في ذٰلك ذِكْرُ أشكاله وأقرانه الذين مَضَوا قبله. فَيَذْكر موتهم ومَصارِعهم تحت الثَّرىٰ[٢].

قال ابن مسعود ﷺ: السعيد مَنْ وُعِظَ بغيره[٣].

وقال أبو الدرداء ﷺ: إذا ذُكِر الموتىٰ، فَعُدّ نَفْسَك كأحدِهم.

وينبغي أن يُكثِّر دخولَ المَقابر، ومتىٰ سَكنتْ نفسه إلىٰ شيء في الدنيا، فَلْيَتفكَّر في الحال أنه لا بد من مفارقته، ويُقْصِرَ أَمَلَه.

[فضيلة قصر الأمل]

وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبيْ[٤] فقال:

«كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابرُ سبيلٍ»[٥]، وكان ابن عمر يقول: إذا أَمسيت فلا تَنتظر الصباحَ، وإذا أَصبحت، فلا تَنتظرِ المساءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لمرضك، ومن حياتك لموتك.

وفي حديث آخرَ: **«إن أَخوَفَ ما أخاف علىٰ أمتي: الهوىٰ وطولُ الأملِ، فأما الهوىٰ فيُضِلّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرةَ»**[٦].

وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«أَكُلُّكم يُحِبّ أن يَدخلَ**

---

(١) أي: إلىٰ الصحراء التي تجعله بين السلامة والتلف.

(٢) أي: التراب.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٤) هو: مُجتمَعُ رأس العضد والكتف.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، وأحمد (٤٧٦٥ و٦١٥٠)، والترمذي [«صحيحه» (١٩٠٢/ ٢٣٣٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٢٢/ ٤١١٤)]. وهو في «صحيح الجامع» (٤٥٧٩)، و«الصحيحة» (١١٥٧).

(٦) ضعيف جداً؛ أخرجه ابن عدي عن جابر. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٤٦)، و«الضعيفة» (٢١٧٧).

الجنة؟» قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال: **«قَصِّروا الأمل، وأَثْبتوا آجالَكم بين أبصاركم، وٱسْتَحْيوا من الله ﷻ حق حيائه»**[١].

وعن أبي زكريا التَّيْمِيِّ قال: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذْ أُتي بِحجر منقوش. فطلب من يقرؤه، فإذا فيه: ٱبن آدم! لو رأيت قُرْبَ ما بقي من أَجَلك لَزَهِدْتَ في طول أَملك، ولَرَغِبْتَ في الزيادة من عملك، ولَقَصَرْتَ من حِرْصك وحيلك، وإنما يلقاك نَدَمُك لو قد زَلّتْ بك قَدَمك، وأَسلمك أهلك وحَشَمك[٢]، فبان منك الولد والنسب، فلا أنت إلىٰ دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فٱعملْ ليوم القيامة، يوم الحَسْرة والندامة.

[بيان السبب في طول الأمل وعلاجه]

وٱعلم أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل:

أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذّاتها وعلائقها، ثَقُلَ علىٰ قلبه مُفارقتها، فٱمتنع قلبه من الفِكْر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيُمَنّي نفسه أبداً بما يوافق مُراده من البقاء في الدنيا، وما يَحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيَصير قلبه عاكفاً علىٰ هٰذا الفكر، فيَلهو عن ذكر الموت، ولا يُقدِّر قُرْبه. فإنْ خَطَرَ له الموتُ في بعض الأحوال والحاجةُ إلىٰ الاستعداد له، سَوَّف بذٰلك ووَعَد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلىٰ أن تَكْبر ثم تتوب. وإذا كَبِرَ قال: إلىٰ أن يصير شيخاً، وإن صار شيخاً قال: إلىٰ أن يَفْرُغَ من بناء هٰذه الدار، وعِمارة هٰذه الضَّيعة، أو يرجع من هٰذه السفرة. فلا يزال يُسَوِّف ويُؤخِّر ولا يَخرِص في إتمام شُغْل إلا ويَتعلق بإتمام ذٰلك الشغل عَشَرة أشغال، وهٰكذا علىٰ التدريج يؤخر يوماً بعد

---

(١) ضعيف؛ أخرجه ابن أبي الدنيا عن الحسن مرسلاً.

(٢) الحَشَم: خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه، ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة، والآن من حزبه.

يوم، ويَشتغل بشغل بعد شغل، إلىٰ أن تختطفه المَنيّة[١] في وقت لا يَحتَسبه[٢]، فتطول عند ذٰلك حَسْرته.

وأكثر صياح أهل النار من (سوف) يقولون: واحسرتاه! من (سوف). وأصل هٰذه الأماني كلها: حب الدنيا والأنس بها، والغَفْلة عن قول النبي ﷺ: **«أَحْبِبْ ما شئتَ فإنك مُفارِقه»**[٣].

السبب الثاني، الجهل: وهو أن الإنسان يُعَوِّل[٤] علىٰ شبابه، ويَستبعد قُرْبَ الموت مع الشباب، أَوَ ليس يَتفكَّر المسكين في أن مشايخ بلده لو عُدّوا كانوا أقل من العُشر؟ وإنما قَلُّوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلىٰ أن يموت شيخ قد يموت ألف صبيٍّ وشابٍّ، وقد يَغْتَرُّ بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، (وإنِ ٱسْتَبعد ذٰلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مَرِض لم يَكُنِ الموت بعيداً) ولو تفكَّر وعَلِمَ أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مُقَيَّد بِسنٍّ مخصوصٍ من شابٍّ وشيخ[٥] أو كَهْل أو غيره لَعَظُمَ ذٰلك عنده وٱستعدَّ للموت.

فصل

[بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره]

والناس مُتَفاوتون في طول الأمل تفاوتاً كثيراً، منهم من يأمل البقاءَ إلىٰ زمان الهَرَم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل، فـ:

روي عن أبي عثمان النَّهْديِّ أنه قال: بلغت ثلاثين ومئة سنة، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملي فإنه كما هو.

(١) أي: الموت.

(٢) أي: لا يظنه آتياً فيه.

(٣) هو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٨٣١).

(٤) أي: يعتمد ويَتّكل علىٰ شبابه.

(٥) الكَهْل: من جاوز الثلاثين إلىٰ نحو الخمسين، ثم يُسمىٰ شيخاً، ثم إذا بلغ أقصىٰ الكبر سُمّي هَرِماً على اختلاف بينهم. وينظر «منار السبيل» (٢/ ٤٢؛ بتحقيقي وطبع المكتب الإسلامي) من الطبعة الأولى. وهي في طبعتنا الجديدة له مع حاشيته «الأنوار على منار السبيل من إرواء الغليل» (٤٢٧).

وحكي في قِصَرِ الأمل أن ٱمرأةَ حبيبٍ أبي محمد قالت: كان يقول لي - يعني أبا محمد -: إنْ مِتُّ اليوم فأرسلي إلىٰ فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا، وٱصنعي كذا وكذا، فقيل لها: أُري رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كل يوم.

وعن إبراهيم بن سِبْط قال: قال لي أبو زُرْعة: لأَقولنَّ لك قولاً ما قُلْتُه لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فَحَدَّثَتْني نفسي أن أرجع إليه.

وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذٰلك.

وعن محمد بن أبي تَوْبة قال: أقام معروفٌ الصلاةَ ثم قال لي: تَقَدَّمْ، فقلت: إني إنْ صَلّيتُ بكم هٰذه الصلاة لم أُصَلِّ بكم غيرها، فقال معروف: أنت تُحدِّث نفسك أنك تصلي صلاة أخرىٰ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يَمنع خير العمل.

فهٰذه أحوال الزهاد في قِصَر الأمل، وكلما قَصُر الأمل، جادَ العمل، لأنه يُقدِّر أن يموت اليوم، فيَستعد ٱستعداد ميتٍ، فإذا أمسىٰ شكر الله تعالىٰ علىٰ السلامة، وقَدَّر أنه يموت تلك الليلة فيُبادِر إلىٰ العمل.

[بيان المبادرة إلىٰ العمل وحذر آفة التأخير]

وقد ورد الشرع بالحث علىٰ العمل والمُبادرة إليه، ففي «صحيح البخاري» عن ٱبن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مَغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يَعِظُه: «**ٱغتَنِمْ خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحتك قبل سَقَمِك، وغِناك قبل فَقْرك، وفراغك قبل شُغلك، وحياتك قبل موتك**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢)، وأحمد (٣٢٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (١٨٧٥/ ٢٣٠٤)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٦٢/ ٤١٧٠)]. وهو في «صحيح الجامع» (٦٧٧٨).

(٢) رواه الحاكم والبيهقي. وهو في «صحيح الجامع» (١٠٧٧). وانظر «اقتضاء العلمِ العملَ» للخطيب البغدادي تحقيق الألباني، طبع المكتب الإسلامي (١٧٠).

وقال عمر ﷺ: التُّؤَدة في كل شيءٍ خيرٌ إلا ما كان من أمر الآخرة.

وكان الحسن يقول: عَجَباً لقوم أُمروا بالزاد، ونُودي فيهم بالرحيل، وحُبس أولهم علىٰ آخرهم، وهم قعود يلعبون.

وقال سُحيم مولىٰ بني تَميم: جَلستُ إلىٰ عبدالله بن عبدالله، فأَوْجَزَ في صلاته، ثم أقبل عَليَّ وقال: أَرِحْني بحاجتك، فإني أُبادِرُ. فقلت: وما تُبادِرُ؟ قال: مَلَكَ الموتِ. وكان يُصلّي كلَّ يوم ألف ركعة.

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يُمْكِن:

فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويصلي. ثم يُغْفي إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، ثم يغفي إغفاء الطير، ثم يقوم يصلي، يفعل ذٰلك مِراراً.

وكان عُمير بن هانئ يُسبِّح كل يوم مئة ألف تسبيحة.

وقال أبو بكر بن عيّاش: خَتمت القرآن في هٰذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة[1].

فصل في ذكر شدة الموت
وما يُستحب من الأحوال عنده

اِعلم أنه لو لم يكن بين يَدَيِ العبد المسكين كَرْبٌ، ولا هَوْلٌ سوىٰ الموت، لَكان جديراً أن يَتنغَّص عليه عَيشُه، ويَتكدّر عليه سروره، وتَطول فيه فِكْرته. والعَجَبُ أن الإنسان لو كان في أعظم اللذّات، فٱنتظر أن يدخل عليه جنديّ يضربه خمس ضَرَبات، لَكَدّرت عليه عيشَه ولذّته، وهو في كل نَفَسٍ بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النَزْع، وهو غافِل عن ذِكر ذٰلك، وليس لهٰذا سببٌ إلا الجهل والغرور.

ٱعلم أن الموت أشدّ من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوّته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الكرب

---

(١) وهٰذا يعني أنه ٱستمر في ذٰلك ٥٠ سنة، إذا كانت تلاوة كل ختمة في أسبوع!! وقد سلف ذلك.

قد بالَغَ فيه، وغلب علىٰ قلبه وعلىٰ كل موضع منه، وضَعُفتْ كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويَوَدُّ لو قَدَرَ علىٰ الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، وتُجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً، فتَبرُد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فَخْذاه، حتىٰ تَبْلُغ الحلقوم، فعند ذٰلك ينقطع نَظَره إلىٰ الدنيا وأهلها، ويُغْلَق دونه باب التوبة، قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يُغَرْغِرْ»**[1].

وقد روي أن المَلَكين المُوكَّلَينِ بالعبد يَتراءَيان له عند الموت، فإن كان صالحاً أثْنَيا عليه، وقالا: جزاك الله خيراً، وإن كان صَحِبَهما بِشَرٍّ، قالا: لا جزاك الله خيراً.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ﷻ وَكَّل بعبده المؤمن مَلَكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: قد مات، أتأذن لنا أن نصعد إلىٰ السماء؟ قال: فيقول الله تعالىٰ: إن سمائي مملوءة من ملائكتي يُسبِّحوني. فيقولان: فتأذن لنا فنقيم في الأرض؟ فيقول الله تعالىٰ: إن أرضي مملوءة من خَلْقي، يُسبِّحوني. فيقولان: فأين نقيم؟ فيقول الله تعالىٰ: قُوما علىٰ قبر عبدي، فَسَبِّحاني وٱحمَداني وكَبِّراني وهَلِّلاني، وٱكْتُبا ذٰلك لعبدي إلىٰ يوم القيامة»**[2].

وفي «الصحيحين» من حديث عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه. وأما صاحب النار الذي خُتِم له بسوء فهو يُبشَّر بها وهو في تلك الأهوال»**[3].

وقد كان كثير السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكرنا ذٰلك في (كتاب: الخوف)، وهو لائق بهٰذا المكان، نسأل الله الكريم أن يرحمنا برحمته التي

(١) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٣١٤) حاشية (٢).
(٢) رواه ابن عدي. وفي سنده هيثم بن جماز، وهو منكر الحديث.
(٣) متفق عليه، سلف في الصفحة (٤٨١) حاشية (١).

﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأن يَلْطُف بنا وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم.

وأما ما يُستحب من الأحوال عند المُحْتَضَر، فأن يكون قلبه يُحسن الظن بالله تعالىٰ، ولسانه يَنطق بالشهادة، والسكون من علامات اللُّطْف، وهو أَمارة[١] علىٰ أنه قد رأىٰ الخير.

وقد روي أن روح المؤمن تخرج رَشْحاً[٢].

ويُستحَبّ تلقينه: لا إله إلا الله كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم: «**لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله**»[٣].

وينبغي للملقن أن يَرفُق به، ولا يُلِحّ عليه. وقد جاء في حديث آخر: «**احضروا موتاكم، ولَقِّنوهم لا إله إلا الله، وبَشِّروهم بالجنة، فإن الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذٰلك المصرع، وإن إبليس عدوّ الله أقرب ما يكون من العبد في ذٰلك الموطن**. . . »[٤] وذكر الحديث إلىٰ آخره.

وفي الحديث الصحيح: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»[٥].

وروي أن النبي ﷺ دخل علىٰ رجل وهو يموت فقال: «**كيف تَجِدُك؟**» قال:

---

(١) أي: علامة.

(٢) الرَّشح: العَرَق لأنه يخرج من البدن شيئاً فشيئاً، كما يَرْشَح الإناءُ المُتخلخِل الأجزاء. والحديث أخرجه الطبراني، وضعفه الهيثمي.

(٣) هو في مسلم (٩١٦)، وأحمد (١٠٩٧٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٦٧٤/٣١١٧)]، والترمذي [«صحيحه» (٧٨١/٩٧٦)]، والنسائي [«صحيحه» (١٧٢٢)]، عن أبي سعيد الخدري، ورواه مسلم (٩١٧)، وابن ماجه [«صحيحه» (١١٨٥ و١١٨٦/١٤٤٤ و١٤٤٥)] عن أبي هريرة. وهو في «الإرواء» (٦٨٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم عن واثلة. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٢٠٨)، و«الضعيفة» (٢٠٨٣).

(٥) أخرجه مسلم، وسلف تخريجه في الصفحة (٣٧١) حاشية (٢).

أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال: «**ما اَجتَمعا في قلبِ عبدٍ في مثل هٰذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمَّنه من الذي يَخاف**»[(١)].

والرجاء عند الموت أفضل، لأن الخوف سَوْطٌ يُساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغي أن يَتلطف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذ يُسَخِّط العبدَ علىٰ الله فيما يجري عليه، ويُخوِّفه فيما بين يديه. فَحُسْنُ الظن أقوىٰ سلاح يَدفع به العدوَّ.

وقال سليمان التَّيْميُّ لابنه عند الموت: يا بنيّ! حَدِّثني بالرُّخَص، لَعَلِّيْ أَلقىٰ الله تعالىٰ وأنا أُحْسِنُ الظن به.

---

(١) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (٧٨٥/ ٩٨٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٤٣٦/ ٤٢٦١)] عن أنس. وهو في «الصحيحة» (١٠٥١)، و«المشكاة» (١٦١٢)، و«أحكام الجنائز» (ص ٣) طبع المكتب الإسلامي.

باب ذكر وفاة رسول الله ﷺ
والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

ٱعلم أن ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] في كل أحواله، ومعلومٌ أنه ليس في المخلوقين أحدٌ أَحَبَّ إلىٰ الله تعالىٰ منه، ولم يُؤخِّره تعالىٰ حين ٱنقضىٰ أجله.

وقد لقي ﷺ من الموت شدة، فروىٰ البخاريُّ في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان بين يَدَيْ رسول الله ﷺ رَكْوةٌ[١] أو عُلبة[٢] فيها ماء، فجعل يُدْخِلُ يده في الماء، فيَمسح بها وجهه ويقول: **«لا إله إلا الله، إن للموت لسَكَراتٍ»**[٣].

وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث أنس رضي الله عنه قال: لمَّا ثَقُلَ النبي ﷺ، جَعَل يتغشّاه الكرْب فقالت فاطمة رضي الله عنها: وَاكَرْبَ أَبَتَاه! فقال لها: **«ليس علىٰ أبيك كَرْبٌ بعد اليوم»**[٤].

وروىٰ ٱبن مسعود قال: ٱجتمعنا في بيت أُمِّنا عائشة رضي الله عنها، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فدمعتْ عيناه، فنعىٰ إلينا نفسه وقال: **«مرحباً، حَيَّاكمُ الله**

---

(١) إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٢) قَدَح ضخم من خشب أو جلد الإبل، يُحلب فيه، وقد يكون له طوق من خشب، وأما الآن فقد أطلقوا العلبة على كل وعاء.

(٣) رواه البخاري (٦٥١٠؛ بلفظه هنا)، و(٤٤٤٩ وفيه وفاته ﷺ مستنداً إلىٰ صدر عائشة الذي سيأتي في الصفحة (٤٩٣) حاشية (٢).

(٤) رواه البخاري (٤٤٦٢)، وأحمد (١٣٠١٣)، والدارمي ١/ ٤٠ عن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٥٣٩٧)، و«المشكاة» (٥٩٦١) وله تتمة تأتي في الصفحة (٤٩٣) حاشية (٥).

بالسلام، حفظكم الله، رعاكم الله، جَمَعَكُمُ الله، نصركم الله، وَفَّقكم الله، نفعكم الله، رفعكم الله، سَلَّمكم الله، أُوصيكم بتقوىٰ الله، وأُوصي الله بكم، وأَستخلفه عليكم». قلنا: يا رسول الله! متىٰ أَجَلُك؟ قال: «**قد دنا الأجل، والمُنْقَلَبُ**[1] **إلىٰ الله، وإلىٰ سدرة المنتهىٰ**[2] **وجنة المأوىٰ، والفِرْدَوْسِ الأعلىٰ**». قلنا: يا رسول الله! ففيم نُكَفِّنُكَ؟ قال: «**في ثيابي هٰذه إن شئتم، أو في حُلّة**[3] **يمانِيّةٍ**[4]**، أو بياض**». فقلنا: يا رسول الله! من يصلي عليك؟ وبَكَينا. فقال:

«**مهلاً، رحمكم الله، وجزاكم عن نبيكم خيراً. إذا غسلتموني وكفنتموني، فضعوني علىٰ سريري هٰذا علىٰ شفير**[5] **قبري، ثم أخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي عَلَيَّ خليلي وحبيبي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم مَلَكُ الموت ثم ملائكة كثيرة، ثم ادخلوا عَلَيَّ فَوجاً فَوجاً، فـ ﴿صَلُّوا﴾ علي ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ولا تؤذوني بتزكية، ولا بِرَنّةٍ، ولْيبدأ بالصلاة عَلَيَّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بَعْدُ، وأقرؤوا السلام علىٰ من غاب عني من أصحابي، وعلىٰ من تابعني علىٰ ديني إلىٰ يوم القيامة، ألا وإني أُشهدكم أني قد سلَّمتُ علىٰ كل من دخل في الإسلام**»[6].

ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام (**فقال: يا أحمد! إن الله**

---

(١) أي: المَرْجِع.

(٢) السِّدْرَ: شجر النَّبِق. وسدرة المُنتهىٰ: شجرة في أقصىٰ الجنة، إليها ينتهي علم الأولين والآخرين ولا يَتعدّاها.

(٣) هي ثياب مخططة وهي لا تكون إلا من ثوبين: إزارٍ يَستر الجزء الأسفل، ورداءٍ يستر الجزء الأعلىٰ. وقد قيّدها الخَطّابيّ بأنها لا تكون حُلّة إلا وهي جديدة تُحَلّ من طَيِّها فتُلْبَس. وأما أبو عُبيد فقد قيدها بأنها اليمنية فقط كما هنا.

(٤) أي: يمنية صُنعت في بلاد اليمن.

(٥) أي: حرفه وجانبه وناحيته.

(٦) رواه ابن سعد ٢/٢٥٦، والطبراني في «الدعاء». وهو ضعيف جداً.

أرسلني إليك يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف تَجِدُكَ؟ فقال: «**أَجِدُني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً**» ثم أتاه في اليوم الثاني فأعاد الكلام، وأعاد عليه الجواب، ثم جاءه في اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الجواب. فإذا مَلَكُ الموت يِستأذن. فقال جبريل: **يا أحمد! هٰذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن علىٰ آدميّ قبْلك، ولا يستأذن علىٰ آدميّ بعدك.** فقال: «**ائذن له**». فدخل، فوقف بين يديه وقال: **إن الله أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك، فإن أمرتني أن أقبض نَفسك قَبضتُها، وإن أَمرْتَني أن أَترُكَها تَركْتُها.** قال رسول الله ﷺ: «**وتفعل يا ملك الموت؟**» قال: **كذٰلك أُمرتُ أن أطيعك.** فقال جبريل: **يا أحمد! إن الله قَدِ آشتاق إليك.** فقال: «**فآمضِ لما أُمِرْتَ به يا مَلَك الموت**». فقال جبريل عليه السلام: **السلام عليك يا رسول الله، هٰذا آخر مَوْطِني في الأرض إنما كنتَ حاجتي من الدنيا**[1].

فتوفي رسول الله ﷺ مُستنداً إلىٰ صدر عائشة رضي الله عنها[2] في كساء مُلَبَّد، وإزار غليظ[3].

وقامت فاطمة رضي الله عنها تَندُب[4] وتقول: يا أَبَتَاه! أجاب رَبّاً دَعَاه، يا أبَتَاه، [مَنْ] جنةُ الفِرْدوس مأواه، يا أَبتاه! إلىٰ جبريل نَنْعاه، يا أَبتاه! مِنْ ربه ما أدناه[5]. فلما دفن قالت: يا أنس أَطَابَتْ أنفسكم أن تَحْثُوا الترابَ علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟!

---

(١) أخرجه الطبراني عن الحسين بن علي، وفيه عبد الله بن ميمون القداح، وهو ذاهب الحديث.
(٢) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٤٩١) حاشية (٣).
(٣) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٤٠٦) حاشية (٣).
(٤) نَدَب الميت، أي: عَدّد محاسِنه.
(٥) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٤٩١) حاشية (٤).

وقال أبو بكر الصديق ﷺ:

لما رأيتُ نبيَّنا متجدلاً ضاقتْ عَلَيَّ بعَرْضهنَّ الدُّورُ
وٱرْتَعْتُ روعةَ مُستَهامٍ والِهٍ والعَظْمُ مني واهِنٌ مكسورُ
أعَتيقُ ويحَكَ إنّ حِبَّكَ قد ثَوَىٰ وبَقِيْتَ مُنفرِداً وأنتَ حَسيرُ
يا ليتني مِنْ قَبْلِ مَهْلَكِ صاحبي غُيِّبْتُ في جَدَثٍ عَلَيَّ صُخورُ

وفاة أبي بكر الصديق ﷺ

روىٰ أبو المَليح أن أبا بكر ﷺ لما حضرتْه الوفاة أرسل إلىٰ عمر ﷺ فقال: إني أوصيك بوصية، إن أنت قَبِلْتَ عني: إن لله ﷻ حَقّاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حَقّاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتىٰ تؤدىٰ الفريضة. وإنما ثَقُلَتْ موازين ﴿مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٦﴾ [القارعة] في الآخرة بٱتباعهمُ الحقَّ في الدنيا، وثِقَلِ ذٰلك عليهم. وحُقَّ لميزان يُوضَع فيه الحقُّ أن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨﴾ [القارعة. الأعراف: ٩. المؤمنون: ١٠٣] في الآخرة بٱتباعهم البَاطلَ، وخِفَّتِه عليهم في الدنيا. وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم ترَ أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغباً راهباً لا يُلقي بيديه إلىٰ التهلكة، ولا يَتمنىٰ علىٰ الله غير الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه، فلا يكونن غائب أحبَ إليك من الموت ـ ولا بد لك منه ـ وإن أنت ضيعت وصيتي هٰذه، فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ـ ولا بد لك منه ـ ولَسْتَ تُعجِزه.

وقيل: لما ٱحتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهٰذا البيت:

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثَّراءُ عنِ الفتىٰ إذا حَشرجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ[1]

---

(١) الحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردد النفس.

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذٰلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق] انظروا ثوبيَّ هٰذين، فٱغسلوهما وكفِّنوني فيهما، فإن الحيَّ أَحْوَجُ إلىٰ الجديد من الميت.

وفاة عمر بن الخطاب ﷺ

وعن ابن عمر قال: كان رأس عمر في حِجْري بعدما طُعن، وكان مرضه الذي توفي فيه، فقال: ضع خَدِّي علىٰ الأرض، فقلت: وما عليك إن كان في حَجْري أم علىٰ الأرض؟ وظننت أن ذٰلك تَبَرُّمٌ به، فلم أفعل. فقال: ضع خدي علىٰ الأرض لا أُمَّ لك، وَيْلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي.

وروي أنه لما طُعن وحُمل إلىٰ بيته، وجاء الناس يُثْنون عليه، جاء رجل شاب فقال: أَبْشِرْ يا أمير المؤمنين ببُشرىٰ من الله، [قد كان] لك صحبة من رسول الله ﷺ، وقَدَمٌ في الإسلام ما قد علمتُ، ثم وُلِّيتَ فعدلتَ، ثم شهادة. فقال: وددت أن ذٰلك كان كفافاً، لا لي ولا عَلَيَّ، ثم قال: يا عبد الله بن عمر! ٱنطلق إلىٰ عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل: يستأذن عمر ابن الخطاب أن يُدفن عند صاحبيه. فمضىٰ وسَلَّم وٱستأذن عليها. ثم دخل فوجدها قاعِدةً تبكي، فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يُدفن عند صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأُوْثِرَنَّهُ اليوم علىٰ نفسي. فلما أقبل، قيل: هٰذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ٱرفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ. قال: الحمد لله، ما كان شيء أحب إليَّ من ذٰلك، فإذا أنا مِتُّ، فٱحْمِلوني ثم سَلِّمْ وقل: يستأذن عمر بن الخطاب. فإن أَذنتْ، فأَدْخِلوني، وإن رَدَّتْني فرُدُّوني إلىٰ مقابر المسلمين.

وفي أفراد مسلم من حديث المِسْوَر بن مَخْرَمة، أن عمر قال:

والله لو أن لي طِلاعَ[١] الأرض ذَهَباً، لافتديتُ به من عذاب الله قبل أن أراه.

وفي خبر آخر: والله لو أن لي ما طَلعتْ عليه الشمس أو غربت، لافتديتُ له من هول المَطْلَعِ.

وفاة عثمان بن عفان ﷺ

عن نائلة بنت الفَرافِصة امرأة عثمان ﷺ، قالت: لما كان اليوم الذي قُتل فيه عثمان، ظل في اليوم الذي قبله صائماً. فلما كان عند إفطاره سألهم الماءَ العَذْبَ فلم يُعْطُوه، فنام ولم يفطر، فلما كان وقت السَّحَرِ أتيتُ جاراتٍ لي على أجاجِيرَ مُتَّصِلةٍ[٢] فَسَأَلْتُهم الماءَ العذبَ، فأَعْطَوْني كُوزاً[٣] من ماء، فأتيته فحَرّكْتُه فاستيقظ، فقلت: هٰذا ماءٌ عَذْبٌ. فرفع رأسه فنظر إلىٰ الفجر، فقال: إني قد أصبحت صائماً، وإن رسول الله ﷺ اطَّلَع عليَّ من هٰذا السقف ومعه ماءٌ عذبٌ. فقال: «**اشرب يا عثمان**»! فشربتُ حتىٰ رَوِيتُ، ثم قال: «**ازدَدْ**»، فشربتُ حتىٰ نَهلْتُ، ثم قال: «**إن القوم سيُنكرون عليك، فإن قاتلتَهم ظَفِرْتَ، وإن تركتَهم أفطرتَ عندنا**». قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه.

وعن العلاء بن الفضيل عن أبيه قال: لما قتل عثمان بن عفان ﷺ فتشوا خزانتَه، فوجدوا فيها صندوقاً مُقفلاً ففتحوه، فوجدوا فيه حُقَّةً[٤] فيها ورقة

---

(١) في المطبوع: «قلاع» وهو خطأ، وطلاع الشيء: ملؤه. قال أوس بن حجر يصف قوساً:

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ... ولا عجسها عن موضع الكف أفضلا

(٢) أي: سطوح متصلة.

(٣) هو: إناء صغير بعُروة يُشرب به الماء.

(٤) هي: وعاء صغير ذو غطاء من عاج، أو زجاج، أو فخار أو غيرها.

مكتوب فيها: هٰذه وصية عثمان، ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ عثمان بن عفان يَشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حَقٌّ، وأن النار حق، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج] ﴿لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران] عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالىٰ.

وفاة عليٍّ بن أبي طالب ﷺ

عن الشَّعْبيِّ، قال: لما ضُرب عليٌّ ﷺ تلك الضربة، قال: ما فُعل بضاربي؟ قالوا: أَخَذْناه. قال: أَطعموه من طعامي، وٱسقوه من شرابي، فإن أنا عِشْتُ رأَيْتُ فيه رأيي، وإن أنا مُتُّ فٱضرِبوه ضَربةً واحدة لا تَزيدوه عليها.

ثم أوصىٰ الحسنَ أن يغسله، وقال: لا تُغَالِ في الكَفَنِ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُغالوا في الكفن، فإنه يُسْلَبُ سلباً سريعاً**»(١)، اِمشُوا بي المَشْيَتَيْنِ لا تُسرعوا بي، ولا تُبطئوا، فإن كان خيراً عَجَّلْتُموني إليه، وإن كان شراً أَلْقَيْتُموني عن أكتافكم.

وروي أنه لما كانتِ الليلة التي أُصيبَ فيها عليٌّ ﷺ أَتاه ٱبن التَّيَّاح حين طلع الفجر يُؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل. فعاد الثانية وهو كذٰلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

شد حَيَازِيمَكَ للموت ... فإنّ الموتَ لاقِيكَ

ولا تَجْزَعْ من الموت ... وإنْ حَلَّ بِنادِيكَ

فلما بلغ الباب الصغير، شَدَّ عليه عبد الرحمٰن بن مُلْجِمٍ فضربه.

---

(١) أخرجه أبو داود [«ضعيفه» (٦٨٩/ ٣١٥٤)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٧)، و«المشكاة» (١٦٣٩).

ذكر كلمات نُقلت عن جماعة
عند موتهم من الصحابة وغيرهم
وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال: أَخرِجوا فراشي إلىٰ صَحْنِ الدار. فأُخْرِج فقال: اللّٰهم إني أَحْتَسِبُ نفسي عندك، فإني لم أُصَبْ بمثلها.

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتي فقيل: لم تُصْبِحْ. حتىٰ أتي في بعض ذٰلك، فقيل له: قد أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلةٍ صَباحُها إلىٰ النار. ثم قال: مرحباً بالموت؛ زائرٌ مُغَيَّبٌ، و(حَبيبٌ جاء علىٰ فاقةٍ)، اللّٰهم إني كنت أَخافك وأنا اليوم أَرْجُوك، اللّٰهم إنك تعلم أني لم أكن أُحِبُّ الدنيا وطُولَ البقاء فيها لِكَرْيِ الأنهار[١] ولا لغَرْسِ الأشجار، ولٰكن لطول ظمإ الهواجر[٢]، وقيام ليل الشتاء، ومُكابَدة الساعات، ومُزاحمة العلماء بالرُّكَبِ عند حلق الذكر.

وقال أبو مسلم: جئتُ أبا الدرداء وهو يَجُود بنَفْسه ويقول: ألا رجلٌ لمثل مَصْرَعي هٰذا؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هٰذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هٰذه؟ ثم قبض رحمه الله.

وبكىٰ سلمان الفارسي عند موته. فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب[٣]، و حولي هٰذه الأَزواد.

---

(١) كريت النهر: حفرته. وتستعمل الآن ـ كما في الكتاب ـ ل: تنظيف الأنهر.

(٢) جمع الهاجرة، وهي: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٧٠٦). وهو في «صحيح ابن ماجه» (٣٣١٢/ ٤١٠٤).

وقيل: إنما كان حوله إجّانة[١] وجَفْنة[٢] ومِطْهَرَة[٣].

وروىٰ المُزَنيُّ قال: دخلتُ علىٰ الشافعيِّ في مرضه الذي مات فيه. فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحِلاً، وللإخوان مُفارِقاً، ولسوء عملي مُلاقِياً، ولكأس المَنِيَّةِ شارِباً، وعلىٰ الله وارِداً، ولا أدري أَروحي تَصير إلىٰ الجنة فأُهَنِّئَها، أم إلىٰ النار فأُعَزِّيَها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقتْ مَذاهِبي جَعلتُ الرجا مني بعفوك سُلَّما
تَعاظمني ذَنْبي فلما قَرَنْتُه بِعَفْوِكَ ربّي كان عَفْوُك أَعْظَما
وما زِلْتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تَزَلْ تَجُودُ وتعفو مِنّةً وتَكَرُّما

[بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور]

قيل: كان أبو الدرداء ﷺ يقعد إلىٰ القبور. فقيل له في ذٰلك. فقال: أَجلسُ إلىٰ قوم يُذَكِّروني معادي، وإن غِبْتُ لم يغتابوني.

وقال مَيمون بن مِهْران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلىٰ المقبرة، فلما نظر إلىٰ القبور بكىٰ. ثم أقبل عَلَيَّ فقال: يا ميمون هٰذه قبور آباء بني أُميَّة، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذّاتهم وعيشهم، أما تراهم صَرْعىٰ قد حَلَّتْ بهم المَثُلاتُ[٤]، واَسْتَحكم فيهم البلاءُ، وأصاب الهوامُّ مَقيلاً[٥] في أبدانهم؟ ثم بكىٰ وقال: والله ما أَعلمُ أحداً أُنعِمَ ـ ممن صار إلىٰ هٰذه القبور ـ وقد أَمِنَ من عذاب الله تعالىٰ.

---

(١) هي: إناء تُغسل فيه الثياب.
(٢) أي: قَصْعة الطعام.
(٣) أي: إناء الطهارة.
(٤) المَثُلة: العقوبة والتنكيل.
(٥) يقصد أنه صار مكاناً لهم. والأصل فيه: الموضع الذي يُستراح فيه في نصف النهار.

وتُستحَبُّ زيارة القبور، فإن النبي ﷺ قال:

[بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به]

«زوروا القبور فإنها تُذَكِّرُكُمُ الآخرة»[١]. ومن زار قبراً فَلْيَسْتَقْبِلْ وَجْهَ الميت، وليقرأ شيئاً من القرآن ويُهديه له[٢] ولْتَكُنِ الزيارةُ يوم الجمعة.

وقد روي أنه لما مات عاصِمٌ الجَحْدَرِيُّ رآه رجل من أهله في المنام بعد موته بِسَنتينِ فقال له: ألست قد مُتَّ؟ قال: بلىٰ. قال: وأين أنت؟ قال عاصم: أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونَفَرٌ من أصحابي نجتمع كل ليلةِ جمعةٍ وصَبيحَتِها إلىٰ أبي بكر بن عبدالله المُزَنيِّ نتلاقىٰ أخبارَكم. قال: قلت له: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! بَلِيَتِ الأجسامُ، وإنما تَتلاقىٰ الأرواح. قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إيَّاكم؟ قال: نعلم بها عَشِيّة الجمعة، ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلىٰ طلوع الشمس. قلت: وكيف ذٰلك دون الأيام كلها؟ قال: لشرف يوم الجمعة وعِظَمِه.

وحكىٰ عثمان بن سَوَادٍ الطُّفَاوِيُّ وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما ٱحتُضرتْ رَفعتْ رأسها إلىٰ السماء وقالت:

يا ذُخري ويا ذَخيرتي ومن عليه ٱعتمادي في حياتي وبعد مماتي، لا تَخْذُلني عند الموت، ولا تُوحِشْني في قبري. قال: فماتت، فكُنتُ آتيْها كل جمعة وأدعو لها. وأَستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها: يا

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦)، وأحمد (٩٦٦٨)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٧٧١/ ٣٢٣٤)]، والنسائي [«صحيحه» (١٩٢٣)] عن أبي هريرة. ورواه أبو داود [«صحيحه» (٢٧٧٢/ ٣٢٣٥)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١٢٧٥/١٥٦٩)] عن بريدة. وهو في «الإرواء» (٧٧٢).

(٢) في قراءة القرآن عند القبور خلاف مشهور، وكذٰلك في إهداء الثواب، وإنما الثابت هو الدعاء لهم، والمنامات والأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في هٰذه الأمور الأربعة لا تُثبَت فيها عقيدة، ولا يُبنىٰ عليها حُكْمٌ.

أماه! كيف أنت؟ قالت: يا بُنيّ! إن الموت لَكَرْبٌ شديد، وأنا بحمد الله في بَرْزَخٍ[1] محمود، يُفْتَرَشُ فيه الريحان، ويُتَوسَّدُ فيه السُّنْدُسُ[2] والإِسْتَبْرَقُ[3] إلىٰ يوم النشور. فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم، لا تَدَعْ ما كنت تصنع من زيارتنا، فإني لأُسرُّ بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلتَ من أهلك، فيقال لي: يا راهبة! هٰذا ٱبنكِ قد أقبل، فأُسَرُّ ويُسَرُّ بذٰلك مَنْ حولي من الأموات.

وعن أنس بن منصور قال: كان رجل يختلف إلىٰ الجنائز فيشهد الصلاة عليها. فإذا أمسىٰ وقف علىٰ باب المقابر فقال:

(آنَسَ الله وَحْشَتَكم، ورَحِم غُرْبَتَكم، وتَجاوَزَ عن سيئاتكم، وقَبِلَ حسناتِكم) لا يزيد علىٰ هٰؤلاء الكلمات. قال ذٰلك الرجل: فأمسيت ذات ليلة، ولم آتِ المقابر فأَدْعُوَ كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا أنا بِخَلْقٍ كثير قد جاؤوني فقلت: من أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، إنك كنت عَوَّدْتَنا منك هدية. فقلت: وما هي؟ قالوا: الدَّعَواتُ التي كنت تدعو بها. قلت: فإني أَعود لذٰلك. فما تَركْتُها بَعْدُ.

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعةَ في منامي، وكنتُ كثير الدعاء لها، فقالت لي: يا بشار! هَداياك تأتينا علىٰ أطباق من نور، مُخَمَّرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذٰلك؟ قالت: هٰكذا دعاء الأحياء إذا دَعْوا للموتىٰ وٱستُجيب لهم، جُعل ذٰلك الدعاء علىٰ أطباق النور، وخُمِّر بمناديل الحرير، ثم أُتي به إلىٰ الذي دُعي له من الموتىٰ، فقيل له: هٰذه هدية فلانٍ إليك.

---

(١) هو الحاجز بين شيئين وكذا ما بين الموت والبعث.
(٢) نوع من الحرير الخالص.
(٣) الحرير الخالص الغليظ.

فصل

[بيان حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلىٰ نفخة الصور]

والذي تَدُلُّ عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت، هو مُفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذٰلك باقية، إما مُعَذَّبةً أو مُنعَّمة، فإن الروح قد تتألَّم بنفسها بأنواع الحُزْن والغَمِّ، وتَتنعَّم بأنواع الفرح والسرور من غير تَعلُّقٍ لها بالأعضاء، فكل ما هو وَصْفٌ للروح بنفسها، يبقىٰ معها بعد مفارقة الجسد، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يَتعطَّل بموت الجسد إلىٰ أن تعاد الروح إلىٰ الجسد. ولا يَبْعُدُ أن تُعاد الروح إلىٰ الجسد في القبر. ولا يَبْعُدُ أن تُؤخَّر إلىٰ يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حَكم به علىٰ كل عَبْدٍ من عباده.

فمعنىٰ الموتِ ٱنقطاع تَصرُّفِ الروح عن البدن، وخروجُ البَدَنِ عن أن يكون آلة لها، وسَلْبُ الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلىٰ عالَم آخرَ لا يُناسب هٰذا العالَم، فإن كان له بالدنيا شيءٌ يَفرح به، ويستريح إليه، عَظُمتْ حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يَفرح إلا بذكر الله تعالىٰ والأنس به، عظم نعيمُه وتَمّتْ سعادته إذا خُلِّيَ بينه وبين محبوبه، وقُطِّعتْ عنه العوائق والشواغل، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالىٰ.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم، والناس نيام وإذا ماتوا انتبهوا. وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته. وقد كان ذاك مسطوراً في كتاب مَطْوِيٍّ في سِرِّ قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما ٱنقَطعتِ ٱنكَشفتْ له جميع أعماله، فلا ينظر إلىٰ سيئة إلا ويتَحسَّر عليها تَحسُّراً يُؤْثِرُ أن يَخوض غَمْرةَ نارٍ للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذٰلك يَنكشف له عند الموت. وهٰذه آلام تَهْجُمُ علىٰ العاصي قبل الدفن، نسأل الله العافية.

ومما يدل علىٰ أن الروح لا تنعدم بالموت. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]. قال مسروق: سألنا عبدالله بن مسعود ﷺ فقال: أرواحهم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قناديل[1] مُعَلَّقةٌ بالعرش، تَسْرَح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل. . .، وذكر تمام الحديث.

وجاء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر] أَخبر أَنهم يُعذَّبون بعد الموت.

وفي «الصحيحين» عن ٱبن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات، عُرِض عليه مَقْعده بالغداة والعَشِيِّ، إن كان مِنْ أهل الجنة فمِنْ أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيقال: هٰذا مَقْعَدُكَ حتىٰ يَبعثك الله إليه يوم القيامة**»[2].

وقد تقدم أن الإنسان إذا ٱنكَشفت له سيئاته تَحَسَّر لها وتألَّم تألُّماً عظيماً، فأما المؤمن، فقال عبدالله بن عمر: مثل المؤمن حين تخرج نَفْسُه مثل رجل كان في سِجْنٍ فأُخرج منه، فهو يَتفسَّح في الأرض، ويَتقلَّب فيها. وهو صحيح، فإن المؤمن ينكشف عليه عُقَيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس في بيتٍ مُظْلِمٍ فُتح له باب إلىٰ بستان واسعِ الأكناف، فيه أنواع الأشجار، فلا يَسُرُّه الرجوع إلىٰ الدنيا كما لا يسره الرجوع إلىٰ بطن أمه.

وقال مجاهد: إن المؤمن لَيُبَشَّر بصلاح وَلَده من بعده لِتَقَرَّ بذٰلك عينه.

---

(١) القِنْديل: مصباح كالكوب في وسطه فتيل يملأ بالزيت ويُشْعَل.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦)، والترمذي [«صحيحه» (٨٥٧/ ١٠٧٢)]، والنسائي [«صحيحه» (١٩٥٧-١٩٥٩)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٤٤٥/ ٤٢٧٠)].

فصل في ذكر القبر

روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«القبر روضة من رياض الجنة. أو حفرة من حفر النار»(١). وروي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: **«يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم؟! ما غرَّك؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدُّود؟»**(٢).

وروى التِّرمِذيُّ عن أبي سعيد ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ مُصلاه، فرأىٰ ناساً كأنهم يَكْتَشِرون(٣). فقال: **«أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللَّذّات لَشَغلكم عما أرىٰ، فأكثروا ذكر هاذم اللَّذات الموت. فإنه لم يَأتِ علىٰ القبر يوم إلا يَتكلم فيقول: أنا بيت الغُربة، أنا بيت الوحْدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدُّود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً! أما إن كنت لأَحَبَّ من يمشي علىٰ ظهري إليَّ، فإذ وُلِّيتُكَ اليومَ، وصِرتَ إليَّ، فسترى صنيعي بك»**. قال: **«فيَتَّسع له مَدَّ بَصَره، ويُفتَح له باب إلىٰ الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً! أما إن كنت لأَبْغَض من يمشي علىٰ ظهري إليَّ، فإذْ وَلِّيتُكَ اليوم، وصرت إليَّ، فسترىٰ صنيعي بك»**. قال: **«فيَلْتئم عليه حتىٰ تَختَلِفَ أضلاعه»** وقال رسول الله ﷺ بأصابعه، فأدخل بعضها في بعض قال: **«ويُقَيَّضُ له سبعون تِنِّيناً، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بَقِيَتِ الدنيا، فيَنْهَشْنَهُ ويَخدِشْنَهُ، حتىٰ يُفْضِيَ به إلىٰ الحساب»**. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه بعد تخريج الحديث اللاحق.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القبور» وغيره من حديث أبي الحجاج الثُّمالي بإسناد ضعيف.

(٣) أي: يكشفون عن أسنانهم، وهو هنا دليل علىٰ الضحك.

(٤) أخرجه الترمذي [«ضعيف سننه» (٤٣٧/ ٢٤٦٠)]. وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (١٢٣١).

وقال كعب: إذا وُضع الرجل الصالح في قبره، ٱحْتَوَشَتْهُ أعماله الصالحة: الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. قال: وتجيء ملائكة العذاب مِنْ قِبَلِ رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله ﷻ، قال: فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي الصيام. قال: فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أَنْصَبَ نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله ﷻ، لا سبيل لكم عليه. فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتىٰ وضعت في يد الله ٱبتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئاً طِبْتَ حَيّاً، وطبت ميتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فَتُفرشه فراشاً من الجنة ودِثاراً من الجنة، فيفسح له في قُوّةِ مَدِّ بصره، ويُؤتىٰ بِقْنديل من الجنة يستضيء بنوره إلىٰ يوم يبعثه الله من قبره.

وعن أنس بن مالك أن نبيّ الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وُضع في قبره وتَولّىٰ عنه أصحابه حتىٰ إنه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نعالهم، أتاه ملكان فيُقْعِدانه، فيقولان له: ما كنتَ تقول في هٰذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله. فيقولان: انظر إلىٰ مَقْعَدِكَ من النار، قد أَبْدَلَكَ الله ﷻ به مقعداً في الجنة**. قال رسول الله ﷺ: **فَيَراهما جميعاً. وأما الفاجر أوِ المُنافِق فيقال له: ما كنت تقول في هٰذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أقول ما يقول الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ ولا تَلَيْتَ**[١]**، ثم يُضْرَبُ بمَطارِقَ من حديد ضَرْبَةً بين أُذُنَيْهِ، فَيَصيحُ صيحةً يسمعها من يليه غير الثَّقَلَيْنِ**»[٢]

أخرجاه في «الصحيحين».

---

(١) لعل أقرب الأقوال أن أصلها: (ولا ٱئْتَلَيْتَ) من قولهم: ما أَلَوْتَ، أي: ما ٱستطعت.

(٢) هو عند البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وهو في «صحيح أبي داود» (٢٧٦٨/ ٣٢٣١ و٣٩٧٧/ ٤٧٥١)، و«صحيح النسائي» (١٩٣٨). وهو في «الصحيحة» (١٣٤٤).

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«أُوْحِيَ إليّ أنكم تُفْتَنون في قبوركم مثل»** ـ أو قال: **«قريباً من ـ فتنة المسيح الدجال، يُقال: ما عِلْمُكَ بهٰذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عَبْدُ الله ورسوله. . .»**[1]، وذكر باقي الحديث.

وعن ٱبن عباس قال: لما أُخرجتْ جِنازة سعد بن معاذ وسَوَّيْنا عليها، ٱلْتَفَتَ إلينا رسول الله ﷺ فقال: **«ما من أحدٍ من الناس إلا وله ضَغْطة في قبره، ولو كان مُنفَلِتاً منها أحد لانفَلَتَ سعد بن معاذ. . .»**[2]، وذكر باقي الحديث.

وعن عبد الله الصَّنْعانيِّ قال: رأيت يَزِيْدَ بن هارون في المنام بعد موته بأربع لَيالٍ، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: تَقَبَّلَ مني الحسنات، وتَجاوَزَ عني السيئات. قلت: وما كان بعد ذٰلك؟ قال: وهل يكون من الكريم إلا الكَرَم، غَفر لي ذنوبي وأَدْخَلني الجنة. قلت: بما نِلْتَ الذي نِلْتَ؟ قال: بمجالس الذكر، وقَوْلي الحَقَّ، وصِدْقي في الحديث، وطُول قيامي في الصلاة، وصبري في الفقر. قلت: مُنْكَر ونكير حق؟ قال: إي والله الذي لا إلٰه إلا هو، لقد أَقْعَداني وسَأَلاني مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينك، وما نبيك؟ فجعلت أَنْفُضُ لِحْيَتي البيضاءَ من التراب، وقلت: مِثْلي يُسأل؟ أنا يزيد بن هارون الواسِطيُّ، كنت في دار الدنيا سِتِّينَ سنة أُعَلِّمُ الناسَ؟ فقال أحدهما: صَدَقَ، هو يزيد بن هارون، نَمْ نَوْمةَ العروسِ، فلا روعة عليك بعد اليوم.

وقال المَرُّوْذِيُّ: رأيت أحمد بن حنبل في النوم في رَوْضةٍ، وعليه حُلَّتان خَضْراوان، وعلىٰ رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشي مِشْية لم أَكُنْ أعرفها له. فقلت: يا أحمد! ما هٰذه المشية التي لم أكن أَعْهَدُها لك؟ فقال: هٰذه مشية

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).

(٢) رواه بنحوه أحمد (٢٤٢٧٥) عن عائشة. وهو في «صحيح الجامع» (٢١٨٠)، و«الصحيحة» (١٦٩٥).

الخُدّام في دار السلام. فقلت: وما هٰذا التاج الذي أراه علىٰ رأسك؟ فقال: إن ربي ﷻ أَوْقَفَني وحاسبني ﴿حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق] وكَساني وحَبَاني[١] وقَرَّبَني، وأنا أنظر إليه، وتَوَّجَني بهٰذا التاج وقال لي: يا أحمد! هذا تاج الوَقار تَوَّجْتُكَ به، كما قلت: القرآن كلامي غير مخلوق.

فصل في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار

قد أَشَرْنا إلىٰ أهوال القبر، وأشدُّ من ذٰلك نَفْخُ الصورِ والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط، وهٰذه أهوالٌ يجب الإيمان بها، وينبغي تطويل الفكر فيها، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة. ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعاً يصنع من هٰذه النطفةِ القَذِرةِ مثل هٰذا الآدَميِّ المُتَصَوِّرِ العاقل المتكلم، لاشْتَدّ نفور طبعه عن التصديق بذٰلك، فخَلْقُه علىٰ ما فيه من الأعاجيب، يزيد علىٰ بعثه وإعادته. وكيف يُنكِر ذٰلك ـ من قدرة الله تعالىٰ وحكمته ـ من يشاهد البداية؟ فإن كان في إيمانك ضعف، فَقَوِّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولىٰ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قَوِيَّ الإيمان بها، فأَشْعِرْ قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأَكْثِرْ فيها التفكُّرَ والاعتبار، ولْيَحُثَّكَ ذٰلك علىٰ الجد والتشمير.

وأول ما يَقْرَعُ أسماع الموتىٰ صوت إسرافيل حين ينفخ ذٰلك في الصُّورِ[٢]. فصَوِّرْ نفسك وقد قمت ذاهِلاً مبهوتاً شاخِصاً[٣] نحو النداء. قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[٤] ۝٥١﴾ [يس].

---

(١) أي: أعطاني.
(٢) شيء كالقرن ينفخ فيه.
(٣) أي: فتح عينيه ولم يَطرِف بهما مُتأمِّلاً أو منزعجاً.
(٤) أي: يُسرعون. والأجداث: القبور.

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«كيف أَنعَمُ وصاحب الصُّور قد حَنىٰ جبهته، وأصغىٰ بسمعه، ينتظر أن يُؤمر أن يَنفُخ ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣...] **فيَنفخ؟!»**. قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا** ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] **وتوكّلنا على الله**»[١].

ثم ٱنظُرْ كيف يُحْشَر الناس يوم القيامة، فيُساقون[٢] بعد البعث حُفاةً عُراة إلىٰ أرض المَحْشَر، وهي قاع ليس فيها ربوة[٣] يختفي الإنسان بَفنائها.

وفي «الصحيحين» قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

«يُحْشَر الناس يوم القيامة علىٰ أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ[٤] كقُرْصةِ النَّقيِّ[٥]».

ثم تَفكَّرْ في ٱزدحام الناس، وقُرْبِ الشمس من رؤوسهم، وشِدّة العَرَق، مع ما في القلوب من القلق.

وفي الحديث أن العرق يأخذ الناس «**علىٰ قدر أعمالهم**»[٦].

وتَفكَّرْ يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روي عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال:

---

(١) رواه أحمد (١١٦٨٢). وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٨٠/ ٢٤٣١ و٢٥٨٥/ ٣٢٤٣).

(٢) السَّوْق: الحث من الخلف علىٰ السَّيْر.

(٣) هي: ما ٱرتفع من الأرض.

(٤) هي: الأرض البيضاء لم توطَأ.

(٥) أي: الخبز الأبيض، ويقصد بها هنا أنها الأرض الجيدة.
والحديث رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٩٧٣/ ٢٤٢١)] عن المقداد. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٦٧٩).

«يُعرَض الناس يوم القيامة ثلاث عَرَضات: فأما عرضتان، فجِدال ومَعاذير، وأما الثالثة فعند ذٰلك تَطايُرَ الصُّحُف، فآخِذٌ بيمينه وآخذ بشماله»(١).

وعن أبي بَرْزة(٢) ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«لا تزول قدما عَبْدٍ حتىٰ يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عِلْمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، [وعن جسمه فيما أبلاه]»**(٣).

وعن صفوان بن مُحْرز قال: كنت آخِذاً بيد ابن عمر ﷺ، إذْ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجوىٰ(٤) يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله عز وجل يُدْني المؤمن، فيضع عليه كَنَفه(٥) ويستره من الناس، ويُقَرِّره(٦) بذنوبه، ويقول: أتعرف ذَنْب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتىٰ إذا قرره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه قد هَلك قال: فإني قد سَترْتُها عليك في الدنيا، وأنا أَغْفِرها لك اليوم»** قال: **«ثم يُعطىٰ كتاب حسناته»**(٧). =

= وأما الكفار والمنافقون فـ ﴿ يَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود] =

---

(١) أخرجه الترمذي [«ضعيفه» (٤٢٦/ ٢٤٢٥)]، وابن ماجه [«ضعيفه» (٩٣٢/ ٤٢٧٧)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٦٤٣٢)، و«المشكاة» (٥٥٥٧ و٥٥٥٨).

(٢) في الأصل أبو بردة، وهو خطأ. وإنما هو: أبو برزة الأَسْلميُّ.

(٣) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (١٩٧٠/ ٢٤١٧)، وكذا (١٩٦٩/ ٢٤١٦)] عن ابن مسعود. وهو في «الصحيحة» (٩٤٦).

(٤) يريد: مناجاة وخطاب الله للعبد يوم القيامة.

(٥) الكَنَف: الناحية والجانب.

(٦) أي: يحمله علىٰ الاعتراف بها.

(٧) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٨٩٤).

= أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال:

«يُضرب جِسْر علىٰ جهنم فأكون أول من يَجُوزُ»[١].

وفيهما أيضاً، عن النبيّ ﷺ قال: **«يُؤتىٰ بالجسر فيجعل بين ظَهْرَيْ جهنم»**. قالوا: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال: **«مَدْحَضة[٢] مَزِلّة[٣]، عليها خطاطيف[٤] وكلاليب[٤] وحَسَك[٥]، يمر المؤمنون عليه كالطَّرْفِ، وكالبَرْقِ الخاطِف، وكالريح، وكأَجاويد الخيل والركاب، فَـ: نَاجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مخدوشٌ، حتىٰ يمر آخرهم يُسْحَب سحباً»**[٦].

ذكر جهنم أعاذنا الله منها

عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: كنا عند النبيّ ﷺ يوماً، فسمعنا وجبة. فقال النبيّ ﷺ **«أتدرون ما هٰذا؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **«هٰذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهىٰ إلىٰ قعرها»**[٧]. رواه مسلم.

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من مسند أبي هريرة، وإقرار أبي سعيد له، لكنه بلفظ: «**الصراط**» بدل كلمة: «**الجسر**» فهي من الحديث الذي بعده وسيأتي في الصفحة (٥١٦) حاشية (٢) وهو قطعة منه. وينظر شرح «الإحياء» ٢/ ٢٢٠، و«تفسير القرطبي» ٦/١١.

(٢) أي: ذات دَحْض، أي: زَلَق.

(٣) من زَلَّ إذا زَلِقَ؛ أراد أنه تَزلَق عليه الأقدام ولا تثبت.

(٤) جمع خُطّاف وكُلاّب، وهما: حديد مُعْوَجّة الرأس يُنْشَل بها الشيء أو يُعلَّق.

(٥) الحسك: نبات له ثمرة خشنة شوكية قاسية. والحسك من الحديد: ما يُعمل علىٰ مثال الحسك؛ كان يلقىٰ حول العسكر ويُبث في مذاهب وطرق الخيل فينشب في حوافرها.

(٦) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٧) هو عند مسلم (٢٨٤٤). وهو في «صحيح الجامع» (٦٩٩٣).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ناركم هٰذه ما يوقد بنو آدم جزءٌ واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم»**. قالوا: والله إنْ كانت لَكافيةً يا رسول الله. قال: **«فإنها فُضِّلتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مِثْل حَرِّها»**[١].

وفي أفراد مسلم، من حديث ٱبن مسعود ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: **«يُؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زِمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَكٍ يَجُرُّونَها»**[٢].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: يُلقىٰ على أهل النار الجوع، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب، فيَستغيثون بالطعام، فيُغاثون بال ﴿ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية] (فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي ﴿غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣] فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغُصّة بالشراب) فيَستغيثون بالشراب فيُغاثون بالحميم، ينالونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شَوىٰ وجوههم، وإذا دخل بطونهم، قَطع ما في بطونهم، فيَطلبون إلىٰ خَزَنة ﴿جَهَنَّمَ﴾ أنِ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فيجيبونهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر] فيقولون: سلوا مالِكاً، فيقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف] فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنون] فيقول عز وجل: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون] فعند ذٰلك ييأسون من كل خير، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).
(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٠٨٢/ ٢٥٧٣)].
(٣) أي: الهَلاك.

وتَفَكَّرْ في حيَّاتها وعقاربها، ففي الحديث: (إن حيَّاتها أمثال أعناق البُخْتِ[١]، وعقاربها كالبغال الموكفة)[٢]،

وعن الحسن: أن النار تأكلهم سبعين ألف مرة، ثم يعودون كما كانوا.

وٱعلم أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذٰلك ينبغي أن يكفي في التخويف، فإن كنت مؤمناً بهٰذا فٱنتبهْ لنفسك، وخَفْ ما بين يديك، فإن الله لا يجمع علىٰ عَبْدٍ خَوْفَين، ولسنا نعني بالخوف رِقَّة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصي، ويَحُثّ علىٰ الطاعة. فأما خوف الحَمقىٰ الذين ٱقتصروا علىٰ سماع الأهوال. وأن يقولوا: ٱسْتَعَنّا بالله، نعوذ بالله، يا رب سَلِّمْ، وَهُمْ مع ذٰلك مُصِرّون علىٰ القبائح، والشيطان يَسخر بهم كما يُسْخَر ممن قَصَدَه سَبُعٌ ضارٍ وهو إلىٰ جانب حصن، فيقول: أعوذ بالله من هٰذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

فصل

وكن في الدنيا محباً لرسول الله ﷺ، حريصاً علىٰ تعظيم سُنّته، لعله يشفع فيك في الآخرة، فإن له شفاعة يتقدم فيها علىٰ الأنبياء كلهم، ويَسأل الله في أهل الكبائر من أمته فيُنجيهم. وٱسْتَكْثِرْ من الإخوان الصالحين، فلكل مؤمن شفاعة، ولا تَحْمِلَنَّك العزة علىٰ التواني وتسمي ذٰلك رجاء، فإن من رجا شيئاً طلبه. وٱحْتَرِزْ من المظالم، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل رَدِّها، فإن غُرَماءه يحيطون به في القيامة، فهٰذا يقول: ظلمني، وهٰذا يقول: ٱستهزأ بي، وهٰذا يقول: أساء جِواري، وهٰذا يقول: غَشَّني، فلا خلاص لك من أيديهم. فإذا تَوَهَّمْتَ الخلاص قيل: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

---

(١) هي: نوع من الإبل طويلة الأعناق مشهورة في عُمان ومسقط.

(٢) رواه أحمد (١٧٦٨١) عن ابن جَزْء الزُّبَيديّ. وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف لاختلاطه.

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخْلُص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيُحْبَسون علىٰ قنطرة بين الجنة والنار، فيُقْتَصّ لبعضهم من بعضٍ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتىٰ إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة**»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس فيكم؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هٰذا، وقذف هٰذا، وأكل مال هٰذا، وسفك دم هٰذا، وضرب هٰذا.**

فيقضي هٰذا من حسناته، وهٰذا من حسناته، فإن فَنيتْ حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرِح عليه، ثم طُرِح في النار»[2]. =

= وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لَتُؤَدّنَّ الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة، حتىٰ يُقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء**»[3].

= وهٰذه الأحاديث كلها في «الصحاح».

فٱنظر وَفّقك الله إلىٰ بُعْدِ سلامة حسناتك لِدُخول ما يُبْطِلها من الرياء والغِيبة، فإن سَلِمتْ أَخَذها الخصوم، فَتَيَقّظْ لنفسك، ولا تُفَرِّطْ في أوقاتك، فإنَّ المسكين مَنْ آثَر لذّةً مُتَقَطِّعةً، وٱشترىٰ بها عذاباً دائماً. نسأل الله السلامة والتوفيق.

ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله

عن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله! حَدِّثْنا عن الجنة، ما بناؤها؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٩٧١/٢٤١٨)]. وهو في «الصحيحة» (٨٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٩٧٢/٢٤٢٠)]. وهو في «الصحيحة» (١٥٨٨). و(الجماء): التي لا قرن لها.

قال: «**لَبِنة من ذهب، ولبنة من فضة، ومِلاطُها[١] المِسْك الأذْفَرُ[٢]، وحَصْباؤها[٣] اللؤلؤ والياقوت، وتُرابها الزعفران، مَنْ يَدخلها يُنَعَّمْ ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تَبلىٰ ثيابُه، ولا يَفنىٰ شبابُه**»[٤].

وفي حديث أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ أنه قال يوماً وذكر الجنة: «**ألا مُشَمِّر لها؟ هي وربِّ الكعبة ريحانة تَهتَزّ، ونور يتلألأ، ونهر مُطَّرِد[٥]، وزوجة لا تموت، في حُبور[٦] ونعيم، ومقام في أبد**». فقالوا: نحن المُشَمِّرون لها يا رسول الله، قال: «**قولوا: إن شاء الله**»[٧].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: «**إن الله ﷻ قال: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر**»[٨].

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول زمرة يدخلون الجنة علىٰ صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم علىٰ أشدِّ كوكب دُرِّيٍّ[٩] في السماء إضاءةً، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يَتفُلون ولا يَتمخّطون، أمشاطهمُ الذهب،**

---

(١) المِلاط، هو: الطين يُجعَل بين كل لَبِنتين أو آجرتين أو حجرين في البناء.

(٢) ذَفِر الشيءُ: اشتدت رائحته، طيّبة كانت أو خبيثة. فالمسك الأذفر هو الجيّد إلىٰ الغاية.

(٣) الحصباء: صغار الحجارة.

(٤) أخرجه أحمد (٩٧٢٤) عن أبي هريرة. وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٥٠/ ٢٥٢٦) و«ضعيف سنن الترمذي» (٤٥٤/ ٢٥٢٦).

(٥) أطّرد النهر: تتابع جريان مائه.

(٦) هو: النعْمة وسَعَةُ العيش.

(٧) «ضعيف سنن ابن ماجه» (٩٤٦/ ٤٣٣٢).

(٨) أخرجه البخاري (٤٧٧٩-٤٧٨٠) (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٩) هو: الكوكب المتلألئ الضوء.

وريحهمُ المِسْكُ، ومجامرهم الأُلُوَّة الألنجوج(١)**، أزواجهم الحُورُ**(٢) **العِينُ**(٣)**، علىٰ خَلْق رجل واحد، علىٰ صورة أبيهم آدم، ستون ذِراعاً في السماء»**. وفي رواية أخرىٰ: «**لكل واحد منهم زوجتان، يرىٰ مُخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا ٱختلاف بينهم ولا تَباغُضَ، قلوبهم علىٰ قلب واحد، يُسَبِّحون الله بكرة وعشياً**»(٤).

وعن أبي موسىٰ الأشعريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلىٰ ربهم إلا رداء الكبرياء علىٰ وجهه في جنة عدن**»(٥) أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما من حديث أبي موسىٰ أيضاً عن النبي ﷺ قال:

«**إن في الجنة لَخيمةً مِنْ دُرَّةٍ**(٦) **مُجَوَّفةٍ، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يَرَوْنَ الآخرين، يطوف عليهِمُ المؤمن**»(٧).

وٱعلم أن الله ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن، ثم جمعه في آيات. منها قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف] ثم زاد علىٰ ذٰلك بقوله:

---

(١) الأُلُوّة، هو الألنجوج، وهو: شجر له عود إذا أحرق سطعت له رائحة جميلة ويُسمىٰ أيضاً العود الهندي أو النّدّ.

(٢) جمع حَوْراء، وهي: الشديدة بياض العين الشديدة سوادها.

(٣) جمع عَيْناء، وهي: الواسعة العين.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٤٦)، ومسلم (٢٨٣٤). وهو في «الصحيحة» (١٧٣٦)، و«المشكاة» (٥٦٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣١٠١).

(٦) هي: اللؤلؤة العظيمة الكبيرة.

(٧) هو عند البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وصفات الجنة كثيرةٌ ٱقْتَصرْنا منها علىٰ هٰذا.

وأفضل ما يُنالُ في الجنة رؤية الله تعالىٰ.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قيل: يا رسول الله! هل نرىٰ ربنا؟ فقال: **«فهل تضامُّون[1] في القمر ليلة البدر ليس دون سحاب؟ قالوا: لا قال: فإنكم تَرَوْنَه يوم القيامة كذٰلك»**[2].

باب في ذكر سَعَةِ رحمة الله تعالى

نَخْتِمُ الكتاب بذكر سَعَةِ رحمة الله ﷻ، نرجو بذٰلك فضله، إذْ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لٰكن نرجو ذٰلك من رحمته وكرمه. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما قضىٰ الله ﷻ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»**[3] أخرجاه في «الصحيحين».

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال:

«إن لله ﷻ مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهَوَامِّ والبهائم. فَبِها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تَعطِف الوحش علىٰ أولادها، وأخَّرَ تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[4]. =

---

(١) يُروىٰ بالتشديد والتخفيف، فالتشديد معناه: لا تنضمّ بعضكم إلىٰ بعض وتزدحمون وقت النظر إليه. ومعنىٰ التخفيف: لا ينالكم ضَيْمٌ - أي: ظلم - في رؤيته؛ فيراه بعضكم دون بعض.

(٢) سلف تخريجه في الصفحة (٥١٠) حاشية (١).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٤) هو عند مسلم (٢٧٥٢)، وابن ماجه في «صحيحه» (٣٤٦٥/ ٤٢٩٣)، وبنحوه عند البخاري (٦٠٠٠). وهو في «صحيح الجامع» (٢١٧٢).

= وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«إن ربكم تبارك وتعالىٰ رحيم، مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبتْ له حسنةٌ، فإنْ عَمِلها كُتبتْ له عَشْرُ حسنات إلىٰ سبعِمِئة ضِعْفٍ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنةٌ، فإن عملها كتبت له سيئةٌ واحدة أو يمحوها الله. ولا يَهلِكُ علىٰ الله تعالىٰ إلا هالِكٌ»[1]. =

= وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«يقول الله ﷻ: من عمل حسنة فله عشرُ أمثالها وأَزيدُ. ومَنْ عَملَ سيئة، فـ ﴿جَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ . . . مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أو أَغفِرُ. ومَن اقتَربَ إليّ شِبْراً اقْتَرَبْتُ إليه ذِراعاً، ومَن اقتربَ إليّ ذراعاً اقتربتُ إليه بَاعاً، ومن أتاني يمشي أتيتُه هَرْولةً»[2]. =

= وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

«إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أَيْ رب! أذنبتُ ذنباً فاغفر لي، فقال تبارك وتعالىٰ: (عَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غَفرتُ لعبدي). ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملتُ ذنباً فاغفِرْه لي، فقال ﷻ: (علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي). ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، أُشهِدُكم أني قد غفرت لعبدي، فلْيَعملْ ما شاء»[3]. =

---

(١) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٤٥١) حاشية (٣).

(٢) هو في مسلم (٢٦٨٧).

قال محقق «صحيح مسلم»: إن التضعيف بعشرة أمثالها لا بد منه بفضل الله ورحمته ووعده الذي لا يخلف، والزيادة بعدُ بكثرة التضعيف إلىٰ سبعمئة ضعف، وإلىٰ أضعاف كثيرة، يحصل لبعض الناس دون بعض علىٰ حسب مشيئته سبحانه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، وأحمد (٧٩٣٠ و ٩٢٢٩).

= هٰذه الأحاديث كلها صحاح .

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قُدِمَ علىٰ رسول الله ﷺ بِسَبْي[1]، وإذا آمرأة من السَّبْيِ تَسعىٰ، إذْ وَجدتْ صبيّاً في السَّبْي فأخذته، فألصَقَتْهُ ببطنها، فأرضعَتْهُ فقال رسول الله ﷺ: **«أتَرَوْنَ هٰذه المرأة طارِحَةً وَلَدَها في النار؟»** قلنا: لا والله. قال: **«لله أرْحَمُ بعباده مِنْ هٰذه المرأة بولدها»**[2].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذَرٍّ ﷺ، عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«ما من عبد قال: لا إلٰه إلا الله، ثم مات علىٰ ذٰلك إلا دَخل الجنة»**. قلتُ: وإنْ زنىٰ وإنْ سَرق؟ قال:

«وإن زنىٰ وإن سرق، وإن زنىٰ وإن سرق، وإن زنىٰ وإن سرق» ثم قال في الرابعة: **«علىٰ رَغمِ أنَفِ أبي ذَرٍّ»**[3].

وفيها من حديث عِتْبان بن مالك ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إن الله حَرّم النار علىٰ من قال: لا إلٰه إلا الله، يَبتغي بذٰلك وَجهَ الله»**[4].

وفيهما من حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

«يَخرجُ من النار من قال: لا إلٰه إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ شَعيرةً، ثم يخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير وَزْنَ بُرَّةً، ثم يخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ ذَرَّةً»[5].

---

(١) هم: المأسورون.
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤). وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٣٣).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٣)، ومسلم (٣٣) بنحوه.
(٥) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

وعن أبي موسىٰ ﷺ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أُتي بيهودي أو نصراني حتىٰ يُدفعَ إليه فيقال له: هٰذا فداؤك من النار»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ﷻ يستخلص رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيَنْشُرُ عليه تسعاً وتسعين سِجِلاً، كلُّ سِجِلٍ منها مَدَّ البصرِ ثم يقول: أتُنْكِرُ من هٰذا شيئاً؟ أَظَلَمك كَتَبَتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: أَلك عذر أو حسنة؟ فيُبْهَتُ الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلىٰ، لك عندنا حسنةً واحدة، لا ظُلْمَ عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضَر وَزْنَكَ. فيقول: ما هٰذه البطاقة مع هٰذه السِّجلَّات؟!، فيقال: إنك لا تُظلم. فتوضع السجلات في كِفّة، والبطاقة في كِفّة»**. قال: **«فطاشتِ السجلات وثَقُلَتِ البطاقة، ولا يَثقل شيء مع اسم الله ﷻ»**[٢].

ونظر الفُضَيل بن عياض إلىٰ تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هٰؤلاء صاروا إلىٰ رجل يسألونه دانِقاً[٣]، أكان يَرُدُّهم؟ فقيل: لا. فقال: والله؛ المغفرة عند الله ﷻ أَهْوَنُ من إجابةِ رجلٍ لهم بدانِقٍ.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خَلا ليَ الطواف في ليلة مُظْلِمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلىٰ السَّحَرِ، ثم رفعت يدي إلىٰ السماء. فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكلُّ خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فَعَلىٰ من أتفضّل؟

فهٰذه الأحاديث مع ما ذكرناه[٤] في (كتاب: الرجاء)، تُبَشِّرنا بكرم الله تعالىٰ

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (٢٧٦٧). وهو في «الصحيحة» (٩٥٩ و١٣٨١).

(٢) هو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٦٩/ ٤٣٠٠).

(٣) الدانق: سدس الدرهم.

(٤) هنا انتهت المخطوطة الثالثة.

وسَعَةِ رحمته وجُودِه، ونحن نرجو من الله سبحانه ألاّ يُعامِلَنا بما نَسْتَحِقُّه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله ﷻ من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كلِّ تَصَنُّعٍ تَزَيَّنَّا به للناس، وكلّ علم وعمل قصدْناه، ثم خالطه ما يُكَدِّره، فبِكرمِه نستشفع إلىٰ كَرَمِه، وبِجُودِه نسأل مِن جُوده، إنه ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود].

«﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام. الصافات: ١٨٢] **حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. . . كما يحب ربنا ويرضىٰ**»(١). وكما ينبغي لكريم وجهه ﷻ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين.

---

(١) من أذكار الاعتدال من الركوع. وقد رواه البخاري وغيره من حديث رِفاعة، وهو في «صفة صلاة النبي ﷺ» و«الإرواء» (٣٠٧) وهما طبع المكتب الإسلامي.

والحمد لله رب العالمين.
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وقد امتن الله عليّ بإعادة النظر فيه للمرة الأخيرة مغرب يوم الاثنين الرابع من صفر سنة ١٤٢١ = ٨/ ٥/ ٢٠٠٠.

والله أسأل أن ينفع به، كما نفع فيما قدمنا من كتب العلم. وأن لا يحرمنا الثواب والأجر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بيروت.

زهير الشاويش

فهرس الأحاديث

ا

ح

خ

د ــ ذ

ف

ق

كان الشمائل الشريفة

م

ن

ي

فهرس الموضوعات على حروف المعجم

فهرس الأشعار

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

ربع العادات

ربع المهلكات

ربع المنجيات